

القسم الأول

# الجزيرة العربية



## الفصل الأول

### السياسة والمجتمع

١

#### أقاليم ودول وإمارات

تتعدد الأقاليم في الجزيرة العربية لانساع رقعتها ، ففي الغرب إقليم الحجاز بمدنه وسلسلة جباله المسماة بالسراة الممتدة من الشمال إلى الجنوب ، مشرفة غرباً على منطقة ساحلية رملية ضيقة ، هي تهامة التي تفصل بينها وبين بحر القلزم (البحر الأحمر) ومشرفة شرقاً على هضبة نجد الفسيحة التي تظل تنحدر نحو الشرق ، حتى تصاقب أرض العروض : اليمامة والبحرين ، وتظل تنبطح شمالاً في إقليم القصيم حتى جبال أجا وسلمى ، وتلتقي بصحراء النفود الممتدة من تيماء إلى الشرق ، حتى إذا قربت من العراق بسطت ذراعاً لها نحو الجنوب تسمى الدهناء أو رملة عالج . وتستدير حول اليمامة منبطقة في الربيع الخالي ، وهو صحراء مجدبة تفصل بين اليمامة ونجد من جهة وبين حضرموت وظفار وعمان من جهة ثانية ، وما تلبث أن تتصل بصحراء الأحقاف التي تفصل بين اليمن وبين نجد والحجاز . وتستقل اليمن بالزاوية الجنوبية الغربية من الجزيرة ، وتتوسط حضرموت ومعها ظفار بينها وبين عمان التي تشرف على المحيط الهندي من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وكانت تشمل قديماً طائفة من الإمارات القائمة الآن على الخليج ، وهي رأس الخيمة والشارقة ودبي وأبو ظبي . وشمالاً هذه الإمارات البحرين ، وكانت تشمل إمارة قطر الحالية وإمارة الكويت الحديثة ، وكذلك الأحساء . والأقاليم الأساسية في الجزيرة العربية لهذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث هي الحجاز ونجد واليمن وحضرموت وعمان والبحرين ، وسنخصص كل إقليم بطرف من الحديث عن دوله وإماراته .

الحجاز<sup>(١)</sup> وإماراته

كانت في الحجاز لهذا العصر إمارتان : إمارة مكة وكانت تتبعها قرى الطائف وجدة و بطن نَحْلٍ وَعُسْفَانَ ومُرَّ الظَّهْرَان . وإمارة المدينة وكانت تتبعها قرى خَيْبَر وفَدَك وَيَسْبَع والقرع ووادي القُرَى ومَدِين . وكانت إمارة مكة للحسينيين من أحفاد الحسن بن علي بن أبي طالب في حين كانت إمارة المدينة للحسينيين من أحفاد الحسين بن علي بن أبي طالب . وكان الأولون يعتقدون المذهب الزيدي الشيعي ، بينما كان الثانون يعتقدون المذهب الإسماعيلي على الأقل في عصر الدولة الفاطمية . وكان لإمارة مكة المكناة الأولى ، إذ كان المسلمون - ولا يزالون - يؤمنونها سنويا من بقاع الأرض قاصيها ودانيها لأداء فريضة الحج ، وكان من يدعى له من الخلفاء على منابرها سواء الخلفاء العباسيون أو الفاطميون يعد نفسه خليفة المسلمين قاطبة .

وأول أسرة حسنية حكمت مكة هذا العصر هي أسرة بني سليمان أو بنى موسى ، وكان أول من حكمها منهم جعفر بن محمد بن الحسين لسنة ٣٥٦ فقد غلب عليها عقب وفاة كافور الإخشيدى ، وراسله الخليفة المعز الفاطمي كي يقيم باسمه الخطبة في موسم الحج ، فأبى ، مما جعله يجهز له عسكرياً لخرابه سنة ٣٦٠ وساعد العسكر بنو الحسين أمراء المدينة ، واستولوا على مكة فترة قليلة عادت بعدها إلى جعفر . وتولى بعده ابنه عيسى سنة ٣٧٠ فأذعن للعزير الفاطمي ، وأقام الخطبة باسمه ، وظلت تقام باسم الفاطميين مدة متطاولة ، وكانوا يرسلون لمكة وأميرها بالميرة ، ومضت تدين لهم بالنولاء بعد وفاة عيسى وولاية أخيه أبي الفتوح الحسن بن جعفر سنة ٣٨٤ وهو أهم أمراء الأسرة ، وقد حاول أتباع الحاكم بأمر الله الخليفة الفاطمي أن يحمّلوه على أن يقرأ سجلا في المسجد الحرام بالبراءة من أبي بكر وعمر وسب بعض الصحابة وبعض أزواج الرسول ﷺ ، فرفض ذلك وقطع

(١) انظر في أمراء مكة والمدينة تزيخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والقاسي في كتاب: شفاء العرام بأخبار البلد الحرام (طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (طبعة القاهرة) وصح الأعشى لقفقشدي في مواضع متفرقة والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان لياقوت في مكة والمدينة ووفاء العربية - طبع القاهرة)

(١) انظر في أمراء مكة والمدينة تزيخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون (طبعة بولاق) الجزء الرابع والقاسي في كتاب: شفاء العرام بأخبار البلد الحرام (طبعة دار إحياء الكتب العربية بالقاهرة) والعقد الثمين في تاريخ البلد الأمين (طبعة القاهرة) وصح الأعشى لقفقشدي في مواضع متفرقة والدرر الكامنة في أعيان المائة الثامنة لابن حجر والنجوم الزاهرة لابن تغرى بردى (طبعة دار الكتب المصرية) ومعجم البلدان لياقوت في مكة والمدينة ووفاء

صلته بمصر . ودفعه - فيما بعد - أبو القاسم المغربي حين فر من مصر على أن يطلب الخلافة لنفسه ، فخطب باسمه ، وتلقب بالراشد بالله ، وسار إلى مدينة الرملة بفلسطين ، وعاهده أميرها وأمير طيبى حسان بن مقرج على نصرته . وعلم بذلك الحاكم فأرسل إلى ابن مقرج بالأموال ، فنفض يده من أبي الفتوح وأسلمه إلى المصريين . وقر أبو القاسم المغربي إلى العراق . واضطر أبو الفتوح أن يعلن طاعته للحاكم ، فعفا عنه وعاد إلى إمارته . وحدث بعد عودته في سنة ٤١٣ أن ضرب رجل من شيعة الفاطميين في أثناء الحج الحجر الأسود بدبوس ، فصدعه وهو يقول : إلى متى تُعبدُ ؟ إلى كم تُقيل ؟ وبادر الناس إليه فقتلوه هو ونفراً من أصحابه . وما زال أبو الفتوح يلى مكة حتى سنة ٤٣٠ وخلفه ابنه شكر على إمارته ، وأضاف إليها المدينة لمدة ثلاث وعشرين سنة كان يجمع فيها بين الحرمين إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وكان فارساً وأديباً شاعراً ، وله قصة تروىها كتب التاريخ عن زواجه من حارية هلالية تسمى الجازية ، وهي نواة قصص أبي زيد الهلالي . وبشكر انقضت سلطته وحكمها في مكة إذ لم يعقب ولداً ، وصار أمرها بعده إلى عبده ، غير أن فرعاً من الأسرة الحسينية من بنى هاشم أو الهواشم تغلب على هذا العبد واضطر بنى سليمان إلى الهجرة من مكة إلى شمالي اليمن ، فأسسوا لهم إمارة هناك في الخلف السليمانى المنسوب إليهم . وكان أحد الهاشميين ، وهو محمد بن جعفر قد تولى أمر مكة بمساعدة الصليحي أمير اليمن سنة ٤٥٤ ويقول المؤرخون إنه كان تارة يجعل الخطبة في الموسم باسم الخلفاء الفاطميين وتارة باسم الخلفاء العباسيين ، تبعاً لما كان يُغدق عليه من أموال وفيرة من بغداد أو القاهرة ، إذ كان كل من الجانبين يكثر من إرسال الميرة والأموال إليه . واستطاع أن يجمع في ظل حكمه الحرمين وأن تكون له الإمارة على مكة والمدينة وقراها ، وبذلك اجتمع له الحجاز . وولى بعده ابنه القاسم سنة ٤٨٧ حتى سنة ٥١٨ وكانت الخطبة في عهده تارة تكون باسم الفاطميين ، وتارة باسم العباسيين . ويخلفه ابنه أبو فليته ، فيجعل الخطبة باسم العباسيين حتى وفاته سنة ٥٢٧ . واتصلت الخطبة باسم بنى العباس في عهد ابنه القاسم حتى قُتل سنة ٥٥٦ . وخلفه ابنه عيسى ، وفي عهده انتهت دولة الفاطميين وحكم مصر صلاح الدين واستولى على الحجاز ومدينتيه : مكة والمدينة ، ثم استولى على اليمن . وبظل أبناء عيسى بلون مكة ، فيخلفه ابنه داود سنة ٥٧٠ وفي عهده يبطل صلاح الدين المكوس التي كانت تؤخذ من الحجاج بجدة ، ويعوّضه عنها في كل سنة ثمانية آلاف أردب قحاً ، ويرسل صلاح الدين مثل ذلك إلى أهل الحرمين . ويدخل سيف الدين طغتكين الأيوبي مكة سنة ٥٨٢ ويبطل فيها الأذان بحى على خير العمل ، عملاً بأذان أهل السنة أو الجماعة .

ويخلف داود أخوه مكثرت سنة ٥٨٤ ثم ابن أخيه المنصور بن داود . ومنه انتزع مكة قتادة الحسيني سنة ٥٩٧ وظلت إمارتها في أبنائه إلى العصر الحديث .

وقد استطاع قتادة أن يضم تحت جناح إمارته المدينة والحجاز جميعه ، وكان يخطف للسلطان العادل بن أيوب بعد الخليفة الناصر ، وللكامل بن العادل سلطان مصر بعد أبيه ، وكان يؤذن في الحرم بحج على خير العمل على قاعدة الإسماعيلية كما يقول صاحب النجوم الزاهرة ، وأيضاً على قاعدة الزيدية من آبائه . وخلفه ابنه الحسن سنة ٦١٧ ونشبت الحرب بينه وبين مسعود الأيوبي أمير اليمن سنة ٦٢٠ واستولى منه مسعود على مكة والحجاز ، وولّى عليهما على بن رسول ثم طغتكين التركي . وعادت مكة إلى بني قتادة ، ووليها راجح ابن قتادة سنة ٦٢٦ وظلت تنتقل بينه وبين أخيه على وجاز ابن أخيه الحسن ثم ابنه راجح حتى سنة ٦٥٢ . وفي كل هذه الفترة كان أمراء مكة يولّون من قبل العباسيين حتى انقراض دولتهم سنة ٦٥٦ . وكانت مصر بعد ذلك في عهد السلاطين المماليك هي التي توليهم ، وكانوا يعيّنون بحكمتهم حكماً لحماية الحجاج وتنفيذ الأوامر السلطانية . ومن أهم أمراء الأسرة أبو نؤمى الأول الذي ولي مكة سنة ٦٥٢ وثبته عليها السلطان بيبرس ، وظل يلى شئونها خمسين عاماً ، ويقول صاحب النجوم الزاهرة : كان يقال لولا أنه زيدى النحلة لصلح للخلافة لحسن صفاته . وروى له الفاسي بترجمته في كتابه العقد الثمين يمينا أقسمه للسلطان قلاوون صاحب مصر أشبه بعهد موثق : أن يحمي الحجاج ويؤمنهم ، وأن يظل على طاعته وطاعة ابنه الصالح . وكان شاعراً جواداً ، ومدحه شعراء كثيرون في مقدمتهم الحنديدي . ويخلفه في سنة ٧٠١ ولداه : رميثة وعطيفة ، ويرسل السلطان الناصر بن قلاوون إلى مكة في سنة ٧٠٢ عشرة آلاف أردب قحاً تفرّق في أهلها . ويستقل رميثة بمكة سنة ٧١٥ ويُقبض عليه في سنة ٧١٨ ويرسل إلى مصر ، ويتولّاها أخوه حميصة . وتردّ مكة إلى رميثة . ويبلغ الناصر في سنة ٧٣١ أنه يجهر بمذهب الزيدية ، فينكر ذلك عليه ، ويرسل إليه عسكرياً . ويحج السلطان سنة ٧٣٢ ويأمر بأن يشترك معه أخوه عطيفة في الإمارة ، حتى إذا كانت سنة ٧٣٨ انفرد بها ثانية رميثة حتى سنة ٧٤٤ إذ ترك الإمارة لولديه : قبة وعجلان . ويتوفى سنة ٧٤٦ ويتأمّر الأخوان على مكة ، ويجعلها المصريون لعجلان إذ كان نقبة يعلن نصرته لمذهب الزيدية وأقام له خطيباً زيدياً يخاطب الناس أيام الحج ، وقبض عليه المصريون ولكنه فر من سجنهم ، وعاد إلى شغبه مع أخيه عجلان حتى توفي سنة ٧٦٢ فخلص الأمر لعجلان . وكان بخلاف آبائه يجب أهل السنة ، وينصرهم على الشيعة الزيدية وغيرهم ، وكانت مصر ترسل إليه بالميرة وبالحمّل على العادة . وكان

ممدحاً ، مدحه النُشو شاعر مكة وغيره ، وأشرك معه ابنه أحمد في الحكم ، وما زال يلى الإمارة حتى توفي سنة ٧٧٧ وخلفه ابنه أحمد حتى توفي سنة ٧٨٨ . ووليها بعده أخوه على وشركه في الإمارة أخوه مغامس لمدة ستين ، وما زال عليها حتى توفي سنة ٧٩٧ فخلفه أخوه الحسن حتى وفاته سنة ٨٢٩ . ويتولاها بعده ابنه بركات حتى سنة ٨٥٩ ويخلفه ابنه محمد حتى سنة ٩٠٣ فتصير لابنه بركات ، وأهم منه ابنه أبو نُمي الثاني الذي سافر إلى مصر عقب استيلاء السلطان العثماني سليم الأول عليها سنة ٩٢٢ ليعلمن تسليم الحرمين إليه . وكانت إمارة مكة في العهد العثماني تتبع ولاية مصر والخلافة العثمانية ، ووليها ثلاث أمر من أبناء نُمي : أسرة بركات ، ثم أسرة زيد ، ثم أسرة عون . وظلت الولاية في الأسرة الأولى أكثر من مائة عام ، ثم نافستها أسرة زيد في القرن الحادى عشر وظلت الإمارة تنتقل من بركاتي إلى زيدى حتى استقل بها بنوزيد ، وظلوا يلونها إلى زمن فتح محمد على للحجاز في عام ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م ويعين إبراهيم باشا قائد الجيش المصرى الشريف محمد بن عون عليه . وبذلك تنتقل الإمارة والحكم فيه إلى الأسرة الثالثة من أبناء أبي نُمي ، ونقصد أسرة عون . وحين انسحب جيش محمد على من الحجاز سنة ١٨٤٠ عينت الدولة العثمانية عليه والياً لها ، واستبقت الشريف محمد بن عون ، فكانت السلطة ثنائية بينه وبين والى العثماني ، حتى وفاته سنة ١٢٧٤ هـ / ١٨٥٧ م . وما زالت الإمارة في أبنائه حتى استخلصها سعود الثاني من حسين بن على آخرهم لا في هذا العصر ، وإنما في العصر الحديث .

وكانت إمارة المدينة أقل شأنًا من إمارة مكة ، وكانت الرياسة فيها لبني المهنا أحفاد الحسين ، ويروى أن أحدهم وهو الحسن بن طاهر رحل إلى الإخشيد بمصر ، فأكرمه وأقطعته ما يُغَلّ كل سنة مائة ألف دينار ، وتوفي سنة ٣٢٩ وانعقدت مودة وثيقة بين ابنه مسلم وكافور ، ويقال إن مسلماً كان يدعو للمعز صاحب إفريقية وفي هذا ما يشير إلى أن هذه الأسرة كانت إسماعيلية الهوى ، ويقال أيضاً إنه دخل مصر فطلب منه كافور ابنته لأحد أبنائه ، فردّه ، فحرق عليه ونكبه ، وهرب ابنه طاهر إلى المدينة ، فأمره الحسينيون هناك عليهم ، واستقل بها حتى سنة ٣٨١ وخلفه عليها ابنه الحسن ، واختلف المؤرخون هل الأمراء بعده من سلالته أوهم من سلالة ابن عمه داود بن القاسم الذي يقال إنه وليها بعده . ويذكر بعض المؤرخين أن الحاكم بأمر الله الفاطمي أمر الحسن بن جعفر السلياني أمير مكة بالإغارة على المدينة سنة ٣٩٠ فأغار عليها وأزال عنها إمارة بني المهنا ، غير أنها لم تلبث أن عادت إليهم ، وظلت في أيديهم إلا فترات قليلة كانت تتبع فيها إمارة مكة .

وكانت الأسرة كما أسلفنا إسماعيلية ، وكان الفاطميون يولون أبناءها على المدينة ، الواحد تلو الآخر ، إذ كانوا من شيعتهم . ومن أهمهم منظور بن عمارة المتوفى سنة ٤٩٥ . وتنتهى الدولة الفاطمية على يد صلاح الدين وتدخل الحجاز في طاعته ، ويُنقِى على بنى مهنا أمراء للمدينة وكانوا يتولون إمارتها في العهد الأيوبي من قِبل الخلفاء العباسيين ، ومن أشهرهم حيثنذ أبو فُلَيْتَه الذى حضر مع صلاح الدين فتح أنطاكية سنة ٥٨٤ وولى بعده ابنه سالم ، وكان شاعراً ، وكانت بينه وبين قتادة شريف مكة موقعة بذى الحليفة بالقرب من المدينة سنة ٦٠١ هزم فيها قتادة ، وفي ذلك يقول ملتاعاً :

مصارعُ آلِ المصطفى عُدُنَ مثلاً      بَدَأَنَ ولكنَّ صِرْنَ بين الأقبابِ

ويقال إن سالماً حضر إلى مصر في سنة ٦١٠ للشكوى من قتادة ، ومات في طريق عودته قبل وصوله إلى المدينة ، وولى بعده ابنه شيحة وظل على المدينة حتى قتل سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه عيسى ، وقبض عليه أخوه جمّاز سنة ٦٤٩ وملك مكانه . وهو الذى ظلت الإمرة بعده في بيته ، وطال عمره حتى سنة ٧٠٤ وعسى في آخر أيامه ، وقدم مصر سنة ٦٩٢ فأكرمه سلطانها خليل وعظمه ، وقبل شفاعته في أمير ينبع وفي أبي نُمى أمير مكة وكان قد غاب عن لقاء الركب المصرى . وخلفه ابنه منصور ، ووفد أخوه مقبل على الظاهر بيبرس ( هكذا في ابن خلدون وصيح الأعشى وهو المظفر بيبرس الجاشنكير ) فأشرك بينهما في الإمرة وفيما عيَّنه من إقطاع لأمير المدينة ، وغاب منصور عن المدينة لأمر واستخلف ابنه كبيشة ، فلحقها مقبل من يده ، ولحق كبيشة بأحياء العرب ، فنصروه على عمه وسقط قبلاً سنة ٧٠٩ ورجع منصور إلى إمارته ، وظل بها حتى توفى سنة ٧٢٥ . ويكثر الخلاف بين أفراد هذه الأسرة وما يكاد يتولاها شخص منهم حتى ينقض عليه آخر . ويكفى أن نذكر من تولوا إمارتها حتى نهاية القرن الثامن على الترتيب كبيشة بن منصور ، وودى بن ججاز وطفيل بن منصور وسيف وفضل ومانع من عقب ججاز ، ثم ججاز بن منصور وهبة ابنه ، وهبة آخر من عقب وُدَى وعُطيفة بن منصور بن ججاز وهبة بن ججاز وججاز بن هبة بن ججاز وتُعَيَّر بن منصور وثابت بن نعيم . وكثيراً ما كان يشب على الإمارة أحد هؤلاء الأربعة عشر والياً حتى سنة ٧٩٩ . ووراء هؤلاء أسماء أمراء للمدينة آخرين مثل محمد بن عطيفة المتوفى سنة ٧٨٨ وهباز بن هبة الله المتوفى بالسجن في الإسكندرية سنة ٧٨٩ . وحقاً كانت تتبع المالك وكانوا هم الذين يولون عليها الأمراء ، ولكن الأمر أفلت من أيديهم إزاء هذا الصراع الحاد ، فما يكادون يولون شخصاً حتى تقيم الأسرة شخصاً آخر وتطلب توليته ، ويفزع إلى القاهرة كي تخلع عليه وتنصبه أميراً . على كل حال

ساء الحكم في هذه الإمارة منذ القرن الثامن الهجري ، وكلما قطعنا شوطاً في الزمن اشتد سوءه ، حتى لئزى أحد أمراءها من أحفاد نعيم المسمى الحسن بن الزبير يعتدى في يوم الثلاثاء السادس من ربيع الأول سنة ٩٠١ على حراس الحرم النبوي وينهب ما في الحجر النبوية الطاهرة من تحف ونفائس . وتدهور الإمارة منذ هذا التاريخ وتدخل مع الحجاز في حكم الدولة العثمانية ، وتظل لهذا البيت الحسيني عليها إمارة اسمية . ويؤكد ابن خلدون والقلقشندي أنهم كانوا على مذهب الإمامية الرافضة ، بينما كان أمراء مكة زيدية . ومرّ بنا أن أمراء المدينة كانوا إسماعيلية ، ويبدو أنهم اعتنقوا المذهب الإسماعيلي في العهد الفاطمي حتى إذا انقضت الدولة الفاطمية تحوّلوا فيما بعد لإمامية اثني عشرية .

### نجد وقبائلها وشيوخها<sup>(١)</sup> وإماراتها .

ظلت نجد تعيش حياتها الرعوية وتنتشر فيها قبائلها الباقية بعد من هاجر منهم في عصر الفتوح ، ولا نكاد نعرف شيئاً واضحاً عن هذه القبائل مند أوائل هذا العصر الممتد من سنة ٣٣٤ للهجرة إلى العصر الحديث إلا ما يتصل برحلات هذه القبائل إلى الشرق وما كوّنته هناك من إمارات ، وكذلك ما يتصل برحلاتها إلى الغرب وقد مضت تتغلغل فيه متجاوزة مصر إلى بلاد المغرب ، وأيضاً ما يتصل بقبيلة طيئ التي كانت تحتل منطقة جلي أجا وسلمي وتنتشر في بوادي الشام والعراق ، وقد جعلتها مواطنها في هذه الأثناء تتصل بدول العراق ومصر والشام .

ولعل أول ما نقرؤه من أخبار عن تحركات القبائل النجدية في هذا العصر يتصل ببني هلال بن عامر وأبناء عمومتهم عقيل وربيعة ، وكذلك ببني سليم . وكان العامريون يتزلون في جبل غزوان ، بينما كان بنو سليم يتزلون شرق المدينة ، وكانوا جميعاً يطوفون بأطراف الجزيرة في العراق والشام ويغيرون على القرى هناك ، وكان بنو سليم يغيرون أحياناً على الحجاج في مواسم الحج ، وكانت البعوث تجهّز لهم من بغداد للإيقاع بهم . ولما ظهر القرامطة بالبحرين تحيّز كثيرون من العامريين وبني سليم إليهم ، وصاروا جنداً لهم في البحرين وعمّان ، وحين أغار الأعصم القرمطي سنة ٣٦٠ على الشام ، وهزمته جيوش

(١) انظر ابن خلدون وتاريخ ابن الأثير والمختصر في أخبار البشر لأبي الفداء والجزء الرابع من صبح الأمتى وذيل تاريخ دمشق لابن القلانسي وانحوم الزاهرة لابن تيمر بردي في مواضع متفرقة والخريدة للعلاء الأصبهاني وابن خلكان في أمراء بني عقيل وبني أسد وروضة الأفكار

الحسين بن غنام وعنوان المجد في تاريخ نجد لابن بشر وقلب جزيرة العرب لفضاد حمزة ومقدمة تاريخ العرب الحديث - الجزء الأول (١٥٠٠ - ١٩١٨ م ، للتذكور عبد الكريم غريبه .

الفاطميين نقل الخليفة الفاطمي العزيز جنده من بنى هلال وبنى سليم إلى صعيد مصر ، وبعث بهم المستنصر بعده إلى المغرب ، فخرّبوا مدن تونس وملكّت سليم شرق البلاد وبنو هلال غريبها . وكان قد انضم إلى الأعصم في حربه للفاطميين شيخ طيبيّ : حسان بن الجراح ، حتى إذا انهزم الأعصم دنا من العزيز وأكرمه ، وتظلّ لبني الجراح ريامتهم لطيبىّ وعرب بادية الشام طوال العهد الفاطمي ، ويتوفى حسان سنة ٣٦٧ ويخلفه أخوه دَعْفَل المفرج ويستولى على الرملة بفلسطين ، ويتولى زعامة طيبيّ بعده ابنه حسان سنة ٤٠٤ وكان يعين الفاطميين في حروبهم واستولى على عسقلان سنة ٤١٤ وعلى أفامية سنة ٤٢٢ ولا نجد له ذكراً بعد سنة ٤٣٣ ومن أهم شيوخ بيته بعده فضل بن ربيعة حليف قرواش صاحب الموصل .

وإذا اتجهنا إلى الشرق وجدنا بنى خفاجة من عَقِيل بن عامر وقد توغّلوا نحو الحماة ، وزحزحتهم فتنة القرامطة صوب حدود العراق ، فلكّوا ضواحيه ، وأصبحوا سادة الكوفة في ظل أميرهم عَلِيّ بن ثِمَال الخفاجي الذي أسس هناك إمارة بنى ثِمَال سنة ٣٧٤ للهجرة وخلفه فيها أبناؤه ، ونظّل نسمع عن غاراتهم مع أبناء عمومتهم بنى المستنق بن عامر بن عقيل طوال القرن الخامس الهجري وحتى منتصف القرن السادس إذ كانوا يغيرون على الأنبار والعراق إغارات متصلة ، وكانوا لا يزالون يتزلون في هذه الأنحاء في بطائح البصرة وواسط حتى عصر ابن خلدون متنقلين بجيامهم من مكان إلى مكان .

ونزحت قبائل وعشائر كثيرة لبني عَقِيل بن عامر إلى الموصل في الشمال الشرقي من الجزيرة واستطاعوا أن يقيموا لأنفسهم فيها إمارة كان أولُ أمراءها ومؤسسها أبا الزُّهَّار محمد ابن المسيب العقيلي الذي تغلب على الموصل سنة ٣٨٠ وخلفه أخوه المقلّد العقيلي الذي اتسعت مملكته ، وقد حارب بنى خفاجة واضطروهم إلى الدخول في طاعته ، وكان شاعراً ومحبّاً لأهل الأدب وقتله أحد مماليكه الأتراك غيلة سنة ٣٩١ ورثاه الشريف الرضي بقصيدتين وجاعة من الشعراء . وخلفه ابنه قرواش ، وكان يمد سلطانه على الموصل جميعه والكوفة والمدائن وسقى الفرات ، وأدّب بنى خفاجة مراراً ، وكان كريماً وهاباً نهاباً ، كما كان شاعراً مجيداً . ودامت إمارته نحو خمسين سنة حتى قبض عليه أخوه بركة وجسه في إحدى قلاع الموصل سنة ٤٤١ وتولى مكانه . وتوفى بعد ستين ، فخلفه ابن أخ له يسمى قريش بن بدران ، وكان أول ما فعله قتل عمه قرواش وتوفى سنة ٤٥٣ فخلفه ابنه مسلم إلى أن قتل سنة ٤٧٨ وكان حسن السيرة عادلاً ، كما كان ممدّحاً ، مدحه ابن حيّوس شاعر

الشام وغيره ، ولا نكاد نصل إلى نهاية القرن الخامس الهجرى حتى ينحسر ملك بنى عقيل ابن عامر عن الموصل ويعودوا إلى البادية أو البوادي ، ويقول ابن خلدون إنهم كانوا لعصره في الآجام بين البصرة والكوفة المعروفة باسم البطائح .

وإمارة ثالثة للبدو على حدود العراق أقاموها في أوائل القرن الخامس أقامها بنو أسد في أنحاء الحِجْلَة ، وكان أول من تصدى منهم لذلك على بن مزيد التوفى سنة ٤٠٨ وخلفه ابنه نور الدولة دُبَيْس ، ويخالف بنى خفاجة على حرب قُرَواش العقيلي ويحرقان الأنبار انتقاماً منه . وينعقد صلح بين قرواش ودييس ويهزمان جمعاً للغزِّ ويمدح ابن الشبل البغدادي قرواشاً بهذا النصر المبين . وكان ديبس وأهل بيته وسائر أعماله شيعة ، مثله في ذلك مثل قرواش . ويمتد حكمه إلى سنة ٤٧٤ وكان يكتب بين يديه على بن أفلح الكاتب المشهور ، ويخلفه ابنه منصور بهاء الدولة ، ويفتكُ أسرى بنى عَقِيل حين استولى العسكر السلطاني على حِلِّهم ويجهزهم ويردهم إلى ديارهم ، وقد تغنى الشعراء بهذه المأثرة طويلاً وما يلبث أن يتوفى سنة ٤٧٩ مخلفاً ذكرى طيبة ، غير شعر جيد كان ينظمه . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة ، وكان ذا بأس ومطورة ، وكان يقال له ملك العرب . وكان يسكن هو وآباؤه قبله في البيوت العربية ( الحيام ) فى الحِجْلَة سنة ٤٩٥ وسكنها ، وله قدّم ابن الهبّارية كتاب الصادح والباغم ، وتوفى سنة ٥٠١ وخلفه ابنه دُبَيْس وكان أديباً وجواداً كريماً ، وهو الذى عناه الحريرى بقوله فى إحدى مقاماته - وهى المقامة العُمانية - والناس يحبطون بأبى زيد يشنون عليه ويقبلون يديه حتى : « خَيْلٌ إِلَى أَنَّهُ الْقَرْنَى أُوَيْسٌ (واعظ أموى) أو الأسدَى دُبَيْسٌ » وقد اشترك فى مؤامرات كثيرة ضد السلاجقة والخليفة المسترشد ، مما دفع السلطان مسعوداً السلجوقى إلى العمل على اغتياله سنة ٥٢٩. وولى بعده ابنه صدقة ، وسرعان ما ضعفت الأسرة ، وزايلت الخلة ، وعادت مع قومها إلى الحياة البدوية . ولا نعود نسمع بعد ذلك بإمارات عربية على الحدود العراقية الغربية .

ونولّى وجوهنا فى العصرين الأيوبى والمملوكى نحو بوادى الشام ومنازل طيبى فى جبل شَمْرٍ أو جبلى أجاً وسلّمى ، ويذكر المؤرخون فخذين كبيرين من آل ربيعة الطائين كانا يقومان على أحياء العرب فى بوادى الشام والعراق ، وهما آل فضل وآل مِرَا ، وكانت منازل الأخيرين بوادى حوران ، وكانوا يسقطون منها جنوباً فى الصحراء ويوغلون حتى تصبح مكة المعظمة وراء ظهورهم ، وأهمُّ شُعبهم آل أحمد بن حِجِّى المتوفى سنة ٦٨٢ وكان صاحب المدينة الحسينى يؤدى له الحفر وكذلك أطراف الحجاز ، وكانت له منزلة عالية عند الظاهر بيبرس والمنصور قلاوون . ويقول صاحب صبح الأعشى : آل مِرَا أبطال

مناجيد ، ورجال صناديد ، وكثيراً ما يتحاربون مع أبناء عمهم فضل . ويروى القلقشندي عن الشهاب محمود الحلبي أنه حين غزا التتار الشام في أيامه وكان بمحصر أقبلي من أهل مِرَازْهَاء أربعة آلاف فارس شاكين السلاح على الخيل المسومة والخياد المظهمة مقلدين بالسيوف وفي أيديهم الرماح ومعهم الطعائن والحمول ومعهم مغنية تعرف بالخصرية طائفة السمعة سافرة في الهودج تغني أحياناً حماسية .

وكانت ديار آل فضل الفخذ الكبير الثاني من طيبي تمتد من حمص إلى أطراف العراق وتهبط يساراً إلى البصرة وتستدير نحو منازل بني تميم والجمامة ، وتشمل منازل غطفان مما يلي وادي القري ، كما تشمل منازل بني أسد ، وكان ينضم إليهم لفييف من قبائل العرب : من مدحج وعامر وزبيد وغيرهم . وكان شيوخ هذا الفخذ يولون على إمرة العرب بتقليد من السلطان ، وأول من استن ذلك السلطان العادل بن أيوب ، إذ أقام على العرب أميراً منهم هو حديثة بن عقبة بن فضل ، وخلفه عيسى بن محمد ثم مانع بن حديثة المتوفى سنة ٦٣٠ وخلفه مهنا الذي حضر مع المظفر قطز قتال التتار في عين جالوت . وولّى بعده الظاهر بيبرس ابنه عيسى . وكانت العادة السلطانية أن يكتب لمن يولّى تقليد شريف بذلك ، ويلبس تشريفاً أطلس أسوةً بالنواب إن كان حاضراً ويجهز إليه إن كان غائباً ، وتصدّر إليه المكاتبات من الأبواب الشريفة ، وبالمثل كانوا يولون الأمراء على آل مرا . وكانوا يوقرون لهم الإقطاعات لحفظ السابلة وقوافل الحجاج وظل عيسى أميراً على العرب وآل فضل حتى سنة ٦٨٤ وخلفه لعهد المنصور قلاوون ابنه المهنا ، وفي الجزء الثاني عشر من صبح الأعشى مرسوم شريف بإمرته . ويخلفه في سنة ٧١٢ فضل أخوه ، ويقال إن ابنه حجّ في اثني عشر ألف راحلة ، وظلت الإمارة في طيبي طويلاً .

ونسلم في داخل نجد عن إمارات كثيرة بأحائها وقراها المختلفة في الجمامة والعارض والوشم والقصيم يتنافس فيها الإخوة وأبناء العم ، ومن أهم تلك الإمارات إمارة الدرعية التي تأسست في منتصف القرن التاسع الهجري ولا تمضي طويلاً في القرن الثاني عشر حتى نرى أميرها سعوداً يضم الواحات الصغيرة المجاورة لها تحت لوائه ، وتوفى سنة ١١٣٧هـ / ١٧٢٥ م . وخلفه ابنه محمد ، وهو الذي تآزر مع محمد بن عبد الوهاب في سنة ١١٥٨هـ / ١٧٤٥ م على نشر العقيدة السلفية وقمع البدع ، وأخذاً يتعاونان في ذلك حتى دان له أكثر نجد . وتوفى سنة ١١٧٩هـ / ١٧٦٥ م ، وخلفه ابنه عبد العزيز ومضى في نشر الدعوة بإقليم القصيم ووادي السرحان ، وفتح بلدة الرياض . ولم يلبث أن قُتل بيد شعبي سنة ١٢١٨هـ / ١٨٠٣ م وولى بعده ابنه سعود ، وقد استطاع أن يمد لواء

سلطانه من أطراف عمان ونجران واليمن إلى بادية الشام في أقصى الشمال من الجزيرة ، ومن الخليج العربي ونهر الفرات إلى بحر القلزم ( البحر الأحمر ) واستولى على الطائف ومكة ، مما جعل الدولة العثمانية تستعين بمحمد علي واليها في مصر ، كى يستخلص الحجاز منه ، فأرسل إليه جيشا بقيادة ابنه إبراهيم واستطاع الجيش الاستيلاء على المدينة ومكة سنة ١٢٢٧ هـ / ١٨١٢ م وسرعان ما توفي سعود في الدرعية سنة ١٢٢٩ هـ / ١٨١٤ م وتولى بعده ابنه عبد الله ، وفي عهده أخذت البلاد تسقط واحدة تلو الأخرى في يد إبراهيم باشا ، واستسلم عبد الله بن سعود ، وأرسل إلى القسطنطينية حيث قضى نحبه سنة ١٢٣٤ هـ / ١٨١٨ م . ويتولى حكم الدرعية تركي بن عبد الله بن محمد بن سعود . وبذلك ينتقل الحكم في آل سعود من بيت عبد العزيز بن محمد إلى بيت أخيه عبد الله بن محمد ، ويبقى فيه إلى اليوم . وينشط تركي ، ويفتح الحجاز والقطيف ، ويعقد صلحا مع صالح بن علي أمير حائل وزعيم منطقة شمر أو جبلي أجأو سلمى ويعتال سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م ويخلفه ابنه فيصل وكان ضعيفا ، فيأسره المصريون ثم يعيدونه إلى إمارته ويظل بها حتى عام ١٢٨٢ هـ / ١٨٦٥ م وهو عام وفاته . وتعبه فترة من الاضطرابات والفتن بين أبنائه استطاع في خلالها محمد بن رشيد صاحب حائل أن يسطر سلطانه على أكثر البلاد الخاضعة للسعوديين . لولا أن هبّ لآ في هذا العصر بل في العصر الحديث الثألي عبد العزيز بن عبد الرحمن بن فيصل فاسترد الرياض وكل ما فقد من إمارة آبائه .

### اليمن ودولها<sup>(١)</sup>

توزعت اليمن في هذا العصر دول كثيرة ، لعل أقدمها دولة بني زياد في زَبيد (٢٠٣ - ٤١٢ هـ) وخلفهم عليها دولة آل نجاح (٤١٢ - ٥٥٤ هـ) ثم دولة بني مهدي

(١) لمحة (طبع نيدد) وناقض من تاريخ اليمن للحرفي (طبع القاهرة) ومخلاف السنيان للعقيل (طبع الرياض) وطرفة الأصحاب في معرفة الأنساب لابن رسول (طبع دمشق) والصلحيون والحركة الفاطمية في اليمن (طبع القاهرة) ومقدمة تاريخ العرب الحديث . الجزء الأول للدكتور عبد الكريم غرابية ومعجم البلدان ومعجم الأنساب والأسرات الحاكمة لزامبور .

(١) راجع في اليمن ودولها تاريخ ابن الأثير وابن خلدون وصحح الأعشى في جزئه الرابع والخامس ، ابن خلدون في التراجم المشهورة وتاريخ المستبصر لابن الجاور وتاريخ اليمن لعامة (نشرة كوى) وبنوع الزمام في شرح مسك الحتام ليعن تولى ملك اليمن من ملك وإمام للقاضي العرشى والعضود اللؤثوية لبحر جرجي (طبع القاهرة) وكتاب تاريخ اليمن بعد التوسع اليمنى (طبع القاهرة) وأبناء الزمر في أخبار اليمن ليحيى بن الحسين وتاريخ ثغر عدن

الخوارج (٥٥٤-٥٦٩ هـ) ومنهم أخذها الأيوبيون وخلفهم عليها وعلى اليمن دولة آل رسول . ولصنعاء دولها هي الأخرى وأولها بنويعفر (٢٥٢-٣٩٣ هـ) وتلتها دولة الصُّلَيْحِيِّين الإسماعيليين (٤٣٩-٥٣٢ هـ) . ثم دولة الهمدانيين (٤٩٢-٥٦٩ هـ) . وفي صعدة مستقر الزيدية دولة الرُّسِيِّين منذ سنة ٢٨٨ ونازعهم عليها أبناء عمومتهم بنو سليمان منذ طردهم المواسم بمكة ونزلوا المخلاف السلياني سنة ٤٥٠ وقد أزال على بن مهدي دولتهم منه . ثم عادوا إليه ، وقد ظل أئمة الرسيين يتوالون واحدا بعد الآخر حتى العصر الحديث . وفي عدن دولة بني زُرَيْع الإسماعيلية (٤٦٧-٥٦٩ هـ) . ومنهم أخذها الأيوبيون كما أخذوا صنعاء وصَّعدَة عاصمة الرسيين . ونحن نسوق الحديث عن هذه الدول ، ثم تنتقل منها إلى الحديث عن الأيوبيين والرسوليين وبني طاهر والعصر العثماني ومقاومة الرسيين في صَّعدَة للعثمانيين ، حتى استخلصوا منهم البلاد .

وتبدأ بدول يزيد قبل الفتح الأيوبي . وأولها دولة بني زياد ، ومؤسسها محمد بن زياد من نسل عبيد الله بن زياد حاكم العراق بعد وفاة أبيه زياد ، ولاه المأمون على اليمن سنة ٢٠٣ للهجرة فاستولى على تِهامة وحَضْرَموت . ومن أهم أمراء هذه الدولة أبو الجحش إسحق بن إبراهيم (٢٩١-٣١٧ هـ) . وفي عهده استولى القرامطة على زييد سنة ٣٠٣ ثم تركوها . ودانت له اليمن : عدن وصنعاء وحكامها بنويعفر وصَّعدَة وحكامها الرسيون واتسعت جبايته حتى بلغت مليونين وثلثمائة وستة وستين ألفا من الدنانير ، سوى ما كان يعنيه من مراكب السند ومن العنبر المحلوب إلى عدن وباب المندب ومن العَوَص على اللؤلؤ ومن جزيرة دهلك . وما زال الحكم في أسرته حتى تشاجر حَجَبَتُهُمْ على الحكم ، وتغلب عليهم نجاح الحبشي سنة ٤١٢ وأسس دولة بني نجاح ، وما زال يحكمها حتى دس له بعض أنصار على بن الصُّلَيْحِي صاحب صنعاء السم ففتك به سنة ٤٥٢ واستولى الصليحي على زييد ، غير أن أبناء نجاح فروا إلى دَهْلُك ، وأخذوا يحاولون استردادها واستطاعوا أن يغتالوا الصليحي في طريقه إلى الحج سنة ٤٥٩ واستطاع جيش بن نجاح أن يستعيد زييد من الصليحيين نهائيا سنة ٤٧٩ وكان شاعرا وكاتبيا بليغا ، وصنَّف المفيد في أخبار زييد ، وبعث هو وأسرته ووزراؤهم نهضة في زييد أدبية وعلمية ، ومن وزراءهم من الله الفاتكي وسرور وكانا ممدِّحين عاليي الهمة . وتوارث أبناء جيش الحكم حتى سنة ٥٥٤ إذ ملكها بنو مهدي وزال ملك بني نجاح . وقد نشأ مؤسس دولة بني مهدي - وهو على بن مهدي الحسيري - في سواحل زييد على النسك والدين . ولما شبَّ أخذ في الوعظ فأحبه الناس والتفوا حوله ، وفكر في إقامة دولة لنفسه فاستولى على زييد وتسمى الإمام المهدي أمير

المؤمنين وقامع الكفرة والملحددين . وكان يؤمن بعقيدة الخوارج ويتبرأ من عثمان وعلى ، وكان يكفر بالمعاصي ، ويقتل من يقترب كبيرة ، وكذلك من خالف اعتقاده من أهل السنة ، وكان يستبيح نساءهم ويسترق أبناءهم وذرائعهم ، وكان أنصاره يعتقدون فيه العصمة ، ولم يلبث أن توفي بعد استيلائه على زيد بنحو ثلاثة أشهر ، وحين استولى عليها قاضيها محمد بن أبي عَمَّامة وابنه وكانا فاضلين . وخلفه ابنه مهدي ثم أخوه عبد النبي . وقد أغار في سنة ٥٦١ على الخلف السليمانى وقتل في الغارة أميره وهاس ابن غانم ، وأُنشد في ذلك قصيدة رواها صاحب كتاب الخلف السليمانى ، ومازال على زيد حتى تسلمها منه توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ للهجرة .

وأول دول صنعاء دولة بنى يعفر التي أنشأها يعفر بن عبد الرحمن سنة ٢٥٢ وخلفه عليها أبناؤه ، وحدث في سنة ٢٩٣ لعهد أسعد بن يعفر أن استولى القرامطة بإمرة على ابن الفضل على صنعاء . ولم يلبث أن ادعى النبوة ، وأباح لأصحابه شرب الخمر وزواج البنات ، وخطب عن الناس - بزعمه - أركان الإسلام الأساسية : الصلاة والصيام والحج . وفي سنة ٣٠٣ هلك على يد حسي حجَّام ، جعل له السم في الموضع . وعلم بذلك أسعد بن يعفر فاستنفر قبائل اليمن واستردَّ صنعاء وظل يحكمها حتى وفاته سنة ٣٣١ وخلفه عليها ابن أخيه عبد الله بن قحطان حتى قضى نحبه سنة ٣٨٧ وولى بعده ابنه أسعد ، وبوفاته سنة ٣٩٣ انتهت دولة آل يعفر .

وتخلف دولة اليعفرين بصنعاء دولة الصُّليحيين ، أسسها على بن محمد الصُّليحي ، وقد نشأ فقيها صالحاً بين قومه الهمدانيين وظل أمره ينمو في مقره بجبلته منذ سنة ٤٣٩ وربما قبل ذلك بسنوات غير قليلة . وكتب إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يستأذنه في الدعوة للمذهب الإسماعيلي ، فأذن له واتسع نفوذه واستولى على زيد . كما أسلفنا ، من يد آل نجاح سنة ٤٥٢ كما استولى على صنعاء سنة ٤٥٤ واختط بها القصور واتخذها حاضرتة ، وعظم ملكه . واستولى على مكة سنة ٤٥٥ ليزيل منها الإمارة الحسينية الزيدية ثم تركها . وكانت زوجته أسماء من فضليات النساء ، وكانت ممدحة كريمة ، مدحها كثير من الشعراء . وخلفه ابنه المكرم سنة ٤٥٩ واتخذ جبلته عاصمته ، وأصيب بمرض الفالج ، فنوّس شئون دولته إلى زوجته الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي إلى أن توفي سنة ٤٨٤ فتولت بنفسها زمام الأمور . وتزوجت سبأ بن أحمد الصليحي بأمر المستنصر الفاطمي ، وتوفى سنة ٤٩١ وأخذت تخرج عليها بعض القبائل وبعض البلدان . واستولى بنوحاتم الهمدانيون على صنعاء سنة ٤٩٢ وظل يحكمها منهم حاتم بن غشم الهمداني حتى سنة ٥٠٢ وخلفه أبناؤه

عليها حتى تسلمها منهم توران شاه الأيوبي . وظل نجم الملكة الحرة يزداد أفولاً والدولة الصليحية تنفكك أوصالها ، حتى لم يبق لها إلا بعض حصون قليلة . وقد خرجت أكثر الحصون في الجنوب إلى بني زُرَيْع أصحاب عدن . وتوفيت الملكة الحرة سنة ٥٣٢ وبوفاتها انتهت الدولة الصليحية الإسماعيلية .

وحري بنا أن نسوق الحديث إلى دولة الرّسّيين الزيدية بصعّدة في اليمن ، ومؤسسها هناك الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم بن إبراهيم المولود بجبل الرّسّ بالقرب من المدينة المنورة سنة ٢٤٥ في زمن جده القاسم الإمام الزيدى المعروف بمؤلفاته في المذهب الزيدى وفى الفقه . وقد خرج من موطنه إلى اليمن في سنة ٢٨٤ واستولى على صعّدة وأسس بها إمامة الزيدية باليمن ، وتوفى سنة ٢٩٨ فخلفه ابنه محمد ثمّ أخوه أحمد ، فالإمام الهادي إلى الحق وهو المؤسس الحقيقي للدولة . وماتزال تلك الأسرة تتوارث الإمامة حتى يفد عليها أبو الفتح الديلمي سنة ٤٣٧ فيستخلص الإمارة لنفسه حتى وفاته ، ويخلفه عليها بنو سليمان أصحاب الخلاف السليمانى الزيديون وينسحب الرسيون إلى جبل قضاة ، وتتوالى أئمتهم هناك . وتتطور الظروف ويعود الرسيون إلى صعّدة ، وتدخل صنعاء في حوزتهم مرارا . ومن أشهر أئمتهم المتوكل على الله (٥٣٢-٥٦٦ هـ) . وكان شاعرا محسنا ، وله مكاتبات شعرية مع نشوان بن سعيد الحميرى . ومن أئمتهم في العهد الأيوبي الإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦١٤ . ومن مشهورهم في عهد الدولة الرسولية الحسن ابن وهّاس ، والموطئ الرسى الذى بويع بالإمامة سنة ٦٤٥ وكان قواما صواما علما فقيها ، وظل الحكم بعده في أبنائه وتتوالى أئمتهم في عهد الدولتين : الرسولية والظاهرية ، وسنعود إليهم بعد استيلاء العثمانيين على اليمن عقب فتحهم لمصر .

أما عدن فكانت قديما داراً لبني معن بن زائدة منذ ولايته عليها في عهد المأمون ، وقد امتنعوا على بني زياد أصحاب زبيد ، ولما استولى عليها الصليحي داعية الفاطميين قنع منهم بإتاوة يؤدونها ، ثمّ عزلهم عنها ابنه المكرم ، وجعلها للهمدانيين ، ولم يلبث فرع منهم هو فرع بني زُرَيْع أن استخلصها لنفسه ، وكانوا إسماعيلية . ومن أهم أمراءهم محمد بن سبأ (٥٣٣-٥٥٠ هـ) . وكان يتلقب بالداعى المعظم المتوج سيف أمير المؤمنين ، وقد اشترى حصن جبلة من الصليحيين ، وخلفه ابنه عمران ممدوح أبى بكر العيذى (٥٥٠-٥٦٥ هـ) . وكان يدبر دولته ودولة ابنه ياسر بن بلال ممدوح ابن قلاقس الشاعر المصرى وغيره من الشعراء . وحين قدم توران شاه إلى اليمن قبض عليه وانقطعت دولة بني زريع . ويقال إن إيرادات عدن كانت مائة ألف دينار وارتفعت في عهد الأيوبيين إلى

سنة ألف . وحين فتح اليمن توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ أقام لنفسه فيها نواباً في مدنها وحصونها ، وعادت إلى أحسن أحوالها من الحصب والعمارة والأمن ، غير أن الحكم فيها لم ينتظم تماماً لصالح الدين إلا بعد أن أرسل إليها أخاه سيف الإسلام طغتكين ، فأقام بها منذ سنة ٥٧٨ ودخل كما مر بنا سنة ٥٨٢ مكة ومنع من الأذان فيها بحى على خير العمل » وهو أذان الزيدية والإسماعيلية وغيرهما من الشيعة ، وتوفى سنة ٥٩٣ وخلفه على اليمن ابنه إسماعيل وأساء السيرة فقتل سنة ٥٩٨ ووليها بعده ابن عمه سليمان . وظلم الناس ، فولى السلطان الكامل صاحب مصر عليها ابنه نملك المسعود سنة ٦١٢ وأتاب عنه في بعض رحلاته إلى مصر نور الدين عمر بن علي بن رسول أحد قواده ، فكأن لنفسه فيها . ولم يلبث أن استقل بها سنة ٦٢٦ للهجرة .

وتظل اليمن في قبضة الدولة الرسولية حتى سنة ٨٥٨ وقد اتخذ نور الدين تعز بالقرب من إقليم عدن عاصمة له وتلقب بالملك المنصور واعترف به الخليفة العباسي سنة ٦٣٢ للهجرة وامتدت مملكته من مكة إلى حضرموت . وكانت الحرب كثيراً ما تنشب بين الرسوليين وبين الأئمة في صعدة . وقتله مماليكه سنة ٦٤٧ وخلفه ابنه الملك المظفر يوسف وهو صاحب جامع المظفرية بتعز ، وبني جوامع ومدارس كثيرة في مدن اليمن . وفتح ظفار في أقصى بلاد حضرموت ونسبت بينه وبين أئمة اليمن حروب كثيرة ، وتوفى سنة ٦٩٤ فخلفه الملك الأشرف لمدة عامين فالملك المؤيد حتى سنة ٧٢١ وكانت له مشاركة حسنة في العلوم والفنون ، فالملك الجهاد حتى سنة ٧٦٤ فالملك الأفضل ابنه حتى سنة ٧٧٨ فالملك الأشرف حتى سنة ٨٠٣ وله ألف الخزرجي كتابه العقود اللؤلؤية ، ويصف حفل ختان أبنائه وصفاً رائعاً . وتضعف الدولة بعده وتأخذ في التدهور ، وينتهز بنو طاهر ولاتهم وأمنائهم في عدن وغيرها الفرصة ، ويؤسسون دولتهم .

وقد اتخذ بنو طاهر « زبيد » حاضرة لهم ، وأول أمراءهم عامر بن طاهر الذي استولى على عدن سنة ٨٥٨ وتلقب بالملك الظافر وتوفى سنة ٨٧٠ فخلفه أخوه الملك الجهاد إلى وفاته سنة ٨٨٣ وولى بعده الملك المنصور حتى سنة ٨٩٤ وخلفه الملك الظافر عامر بن عبد الوهاب وقد استولى على صنعاء سنة ٩١٠ ولا نصل إلى سنة ٩٢١ حتى يستولى البرتغاليون على جزيرة كمران في البحر الأحمر ، وحينئذ يرسل قانصوه الغورى صاحب مصر حملة لمطاردة البرتغاليين ويطرودون من الجزيرة وتنزل الحملة اليمن وتستولى على زبيد وتعز وتقضى على دولة بنى طاهر

وتدخل اليمن في حوزة الدولة العثمانية ، وتنشب مناوشات كثيرة بين الأمراء أو الأئمة

الزيديين وبين العثمانيين ، وترك الدولة العثمانية اليمن لأهلها سنة ١٠٤٥ فتكثر فيها الفتن والانقسامات حتى في أسرة الأئمة الرسيين ويستتب الحكم للإمام المتوكل على الله إسماعيل ابن القاسم ( ١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ ) وقد ظلت الإمامة في عقبه إلى أن تخلصت منهم اليمن في ثورتها الأخيرة ، وكان المتوكل مظفراً استولى على عدن وحضرموت وظفار وجمع بلاد اليمن وتولى الأئمة من بعده . وحدث في عهد الإمام المنصور بالله على بن المهدي أن زاره القبطان الإنجليزي ولسن عند نزول نابليون بونابرت مصر ، ونزل له طائعا عن جزيرة ميون المسماة بيريم في مضيق باب المندب بالبحر الأحمر ! وهي تقسم البحر عندها قسمين . وما نصل إلى عهد الإمام الناصر لدين الله حتى يحتل الإنجليزي سنة ١٢٥٥ هـ / ١٨٣٩ م ميناء عدن بالقوة بعد مناوشات قليلة مع جنود سلطان لحج ، وأصبحت مستعمرة إنجليزية . ورأى الأتراك طمع الدول الأوربية في اليمن ، وأحس أمتها بحتاجهم إليهم ، فعادوا إلى احتلال اليمن سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م بينما مضى الإنجليزي يضمون إلى مستعمرة عدن تسع محميات أهمها لحج وحضرموت . وأخذت المناوشات تعود ثانية بين الأئمة الزيديين وبين الأتراك العثمانيين إلى أن تولى مناهضتهم لا في هذا العصر ولا في أواخره بل في العصر الحديث الإمام الزيدي يحيى بن محمد حميد الدين

### حَضْرَمَوْتُ (١) وظفار وتاريخها

تقع حضرموت في جنوبي الجزيرة على بحر العرب ، وهي إقليم جبل يتوسطه واد يمتد من الشرق إلى الغرب وتفرع منه أودية كثيرة وكانت تسمى قديماً باسم أرض اللبان . وأهم مدنها في الداخل شبوة وشبام وتريم وسيون وعلى الساحل الشحر والمكلا ، وكانت تسكنها قديماً قبيلة كندة ، وما زال الولاة يتتابعون عليها من قبل الخلفاء في صدر الإسلام وزمن الدولتين الأموية والعباسية . ولما تولى محمد بن زياد اليمن أضيفت إليه ، وظل لبنيه نفوذ فيها ، حتى ولي بنو يعفر صنعاء وأقاموا دولتهم بها . فأنهم مدوا أيديهم إليها وظلت تبعهم ، وحاول الخضارمة الثورة عليهم . ولكن ثورتهم أخفقت . وقدمها في أثناء حكمهم لها سنة ٣١٧ للهجرة الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعنوي . متسبياً نسباً شريفاً إلى الحسين بن علي . ونزل بتريم وأصبح له فيها زعامة روحية هو وأسرته إلى اليوم ، وهي زعامة أتاحت للشيعة

(١) انظر في حضرموت وظفار وتاريخها ابن الأثير وابن خلدون في مواضع متفرقة ومعجم البلدان لياقوت وتاريخ حضرموت السياسي لصالح البكري وتاريخ الدولة

الكثيرة محمد بن هاشم ومصنفات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض باوزير ودائرة المعارف الإسلامية وماها من مراجع

أن يتنفسوا هناك وكانت النحلة الغالبة في حضرموت نحلة الخوارج ولذلك كان أهلها دائماً يثورون ثورات متعاقبة . ونزلها القرامطة في أوائل القرن الرابع الهجري مدة ثم تركوها ، ويلمع بها في القرن الخامس أبو إسحق الحضرمي الخارجي ، وقد ساعده الخليل بن شاذان إمام الخوارج في عمان علي أن يستقل بها بعد حروب دامية ، واستنطاق أن يرده الصليحي عن حضرموت وهو يعد أول زعيم منها ولي شتونها واستقل بها . والشخصية الثانية بعده شخصية عبد الله بن راشد بن أبي قحطان الكندي المولود بتريم سنة ٥٥٣ وقد حكمها سنه دون الثلاثين ، واهتم بالعلم والعلماء . ولما فتح صلاح الدين اليمن وولى على عدن عثمان الزنجبلي فتح حضرموت وأخذ معه عبد الله ، غير أن العام لم يدر حتى عاد إلى دياره ، وتمر سنوات ويعود ثانية إلى تريم ويستولى من آل النعمان على شبام ، وتغص البلاد في أمن حتى يغزوها عمر بن مهدي اليمنى بجيش أبوي سنة ٦١٤ ويتمكن من الاستيلاء عليها جميعا : على الشحر وشبام وتريم ، ويقتل سنة ٦٢٢ وينتهي بذلك عهد الأيوبيين في حضرموت ، وتحالفهم دولة الرسولين ، فيعملون على أن تظل حضرموت تابعة لهم ، وكان يليها بعض أبنائها نوابا عنهم . وحين دانت ظفار شرق حضرموت لسالم بن إدريس الجبوظي استولى مجموعها على حضرموت سنة ٦٧٣ غير أن الرسولين قضوا عليه . ولا يزال شيوخ القبائل في البلاد وفي مقدمتهم بنوراشد وبنو نهد يتناحرون على حكم المدن ، ويشتهر آل باكتير باستيلائهم على الشحر سنة ٧٨٦ وتكون الغلبة لهم في كثير من البلاد . وكان ينافسهم آل بادجانة وآل باوزير والكنديين ولكن آل باكتير ظفروا بهم وغيرهم من العشائر أو قتل ظهروا عليهم . وخلف الرسولين بنو طاهر على اليمن ، وكانت حضرموت تستشعر الولاء لهم . وقد ردوا عن الشحر محمد بن سعيد بن فارس المهدي سنة ٨٦٧ وعهدوا بها إلى آل باكتير ، واشتهر من بينهم بوطوريق المولود سنة ٩٠٢ وقد استولى على شبام سنة ٩٢٦ واحتل تريم سنة ٩٢٧ واتخذها مركزا لدولته وكان يجزل العطايا للعلماء والشعراء . واستولى العثمانيون على اليمن سنة ٩٤٥ ويعترف لهم بوطوريق بالطاعة سنة ٩٧٠ غير أن ابنه عبد الله رفض حكم الترك واستقل ببلادهم . وخلفه أخوه عمر وكان نصيره ومعاونه وكتبه الشاعر الكبير عبد الصمد بن عبد الله باكتير . ويتولى ابنه عبد الله شئون حضرموت حتى سنة ١٠٢٤ ويخلفه أخوه بدر ويظهر ولاءه للزيدية وأمتهم بصنعاء ، ويشب خلاف بينه وبين ابن أخيه بدر بن عبد الله بسبب ذلك ، ويقبض عليه ويعتقل ، فيغضب الإمام الزيدي المتوكل على الله إسماعيل ، ويرسل في سنة ١٠٦٩ جيشاً إلى حضرموت يستولى عليها ، ويسلمها إلى بدر بن عمر ويظل يليها حتى وفاته سنة ١٠٧٣ ويتولاها ابنه محمد .

ويضعف شأن آل يافع ويصبح يافع وعشائرها الكلمة العليا في البلاد ، ويتحول الحكم والسلطان إليها حتى سنة ١٢٦٣ إذ يعيد غالب بن محسن الكثيرى دولة آل ويستولى على تريم ، غير أن الشحر وأكثر البلاد تظل في قبضة اليافعيين ، ويشتهر من بينهم عمر بن عوض القعيطى اليافعى ثم ابنه عوض الذى أخطأ خطأ فاحشاً في حق بلده وأمه بتوقيع معاهدة مع الإنجليز سنة ١٣٠٥ هـ/ ١٨٨٨ م أصبحت بها حضرموت إحدى حامياتهم على بحر العرب ، وصمة في جبينه ما بعدها وصمة .

وظفار هضبة يبلغ ارتفاعها ثلاثة آلاف قدم ، وفوق جبالها تنمو أشجار الكُنْدَر (اللَبَان) الذى يستعمله الهنود في معابدهم . وتاريخها غامض ومن أمرائها محمد بن أحمد المنجوى ، وخلفه سالم بن إدريس الجبوظى الذى مر بنا غزوه لحضرموت وقضاء الرسولين عليه . وكانوا يولون عليها نائباهم . وفي القرن السادس عشر الميلادى حكم البلاد سيف الإسلام الغسانى وهو من صنعاء . وكانت قلعة يَلد مقر حكمه ، وفي القرن السابع عشر الميلادى استولى عليها بنوكثير الحضرميون . ولا يعرف عنها شيء في القرن الثامن عشر ، وحكمها علوى في القرن التاسع عشر ، وقتله بنو قرا ، وحاول العثمانيون حين عادوا إلى اليمن في هذا القرن فرض سيادتهم عليها . وفزعوا إلى سعيد بن تركى بن سعيد جد أمراء عمان ، وظلت منذ هذا التاريخ تابعة لهم .

### عمان وأمرؤها<sup>(١)</sup>

تمتد عمان على الشاطئ الجنوبى الشرقى لجزيرة العرب مشرفة على المحيط الهندى وبحر العرب من جهة وعلى الخليج العربى من جهة ثانية ، وقد ثار بها الحوارج الإباضية منذ زمن الحجاج في عصر بنى أمية ، وكانوا يتخذون مدينة نزوى في الداخل جنوب الجبل الأخضر مركزاً لهم ، وكانوا يستولون عليها في أكثر سنوات القرن الثالث الهجرى ، وتغلب على عمان أبو طاهر القرمطى عند اقتلعه الحجر الأسود من الكعبة سنة ٣١٧ وخطب بها لعبيد الله الهندى ، وترددت عليها ولاية القرامطة والروافض إلى أن استعادها منهم الإباضية سنة ٣٦٢ وظلوا مسيطرين عليها حقبة من الزمن . يدل على ذلك أننا نجد

(١) ابن عبد الله السالى وعمان قديماً وحديثاً محمد على الزرقا والإمارات السبع لأحمد الوردى ومقدمة تاريخ العرب الحديث للدكتور عبد الكريم غرابية .

(١) انظر في عمان وتاريخها وأمرائها ودونها تاريخ ابن الأثير وتاريخ ابن خلدون وصح الأعشى ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة ونخفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين السالى وعمان تاريخ يتكلم محمد

نفر من أعيانها هم بنوم مكرم وكانوا شيعة إمامية يسرون إلى بغداد ويتفقون مع البويهيين على أن يغزوها معهم بالسفن من الخليج العربي . ويملكونها فعلا في عصر بهاء الدولة سنة ٣٩٠ وقد اختار منهم أبا محمد بن مكرم ، واستطاع أن يطرد الخوارج إلى جباهم في نزوى وحولها ، ويخطب لبني العباس . وظل الإباضية في عهد بني مكرم يولون عليهم أئمة منهم ، ومن أهمهم الخليل ابن شاذان ومر ذكره في حضرموت وأنه أعان أبا إسحق الحضرمي على غزوها والاستيلاء عليها . وتوارث بنوم مكرم ملك عمان ، ومن أهم أمرائهم ناصر الدولة علي بن الحسين بن مكرم ، وكان جوادا ممدحا ، ومدحه مهيار الديلمي وغيره وتوفي سنة ٤٢٨ بعد استنثاره بالإمارة مدة طويلة .

وفي سنة ٤٤٢ ضعف ملك بني مكرم وتغلب عليهم النساء والعبيد ، فزحف إليها الخوارج من نزوى وملكوها بقيادة إمامهم راشد بن سعيد ، وله حروب مع قبيلتي نهد وعُقيل سحقها فيها ، وامتدحه بذلك أبو إسحق الحضرمي منوها بيسالته وبطولة جنوده . ومن أهم هؤلاء الأئمة من الخوارج الذين حكموا عمان حفص بن راشد الذي تملكها بعد أبيه وتظل في أيدي خلفائه .

وفي القرن السادس الهجري تملك عمان من أيدي الإباضية بنو نيهان سنة ٥٧٩هـ / ١١٨٣ م وهم عشيرة من العتيك من الأزد استولوا عليها بعد شيوع الخوضي فيها . وكانوا سنين ، وظل حكمهم فيها طويلا حتى نهاية القرن التاسع ، وقد غزا الفرس عمان في عهد أميرهم كهلان سنة ٦٥٠ وعادوا إلى غزوها في عهد عمر بن نيهان سنة ٦٧٤ ولكنهم عادوا في الغزوتين مدحورين . كما يصور ذلك شاعر النهانيين أحمد بن سعيد السالي الخروصي ، ويشئ المؤرخ نور الدين السالي حملة على هذه الدولة النيهانية قائلا كانت دولة بني نيهان مبنية على الاستبداد بالأمر وقهر الناس ولم نجد لدولتهم تاريخا ولا للموكلهم ذكرا اللهم إلا ما ذكره شاعرهم أبو بكر أحمد بن سعيد السالي . وقد زار ابن بطوطة عمان في عهدهم سنة ٧٢٥ وقال عنها إنها خصبة ، وأشاد بأمرها النيهاني وحسن ضيافته ثم ذكر نزوى عاصمة الخوارج ، وقال إنهم أهل بجدة وشجاعة . ومن أئمة الإباضية المهمين في القرن التاسع عمر بن الخطاب بن شاذان الذي بويع له بالإمامة سنة ٨٨٥ وقد نازل سليمان بن سليمان النهاني أمير عمان ، وهزمه واضطره أن يفر إلى هرمز وتوفي عمر ، فعاد سليمان ونازل الإمام التالي للخوارج أبا الحسن بن عبد السلام ، وباء بهزيمة منكرة ، فرحل ثانية إلى هرمز ، وتوفي أبو الحسن فاسترد سلطانه ، ونازل خليفته الإمام الإباضي

محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦ وهُزم هزيمة لم تقم له بعدها قائمة . وانسحب النبهانيون إلى الجبل الأخضر .

وتصبح عمان تابعة للإباضية ، ويستردها سلطان بن محسن النبهاني سنة ٩٦٤ ويتولى عليها حكام نبهانيون ، حتى يستولى عليها منهم الإمام الخارجي ناصر بن مرشد اليعربي ( ١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ ) وكان البرتغاليون قد غزوا عمان سنة ٩١٣ واستولوا على بعض شواطئها ، فأخذ يناوشهم ، وظلت مدينتنا صحار ومسقط في أيديهم وقيل بل سقطت في يده صحار ، وخلفه سلطان بن سيف اليعربي ( ١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ ) وهو أهم اليعريين وأبعدهم شهرة إذ استطاع أن يطرد البرتغاليين من مسقط وصحار وبذلك طهر البلاد منهم . وبنى لعمان أسطولا ضخما حطم به أسطول البرتغال وسيطر على شواطئ إفريقيا والهند ، وكانت تتبعه مُمباسة في كينيا على ساحل إفريقيا الشرق وجزيرة زنجبار<sup>(١)</sup> وجزيرة سقطرة في بحر العرب ، غير أن أسرته ضعفت بعده .

وتخلف أسره اليعريين في حكم عمان أسرة البوسعيديين على يد مؤسس دولتهم أحمد بوسعيد الذي جمع زمام الحكم في عمان جميعها بيده سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م ورد القرس على أعقابهم سنة ١١٦٣ هـ / ١٧٤٩ م حين حاولوا غزو بلاده . ومن حكام هذه الأسرة البوسعيدية سعيد بن سلطان الذي ولي عمان سنة ١٢٢١ هـ / ١٨٠٦ م وظل في الحكم خمسين عاما . وقبيل عهده استقلت عن عمان رأس الخيمة في مدخل الخليج العربي بزعامة القواسم ، وكانت إمارتهم تمتد من مسقط إلى قطر فتشمل الشارقة وكانت عاصمتهم . وأخذ الأسطول الإنجليزي يظهر في هذه الأنحاء ، فكان القواسم يقاومونه مقاومة عنيفة . وسرعان ما تزعم «دُبي» آل بوفلاسا سنة ١٢٤٩ هـ / ١٨٣٣ م كما تزعم «أبوظبي» آل فلاح وظلت أسرة البوسعيديين تحكم عمان إلى اليوم وتحلت منذ قيامها عن لقب الإمامة واكتفت بالسلطة الزمنية واستطاع الإنجليز منذ سنة ١٢٢٤ هـ / ١٨٠٩ م أن يقيموا لهم حاميات على شواطئ عمان ، وظلوا بها إلى أن أرغموا على الخروج منها نهائيا .

### البحرين ودوها<sup>(١)</sup>

يقول ياقوت : « البحرين » اسم جامع لبلاد واسعة على ساحل البحر الواقع بين جزيرة

(١) زنجبار : جزيرة صغيرة بالقرب من ساحل تنزانيا  
سكانها عرب مهاجرون من منطقة الخليج العربي وكانت تتبع عمان غير أنها كانت تتمتع باستقلال ذاتي .  
(٢) انظر في البحرين ودوها تاريخ ابن الأثير والجزء الرابع من تاريخ ابن خلدون ومعجم البلدان لياقوت في مواضع متفرقة وصحح الأعشى والضوء اللامع في =

العرب وبلاد فارس تمتد من البصرة شمالا إلى عمان جنوبا ومن صحراء الدّهناء غربا إلى البحر (خليج العرب) شرقا . وهى بذلك كانت تشمل إقليم قَطْر والإقليم الشرقى للمملكة العربية السعودية الآن المشتمل على الأحساء والقطيف وهجر ، ومجموعة من الجزر ( البحرين الحالية ) أكبرها جزيرة أوال ومساحتها نحو خمسة وثلاثين ميلا طولا ونحو عشرة أميال عرضا .

وقد سيطر القرامطة على هذا الإقليم مدة متطاولة من الزمن ، إذ غلب عليها بنو الجَنَّاتى بقيادة أبى سعيد سنة ٢٨٦ للهجرة وقد بدأ بالاستيلاء على القَطِيف . وفى سنة ٢٨٧ غلب على هجر ، وسرعان ما تم له الاستيلاء على الإقليم جميعه ونشر فيه عقيدته القرمطية. وقد تحدثنا فى العصر العباسى الثانى عن هذه العقيدة وعن أبى سعيد وابنه أبى طاهر وإغارته على مكة واستباحته دماء الحجاج ، واقتلاعه الحجر الأسود ونقله إلى بلاده ، ونهبه ما كان بالكعبة من تحف . ولما رجع إلى البحرين رماه الله فى جسده ، حتى طال عذابه وتقطعت أوصاله وأطرافه وهو ينتظر إليها ، ولعذاب الآخرة أشد وأنكى . وفى سنة ٣٣٩ ردّ الحجر الكريم إلى موضعه . وفى عقيدتهم - كما صورناها فى كتاب العصر العباسى الثانى -- ضلال كثير . ويبدو أن علاقهم بالفاطميين - وكانوا لا يزالون فى المهديّة بجوار تونس - أخذت فى الفتور . حتى إذا كانت سنة ٣٥٨ قطعوا علاقهم بهم وأعلنوا خضوعهم للدولة العباسية . ومن أهم أمرائهم الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم حفيد أبى طاهر ، وكان فارسا وشاعرا مجيدا تولى بعد أبيه سنة ٣٥٩ واتفق فى السنة التالية مع الخليفة العباسى المطيع لله على محاربة الفاطميين ، فأمدّه بالمال والسلاح ، وزحف على الشام تحت الرايات السود شعار الدولة العباسية ، وبذلك تنكر نهائيا للمذهب الإسماعيلى الفاطمى أساس عقيدته القرمطية ، وقد استطاع الاستيلاء على دمشق والرملة ، وأتجه بجيشه نحو مصر ، والتقى بالفاطميين وعساكرهم المغاربة فى عين شمس ، وكاد ينتصر عليهم لولا خروج بعض قواده عليه وانضمامهم إلى الفاطميين ، فعاد إلى الشام ومنها إلى البحرين . ومر بنا فى حديثنا عن نجد نقل العزيز الفاطمى لجنده من بنى سليم وبنى هلال بن عامر إلى الصعيد وانتقالهم منها فيما بعد إلى المغرب . وفى سنة ٣٦٥ عاد الأعصم إلى الشام لمساعدة أفتكين الرومى مولى البويهيين ضد جوهر الصقلى القائد الفاطمى ، ولكن الموت عاجله بالرملة سنة ٣٦٦ .

- أعيان القرن التاسع لسنخاوى وديوان ابن مقرب  
العيون وتحفة المستفيد بتاريخ الأحساء فى القديم والجديد  
للشيخ محمد بن عبد الله آل عبد القادر (طبع الرياض) وما بعدها .  
الحياة ببيروت) ومقدمة تاريخ العرب الحديث ١/ ٢٤٩

وتولى أمر القرامطة بعده ستة نفر ، وأخذت دولتهم في الاضمحلال . ولا نصل إلى سنة ٣٧٨ حتى يجمع شخص يسمى الأحيفر من بني المتفق بن عامر بن عَقِيل جمعا كبيرا ، وينازل به القرامطة ، ويستولى منهم على القطيف ، ولا تقوم لهم بعد ذلك قائمة . وعمت الفوضى في البحرين إلى أن غلب عليها نهائيا الأصفرين أبي الحسن الثعلبي سنة ٣٩٨ وكان يخطب للطائفة العباسية ، واستقرت الدولة له . واختلفت في أيامه قبيلة بنو ثعلب مع بني عَقِيل ، فأخرجوهم من ديارهم إلى العراق ، وطالت أيام الأصفر ، واتسع به ظموحه ، فحاول التغلب على الجزيرة والموصل ، ونازله بنو عقيل هناك سنة ٤٣٨ وعاد إلى البحرين ووافاه أجله . وبقي الملك في البحرين بعده متوارثا في بنيه إلى أن ضعفوا وتلاشوا .

وتخلفهم دولة بني العيوني بزعامه مؤسسها عبد الله بن علي . إذ استطاع الاستيلاء على البحرين بمساعدة ملككشاه السلجوقي سنة ٤٦٦ وقد جعل همه القضاء على البقية الباقية من دعوة القرامطة ، وكان لا يزال لها في البحرين أتباع كثيرون . وتوفى سنة ٥٠٠ للهجرة ، فخلفه ابنه الفضل إلى سنة ٥٠٧ ووليها بعده ابنه محمد المكي بأبي سنان حتى مقتله سنة ٥٢٥ وكان ذلك فاتحة عهد سيئ من المنازعات بين أبناء الأسرة . ووليها بعده ابنه أبو فراس غرير ، وولى الأحساء في أيامه عمه عبد الله بن علي وولى ابنه أبو الحسن القطيف . والمصدر الوحيد لتاريخ هذه الأسرة ديوان ابن المقرب الذي يقدم لنا تفاصيل كثيرة عن ولاية البحرين العامين من العيونيين وولاية مدنها المختلفين . ويختلط بعضهم ببعض في الديوان ، ومن أهمهم محمد بن أبي الحسين الذي تولى زمام الأمور في البحرين سنة ٥٨٤ وقد استطاع أن يفرض نفوذه على قبائل نجد مما جعل الخليفة الناصر ( ٥٧٥ - ٦٢٢ هـ ) يعهد إليه بمخافة الحاج من بغداد إلى مكة ذهابا وإيابا وفرض له نظير ذلك ألفا وخمسمائة حمل حنطة وشعير وأرز وتمر وألفا ومائتي ثوب أكثرها من الإبريسم . وسمع في سنة ٥٩٨ بأن بعض عشائر من طيئ تنجمع في طريق مكة لقطع الطريق على الحجاج ، فنكل بهم تنكيلا شديدا . وجمعوا له جموعا كثيرة ولكنه أنزل بهم هزيمة ساحقة ، مما جعل جميع قبائل نجد تدين له بالولاء كما جعل الأمن يعم الجزيرة . ويغتال سنة ٦٠٣ ويخلفه غرير بن الحسن بن شكر ، ويسلبه الإمارة الفضل بن محمد بن أبي الحسين ويفتك به تاراً لأبيه . وتكثر الخلافات والحروب بين أبناء الأسرة ، وتأخذ في الضعف تدريجاً ، ويستولى أبو بكر بن سعيد أحد ملوك فارس على جزيرة أوال ( البحرين الحالية ) سنة ٦٣٣ ويكون ذلك إيذاناً بانتهاء دولة العيونيين .

ويقلب على البحرين بعد هذه الدولة دولة بني عصفور من بني عامر بن عوف العقيليين ، وتتوطد العلاقة بينهم وبين سلاطين مصر المماليك بعد هزيمتهم للتتار ، ويقدم منهم وفد على السلطان بيبرس فيكرم وفادته ، ويظنون يقدون على المماليك . وعلى رأس سنة سبعمائة للهجرة يتقل ملك البحرين إلى سعيد بن مغاس من بني جبر ، ويتزعمها منه بنوجروان من بني عامر بن عوف العقيليين ويظنون يحكونها حتى سنة ٨٢١ وفي عهدهم استولى المغول على جزيرة أوال وظلت في أيديهم مدة .

ويعود بنو جبر إلى الاستيلاء على البحرين ، إذ خلصها من بني جروان سيف بن زامل ، واتسع نفوذه في نجد ، وخلفه أخوه زامل ثم ابنه أجود . ودب الشقاق بين أبناء الأسرة ، فأخذها منهم راشد بن مغاس . وفي هذه الأثناء وفي غفلة من حكام البحرين استولى البرتغاليون في سنة ٩٢٢ على جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقطيف وقطر ، وظلوا بتلك الديار حتى طردتهم منها الدولة العثمانية وسرعان ما استولت على الأحساء سنة ٩٦٣ .

وقد انفصلت قطر عن البحرين قبيل نهاية القرن العاشر الهجري بزعم آل ثاني ، وكانوا من يبرين ، فزاحموا قبيلة عبد القيس وتغلبوا عليها . أما بقية البحرين الشاملة حسب اصطلاح هذا العصر للأحساء والقطيف أو بعبارة أخرى للإقليم الشرق من المملكة العربية السعودية ، والشاملة أيضا لجزيرة أوال فقد قام عليها بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ واستولى عباس الصفوى على أوال سنة ١٠٩٢ وظلت تابعة للدولة الصفوية حتى سنة ١١٢٣ واستولى عليها بعد ذلك نادر شاه ملك فارس سنة ١١٥٠ واستخلصها سنة ١١٩٧ هـ / ١٧٨٢ م أحمد بن محمد بن خليفة من أهل الزبارة ولا تزال أسرته تحكمها إلى اليوم ، ووقع أحدها وهو الشيخ محمد بن خليفة معاهدة مع الإنجليز سنة ١٢٨٤ هـ / ١٨٦٧ م دخلت أوال ( البحرين الحالية ) بمقتضاها في حمايتهم إلى أن استقلت أخيرا .

وظل على الأحساء والقطيف بنو خالد منذ سنة ١٠٨١ كما أسلفنا ، وكان أول من وليها منهم براك بن غرير حتى وفاته سنة ١٠٩٣ ، وخلفه ابنه أو أخوه محمد على اختلاف في الروايات ، فسعدون بن محمد ، فسلمان أخوه المتوفى سنة ١١٦٦ ووليها بعده عرعر ، فابنه بطين ، فأخوه دجين ، فأخوهما سعدون ، فأخوهم دوحس وقد اشتبك مع سعود ابن عبد العزيز سنة ١٢٠٤ هـ / ١٧٨٩ م في حروب رجحت فيها كفة سعود . وتتطور الظروف وتنشب الحرب بين محمد على والسعوديين . ويعود بنو خالد إلى حكم الأحساء والقطيف ، غير أن الحاكم السعودي تركي بن عبد الله يضطرهم إلى تسليمها سنة

١٢٤٥ هـ/ ١٨٢٩ م وتعودان إلى الدولة العثمانية سنة ١٢٨٨ حتى يستخلصها منها في العصر الحديث الملك عبد العزيز آل سعود .

وكانت قطر قد دخلت مع الأحساء والقطيف في حوزة العثمانيين سنة ١٢٨٨ هـ/ ١٨٧١ م وظل آل ثاني رؤساءها إلى أن رفض طاعة العثمانيين منهم الشيخ قاسم في العصر الحديث ، واستقل ببلادها سنة ١٣١٠ هـ/ ١٨٩٢ م وتظل أسرته متولية أمرها ومديرة شئونها إلى اليوم .

## ٢

### المجتمع<sup>(١)</sup>

يتقابل في الجزيرة أهل بواد وأهل حواضر ، والأولون عرب خُلص ، وقد دخل على الثانيين أخلاط من أجناس مختلفة إفريقية وآسيوية ، والغلبة للعنصر العربي فهو قوام الحواضر . وربما كانت مكة بالذات من الحواضر التي كثرت إليها تزوح الأجانب ، إذ توطنها كثيرون من المسلمين الوافدين عليها للحج ابتغاء رضوان الله ، وهم عناصر شتى من كل أنحاء العالم الإسلامي ، ومثلها المدينة وإن لم تبلغ درجتها من هذا التوطن . والعلاقة بين اليمن والحيشة قديمة مما جعل كثيرين من الأحباش والإفريقيين ينزلون بها ، ومرت بنا دولة آل نجاح في زبيد ، وهم أحباش أو من أصل حبشي . ومن قديم كان الفرس ينزلون في عمان ومدن الخليج . وكان كثير منهم يستوطنها ، ولا يزال هذا شأنهم إلى اليوم . وبالمثل كان ينزل في مدن الخليج وعمان إفريقيون كثيرون ، وثورة الزنج بالبصرة في القرن الثالث الهجري مشهورة ، ونسمع عنهم بعد ذلك كثيرا في البحرين ، وكانوا كثيرين في عمان منذ أخذت تستولى في القرن الثالث على سُقَطرة وبعض الجزر ، ونراها بعد ذلك تستولى على زنجبار وبعض شواطئ إفريقية الشرقية .

وكان عرب نجد يعيشون معيشة بدوية تعتمد على رعي الإبل والأغنام . ويحفظها غير

عبد غانم ( نشر وطبع دار الكاتب العربي ببيروت )  
ورحلة ابن بطوطة ودويان ابن مقرب العموي وخفة  
الستفيد بتاريخ الأحساء في القديم والحديث وخفة الأعيان  
بسيرة أهل عمان للسالمي وقلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة

(١) انظر في مجتمع الجزيرة صحح الأعرشي والنجوم  
الزاهرة في مواضع متفرقة وتاريخ اليمن لعازة ومروج  
الذهب للمسعودي : الفصل الخاص بالغايات والموسيقى في  
الجزء الرابع والعقود اللؤلؤية للجزري وعنوان الحمد في  
تاريخ نجد لابن بشر وشعر الغناء الصنعاني للدكتور محمد

قليل من شظف العيش ، مما جعلهم أذق جعل منهم عشائر تتعرض أحيانا للحجاج وتنهب ، وكانت بغداد ثم القاهرة تقاومهم بصور كثيرة ، منها إرسال الحجاج في قوافل مع حاميات ، ومنها أن يعهد البغداديون لعرب البحرين أو لبني عَقِيل أو لبني أسد أن يحموا الحجاج ، وكانت القاهرة بدورها تعهد لآل الجراح في العهد الفاطمي وآل فضل في العهدين الأيوبي والمملوكي بأن يؤمنوا السبل للحجاج المصريين والإفريقيين .

وكان وراء مكة والمدينة في الحجاز مدن وقرى كثيرة على شيء من التحضر ، نجد ذلك في الطائف وفي جدة وفي يَنبَع وفي خَيْبَر وفي وادي القرى ، حيث يقم الناس في دور شيدوها ويستقرون بها . وهذا الاستقرار أساس التحضر وال عمران إذ يتجه الناس إلى عمل يُقيمون به أود حياتهم ، وكان الزراعة ، إذ نجدها في كل هذه المدن . وطبيعي أن ينشأ في المدن بجانب الزراع صناعات ينهضون بالحرف المختلفة من عمارة ونجارة وحياسة ، وكذلك تجار يصدرون بعض ما يفرض عن حاجة مدنهم كالتمر مثلا ، ويستوردون بعض ما يحتاجه سكانها من توابل وغير توابل . وتشتهر المدينة بكثرة زروعها ، وكانت مصر منذ العصر الفاطمي ترسل إليها وإلى مكة بكميات كبيرة من القمح سنويا واستمر ذلك في زمن صلاح الدين والأيوبيين ثم في زمن المماليك . وكان ينزل المدينتين المقدستين كثير من الحجاج والزوار سنويا ، فيشيعون فيها الرخاء ، وأهل ذلك لقيام إمارة كبيرة للحسينيين في مكة وإمارة أخرى للحسينيين في المدينة .

وقد وصف القرآن الكريم اليمن بأنها (جَنَّاتٍ عن يمين وشمال) . ومعروف أنه تهب عليها الرياح الموسمية صيفا ، فتَهطل بها أمطار غزيرة تغذي المروج والزرور والأشجار المتكاثفة ، ويزرع أهلها في الأودية والسهول الحنطة والشعير والذرة والأرز والسقم ، ومن فواكهها العنب والرمان والتفاح والخوخ والموز والليمون والبطيخ والسنبل ، ومن حيوانها الخيل العربية والبغال والإبل والبقر والغنم والغزلان والقردة . ومن أهم مصادر ثروتها التجارة وما يحمل إليها من إندونيسيا والهند وإفريقية الشرقية والحبشة والصين . وعدن ميناؤها ، ويقول القدماء إنه «لم يكن يخلو أسبوع من عدثة سفن وتجار واردين عليها وبضائع شتى ومتاجر متنوعة ، والمقيم بها في مكاسب وافرة وتجارة مربحة» . ومر بنا في حديثنا عن دول اليمن ذكر أربع مدن ، هي زَبِيد وصنعاء وصَعْدَة وتَعَزَّ ، وزبِيد بتامة اليمن في سهل من الأرض وبها نخيل كثير ، وكانت مسورة وبها قلعة ، وصنعاء في منطقة الجبال بوسط اليمن ، وهي كثيرة الزروع والفواكه ، وصعدة في منطقة جبلية وعرة شالالا ، أما تَعَزَّ فحصن في الجبال جنوبي اليمن مطل على تهامة وأراضى زبِيد . وكان الرسوليون يقيمون بها

صيفا ويزيد شتاء . واليمن بها قدمنا بلاد ذات ثراء عظيم . وقد قامت بها قديما دول وحضارة باذخة ، فلا غرابة أن كان أهلها في هذا العصر يتمتعون بغير قليل من نعم الدنيا وخاصة الحكام والوزراء والقادة وكبار التجار ، وينقل صبح الأعشى عن بعض الأقدمين قوله : « لأكابر اليمن حظ من رفاهية العيش والتنعم والتفتن في المأكل : يُطْبَخ في بيت الرجل منهم عدة ألوان .. وتطيب أوانيها بالعطر والبخور ، ويكون لأحدهم الحاشية والغاشية ، وفي بيته العدد الصالح من الإماء ، وعلى بابة جملة من الخدم والعبيد والخصيان من الهند والحبوش ، وهم الدور الجلييلة والمباني الأنيقة ، إلا الرُخام ودهان الذهب واللازورد فإنه من خواص السلطان لا يشاركه فيه غيره من الرعايا» . وبدل من بعض الوجوه على ما كان في اليمن من ثراء ما يذكر عن بعض وزراء بني نجاح في يزيد من أنه كان جوادا وأن نفقة مطبخه في شهر رمضان كانت تبلغ كل يوم ألف دينار . ويبدو أن مجتمع اليمن كان يكتظ بكثير من الجوارى والإماء ، ويذكر عمارة اليمنى أنه كان لآل نجاح أكثر من ألف أمة ، وقد أشاع الإماء والجوارى في قصور آل نجاح وغيرهم الغناء والطرب . والغناء قديم في اليمن ، وأشار المسعودى إلى أنه كان باليمن لعصره صنفان من الغناء حميرى وحنى ، ولعله يريد صنفا قديما يرجع إلى عهد الدولة الحميرية قبل الإسلام وصنفا إسلاميا حننياً أو حنيفياً . ولا نسمع بعد زمن المسعودى المتطابق مع أول هذا العصر عن مغنين أو مغنيات إلا ما ذكره عمارة في زمن آل نجاح كما أسلفنا . ويبدو أن الأئمة الزيديين في صعدة لم يفسحوا للغناء بل حاربوه طوال عصورهم ، أما الدول الأخرى فلعلها فسحت له ، يدل على ذلك ما يذكر من غناء ورقص في بعض الاحتفالات ، ومن أهمها احتفال السلطان الرسول الأشرف لسنة ٧٩٤ بختان أبنائه وهو احتفال له دلالات كثيرة ، ولا بأس من أن نوجزه نقلا عن الخزرجى في كتابه العقود المأثورة إذ يذكر أن الإعداد لهذا الاحتفال بدأ في شهر شوال عقب عيد الفطر وأنهم أخذوا يحضرون الطير وأنواع الحيوان والأطعمة والبقول والتوابل والفواكه وأنواع الطيب والرياحين مما لا حصر له وألوان الحلوى . ويُعدُّ الخزرجى أسماء الآنية وأنواعها الكثيرة ويذكر أن الأمراء وكبار رجال الدولة قدم كل منهم هدية ، وكان كل من يقدم هدية يجعل معها المغاني والرياحين والبواقين يزفونها إلى باب الدار . وأقيمت للناس أربعة سبّاطات : سبّاط الطعام وسبّاط الحلوى وسبّاط المكسرات من اللوز والجوز والفسق والبندق وسبّاط رابع خاص بالخطور والمباخر ، ويشمل المسك والصندل والعود والبنفسج والنعير والغالية وماء الورد . ويذكر الخزرجى أنه كان هناك من المغاني والراقصات ما أدهش الحاضرين ، وفي ذلك ما قد يدل

على أن الرسولين لم يحاربوا الغناء في دولتهم ، بل لعلهم شجعوا عليه . ويذهب الدكتور محمد عبده غانم إلى أن الغناء الصنعاني العربي التي اشتهرت به صنعاء واليمن ربما بدأ في أواسط العصر الرسولي أو في أواخره . وفي رأبي أنه على الرغم من محاربة الأئمة الزيدية له كانت هناك نهضة غنائية في صنعاء وغيرها من مدن اليمن ، على الأقل منذ العهد الرسولي ، كما تدل على ذلك المغاني والراقصات في الاحتفال السابق ، بل لعلها تتقدم هذا العهد متصلة بزمن النجاحيين في القرن السادس ، إذ نجد لابن سناء الملك المصري المتوفى سنة ٦٠٨ وابن النبيه المصري المتوفى سنة ٦١٩ وابن الفارض المتوفى سنة ٦٣٢ أشعارا يلحنها اليمنيون بألحان غنائهم الصنعاني ، على نحو ما عرض ذلك الدكتور غانم في كتابه ، وأبضا فإننا نجد للشاعر اليمني ابن هتيميل شاعر القرن السابع الهجري أشعارا ملحنة بهذا الغناء ، وكذلك للبرعي الشاعر اليمني الصوفي المشهور في القرن الثامن ، وتتوالى بعد ذلك الأغاني في شعر القاضي موسى بن يحيى مهران والأمير الزيدى محمد بن إسحق . وتكثر الأغاني الشعبية الصنعانية ، وكل ذلك دليل على نهضة غنائية باليمن .

وأشار الخزرجي في الاحتفال السابق إلى أنه حضره كثيرات من النساء المُخصَّصات (العفيفات) وكثيرات من نساء الأمراء المقدمين. ولعل في ذلك ما يدل من بعض الوجوه على أن المرأة كانت تخطى في اليمن بغير قليل من الحرية . ومررنا أن أسماء زوجة علي ابن محمد الصليحي كانت من فضليات النساء ، وكان الناس من شعراء وغير شعراء يقصدونها فتيهم ، وكان ابنها المكرم يجلبها إجلالا عظيما ، وكانت لا تستر وجهها من الحاضرين ، وكان زوجها يكل إليها تدبير بعض شئون الدولة .

وحيث مرض ابنها المكرم بالفالج فوُض شئون الدولة إلى زوجته الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحي سنة ٤٦٧ فأحسنت القيام عليها وتديرها إلى أن توفى سنة ٤٨٤ وتولت بعده شئون الحكم ، كما مررنا . إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ وهي التي أمرت ببناء جامع جبلة والجناح الشرقي في جامع صنعاء .

وكانت حَضْرَ مَوْتٍ من قديم متصلة باليمن ، بل كانت أحيانا تعد جزءاً منها ، وكان واليها في القديم هو نفس والي اليمن . وقد يعين عليها نائباً له ، وحدث ذلك كثيرا على نحو ما مررنا في تاريخها السياسي . ومما لا شك فيه أن اليمن تسبقها وتتفوق عليها أشواطاً في الخصب وكثرة الزروع . وهي بلاد جبلية يشقها واد عظيم تنفرع منه أودية مختلفة ، كما مررنا . وأهم حاصلاتها اللبان (الكندر) والحنطة والذرة والتمور ، وأهلها يهبطون في التحضر

درجات كثيرة عن أهل اليمن ، لشطف العيش بديارهم ، وهم ملاحون ممتازون وجعلت الملاحه شطراً كبيراً منهم تجاراً ، وإليهم يرجع الفضل الأكبر في نشر الإسلام بشرق إفريقيا وبالملايو واندونيسيا والهند . وهم بحق أبناء المحيط الهندي ، جابوه شرقاً وغرباً ، ونزلوا في أقاليمه ، وعاشوا سكانها ، وهم في كل إقليم نزلوه منزلة رفيعة وأموال وتجارات واسعة . وبجانب حَصْرَ مَوْتِ ظَفَار ، وطبيعتها واحدة ، فهي الأخرى جبلية ، وأهلها يزرعون الموز والخنطة والذرة معتمدين في ذلك على مياه الأمطار ، وهم يرعون الأنعام والأغنام ، ويشتهرون بترية نوع من الخيل الأصيلة وطبيعي أن يعنوا بصيد السمك لطول شواطئهم على المحيط الهندي أو بحر العرب . وسقطت إليهم بعض مظاهر الحضارة ، التي رأيناها في اليمن ، ويقول ابن بطوطة إنه شاهد الطبول والأبواق تضرب على أبواب أمراءهم بعد صلاة العصر من كل يوم .

وعُمان إقليم كبير في الجنوب الشرقي من الجزيرة ، وهي تطل على بحر العرب من جهة وعلى الخليج العربي من جهة ثانية ، وترسو بها السفن من الزنج والهند واندونيسيا ، وينزلها إيرانيون كثيرون من قديم ، وجعل ذلك أهلها يتألفون من عناصر كثيرة : عربية وإفريقية وإيرانية وهندية ، والغلبة للعنصر العربي . وبداخلها جبل عظيم الارتفاع تشعب منه تسعة أودية جميعها لبني رثام وبجنوبه مدينة نَزْوَى عاصمة الخوارج . ومن أهم موانئ عُمان صُحَار وكانت عاصمتها قديماً ، ومَسْقَط وهي عاصمتها الآن . وتكثر على سواحلها مغاصات اللؤلؤ ، وهي كثيرة التمور والفواكه والزروع من الخنطة والذرة والشعير . وقال ابن بطوطة عنها حين نزل بها سنة ٧٢٥ : إنها خصبة وبها أنهار وأشجار وبساتين وحدائق نخل وفاكهة كثيرة متنوعة ، ويصف نَزْوَى عاصمة الخوارج بأنها مدينة بنيت في سفح جبل ، تحفّ بها البساتين والأنهار ، ولها أسواق حسنة ومساجد معظمها ويذكر أن من عادات أهلها الأكل في صحون المساجد ، يأتي كل إنسان بما لديه من الأكل ، ويأكل معهم الوارد والصادر ، ويثنى على أهلها قائلاً : « لهم نجدة وشجاعة » . ثم يتحدث عن مدينة عمان وسلطانها أبي محمد بن نيهان ، ويقول إنه يجلس خارج باب داره في مجلس هنالك ولا حاجب عليه ولا وزير بين يديه ، ولا يمنع أحداً من الدخول عليه سواء أكان مواطناً أم غريباً ، ويكرم الضيف على عادة العرب ، ويعين له مدة الضيافة ويعطيه حسب قدره . ويلاحظ ابن بطوطة ملاحظة عامة ، هي نقص الغيرة هناك على النساء وأكبر الظن أنه بالغ في تصويره وملاحظته . وكل شئ يؤكد أن هذا الإقليم كان على شئ غير قليل من الثراء ، وهو ثراء مكّن سلطان بن سيف البعري في القرن الحادي

عشر من بناء أسطول ضخيم سحق به أسطول البرتغاليين واستولى على بعض شواطئ أفريقيا وجزر المحيط الهندي وبعض شواطئ الهند .

والبحرين شديدة الخصب ، وهي كثيرة العيون والفواكه والنخيل وبها من التمر أنواع لا تُحصى ومن زروعها الخنطة والأرز ، وكان يرد إلى موانئها وجزرها كثير من المراكب من الهند محملة بالعروض التجارية . وأخبار كثيرة تصور ما كان فيها من رواج وانتعاش اقتصادي ، من ذلك ما يروى من أن نجاراً غرقت سفينتهم بين جزيرة أوال (البحرين الحالية) والقَظيف ، وسقط في الخليج كل ما كان معهم ، وعلم بذلك أمير البحرين العيوني الفضل بن عبد الله (٥٠٠ - ٥٠٧ هـ) فتقدم إليهم أن يكتب كل تاجر ما كان يعمله وقيمه نقداً ، وأعطى كلا منهم ما فقده كاملاً . وكان بينهم جوهرى ، قال إنه كان يحمل عقوداً من اللؤلؤ قيمتها مائة ألف ، فأعطاه له . وهي مأثرة جلييلة وتدل على حال الإمارة حينئذ ، وأنها كانت في يسر . ولم يكن مثل هذه المأثرة خاصاً بأمر البحرين وحده ، بل كانت تشمل حكام مدنها ، ويروى أنه في عهد أميرها غرير الذى تولى إمارتها سنة ٥٢٥ أصابت أهل الأحساء سنة مجدبة . فأمر حاكمها على بن عبد الله العيوني بفتح خزائن الغلال والتمر وأن يأخذ منها الناس كل حسب حاجته ، وأمر بحط الزكاة والضرائب عنهم ، وما زال يوالى فتح خزائنه لهم حتى دارت السنة وأخصبت ديارهم . وكان يحكم القَظيف في نفس الفترة أبو الحسن بن عبد الله بن علي ، فلجأ إليه سبعون فارساً من قبيلة عبد القيس ، فأكرمهم ، وأمر لكل منهم بدار وما يلزمها من أمتعة وخدم . سوى إقطاعات مختلفة .

وفي كل البندان السالفة كانوا يفتنون في المطاعم ويكثرون فيها من التوابل وامتازت جميعاً بكثرة الأسماك ، ويكثر السردين في حضرموت ، ووراءه في شواطئ الشحر واليمن وعمان والبحرين أنواع سمك لا تكاد تحصى ، ويكثر في الخليج الأمور (الوقار) والرَّبيان (الجنبرى) . وكانت المرأة تفتن في زينتها وثيابها وفيها تتخذ من حلى . وكانوا يحتفلون احتفالات كبيرة بعيدى الفطر والأضحى . وكان الغناء منتشرًا وخاصة في اليمن كما أسلفنا ، وكانوا يخرجون للصيد والطرود في الصحراء من حولهم فرادى وجماعات .

## الشيع (١)

عرفت الجزيرة العربية كل نحل التشيع الأساسية ، وهي الزيدية والإسماعيلية والإمامية والكيسانية ، وأطولها عمراً وأكثرها بقاءً وأوسعها انتشاراً نخلة الزيدية أتباع زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذي ثار بالكوفة على هشام بن عبد الملك سنة ١٢٢ وقتل وصلب ، وكان يرى أن الإمامة مقصورة على أبناء السيدة فاطمة ، ولا مانع من أن يكونوا من أبناء الحسن أو الحسين ، وكان يجوّز إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك جوّز إمامة أبي بكر وعمر مع وجود علي بن أبي طالب لمصلحة رأها الصحابة وقاعدة دينية اتبعوها . وخالف بذلك جميع مذاهب الشيعة ونحلهم ، فكانت نخلته معتدلة ، لا تؤمن بفكرة النص على الإمام ، ولا بأن وحياً نزل يعين الأئمة . وكان يشترط في الإمام أربعة شروط : العلم والزهّد والشجاعة والسخاء ، وهو لا يكون إماماً إلا إذا ثار على الخليفة في عصره وطالب بالخلافة ، والإمامة بذلك عند الزيدية لا تعرف فكرة الإمام المستور مثل الإسماعيلية ولا فكرة الإمام المحتفى مثل الاثني عشرية والكيسانية .

وكل من ثار على العباسيين من العلويين وحمل السيف ضدهم في القرنين الثاني والثالث للهجرة كان من هذه الفرقة ، وفي مقدمتهم محمد بن عبد الله « النفس الزكية » الذي أعلن ثورته في المدينة على المنصور العباسي سنة ١٤٥ وكان قد أرسل أخاه إبراهيم إلى البصرة ، فاستثار أهلها ، وهبوا معه ثائرين ، وقضى المنصور على هذه الثورة . وظلت ثورات الزيديين بعد ذلك لا تهدأ إذ يخرج الحسين بن علي الحسني في مكة والحجاز ، ويهزم هو ومن معه لعصر الهادي سنة ١٦٩ في مكان يقال له « فَحْج » ويفرّ خاله إدريس بن عبد الله إلى قاصم ويؤسس بها دولة الأدارسة . ويفرّ أخوه يحيى إلى خراسان ويُقبض عليه ، ويلقى به في غياهب السجون حتى موته . ويثور محمد بن إبراهيم الحسني المعروف بابن طباطبا في الكوفة لعهد المأمون ، ويُقبض على ثورته . وينشط الزيديون في طبرستان

للغزالي رسالة افتتاح الدعوة للقاضي النعمان بن محمد تحقيق د. وداد القاضي (طبع بيروت) ومقدمة ابن خلدون وعجز الإسلام والجزء الثالث من ضحى الإسلام لأحمد أمين والعقيدة والشريعة في الإسلام لجولد تسيير .

(١) انظر في التشيع وعمله مقالات الإسلاميين للأشعري والفرق بين الفرق للبعداي والملل والنحل لشهرستاني وعقائد الشيعة الإمامية لابن بابويه القمي وفرق الشيعة للتونجي والتصير في الدين للإسفرائيني وفضائح الباطنية

بالنصف الثاني من القرن الثالث ، وقد صورنا نشاطهم هناك في الجزء الرابع من هذه السلسلة الخاص بالعصر العباسي الثاني .

وأكبر نشاط للزيدية إنما كان في اليمن والحجاز ، أما اليمن فقد أسس فيها إمامة الزيدية الإمام يحيى بن الحسين بن القاسم الملقب بالهادي إلى الحق ، واتخذ مقراً له - كما مرّ بنا - «صَعْدَةَ» في الجبال الشمالية باليمن سنة ٢٨٤ وتوالى بعده في صعدة الأئمة من أبنائه ، حتى سنة ٤٣٧ إذ تولى الإمارة أبو الفتح الديلمي الحسني كما مرّ بنا ، ووليها بعده أصحاب المخلاف السليمانى ، وتعود إلى الأسرة الرّسّية : أسرة الإمام الهادي إلى الحق وتظل في أبناء المتوكل على الله الرّسى ، كما أسلفنا . وتمر أوقات رخاء على هذه الإمارة الزيدية ، فتسع رقعتها وتستولى على صنعاء أحياناً . ولا يزال أئمتها صامدين طوال أزمنة الأيوبيين والرسوليين والظاهرين ، ثم يصبحون وحدهم وجهاً لوجه أمام العثمانيين ، ويستخلصون منهم اليمن على نحو ما مرّ بنا . أما الحجاز فكان مركز الزيديين فيه مكة ، وظلت إمارتهم قائمة فيها منذ أواسط القرن الرابع الهجرى حتى العصر الحديث ، وإن أخذت تلك الإمارة في التضعف والضعف منذ استيلاء العثمانيين على الحجاز ومدنيته في القرن العاشر الهجرى .

ومرّ بنا في الجزء الخاص بالعصر العباسي الثاني حديث مفصل عن نخلة الإسماعيلية وأن أصحاب هذه النخلة ينسبون إلى إسماعيل بن جعفر الصادق ، وكانت قد أدركته المنية في حياة أبيه ، فقالوا إن الإمامة انتقلت منه إلى ابنه ، لأنها - في رأيهم - تتوارث في الابن الأكبر حتى لو توفي قبل أبيه كما حدث لإسماعيل . ويخلفه - في عقيدتهم - ابنه محمد ، ويخلف محمدًا ثلاثة أئمة مستورون جاء في إثرهم عبيد الله المهدي أول الخلفاء الفاطميين ومؤسس خلافتهم ، وتلقيه بالمهدي يشير إلى عقيدتهم في المهدي المنتظر . وعرضنا في العصر العباسي الثاني تفصيلاً لتلك النخلة وأهم مبادئها وأن الذي نظّمها وكوّن حولها جمعية سرية عبد الله بن ميمون القداح ، وكان ينزل في سَكْمِيَّة بقرب اللاذقية ، واتخذ له دعاة من أهمهم شخص يسمى حمدانا ويلقب بقرمط ، وقد أرسل به إلى الكوفة وسوادها ، وإليه ينسب القرامطة ، وكان يدعو في جماعته إلى الأخذ بنظام الألفه ، وهي الشركة في الأموال . وزعم ، وزعم معه القرامطة ، كما يقول البغدادي «أن الأنبياء كانوا أصحاب نواميس ومخاريق أحبوا الزعامة على العامة ، فخدعوهم ببيّرنجات (ضروب من السحر) واستعبدهم بشرائعهم» وقالوا : «هل الجنة إلا هذه الدنيا ونعيمها ، وهل النار وعذابها إلا ما فيه أصحاب الشرائع من التعب والنصب في الصلاة والصيام والحج

والجهاد». ومن هنا كانوا يملّون أنفسهم من الفرائض ، واتخذوا بيت المقدس قبلتهم . والقرامطة - بهذا التصوير للبغدادى - كانوا فرقة مارقة من فرق الشيعة الإسماعيلية ، وكان من بين دعاة قرمط أبو سعيد الجنائى أرسل به إلى منطقة البحرين ، فاستجابت له هناك قبيلة عبد القيس ، مما أتاح له أن يؤسس هناك دولة القرامطة التى ظلت نحو تسعين عاما . وخلفه ابنه أبو طاهر وكان شريراً كبيراً ، وكثيراً ما قطع الطريق على الحجاج ونهبهم ، وكثيراً ما أغار على البصرة والكوفة وأحرق مساجدهما وأعمل فيها السلب والنهب . وفى سنة ٣١٧ حدثت الكارثة الكبرى بهجومه الوحشى على الحجاج فى موسم الحج يوم التروية وسفكه لدماء الآلاف منهم ورمى كثير من جثثهم فى بئر زمزم واقتلعه الحجر الأسود ونقله إلى البحرين على نحو ما مرّ بنا ، وهو فى أثناء ذلك ينشد أشعاراً كافرة مارقة . ونرى القرامطة فى سنة ٣٥٨ ينفضون أيديهم من الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، ومر بنا كيف أن الأعمش (٣٥٩ - ٣٦٦ هـ) حارب الفاطميين تحت ألوية الدولة العباسية سنة ٣٦٠ وظلت دولة القرامطة قائمة بعده - كما مرّ بنا - حتى سنة ٣٧٨ . وعلى الرغم من انتهاء دولتهم ظلت عقيدتهم منبثة فى البحرين إلى أن قامت الدولة العيونية سنة ٤٦٦ وقد عنى مؤسسها عبد الله بن على بالقضاء على تلك العقيدة وكان مما قضى عليه عادة سيئة لهم هى عادة الماشوش ، إذ كان يجتمع رجالهم ونساؤهم فى الليلة العاشرة من شهر المحرم ، ويشعلون الشموع والمصابيح ويغنون ويرقصون ، ثم يطفئون الشموع ويختلطون . ويبدو أن عبد الله العيونى لم يستطع استئصال العقيدة القرمطية من نفوس أهل البحرين نهائياً ، فقد ظلت منها بقايا بعده ، بل يقول فؤاد حمزة فى كتابه « قلب جزيرة العرب » ! إنها لا تعدم فى الأحساء - إن صح ما يقول - من يعتنقونها إلى اليوم . وعُرفت الدعوة القرمطية فى اليمن ، فقد أرسل إليها حمدان قرمط داعيتين من دعائه ، هما المنصور بن حوشب وعلى ابن الفضل وكان على من أهل اليمن بينما كان المنصور من أهل الكوفة ، ونزلا على حافة اليمن النجدية ، غير أن دعوتها اختلفت ، فكان المنصور يدعو للفاطميين قبل تحويلهم من إفريقيا إلى مصر منذ العقد الثامن من القرن الثالث الهجرى ، وكأنما نفّض يده من القرامطة ، وانتشرت دعوته فى بعض الجبال وبعض القبائل ، ويسميه الفاطميون منصور اليمن . وقد ظل أربعين عاما يدعو لهم ، إذ توفى سنة ٣٣١ وخلفه ابنه فى الدعوة وشركه فيها بعض اليمنيين إلى أن تزعمها الصليحي ، كما سنرى عما قليل . ونفّض على بن الفضل يده ولسانه من الدعوة الفاطمية ، فلم يدعُ للفاطميين ، بل أخذ يدعو لنفسه ، واستطاع الاستيلاء على صنعاء سنة ٢٩٣ وادّعى أنه من بنى يعرب أو قحطان ، كما مرّ بنا ،

واستحلَّ الحرام ، ودعا الناس إلى ارتكاب المآثم وانتهت دعوته بموته سنة ٣٠٣ كما قدمنا . وظل دعاة الفاطميين الإسماعيليين نشطين باليمن إلى أن استألوا على بن محمد الصليحي للدعوة الإسماعيلية ، واستطاع - كما رأينا في غير هذا الموضع - أن يؤسس الدولة الصليحية ، وأن يستولى على زبيد وصنعاء وعدن ، واتخذ صنعاء عاصمة له . وحرى بنا أن نتوقف قليلاً للحديث عن المذهب الفاطمي الإسماعيلي الذي كان يدين به هو وكثيرون من أهل إمارته . وقد ذكرنا آنفاً أن القرامطة كانوا فرعاً من المذهب الإسماعيلي ضلَّ هدها . وقد اتخذ هذا المذهب في أول أمره شكل جمعية سرية كَوَّن مبادئها عبد الله بن ميمون القدّاح ، وهي مبادئ عُمتت غمساً في نظرية الفيض الأفلاطونية التي سكبوها في نظرية الأدوار عندهم ، إذ يذهبون إلى أن الأئمة يتوالون في أدوار ، وكل دور يتألف من سبعة من هؤلاء الأئمة يتعاقبون والسابع هو العقل الكلي الناطق عن القوى الحارقة ، والأئمة الستة السابقون له نفوس كلية تمهد له وتدعم عمل الناطق قبل ظهوره . والإمام له نسبتان : نسبة إلى عالم القدس ، ونسبة إلى عالم الطبيعة . وفي مبادئهم أن قدرة الله تنتقل إلى العقل الكلي أو بعبارة أخرى إلى الإمام السابع في كل دور ، ولذلك يوصف - عندهم - بما توصف به الذات العلية من أسماء وصفات ، تعالى الله عن ذلك علواً كبيراً . وفي عقيدتهم أن آيات القرآن الكريم ينبغى أن تفهم فهماً باطنياً مجازياً ، ولا تفهم فهماً ظاهراً أو ظاهرياً ، حتى يؤوّلوها كما يشاءون . والمنظم في سلك الدعوة - عندهم - يتدرّج في سبع مراتب وبلغت تسعاً . وظلت الدولة الصليحية قائمة - كما أسلفنا - حتى سنة ٥٣٢ ولم تنته الدعوة الإسماعيلية بانتهائها فقد كان بنو زُرَيْع حكام عدن إسماعيليين فاطميين ، وظلوا على عدن حتى تسلمها منهم توران شاه سنة ٥٦٩ . وتلاشت بذلك الدعوة نهائياً بقضاء الأيوبيين عليها في اليمن ومصر ، وبقيت فترة حية في المدينة بالحجاز لما ذكرناه من أن الأسرة الحسينية الحاكمة هناك كانت إسماعيلية ، ونظن ظناً أن هذه الأسرة لم تمض بعد القضاء على الدولة الفاطمية الإسماعيلية بمصر في اعتناق هذه العقيدة طويلاً وأنها اعتنقت نخلة الشيعة الإمامية الاثني عشرية .

ومعروف أن النحلة الإمامية تسربت إلى شرقي الجزيرة ، وعند أصحاب هذه النحلة أن الإمامية تتوالى في اثني عشر إماماً . ولذلك يسمى أصحابها باسم الاثني عشرية ، وآخرهم المهدي المنتظر المتوفى سنة ٢٦٠ وقد ذهبوا إلى أنه لم يمّت وإنما غاب وسيعود ليملأ الأرض عدلاً . ولم تقم للإمامية دولة في الجزيرة العربية ، غير أنها تسربت إلى بعض البيئات وبعض الأسر في الخليج العربي ، وقد مر بنا أنه غلب على البحرين بعد القرامطة ولاة كانوا يدينون

بالولاء للخليفة العباسي وبالتالي للبويعيين ، ومعروف أنهم كانوا إمامية اثني عشرية ، وفي نفس التاريخ يحدثنا المؤرخون أنه كان في عُمان بيت إمامي اثنا عشرى هو بيت نبي المكرم ، وأنهم ، كما مر بنا ، دفعوا البويعيين إلى غزو عمان واستخلاصها من أيدي خوارج نَزْوَى ، وظلت هذه الأسرة الإمامية تحكم عمان حتى منتصف القرن الخامس الهجرى ، ولم يكن الإمامية غلاة متطرفين في التشيع مثل الإسماعيلية وهم يؤمنون برجعة الإمام الثاني عشر المحتفى كما أسلفنا . ولا يزال يوجد إماميون في الخليج العربي وإماراته إلى اليوم .

والكيسانية أتباع محمد بن الحنفية ، وهو أخ ربيب للحسن والحسين ، وقد تبعته منذ حياته فرقة كانت تؤمن بالتناسخ وبالرجعة وكان ابن الحنفية يتبرأ منها أشد التبرؤ ، ويتوفى ، فيقول أتباعه إنه لم يميت ، بل غاب في جبل رَضْوَى . ويقول فؤاد حمزة في كتابه « قلب جزيرة العرب » يوجد في الوقت الحاضر أتباع لمحمد بن الحنفية يقيمون في جبل رَضْوَى بالقرب من ينبع وهم على شيء عظيم من البداوة والتوحش والبعد عن مخالطة أهل المدن .

## ٤

### الخوارج : الإباضية<sup>(١)</sup>

الإباضية نسبة إلى عبد الله بن إباح التيمي أحد أربعة كانوا رؤوس الخوارج في منتصف القرن الأول الهجرى وحوهم تكونت فرقه الأساسية : الأزارقة والنجيدات والصفرية والإباضية ، والأزارقة أتباع نافع بن الأزرق وكان مسرح نشاطهم بلاد فارس وكرمان . والنَّجِدَات أتباع نجدة بن عامر الحنفي وكان مسرح نشاطهم اليمامة والبحرين ، والصفُرىة أتباع زياد بن الأصفر وكان مسرح نشاطهم الموصل وبلاد الجزيرة . وكان مسرح نشاط الإباضية عمان وحضرموت واليمن ، وقد انتهت الفرق الثلاث الأولى أو كادت بانتهاء العصر الأموى ، أما فرقة الإباضية فظلت حية لافى بيتها الأصلية عمان وحضرموت فحسب . بل أيضا في بلاد المغرب ، فقد ذهب هناك دعاة مبكرون في

(١) انظر فى الإباضية الكتب المذكورة فى تاريخ عمان وأمرائها والمنزل والنحل للشهرستانى ومقالات الإسلاميين للأشعرى والفرق بين الفرق للعداى وفجر الإسلام والضحى الإسلام لأحمد أمين وحاضر العالم الإسلامى لشكيب أرسلان ومختصر تاريخ الإباضية لأبى ربيع سليمان البارونى (طبع المطبعة السفلى بالقاهرة) .

العصر الأموي أو بعبارة أدق في أواخره ، وما زالت الدعوة تنمو في المغرب ، حتى استطاع الدعاة أن يكونوا دولة للإباضية في تيهرت . ولا يزال الإباضية بالمغرب إلى اليوم وخاصة في جنوبي الجزائر وليبيا .

أما في عُمان وحَضْرَمَوْت فقد اتخذ الإباضية نَزْوَى جنوبي الجبل الأخضر في داخل إقليم عمان مركزاً وحاضرة لهم وتوالى أئمتهم فيها منذ أول العصر العباسي ، وكثيراً ما كانت تخرج عمان والسواحل من أيديهم إلى أيدي العباسيين . وقد تغلب القرامطة على عمان سنة ٣١٧ كما مر بنا وظلوا بها حتى سنة ٣٦٢ ويعود إليها الإباضية غير أن بني مكرم الإماميين يستخلصونها منهم سنة ٣٩٠ ويضعف بنو مكرم فيعود إليها الإباضية من نَزْوَى قبيل منتصف القرن الخامس . وتخرج من أيديهم في القرن السادس ويتملكها بنو نهبان ، وتعود إلى الإباضية فترة في أول القرن العاشر الهجري ، ثم تعود إليهم نهائياً ويتولاها أئمة الإباضية اليعاربة منذ سنة ١٠٢٤ . وتختلفهم أسرة إباضية أخرى هي أسرة البوسعيديين منذ سنة ١١٥٤ هـ / ١٧٤١ م وتظل عليها إلى اليوم ، وترتك السلطة الدينية لأئمة نزوى وتكتفي بالسلطة الزمنية . ومن قديم كان يغلب على ظفار وحضرموت مذهب الإباضية . ومررنا أنه نزلها سنة ٣١٧ الشيخ أحمد بن عيسى جد آل باعلوى وقد نشر فيها مذهب الشافعي ودعوة علوية تحولت إلى دعوة سنية كانت تحدث تعادلاً مع دعوة الخوارج ، ولأسرته نشاط علمي وأدبي كبير في حضرموت ، ومررنا أن أبا إسحق الخارجي الحضرمي استقل بها في القرن الخامس ، وكان خارجياً يدين بالولاء لإباضية نزوى وإمامهم الخليل ابن شاذان ، وكثيراً ما كانت تخضع حضرموت وظفار للإباضية في نزوى أوفيا وفي عُمان . وقد نشر العمانيون المذهب الإباضي في زنجبار والبلاد التي كانت تتبعهم في شرقي إفريقيا مثل دار السلام ، ومعروف أنه أخذ يستقل بزنجبار فرع من أسرة البوسعيديين حكام عمان منذ الربع الأخير من القرن الثالث عشر الهجري .

ومذهب الإباضية أكثر مذاهب الخوارج قرباً إلى أهل السنة ، وهم يذهبون إلى أن دار مخالفيهم من المسلمين دار توحيد ويسمون الموحد العاصي كافراً ، ولا يقصدون بذلك أنه مشرك بالله ، بل يقصدون بكفره أنه كافر بالنعمة ، والكفر بذلك عندهم نوعان : كفر نعمة وكفر شرك بالله . وأحلوا التزوج من مخالفيهم من المسلمين وأن يتوارث الإباضي معهم . ولم يستحلوا من أموال المسلمين إلا غنائم الحرب ، وحرّموا قتل المسلمين غيلةً وكذلك سبّهم سراً . وقالوا إنه لا يجوز قتالهم إلا بعد دعوتهم إلى مذهبهم الإباضي وإقامة الحجة عليهم وإعلان الحرب . وأجازوا شهادة مخالفيهم على أوليائهم وأتباعهم ، وقالوا

في مرتكبي الكبائر إنهم موحدون لا يؤمنون ، وهم كفار نعمة لا كفار ملة . وعندهم أن الإيمان لا يكفي فيه القول ولا الاعتقاد والتصديق ، بل لا بد من العمل وأداء فروض الدين . ويتفقون مع المعتزلة في نفى رؤية الله تعالى بالأبصار يوم القيامة وينزهون الذات العلية عن الشبه بالمخلوقات ، ويقولون إن القرآن مخلوق حادث ، وإذا صح ما يقوله الشهرستاني كانوا يتفقون مع الأشعرية في رأيهم أن أفعال العباد مخلوقة لله تعالى إحدائاً وإبداعاً ومكتسبة للعبد حقيقة لا مجازاً . ولا يسمى إمامهم باسم أمير المؤمنين ، ولا يسمون أنفسهم مهاجرين .

وهذا الاعتدال في مذهب الإباضية يجعلنا ننفي عنهم نفيًا باتّادولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زيد باليمن سنة ٥٥٤ للهجرة كما مر بنا ، فقد تسمى مؤسسها بأمر المؤمنين كما تسمى بالمهدي ، وكأنه جمع بين فكرتي الشيعة الإسماعيلية والخوارج الغالين معاً مثل الأزارقة من جهة والقرامطة من جهة ثانية ، إذ كان - كما أسلفنا - يكفر بالمعاصي ويقتل من اقترف كبيرة وبالمثل كل من خالف عقيدته من المسلمين واستباح نساءهم وسمى دارهم دار حرب . وهو في ذلك كله غال غلوا شديداً حتى ليتقدم الأزارقة خطوة في الغلو ، ثم هو يدعى العصمة ويدعيها له أتباعه وهو في ذلك غال غلو الشيعة الإسماعيلية ، بل إنه ليعد نفسه المهدي المنتظر ، ولم ينبث توران شاه - كما مر بنا - أن قضى على من خلفه ودولتهم الخارجية الشيعية .

## ٥

### الدعوة الوهاية السلفية<sup>(١)</sup>

دعوة للرجوع إلى طريق السلف ونبد البدع التي شابت العقيدة الإسلامية ونبد تقديس الأولياء الصالحين والتوسل بهم إلى قضاء الحاجات . كالبركة في الزروع أو في الأغنام والأنعام أو في بره المرضى وشفائهم ، وابن تيمية المتوفى سنة ٧٢٨ للهجرة هو أكبر من حمل على البدع وما يتصل بها من تقديس بعض الأشجار

محمد بن عبد الوهاب للركني وعنوان المجد في تاريخ نجد  
لعنان بن بشر وررضة الأفكار لحسين بن غنام وزعماء  
الإصلاح لأحمد أمين والعقيدة والتسوية في الإسلام  
لجولد نسير

(١) انظر كتاب الإيمان لأن تيمية (طبع دمشق) وقاعدة  
جيليلة في التوسل والوسيلة ومجموعة الرسائل الكبرى (طبع  
القاهرة) وكتاب التوحيد وكشف الشبهات في التوحيد  
محمد بن عبد الوهاب طبع القاهرة ولع الشهاب في سيرة

والأحجار ، وكان حنبلياً يؤمن بعقيدة الحنابلة السلفية ، وقد مضى يحمل حملات شعواء على الصوفية وعقيدتهم ، وأنكر زيارة قبور الأولياء والتوسل بهم . وكان الغزالي قد وصل بين التصوف والشريعة محاولاً تخليصه من نظريات الحلول وما يتصل بها وجعله تصوفاً سنياً ، وقد شنَّ ابن تيمية على التصوف بعض الحملات العنيفة ، وناهض المذهب الأشعري وكل ما شاب العبادات والعقود والمعاملات مما رآه بدعاً جديدة .

وعلى هدى من هذه الدعوة التي وهب ابن تيمية نفسه ومؤلفاته لها انبرى محمد ابن عبد الوهاب المولود سنة ١١١٥ هـ / ١٧٠٣ م بالعيينة في إقليم سدير بأواسط نجد يدعو دعوة حارة إلى مبادئه ، وكان أبوه قاضياً للعيينة وعليه تلقى دروسه الأولى وكذلك على علمائها ثم على علماء المدينة فعلماء البصرة ، وأعجب بكتابات ابن تيمية فأكبَّ على قراءته ، وعاد إلى موطنه ، يدعو إلى مذهبه الحنبلي وإلى كل ما دعا إليه من عبادة الله دون استعانة بولي أو شفيع وتبذ كل البدع المستحدثة بعد عصر الإسلام الأول وكل تقديس للأولياء وزيارة لقبورهم بقصد التيمن أو البركة أو طلب بعض الأغراض الدنيوية ، والرجوع إلى السنة والعمل على إحيائها ، واتباع السلف في ذلك كله ، ولذلك يسمى الوهابيون أنفسهم سلفية . وكتب هذه الدعوة أن تعم وتنتشر حين وضع محمد بن سعود أمير الدرعية ( ١١٣٧ - ١١٧٩ هـ ) يده في يد محمد بن عبد الوهاب سنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وعاهده على أن ينشر دعوته السلفية وأن يقيم الحدود الشرعية ، وأن تصبح الدعوة عقيدة الدولة السعودية ، بحيث ينبذ النجديون البدع والخرافات ويتمسكون بأهداب الدين وأصوله من القرآن والحديث .

وأخذ محمد بن سعود وخلفاؤه يعملون على نشر الدعوة ، وأداهم ذلك إلى حروب طاحنة في الجزيرة انتهت بقيام المملكة العربية السعودية التي تُظَلُّ نجد والأحساء والحجاز اليوم . وفي الوقت نفسه أخذ محمد بن عبد الوهاب المتوفى سنة ١٢٠٦ هـ / ١٧٩٢ م في الدرعية يبيث تعاليمه وينشرها في أتباعه بمحاضراته ومصنفاته الكثيرة ، وفي مقدمتها كتاب التوحيد ومجموعة التوحيد إلى غير ذلك من كتب تنادي بعبادة الله وحده وأن زيارة قبور الأولياء لقضاء الحاجات ضرب من الشرك . وبالغ أتباعه في هذا المبدأ ففتنوا الاحتفال بالموالد وهدموا القباب المقامة على قبور بعض الصحابة والصالحين ، وتشددوا في قمع كل عادة مستحدثة وعدوها بدعة حتى التذكير قبل الأذان وحتى استعمال المسابح وكذلك لبس الحرير والتختم بالذهب . والدعوة الوهابية إنما كانت تريد أن يعود الإسلام إلى صورته الأولى ، كما كان في عصر الرسول صلى الله عليه وسلم . ولذلك دعت إلى نبذ كل

ما اتخذ صفة شرعية على مر الزمن من عادات وسنن لم تعرف في العهد الإسلامي الأول ، ونادت بأنه يجب إزالته ، حتى لو كانت بعض المذاهب السنية الأخرى أبحاثه ، بل حتى لو حذته . وكان اعتناق الحكومة السعودية لهذه الدعوة اعتناقاً في الوقت نفسه للمذهب الحنبلي ، وتوثقت مع الزمن العلاقة بين أسرة السعوديين وأ أسرة محمد ابن عبد الوهاب عن طريق المصاهرة ، وظلت للأسرة السعودية السلطة الزمنية ، بينما ظلت لأسرة ابن عبد الوهاب السلطة الروحية ، فلأولين الحكم والسياسة وللتانيين الإفتاء والتعليم والقضاء .

## ٦

الزهد والتصوف<sup>(١)</sup>

لم تكن نجد تعرف شيئاً عن الترف والنعم ، إذ كانت حياتها تقوم على غير قليل من الشظف ، فطبعي أن لا يتعلق الناس بمتاع الحياة الدنيا ، وحقاً كانت بعض القبائل النجدية تقطع الطرق على الحجاج في بعض السنوات طلباً لما في أيديهم من مال ومتاع ، ولكن كان وراءهم أقوام لا يفكرون في متاع الحياة العاجل انتظاراً لما عند الله من الثواب الآجل . ومعروف أن الوهابيين منعوا التلصص وقطع الطرق على الحجاج ، كما منعوا التصرف والانتساب إلى الطرق الصوفية .

وكانت المدينتان المقدستان في الحجاز ، ولا تزالان ، موئلاً للنسك والعباد ، ومن قديم كان يجاور فيها وخاصة في مكة كبار الزهاد والمتصوفة ، فيقيمون فيها بضع سنوات ، وقد ينفقون فيها العمر كله . ومعروف أن الحج ركن من أركان الإسلام وأن قواد كل مسلم يهوى إلى مكة لأداء فريضة الحج فكان طبيعياً أن لا يوجد زاهد ولا متصوف مشهور في العالم الإسلامي دون أن يفد على مكة ، وقد يقرن حجه بالزيارة النبوية . ونذكر من كبار المتصوفة الذين ألموا بمكة وجاوروا فيها الحلاج المقتول سنة ٣٠٩ للهجرة ، جاور فيها سنة كاملة . ومرّبنا في العصر العباسي الثاني ترجمة له وعرض لشعره الصوفي وبيان لتصرفه وأنه كان تصوفاً فلسفياً ، إذ جرت على لسانه كلمات الاتحاد

(١) انظر العقد الثمين في مواضع متفرقة وكتاب طبقات فقهاء اليمن للحمدي (طبع القاهرة) والعقود اللؤلؤية ، وتاريخ الشعراء الحضرميين لعبد الله السقاف وسلافة العصر لابن معصوم وشعراء هجر لعبد الفتاح الحلوه (نشر مكتبة دار العروبة) .

والحلول . ومن جاور في مكة بعده القشيري المتصوف السني المتوفى سنة ٤٦٥ وقد سمع بها الحديث ، وهو الذي رأب الصدع المتفاقم بين الفقهاء والمتصوفة ، ففتح عن التصوف أفكار الحلول والاتحاد والفتاء . وجعل من أول واجبات المتصوف أداء الفروض الدينية ، وجاور بمكة بعده شهاب الدين السُّهروردي شيخ الصوفية ببغداد المتوفى سنة ٦٣٢ وبها لقي ابن الفارض المتصوف المصري المشهور الذي كان يجاور هناك ، وطالت مدة مجاورته إلى خمسة عشر عاما طويلا ، وهو يطوف المشاعر مبهلا إلى الله متغنيا بالحلب الصوفي الإلهي ناظما أشعاره الرائعة . وإنشاد البوصيري لميمته أمام قبر الرسول ﷺ ذائع مشهور . ومن متفلسفة المتصوفة الذين جاوروا بمكة ابن عربي المتوفى سنة ٦٣٨ وفيها نظم ديوانه الصوفي «ترجمان الأشواق» سنة ٥٩٨ ووضع عليه بمكة أيضا سنة ٦١٠ شرحه المسمى : «الذخائر والأعلاق من شرح ترجمان الأشواق» وجاور بها أيضا من متفلسفة المتصوفة ابن سبعين الأندلسي المتوفى بها سنة ٦٦٩ بعد أن أقام بها سنين كثيرة . ومن ذكرناه من هؤلاء المتصوفة المجاورين بمكة إنها هم قليل من كثير ، وأكثر منهم من جاوروا بمكة من الزهاد والعباد وهم لا يحصون كثرة . وكان يتعبد الله معهم أهل المدينتين ومن كان بهما من النساك وإنهم ليفوتون الحصر والاستقصاء ، ولتأخذ مثلا كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين «مكة» فإن من يتصفح تراجمه في مجلداته الثانية لا يزال يتنقل فيها من زاهد إلى زاهد ومن عابد إلى عابد .

وإذا ولينا وجوهنا نحو اليمن وجدنا كتاب طبقات فقهاء اليمن لعمر الجعدى لا يزال يتحدث عن زهد كثير من هؤلاء الفقهاء وإعراضهم عن متاع الدنيا الفاني ، وحقاً أكثرهم من فقهاء زبيد الشافعية ، ولكن الزهد كان يجيى في كل البيئات وفي كل المدن . وكان كثير من أئمة الزيدية في صَعْنَة على جانب كبير من الورع والتقوى وكان لذلك أثره في إمارتهم ، فأكبَّ فيها كثيرون على النسك والعبادة ، وبالمثل كان الرسوليون أو كانت كثرة حكمهم . ولم تكن اليمن بالزهد ، فقد عرفت التصوف السني وطرقه من شاذلية وجيلانية ورفاعية ، واشتهر عندهم صوفي كبير يسمى أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ للهجرة وله أتباع كثيرون أو بعبارة أدق دراويش يسمونهم في اليمن المجاذيب ، وهم يطوفون في البلدان اليمنية مرددين أغاني وأناشيد في مديح قطيهم الرباني ، ويبدو أنه كان من كبار أتباع الطريقة الرفاعية العراقية التي شاعت منذ أواسط القرن السادس ، يدل على ذلك ما يرى عند أتباعه إلى اليوم من احتفال الآلام الجسانية ، مصورين بذلك مقدرتهم الحارقة . ومرَبْنَا في حديثنا عن المجتمع اليمني والغناء فيه أنهم كانوا يتغنون هناك بمقطوعة

لابن الفارض ، ولعل في ذلك ما يدل على صلة التصوف اليمنى بالتصوف السنى المصرى عند ابن الفارض وأمثاله ، ولا يبعد أن تكون أشعار البوصيرى في مدائح الرسول ﷺ وصلاتهم ، وتغنوا بها إذ لا نصل إلى نهاية القرن الثامن الهجرى حتى يلقانا عندهم شاعر صوفى سنى هو عبد الرحيم البرعى المتوفى سنة ٨٠٣ للهجرة ، وأشعاره موزعة بين التصوف أو الحب الإلهى والمدائح النبوية . وعلى غرار محمد بن إبراهيم الوزير ، وله ديوان شعر كله إبهالات وزهد وتصوف . ومن صوفية اليمن وزهادهم وراء من سميئاهم عبد الله بن أسعد الياضى صاحب كتاب مرآة الجنان المتوفى سنة ٧٦٨ وكان كثير العبادة والورع وجاور بمكة وقد تجرد للعبادة والنسك عشر سنوات يتردد فيها بين الحرمين ، وزار مصر ، وكان ابنه عبد الرحمن زاهداً صوفياً على شاكلته وصحب الصالحين ببلاد كثيرة . وما زالت موجتا الزهد والتصوف تنتشران في اليمن ، وإن كان يلاحظ أن موجة التصوف خفت في عهد الإمامة الزيدية حين أصبح لها زعامة اليمن في مواجهة العثمانيين ، ولم يكن العثمانيون يعارضون الطرق الصوفية ولا كانوا يتعرضون لأهلها ، بينما كان كثيرون من أئمة الزيديين وأتباعهم يحاربون حلقات الذكر المنتشرة في البلاد ، حتى نهاية هذا العصر .

وعلى نحو ما كان الزهد والتصوف منتشرين في اليمن كانا أيضاً منتشرين في حضرموت حتى لنجد عبد الله السقاف في كتابه عن شعرائها يقول في مقدمته : إنك ترى في شعرهم جميعاً ظلاء صوفياً . وفي الكتاب شعر زاهد كثير وكذلك شعر صوفى كثير في محبة الله ومحبة رسوله ومدبجه . ويكثر عند السقاف وصف الشاعر بلقب الصوفى الزاهد التقي الورع . ومن الشعراء الصوفية الذين ترجم لهم أبو بكر العيديروس المتوفى سنة ٩١٤ وعمر باحزمة المتوفى سنة ٩٥٢ وكان كلما سار حفَّ به مريدون يذكرون الله وقد بتعنون ويرقصون . وكاد له مجلس ذكر وسماع وغناء . ومن ترجم لهم أيضاً السقاف عبد الله الحداد العلوى المتوفى سنة ١١٣٢ وعبد الرحمن بن مصطفى العيديروس المتوفى سنة ١١٩٢ ويفيض كتاب السقاف بسبيل من شعر الزهد والتصوف .

ولم تكن عُمان وإقليمها يوماً بيئة تصوف لغلبة الخوارج الإباضية عليها ، وهم بدون ريب أصحاب زهد وتقشف ، وقد وصف أبو حمزة الخارحى شياهم قديماً بأنهم « غضيضة عن الشر أعينهم ، ثقيلة عن الباطل أرجلهم ، أنضاء عبادة وأطلاح (أنضاء) سهر » وطبيعى أن يتغنى شعراؤهم بالزهد والنسك والعبادة والتقشف ورفض عرض الحياة الرائل ابتغاء ما عند الله من الثواب الآجل . ونجد عند شعراء بنى نهبان لمعة من الزهد والمدبج النبوى .

وكانت البحرين بعيدة عن الزهد والتصوف في عصر القرامطة ، وفي ديوان ابن مقرب العيونى بعض أشعار قليلة زاهدة ، وهى تشيع فى كتابى سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الريحانة للمحجى ، وتشيع معها أو تكثر ابنهالات ومناجيات للذات العلية وبعض غزليات فيها روح الغزل الصوفى وما يشيع فيه من وجد . وتلقانا فى كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر مواعظ وبعض أشعار زاهدة .

## الفصل الثاني

### الثقافة

#### ١

#### الحركة العلمية (١)

منذ ظهور الإسلام وإرسال الرسول ﷺ معلمين إلى القبائل والقرى في الجزيرة العربية يعلمون الناس شئون دينهم الخفيف اختطت الحركة العلمية لنفسها جداول ظلت تندفق في كل ركن من أركان الجزيرة . وظلت تمدها جداول من البصرة والكوفة وبغداد ودمشق والقسطنطينية والقاهرة وكل مدن العالم الإسلامي . ومعروف أنه من أهم ما يميز الحركة العلمية العربية في جميع ديار العرب وأقاليمهم أنها عامة ، وليست خاصة بإقليم معين ، إذ كان كل ما يظهر بإقليم من مصنفات علمية سرعان ما يفد على الأقاليم الأخرى ، وسرعان ما تتعده وتضيف إليه إضافات كثيرة .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن الحركة العلمية في الجزيرة العربية لهذا العصر لم يكن مؤدى ذلك أنه كان لها حركة علمية مستقلة ، فقد كانت حركتها العلمية فرعا من فروع الشجرة الكبرى ، شجرة الحركة العلمية العربية العامة ، إذ نلتقي في كل مكان بأسماء الكتب العلمية المهمة المعروفة لنا في بغداد وغير بغداد ، وكأنه كان هناك نهر كبير للثقافة العربية كالت جداوله ونهرااته تجري في كل مكان وفي كل دار من أقصى الشرق في خراسان إلى أقصى الغرب في الأندلس .

وتتغلغل جداول هذه الثقافة حتى في نجد : البيئة التي يُظن أنها كانت بعيدة عن الحركة

الحضرميين لسقاف وصفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عوض بلوزير وتحفة الأعيان لنور الدين السالمي وعمان تاريخ يتكلم لمحمد السالمي وعساف وشعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر بعد الفتح الحنو وساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم .

(١) انظر في الحركة العلمية ترجمة ابن دريد والسيرافي في ابن خلكان والعقد الثمين وتاريخ عمارة النجدي والعقود النولوية وسلافة العصر لابن معصوم ونشر العرف لزبارة والدر الصالح للشوكاني والنور المسافر لنعديروس وتاريخ مكة لأحمد السباعي (مطابع دار قريش بمكة) وشعر عدن لماخرمة والمتقطف من تاريخ اليمن للجغرافي وباريخ الشعراء

العلمية لما يحيط بها من أسوار الصحراء ، فقد كانت قراها لا تخلو من بعض المعلمين والوعاظ ، وكانت تُتلى فيها كتب الشريعة وأيضاً كتب العربية بأخرة . وكانت القبيلة النجدية بمجرد أن تتحول قليلاً أو كثيراً من البداوة إلى التحضر تنهض فيها حركة علمية نشطة ، على نحو ما حدث في بني مَرَبَد وقبيلتهم بني أسد حين أسسوا مدينة الجَلَّة بالقرب من الكوفة واستقروا فيها بعض الاستقرار ، وأيضاً على نحو ما حدث في بني عُقَيْل حين اتخذوا لهم إمارة في الموصل ، فإن القبيلتين جميعاً قادتا حركة علمية في ديارهما ، وقد عادتا جميعاً إلى نجد وحياة البداوة مع القرن السادس الهجري . ومن المؤكد أن قرى نجد مثل اليمامة (الرياض فيما بعد) و**بُرَيْدَة** و**حائل** و**العُيَينة** و**الدَّرْعِيَّة** لم تخلُ في أي عصر من شيوخ يختلف الشباب والشيوخ إليهم لتلقي كتب الفقه والتفسير والحديث النبوي . ومنذ ظهور محمد ابن عبد الوهاب استحالت نجد إلى دار كبيرة للدعوة الوهابية وللمدرسة كتب محمد بن عبد الوهاب نفسه وكتب إماميه : أحمد بن حنبل وابن تيمية .

وإذا تركنا نجداً إلى المدينتين المقدستين في الحجاز : مكة والمدينة وجدنا الحرمين المكي والمدني يتحولان في عصر مبكر إلى جامعتين كبيرتين ، بحيث يصبحان من أهم المراكز العلمية في البلاد العربية ، لسبب مهم سبق أن عرضنا له في غير هذا الموضع ، وهو أن كثرة كبيرة من العلماء الناهين بالأقطار العربية في كل عصر كانوا يتزلون مكة ويقيمون فيها سنوات طويلاً ، وقد بمضون فيها بقية حياتهم ، وبالمثل كانوا يتزلون المدينة ، غير من كان فيها وفي مكة من علماء الشريعة والعربية . وتفيض كتب التراجم بأسماء هؤلاء العلماء ، ويكفي أن تصفح مثلاً كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين : مكة لترى مبلغ من كان فيها من العلماء من كل صنف ، وكان لكل عالم حلقتة ، فلمقرئ القرآن الكريم حلقتة وكذلك للمفسر والمحدث والفقهاء وعالم الكلام وعالم العربية وعالم المنطق وعالم الرياضيات وعالم التصوف . وتعدد الحلقات بتعدد الشيوخ حتى تُتعد بالعشرات . وأنشئت بجانب هاتين الجامعتين مدارس ، فقد بنى بمكة السلطان نور الدين رأس الدولة الرسولية مدرسة ، رتب لها مدرسين وإماماً ومؤذناً وطلاباً يتعلمون ، ووقف عليها أوقافاً دائمة . وتعاقب بعده بناء المدارس في مكة والمدينة ، بينها بعض السلاطين الرسوليين وبعض الأفراد وبعض سلاطين مصر على نحو ما هو معروف عن مدرسة السلطان قايتباي التي بناها بجوار الحرم المكي ورصد لها أوقافاً كثيرة . وعنى العثمانيون بعد استيلائهم على الحرمين ببناء المدارس ، من ذلك بناؤهم أربع مدارس بمكة سنة ٩٧٢ لتدريس مذاهب الفقه ، وتكاثر المدارس في المدينتين المقدستين وتكاثر الكتابات وخاصة منذ القرن الثالث عشر الهجري .

ونشطت الحركة العلمية في اليمن من قديم ، بسبب توزعها بين إمارات كانت تتنافس فيما بينها علميا وأديبا مما جعل كلا منها تحاول جذب العلماء إلى دائرتها ومحيطها ، وكان كثير من الأمراء أنفسهم علماء ، فالأمير علي بن محمد الصنيحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية كان عالما ، ويقول عنه عبارة : « كان عالما وفقها مستبصرا في علم التأويل وخطيبا بليغا » وكانت زوجة ابنه الأمير المكرم المسماة الملكة الحرة أروى بنت أحمد الصليحية تتعمق علوم الدعوة الفاطمية . ووقفت أوقافا كثيرة لتدريس صحيح البخاري مع أنها كانت إسماعيلية العقيدة . وكان جيش من آل نجاح أمراء يزيد مؤرخا وصنف « المفيد في أخبار يزيد » واحتصره عبارة اليمنى ونشر محتصره ، ومن وزراء هذه الدولة سرور الفاتكي ، وكان يشجع العلماء وفرض لهم رواتب . ويقول عبارة اليمنى إنه رأى جريدة هذه الرواتب التي كانت تُدْفَعُ إلى الفقهاء والقضاة وعلماء الحديث والنحو واللغة ، فوجدها اثني عشر ألف دينار في كل سنة . وبالمثل عُرف بنور زرع أمراء عدن يكرام العلماء والشعراء وإسباغ العطايا والجوائز عليهم . وحين تسلم الرسوليون زمام الأمور أخذوا ينهضون بالحركة العلمية نهضة واسعة يتقدمهم في ذلك مؤسس دولتهم نور الدين إذ بنى في تعز عاصمته الصيفية مدرستين وفي عدن مدرسة وفي زيد عاصمته الشتوية ثلاث مدارس : مدرسة للشافعية ومدرسة للحنفية ومدرسة للحديث النبوي ، ورتب في كل مدرسة مدرسا ومعيدا وطلابا وإماما ومقرئا ومؤذنا ، ورصد لكل مدرسة أوقافا تقوم بكفائها وتسد حاجتها . وخلفه ابنه السلطان المظفر وهو صاحب جامع المظفرية في تعز وجوامع أخرى في أنحاء إمارته وبنى مدرسة بتعز ، وأخرى بظفار وكانت تتبعه . وابتنى أحد رجاله المسمى بدارا المظفري بزيد مدرسة للشافعية ومدرسة للقراء بالقراءات السبع ومدرسة للحديث النبوي ووقف عليها جميعا أوقافا وفيرة . وخلفه ابنه السلطان الأشرف ، وكان عالما في فنون مختلفة وله عدة مصنفات ، منها كتاب طرفة الأصحاب في معرفة الأنساب وكتاب تحفة الآداب في التاريخ والأنساب وكتاب جواهر التيجان ، وتعمق في علوم الأوائل ، وله كتاب في الأسطلاب وكتاب الجامع في الطب . وولى بعده أخوه المؤيد ، وكان عالما أديبا ، ويقال إنه كان يحفظ مقدمة طاهر بن بشاذ النحوي المصري وكتاب الجمل في النحو للزجاجي وكفاية المتحفظ في اللغة ، ودرس كتاب التنبيه في الفقه الشافعي لأبي إسحق الشيرازي وسمع الحديث النبوي من حفاظة الأعلام وأجازته منهم أبو العباس أحمد بن محمد الطبري شيخ السنة بالحرم المكي وأذن له في رواية البخاري والترمذي عنه وناوله صحيح مسلم . وجمع من الكتب ما لا يكاد يُحصى ، وأختصر كتاب الجمهرة في البيزرة وألف في الطب كتاب

العمدة . وأشهر بعده حفيده السلطان الأشرف إسماعيل بتشجيعه الحركة السلمية ، وحين علم في سنة ٧٨٨ بتأليف القاضي جمال الدين محمد بن عبد الله الرمي كتابه « التفقيه في شرح التنبيه » في أربعة وعشرين جزءاً أمر بحمل هذا الكتاب على رموس الفقهاء من بيت المصنف إلى مجلسه ، مرفوضاً بالطلخانة ، وحين وصل الكتاب ومصنفه نسخة مكافأة لجهده العلمي : ثمانية وأربعين ألف درهم تعظيماً للعلم والعلماء ، ورَفَعاً لدرجة الشيخ . ويقول الحزرجي إنه طُرِّزَ كتبه التاريخية باسمه وإنه ألفها بناء على إشارته ، ويذكر عنه أنه رتب في سنة ٧٩١ بجامع الملاح ستة مدرسين ومقرئاً للقراءات السبع ومحدثاً ومدرسين : شافعيّاً وحنفيّاً ومدرسين : في النحو والفرائض ، ورتب فيه إماماً ومؤذنين وقُيِّمين وخطيباً ومعلماً وأبناماً يحفظون القرآن وشيخاً صوفيّاً . وكان الحزرجي نفسه أحد المرتبين لإقراء القرآن . وأمر السلطان الأشرف بعد المساجد والمدارس في سنة ٧٩٥ بزييد فكانت مائتين وبضعا وثلاثين . ومعروف أن المساجد في العالم الإسلامي كانت مدارس تُعقَدُ فيها دائماً حلقات للطلاب والعلماء . ولعل في هذا ما يدل على مدى النهضة العلمية باليمن في عهد الرسولين ، وبلغ من عنايتهم بذلك أن اشترك معهم نساؤهم في بناء المدارس والجوامع والمساجد . وقصد اليمن حيثئذ كثير من العلماء ، ومن أهمهم الفيروزابادي صاحب كتاب القاموس المحيط ، ألفه في زَيد ، وثوّه في مقدمته بالسلطان الأشرف ، وقد أنزله منزلة رفيعة ، ويقال إنه لما ألف كتابه الإسعاد بالإصعاد إلى درجة الاجتهاد سنة ٨٠٠ للهجرة أمر السلطان الأشرف أن يُحْمَلَ الكتاب إلى بابه مزفوقاً بالطبوق في موكب كبير حضره سائر الفقهاء والقضاة والطلبة ، وأمر للفيروزابادي ثواب ثلاثة آلاف دينار ، إذ كان الكتاب في ثلاثة أجزاء ، فجعل لكل جزء ألفاً . ومن مآثر هذا السلطان بناء مدرسة كبيرة في تعز . وفي الحق أن دولة الرسولين عملت بكل ما استطاعت على إحداث نهضة علمية خصبة في اليمن ، ويقال إن بين سلاطينها من بلغت مكتبته مائتي ألف مجلد ، وكانوا يمنحون مكافآت كبيرة لمن يهديهم كتباً نفيسة أو نادرة . وأهم بنو ظاهر الذين خلفوهم بهذه النهضة ولكن لم يبلغوا مبلغهم في العناية ببناء المدارس وبالعلم والعلماء .

ومنذ اتخذ الرِّسِّيُّون صَعْدَةَ مركزاً لدعوتهم في أواخر القرن الثالث الهجري . وهم يبعثون فيها حركة علمية كانوا هم قادتها ، فكثيرون منهم أتقوا في الفنقة الزيدى وفي علم الكلام وفي غير ذلك من مواد الثقافة العربية يتقدمهم الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم مؤسس الدعوة الزيدية في اليمن . وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ مؤلفات مختلفة وكذلك لأبي الفتح الديلمي المتوفى سنة ٤٤٤ وللإمام المنصور بالله المتوفى

سنة ٥٩٨ وللإمام المهدي أحمد بن الحسين المتوفى سنة ٦٥٦ وللإمام المنصور بالله الحسن بن بدر الدين المتوفى سنة ٦٧٠ . وعلى هذا النحو شارك كثير من أئمة الزيدية باليمن في النهضة العلمية . ويشتهر الإمام شرف الدين يحيى المتوفى سنة ٩٦٥ بإنشائه المساجد المعروفة بالمدارس في صنعاء وذمار وكوكبان . ومربنا أن الإمارة الزيدية اتسعت في العصر العُماني وشملت صنعاء وغيرها من المدن ، وقد بثوا فيها بقوة الدعوة الزيدية وكتبهم وكتب أنصارهم من الفقهاء والعلماء الزيديين .

ويلقانا في حَضْرَمَوْت كثير من العلماء النابهين ، وهم منبثون في كتب التراجم ، ولهم دلالتهم على ما كان وراءهم من حركة علمية ، وفي كتاب طبقات فقهاء اليمن وكذلك في كتاب العقد الثمين فقهاء ومحدثون وقراء حضرميون كثيرون استوطنوا اليمن أو جاؤوا في مكة . وفي كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين وكتاب صفحات من التاريخ الحضرمي ما يصور من بعض الوجوه النشاط العلمي وازدهاره بحضرموت ومدنها : تريم وغير تريم . وكانت عُمان من قديم مركزاً لحركة علمية نشطة ، يدل على ذلك من بعض الوجوه أن ابن دُرَيْد أكبر علماء اللغة في عصره أزدى عُمانى وقد أمضى بعان فترة طويلة من حياته كان لها أكبر الأثر في تكوينه اللغوي ، ومن آثارها في معجمه « الجهمرة » أنه يحمل كثيراً من لغة الأزد العُمانيين وخصائص لهجتهم ، ومعروف أنه توفى قبيل هذا العصر مباشرة ببغداد سنة ٣٢٤ . وشهرة عُمان العلمية في القرن الرابع الهجري هي التي جعلت أبا سعيد السيرافي ، كما قال الرواة ، يخرج من بلذته سيراف في طلب العلم إلى عُمان ، ويتفقه بها ويتعلم العربية ، ثم يدخل بغداد بعد ذلك ، ويروى أنه تتلمذ لابن دُرَيْد . وقد عُنى حكام عُمان من بني مكرم وخلفائهم من بني نهبان بالحركة العلمية والأدبية بديارهم ، فكثرت في عُمان الأدباء والعلماء والشعراء . وكان للخوارج في عاصمتهم نَزْوَى ثم في عمان حين استولوا عليها نهائياً في العصور المتأخرة نشاطهم الخاص في مذهبهم الإباضي والتأليف فيه مع العناية بالعربية .

ومنطقة البَحْرَيْن هي منطقة قبائل عبد القيس وتجم قديماً ، وكانت تقام بها أسواق للأدب مثل سوق هجر وسوق دارين ، وأُنجبت عبد القيس في الجاهلية والعصر الإسلامي غير شاعر وخطيب ، وأشاد بخطبائها الجاحظ في كتابه البيان والتبيين ونوّه بهم طويلاً . ونشرح حين استولى القرامطة على البحرين بنعمود الحركة العلمية فيها ، غير أنها أخذت تنتعش سريعاً في زمن العيونيين وبني عصفور وبني جبر ، فكان يقوم على الدراسات العلمية الدينية ودراسات العربية علماء وقفوا أنفسهم على تلقين الشريعة والعلوم اللغوية للناشئة ونفقيه

الناس بأمور دينهم ووعظهم . وتظل هذه الحركة العلمية نشطة حتى العصور الأخيرة ، على نحو ما يصور ذلك مثلاً كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم كتاب أنوار البدرين لطائفة منهم في القرن الحادى عشر والثانى عشر مثل الشيخ سلمان آل عبد الجبار وله رسائل متنوعة في المنطق وعلم الكلام . ومن يطلع على كتاب شعراء هجر من القرن الثانى عشر إلى القرن الرابع عشر يرى نشاطاً علمياً وأدبياً واسعاً في أواخر هذا العصر كان يعم البحرين ، بمعناها العام : في الأحساء وقطر والقُطيف وجزيرة أوال (البحرين الحالية) .

## ٢

### علوم الأوائل<sup>(١)</sup>

من مفاخر جزيرة العرب وحَضْرَمَوْت خاصة أنها قدّمت إلى الفكر العربى في نهاية العصر العباسى الأول ومفتتح العصر العباسى الثانى أول فيلسوف بالمعنى الدقيق لكلمة فيلسوف ، وهو يعقوب بن إسحق الكندى الذى تمثّل علوم الأوائل والفلسفة اليونانية تمثلاً رائعا ، فإذا هو لا يفقه ذلك كله فقهاً حسناً ، بل يشارك فيه ويضيف إليه إضافات باهرة ، سواء في العلوم الطبيعية أو الرياضية أو في المنطق والسياسة والأخلاق والطب . وقد أحصى ابن النديم في الفهرست له نحو مائتين وأربعين كتاباً ؛ وكثير منها ترجم إلى اللاتينية ، ويقول ألدومبيللى إن كتابه في الهندسة أثرٌ أثاراً بعيداً في روجر بيكون . والكندى ثمرة الحركة العلمية في البصرة التى نشأ بها وفي بغداد التى عاش فيها ، وطبيعى أن تكون بغداد مركز الحركة العلمية ، غير أن مراكز أخرى أخذت تتكون في هذا العصر بإيران ومصر والشام ، ولم تتحول الجزيرة ولا إقليم من أقاليمها إلى مركز ينافس هذه المراكز ، وربما كانت اليمن الثرية بمواردها أكثر أقاليم الجزيرة استعداداً للمشاركة في علوم الأوائل أو على الأقل في تعلّمها تعليماً حسناً . ونحن لا نصل إلى نهاية العصر العباسى الثانى حتى نجد أبا محمد الحسن الهمداني المتوفى سنة ٣٣٤ يتعمق علوم الأوائل ، ويتقنها فهماً وتحليلاً ، بل لقد ألف فيها مصنفات جيدة ، ومن أهمها كتابه « سرائر الحكمة » وفيه

(١) المعارف - المقدمة) وترجمة ابن سينا و ابن أبى أصيبعة وترجمة زيد بن عطية في إنباء الرواة وكتاب العقود اللؤلؤية للخزرجى وتاريخ الشعراء الحضرميين وسلافة العصر لابن معصوم .

(١) انظر العلم عند العرب لألدومبيللى وترجمة الهمداني في مختصر الزوزنى لكتاب أخبار العنماء بأخبار الحكماء للقفطى (طبعة ليزح) ص ١٦٣ ودبوان السلطان الخطاب تحقيق إسماعيل قربان حسين (طبع دار

عرض علم هيئة الأفلاك ومقادير حركات الكواكب ، وبين علم أحكام النجوم ونستوفى ضروره ، وكذلك كتابه « القوى » في الطب ، وكتابه « الإكليل » الذي ألفه في ملوك حسير وأنسابها وهو في عشرة أجزاء كبار ، وفيه مما يتصل بعلم الأوائل « جُمَل من القرانات » في النجوم وأوقاتها - كما يقول القفطى - ونُبذُ من علم الطبيعة وأصول أحكام النجوم وآراء الأوائل في قدم العالم وحدوثه واختلافهم في أدواره . ثم يقول القفطى : وله زيج المعروف ، وعليه اعتماد أهل اليمن .

ونظن ظنا أن الدعوة الإسماعيلية في عصر الدولة الصليحية ( ٤٣٩ - ٥٣٢ هـ ) هيأت من بعض الوجوه للعناية بالفلسفة وعلوم الأوائل ، إذ كانت ترتكز على المزج بين العقيدة الفاطمية ونظرية الفيض الأفلاطونية ، وكانت تتخذ من رسائل إخوان الصفا دعاية لها ، وهي من بعض الوجوه عرض للفلسفة اليونانية وخاصة لنظرية الفيض وما يتصل بها في الأفلاطونية الحديثة وأيضاً عرض لعلوم الأوائل . ونجد أحد دعاة الفاطميين في اليمن المسمى الداعي الذؤيب وكذلك السلطان الخطاب يؤلف كل منهما رسالة في النفس ، ومعروف أنها من المباحث الفلسفية ، ويحلل ناشر ديوان السلطان الخطاب مؤلفاته الفاطمية ، وهي تصطبغ بصيغة فلسفية واضحة كالبحث في الطبائع الأربع والنفس الناطقة والكثائف واللطائف والمعقولات والمحسوسات .

وفي ترجمة ابن سينا ذكر شخص همداني يشدو الفلسفة وعلوم الأوائل ، وقد وجه رسالة إلى علماء بغداد يسألهم فيها الإنصاف بينه وبين ابن سينا ولم تقع على اسم هذا الهمداني . وفي الجزء الثاني من كتاب إنباه الرواة ترجمة لزيد بن عطية الصعدي اللغوي ، وفيها أنه « كان لعرباً شاعراً منجماً حاسباً هندسياً . يسلم إليه المنجمون في ديار صنعاء وصعدة النجوم والحساب ، وله تصانيف في ذلك ، منها زيجان : كبير وصغير ، ومنها « أحكام نجومية » و « فصول » .

ويبدو أن الدولة الرسولية بعثت في اليمن اهتماماً بالفلسفة وعلوم الأوائل وخاصة في عهد سلطانها المظفر ( ٦٤٧ - ٦٩٤ هـ ) . وولديه السلطانين الأشرف والمؤيد ، ولكل منهما في الطب كتاب وكان الأشرف أكثر براعة في الطب ، يدل على ذلك كتاب أرسله أبوه المظفر إلى الظاهر بيبرس سلطان مصر يطلب منه طبيباً قائلاً : « ولا يظن المقام العالي أننا نريد الطب لأنفسنا فإننا نعرف من الطب ما لا يعرفه غيرنا ، وقد اشتغلنا به من أيام الشيبية ، وولدنا عمر - يقصد السلطان الأشرف - من العلماء بالطب ، وله كتاب جامع فيه ليس لأحد مثله » . ومراً بنا أن للسلطان المؤيد فيه كتاباً سماه « العمدة » . ويذكر

صاحب سلافة العصر ممن نزلوا اليمن في القرن الحادى عشر طبيبا شيرازيا ، اسمه الحكيم أبو الحسين ويذكر له طائفة من أشعاره .

ويلقانا دائماً اهتمام واضح بالطب والرياضيات والهندسة والهيئة والنجوم ، ونقرأ عن ذلك أخباراً متناثرة هنا وهناك ، من ذلك ما نقرؤه في تاريخ الشعراء الحضرميين من أن الشيخ محمد بن عمر المتوفى سنة ٩٣٠ صنف أرجوزتين : إحداهما في الطب والثانية في علم الحساب وأن الشيخ عبد الله بن عمر باخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ صنف رسالة في علم الجبر والمقابلة . ونستطيع أن نعمم هذه النزعة في عمان والبحرين وفي مكة والمدينة . وبما يدل على رغبة المثقفين في الجزيرة العربية على الاطلاع على علوم الأوائل أننا نجد في كتاب لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب أنه حين نزل البصرة عنى بالعلوم الرياضية وقرأ كتب أقليدس في الهندسة وكتاب المحسطى في الهيئة ، كما قرأ الحكمة الإشرافية . ونؤمن بأن المنطق ظل يدرس في كل أنحاء الجزيرة ، لاقتناع العلماء في كل مكان بضرورة درسه . وترك الرياضيات والهندسة والطب والفلك والفلسفة إلى علم الجغرافية ، ومن أهم المصنفات الجغرافية كتاب صفة جزيرة العرب للحسن بن أحمد الهمداني المتوفى مع أول هذا العصر ، كما مر بنا آنفاً ، ولأبي على الهجرى كتاب النوادر والتعليقات وهو زاخر بأماكن الجزيرة ، وأهم من عناية أهل الجزيرة بالأماكن عنايتهم بالرحلات البحرية . ومعروف أن الأمم القديمة في أفريقيا وآسيا وأوروبا اخترقت البحار والمحيطات من حولها ، وبنيت سفناً حملت فيها تجارتها وبعض جيوشها للغزو ، حتى إذا أنشأ العرب دولتهم أخذوا يقتحمون البحر المتوسط وبحر القلزم أو البحر الأحمر ، كما اقتحموا المحيط الهندي إلى شواطئ إفريقيا الشرقية غرباً وإلى الهند شرقاً . وكان اقتحامهم له في أواخر القرن الأول الهجرى سبباً في أن تتغلغل تجارتهم إلى جزر الهند الشرقية وإندونيسيا ، بل لقد اقتحموا المحيط الهادى ونزلوا على شواطئ الصين ، واشتهر أحد تجارهم المسمى سليمان بكتابة رحلة له قام بها في سنة ٢١٧ للهجرة من البصرة ميماً ديار الصين ، وقد تحدث فيها عما ركبته وخاضه من بحار بادئاً بالخليج العربي . وتوالى رحالة بعد سليمان يصفون رحلاتهم البحرية .

### علم الملاحة البحرية<sup>(١)</sup>

كان ربانة السفن في البحار المتصلة بالبلاد العربية يعنون بكتابة دفاتر تضم جداول

(١) انظر في هذا العلم وفي ابن ماجد وسليمان المهري الأندلسي بالقاهرة . وراجع قران في مادتي شهاب الدين أحمد بن ماجد والمهري في دائرة المعارف الإسلامية وكتاب ثلاثة أزهاري لمعرفة البحار لأحمد بن ماجد . وكتاب ترجمة الدكتور السيد يعقوب بكر (نشر مكتبة

فلكية ومعلومات عن خطوط العرض والرياح والشواطئ والشعاب والجزر في المحيط الهندي وما يتصل به من المحيط الهادي ، مما كان سبباً مباشراً في نشوء علم الملاحة عند العرب وازدهاره على مر السنين . وكان يشترك في هذه الملاحة سكان الخليج العربي وجنوبي الجزيرة العربية ، ونهض بها منهم ربانة كثيرون .

وأشهر ربانة الجزيرة العربية شهاب الدين أحمد بن ماجد المولود في عُمان حوالي سنة ٨٣٠ للهجرة ، وقد نشر له المستشرق جيبيل قران في باريس سنة ١٩٢١ - ١٩٢٣ مجموعة كبيرة من أعماله الثرية والشعرية أنشأها في نحو ثلاثين عاماً بين سنتي ٨٦٥ و ٨٩٥ ولقران تحليل طريف لتلك الأعمال نشره في دائرة المعارف الإسلامية تحت اسم شهاب الدين . ونشر المستشرق الروسي تيودور شوموفسكي في موسكو سنة ١٩٥٧ ثلاث أراجيز لأحمد بن ماجد مع دراسة وتعليقات ، وعنى الدكتور محمد منير مرسى بهذه الأراجيز الثلاث ونشرها في القاهرة بعنوان : « ثلاث أزهار في معرفة البحار » ونقل معها تعليقات تيودور شوموفسكي ، وردت الاقتباسات المترجمة عن المصادر العربية إلى أصولها انطوية والمخطوطة ، وشرح طائفة من المصطلحات البحرية عند ابن ماجد وبذل في ذلك كله جهداً محموداً .

والأعمال التي نشرها قران لابن ماجد إنما نشرها عن مخطوطة في باريس يبلغ عدد أوراقها ١٨١ ورقة ، وبها أراجيز وقصائد تبلغ نحو العشرين ، تتناول أصول علم البحار والفلك والملاحة في المحيط الهندي والبحر الأحمر وخليج عدن وخليج العرب كما تتناول النجوم والبروج والشعاب . وجميعها أشعار تعليمية تصور علم الملاحة البحرية عند العرب . ويحاط هذه الأشعار في المخطوطة الباريسية كتاب ابن ماجد النفيس : « الفوائد في أصول علم البحر والقواعد » ألفه سنة ٨٩٥ للهجرة ، وهو في اثني عشر فصلاً ، ويتحدث ابن ماجد في الصفحات الأولى منه عن الأصول الأسطورية للملاحة والإبرة واليوصلة والإسطرلاب . ويعرض للكتابات في الملاحة قبله ويشيد بثلاثة من الربانة ، هم سهل بن أبان ومحمد بن شاذان وليث بن كهلان ، معتمداً في ذلك على دفتر كتبه حفيد سهل بن أبان تاريخه سنة ٥٨٠ وأغلب الظن أنه يقصد السنة الهجرية . وليس

وما بعدها ومقالاً للأستاذ حسن الصوفي في مجلة مجمع اللغة العربية بالقاهرة العدد الرابع والعشرين بعنوان « علماء البحار العرب واصطلاحاتهم البحرية » .

تحقيق تيودور شوموفسكي ترجمة وتعليق الدكتور محمد منير مرسى والملاحة وعلوم البحار عند العرب للدكتور أنور عبد النعيم (نشر المجلس الوطني للثقافة والفنون والآداب بالكويت) وانظر العلم عند العرب لألدومبيلي ص ٥٣٢

بصحيح ماذهب إليه بعض الباحثين من أن هذا التاريخ تعيين للمدة الزمنية بين ابن ماجد وبين كاتب النسخة وأنه كتبها - كما يظن - سنة ٣١٥ للهجرة وكان هؤلاء الربابة الثلاثة - في رأيه - كانوا يعيشون في النصف الثاني من القرن الثالث الهجري ، وهو ما نستبعده ونظن أنهم عاشوا في النصف الأول من القرن السادس . ويذكر ابن ماجد أن الدفتر كان يحمل معلومات الربابة الثلاثة ويقول إنهم لم يكونوا ملاحين بالمعنى الدقيق لكلمة ملاحين وأن معارفهم البحرية لم تتجاوز الخليج العربي ، ويذكر طائفة من الملاحين الذين كانوا يعاصرونهم وغيرهم ممن سبقوهم . ويؤكد أن كتابه ليس كتاباً نظرياً كالكتب السابقة له ، فهو كتاب أعلم الناس بالبحر ، ويقول إنه علم توارثه عن أبيه وجده ، فقد كانا ربانين كبيرين ، ويذكر أنه كان لأبيه أرجوزة بحرية في ألف بيت تعدد دليلاً ومرشداً هادياً للملاحة في البحر الأحمر . ومع أنه قلل من أهمية ما كتبه حفيد سهل بن أبان عن جده وصاحبه من معارف في الملاحة يسميهم الليوث ، ويسمى نفسه رابع الليوث أو رابع الثلاثة . ويذكر في الكتاب منازل القمر الثمانية والعشرين والنجوم التي تطابق تقاسيم اليوصلة الاثنى عشر والثلاثين والطريق البحرية في المحيط الهندي وخطوط العرض الخاصة بعدد من الموانئ في المحيطين : الهندي والهادي والعلامات الدالة على مشارف السواحل الغربية للهند وجزائر المحيط الهندي والخليج العربي والرياح الموسمية المواتية للرحلات والبحر الأحمر ومراسيه وشطآنه وشعابه المرجانية ورياحه وأغواره . ويقول قرآن إن رصفه لكل ذلك لا يفوقه بل لا يدانيه أى وصف لكاتب آخر في الإرشادات والبيانات البحرية الهادية للسفن الشراعية . وهذا كله كان يصحب ببعض الخرائط . فكل ربان لابد أن تكون معه خريطة ويوصلة وإسطرلابات وحبال لقياس عمق المياه ( واسمها عند ابن ماجد بُد ) ومزاويل لمعرفة ارتفاع الشمس والنجم القطبي .

ومن سوء طالع هذا العالم العربي الفذ في علم الملاحة البحرية وهو على وشك أن يختم حياته وقد بلغ سبعين عاماً وتيفاً أن تعرّف عليه في « مالدى » بشرقى إفريقيا فأسكودى جاما البرتغالى ، وكان قد ينس من الوصول إلى الهند عن طريق البحر ، إذ كان يجهل هو وربابته البرتغاليون الطريق البحرى إليها ، وكانت سفنهم كلما خرجت في المحيط الهندي واتجهت نحو الهند تحطمت ولم ينج منها أحد . ونعجب أن نرى ابن ماجد يتحول له مرشداً يهديه الطريق في سنة ٩٠٦ للهجرة إلى كلكتا في الهند . وبذلك يكون - لعفته - أداة للاستعمار البغيض : البرتغالى أولاً ، ثم الإنجليزى والفرنسى والهولندى - من شاطئ إفريقيا الشرق إلى جزر الهند الشرقية وبحر الصين . وسرعان ما شعر بسوء فعله ، وصوّر ذلك مرارا

في ألم ومرارة عن قاسكودي جاما وأصحابه البرتغاليين في الأرجوزة الأولى من « ثلاث أزهار في معرفة البحار » :

وجأ لكاليكوتَ حُذَّ ذى الفانده لعام تسغايه وست زائده  
وسار فيها مبغضُ الإسلام والناسُ في خوفٍ وفي اهتمام  
واشترُّوا البيوت ثم سكنوا وصاحبوا وللسوامر ركنوا

وهو يريد بالسوامر البرتغاليين نسبة إلى السامري الذي صنع العجل وعبدته بنو إسرائيل يريد أنهم كفار ، ومع ذلك صاحبهم حكام ثغر كاليكوت في الهند . وكأنما عرف قصر نظره وشناعة عمله بعد فوات الأوان . ومع أنه أكثر من الأراجيز والقصائد مما يدل على أن نبع الشاعرية عنده كان فياضاً يختل الوزن عنده أحياناً .

وخلف ابن ماجد ريان من سدنة البحر وملاحيه هو سليمان بن أحمد المهري من مهرة في الشحر بين حضرموت وعمان ، عاش في النصف الأول من القرن العاشر الهجري ، وله في الملاحة كتب لا تقل أهمية عن كتب ابن ماجد ، بل لعلها أوفى وأشمل في بيانها لأحوال الملاحة في المحيطين الهندي والهادي حتى بحر الصين ، ومن كتبه « تحفة الفحول » و « العسدة المهرية في ضبط العلوم البحرية » و « المنهج الفاخر في علم البحر الزاخر » وتاريخها جميعاً يرجع إلى النصف الأول من القرن العاشر ، وقد درس قران أعمال سليمان المهري البحرية دراسة وافية .

### ٣

#### علوم اللغة والنحو والبلاغة والتقد

لا نبالغ إذا قلنا إن كل البلاد العربية كانت مشتركة في التراث اللغوي والنحوي والبلاغي والتقدي ، بحيث لم يكن يظهر كتاب مهم في بيئة من البيئات العربية إلا ونجده قد نُقل إلى البيئات الأخرى ، ونعجب أننا اليوم مع سرعة المواصلات ونقل الكتب عن طريق البواخر والسيارات ، بل عن طريق الطائرات ، لا نبلغ مبلغ أسلافنا في سرعة التواصل بينهم في الكتب ، لا في مجالات الفقه والحديث وما إليها من الدراسات الدينية فحسب بل أيضاً في جميع المجالات لغوية وغير لغوية . وساعدت على ذلك الرحلات السنوية للحج والزيارة والتقاء العلماء ، وكان بعض العلماء إذا افتقد كتابا ، ولم يستطع

الحصول عليه رغم تطرافه في البلدان لجأ إلى النداء عليه في الحج ، ليخبره عنه بعض من رآه في مكتبة من المكتبات المتناثرة بين الأندلس وأواسط آسيا حتى الهند . وكان العالم في أى علم أو فن يرى أن علمه فيه لا يكتمل إلا إذا رحل شرقا وغربا وأبعد في رحلته ليلقى العلماء ويقراً كتب التراث الخاصة بالعلم أو الفن الذى يريد التعمق فيه . ونقلوا في أثناء ذلك إلى بلدانهم ما كتبه الأسلاف ومعاصروهم ، وفتحت المكتبات في كل بلد صدرها لتستقبل الكتب وتجري حملتها خير الجزاء .

ومعنى ذلك أننا إذا تحدثنا عن النشاط في علم باى بلد من البلدان العربية وسمينا فيه بعض علماء إنما نتخدم رموزا للحركة العلمية الكبيرة ، وهى أكبر جدا من أسمائهم ، لأنها تعنى النشاط العلمى في العالم العربى جميعه ، إذ كانت كتبه ومصنفاته تُصَبُّ في كل البلدان العربية ، وقام عليها علماء ومدرسون مختلفون يقدمونها للطلاب . وقد يضيفون إليها في كل علم مصنفات جديدة وكان يكون عبداً لطلاب العلم وأساتذته أن يفد عليهم عالم من البلاد العربية ، إذ كانت معرفتهم بكتبه ومصنفاته تسبقه ، فكان بمجرد نزوله في بلد يتحول في التو محاضرا ويتحلق حوله الطلاب يفيدون من علمه .

كانت هناك إذن بين البلاد العربية دورة علمية ، أشبه ما تكون بالدورة الدموية ، تدور فيها الكتب والمؤلفات من بلد إلى آخر ، ويدور العلماء أنفسهم . وكانت الجزيرة العربية تدخل في هذه الدورة ، تدخل فيها نجد بقراها التى أخذت تعنى بتعلم العربية منذ أن هجرت أو كادت الإعراب في القرن السابع الهجرى وما بعده . أما الحجاز ومكة فكانا يعنيان باللغة من قديم ، كما كانا يعنيان بالنحو ، وكان يوجد لهما دائما مدرسون ينهضون بهما سوى من كان يتزل مكة والمدينة من كبار علماء العربية ، ويكفى أن نذكر من بينهم عبد الله ابن طلحة (١) الأندلسى المتوفى بمكة سنة ٥٢٣ وقد اشتهر بإحسانه لتدريس كتاب سيبويه على الطلاب في الحرم المكى ، مما جعل الزمخشري (٢) يرحل في شبته إلى مكة من موطنه خوارزم ليأخذ عنه ، وقد جاور بمكة - بدوره - مدة طويلة ألف فيها كثيرا من كتبه ، وكان لا يبارى في اللغة والنحو وألف فيها مؤلفات دَوَّتْ شهرتها في العالم العربى ، منها معجمه المشهور أساس البلاغة الذى رتب مواده بحسب الحرف الأول ، وأدخل فيها كثيرا

(١) انظره في التكملة لابن الأبار ٢/ ٨١٥ والمقدّم الثمين

١٨٢/٥ وبغية الوعاة والبحر المحيطة لأبى حيان ٢/ ٣٧٢ .

(٢) راجع في الزمخشري ابن خلكان (طبعة دار صادر

بيروت) ٥ / ١٦٨ وانظر بقية مصادر ترجمته في الفصل  
الثانى من القسم الخاص ببيروت .

من الشواهد والأساليب الأدبية ، ويغلب أن يقول في ختام المادة : « ومن المجاز » فيقرن الأساليب المجازية إلى الأساليب الحقيقية . وألف في غريب الحديث النبوي كتابه « الفائق » وهو معجم طريف للأحاديث المحتوية على بعض الألفاظ العربية ، وصنف في تفسير القرآن الكريم وألفاظه « الكشاف » وشهرته تملأ الخافقين . ومن بحوثه اللغوية شرح لأبيات سيويه والمستقصى في أمثال العرب والقسطاس في العروض . ومن بحوثه النحوية كتابه المفصل ، جعله في أقسام أربعة : قسم للأسماء وقسم للأفعال وقسم للحروف وقسم للمشارك وأراد به الإيمالة والوقف والإبدال والإعلال ، ولا ين يعيش شرح مطول على هذا الكتاب مشهور . وللزحشري بجانبه في النحو كتاب سماه النموذج . ولا ريب في أن هذا العالم النحوي اللغوي العظيم بعث في مكة حركة علمية مباركة في فنون اللغة والنحو والتفسير ولا بد أن كثيرين شدوا الرحال إليه في مكة ليتلقوا عنه مصنفاته ، وليحملوا عنه الإجازات بروايتها سماعاً وإلقاء . ومن نزل بمكة وجاور بها سين من كبار اللغويين الصغاني الحسن<sup>(١)</sup> بن محمد المتوفى سنة ٦٥٠ وحياته تقص ما قلناه من وحدة الثقافة في العالمين العربي والإسلامي ، فقد ولد سنة ٥٧٧ في لاهور عاصمة إقليم بنجاب في الهند ، ونشأ في إقليم صغان كورة من بلاد السغد ، وبلدكر مترجموه شيخين له في الهند ، فالشيخ ومعلمو العربية والشرعة منبثون في أنحاء العالم الإسلامي ، حتى في أبعد دياره . ورحل في طلب العلم إلى بغداد ودخل مكة وجاور بها ستين ، ودخل اليمن ، واستطاع بمن لقيهم من الشيوخ في موطنه وغير موطنه ، وأهم من ذلك بما قرأ من كتب التراث : أن يصبح إماماً من أئمة اللغة العربية ، مما جعله موثقاً للطلاب في كل مكان نزل به وخاصة في مكة . وعنى بوضع المعاجم والكتب في اللغة ، ومن أهمها : مجمع البحرين في اثني عشر مجلداً ويقول في مقدمته إنه جمع فيه بين معجم الصحاح للجوهري ومعجم له سماه « التكملة والذيل والصلة » . وعادة يفصل في مجمع البحرين بين ما ينقله من الصحاح وما ينقله من معجمه بوضع حرف ص لما ينقله من الصحاح وحرف التاء لما ينقله من التكملة وحرف الحاء لما ينقله من الذيل والصلة . ونشر مجمع اللغة العربية معجم « التكملة والذيل والصلة » المذكور في ستة مجلدات ، وقد ضمنه ما فات الجوهري في صحاحه من بعض مواد اللغة وما وقع فيه من أغلاط وأوهام . وله كتاب في الأضداد ، وكتاب سماه النوادر في اللغة روى فيه غرائب اللغة التي نص عليها علماء اللغة الأقدمون ، وفي دار الكتب المصرية منه مخطوطة . وحاول بأخرة من عمره أن

(١) انظره في العقد الثمين ١٧٦/٤ والجواهر النضية لابن تيمزي بردي ٢٦/٧ .

٢٠١٦ وشذرات الذهب ٢٥٠/٥ والجموم الزاهرة

يؤلف في اللغة معجماً كبيراً سماه العباب الزاخر ، غير أن المنية عاجلته قبل إتمامه . ولا شك في أن هذا الإنتاج الغزير يَصوِّرُ عالماً لغوياً كبيراً ، وهو لم ينشأ في الجزيرة ولا في بلد عربي ، وإنما نشأ في الهند ، ومع ذلك استطاع أن يصبح من الأقداد في العربية على مر العصور ، وهو شاهد على ما نقوله من أن العلم العربي كان ملتبساً بكل مكان في العالم العربي والعالم الإسلامي الكبير . ومن نزل بمكة من كبار شيوخ العربية ابن عبد<sup>(١)</sup> المعطى أحمد بن محمد الملقب بنحويّ الحجاز المتوفى بها سنة ٧٨٨ وهو مغربي مصري تلمذ في العربية على أبي حيان الغرناطي عالمها المشهور ، قرأ عليه كتاب التسهيل لابن مالك النحو المعروف ، ثم جاور بمكة إلى أن توفي بها وانتصب فيها للتدريس والاشتغال بالعربية والعروض . ومن النحاة بعده محمد<sup>(٢)</sup> بن أبي بكر المرجاني المكي المتوفى سنة ٨٢٧ . ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد ابن معصوم يلقب غير شاعر بأنه من أئمة العربية . ولا ريب في أن دراستها ظلت نشطة في العصر العثماني وحتى نهايته ، فكان هناك معلمون مختلفون للعربية في مكة والمدينة وقرى الحجاز المختلفة .

وتنشط اليمن طوال هذا العصر في الدراسات اللغوية والنحوية ، وهو يفتتح في سنة ٣٣٤ للهجرة بوقاة عالم لغوي يمني مهم ، هو الهمداني<sup>(٣)</sup> المذكور فيما مر ، وفيه يقول القفطي في إنباه الرواة « هو أحد عيون العلماء باللغة العربية وأشعار العرب وأيامها » . وسبق أن نوهنا بكتابه الإكليل وهو في سير الملوك الحميريين وأخبار اليمنيين الأولين ، طبع منه الأجزاء : الأول والثاني والثامن ، وكذلك الجزء العاشر وهو في أنساب همدان قبيلته وأخبارها وبه أشعار كثيرة . وله كتاب يسمى « اليسوب في فقه الصيد وحلاله وحرامه وكيفيته وما جاء فيه من أشعار » يقول القفطي عنه : إنه جيد جداً ومفيد للمتأدبين ، ومرّبنا ذكر كتابه صفة جزيرة العرب ، وهو يحمل مقداراً كبيراً من اللغة والشعر . وله القصيدة الدامغة افتخرفها باليمن على مضر ، طبعت مشروحة بالقاهرة . وكان يكتاب ابن الأنباري وغيره من لغويي بغداد ويعترفون بفضلهم ، ومن أجله رحل العالم النحوي المعروف ابن خالويه إلى اليمن وعنى بجمع ديوانه وتخرجه ، إذ كان شاعراً مجيداً . وتمضى اليمن في نشاطها اللغوي والنحوي طوال أزمنة الدول التي مرت بنا في زيب وصنعاء وعدن وصعدة إذ كان أمراؤها يتنافسون في جمع العلماء بإماراتهم ومن حولهم : علماء العربية وغيرهم ، ويلقانا

(١) انظره في العقد الثمين ١٤٩/٣ والدرر الكامنة (٣) إنباه الرواة ٢٧٩/١ وأخبار الحكماء ص ١٦٣

لابن حجر ٢٧٧/١ . ومعجم الأدباء ٢٣٠/٧ وروضات الجنات ٢٣٨ .

(٢) العقد الثمين ٤٢٩/١ .

منهم في زيديبلاط جيش بن نجاح زيد بن عطية الذي سبق أن تحدثنا عن حدقه لعنوم الأوائل ، وكان يعاصره في بلاط الصليحيين إسماعيل (١) بن إبراهيم الربيعي النحوي اللغوي الشاعر ، من أهل صنعاء ، وكان مؤدباً لأولاد الأمراء الصليحيين ، وله قصيدة في غريب اللغة جعل ترتيبها على ترتيب معجم العين المنسوب إلى الخليل بن أحمد وسماها « قَيْد الأوابد » وجعل لها شرحاً ضمنه نوادر وطرائف من الأخبار والأشعار . ومن نخاة اليمن القاضي أبو بكر اليافعي المتوفى سنة ٥٥٢ وله في النحو مختصر سماه المفتاح ، وسرعان ما تنجب اليمن نشوان (٢) بن سعيد المتوفى سنة ٥٨٠ وله في اللغة كتب مختلفة ، أهمها « شمس (٣) العلوم وشفاء كلام العرب من الكلوم » في ثمانية مجلدات ، رتبته على حروف المعجم بحسب أوائل الكلمات لا أواخرها متابعا في ذلك الزمخشري في معجمه أساس البلاغة ، وحرص فيه على دقة الضبط بالنقط والحركات ، وقسم كل باب فيه أو حرف قسمين : قسما للأسماء وقسما للأفعال ، وعنى بأن يذكر فيه كثيرا من الكلمات اليمنية التي لم تسجلها المعاجم قبله ، وأكثر فيه من شواهد القرآن الكريم والحديث النبوي والشعر والأمثال. وكان يعاصره الحسن (٤) بن أبي عباد المتوفى سنة ٥٩٠ ويقول القفطي إن له مختصراً في النحو مشهوراً في اليمن يقرؤه المتدثون ، ويقول السيوطي في البغية عنه : « إمام النخاة في قطر اليمن كانت الرحلة في علم النحو إليه وإلى ابن أخيه إبراهيم » . وكان يعاصرها على (٥) بن سليمان اليمني النحوي المتوفى سنة ٥٩٩ وله مصنف في النحو سماه كشف المشكل في مجلدين ، وروى له ياقوت أبياتاً يحصر فيها جموع التكسير .

وتنهض الدولة الرسولية بعلوم العربية نهضة واسعة ، وكانوا يجزلون العطاء للعلماء فقصدوهم من كل فج ومربنا أن الفيروز آبادي (٦) مجد الدين محمد بن يعقوب المتوفى سنة ٨١٧ بزييد وقد على السلطان الأشرف ، فأكرمه إكراماً عظيماً ، وكان قبل أن يفد عليه جاور بمكة من سنة ٧٧٠ إلى سنة ٧٧٥ وكان له فيها دار كثيراً ما عاد إليها ، وجعلها في سنة ٨٠٢ مدرسة باسم الملك الأشرف وقرر بها طلبة وثلاثة مدرسين : في الحديث وفقه مالك وفقه الشافعي ، وزار المدينة المنورة وقرر بها ما قرر بمكة ، وكان الأشرف قد ولاه وظيفة قاضي

## مصنفات

- (١) إنباه الرواة ١/١٩١ .
- (٢) انظر مصادره في ترجمته نافصل الثالث .
- (٣) طبع الجزء الأول منه في بريل ثم طبع بالقاهرة .
- (٤) انظره في معجم الأدباء ٨/٥٣ وإنباه الرواة
- (٥) ١/٢٩٠ وبغية الوعاة وروضات الجنات ٢٢٢ وانظر في
- (٦) ابن أخيه الآتي ذكره معجم الأدباء ١/١٦٤ وله في النحو
- (٥) راجعه في معجم الأدباء ١٣/٢٤٣ .
- (٦) راجعه في الضوء اللامع للسخاوي ١٠/٧٩١ و
- المقدّمين ٢/٣٩٢ وبغية الوعاة والروض العاطر لانتحان
- ٢/٢٤٩ والبدر الطالع للشوكاني ٢/٢٨٠ والشقائق
- التعمية على هامش ابن خلكان ١/٣٢ .

القضاة باليمن ، وظل يلبها أكثر من عشرين سنة في عهده وعهد ابنه السلطان الناصر إلى أن أدركه الوفاة . وكانت أكثر إقامته بزييد ، وأقام مدة بتعز ، لما كان قَوْض إليه من التدريس بمدارس البلدتين . وله مصنفات كثيرة في الحديث وفي الفقه ، ومرت بنا المنحة التي أهداها إليه السلطان الأشرف حين ألف في الفقه كتابه الإسعاد ، وله في النحو كتاب سماه « مقصود ذوى الألباب في علم الإعراب » . أما اللغة فكان فيها بحر لا يسبر غوره ، ومن مصنفاته فيها مصنف في الترادف سماه : « الروض المسنوف فبا له اسمان إلى الوف » . وله كتاب في غريب الذكر الحكيم سماه « بصائر ذوى التمييز في لطائف الكتاب العزيز » وقد طبعه المجلس الأعلى للشئون الإسلامية في عدة مجلدات . ومن أروع أعماله معجمه النفيس « القاموس المحيط » الذى ألفه في زييد ، ولا نغلو إذا قلنا إنه أروع المعاجم القديمة لجمعه بين الدقة والاختصار إذ هو في أربعة مجلدات فقط ، ولكن كلما قرأت مادة منه خيل إليك أنه حولها إلى ما يشبه بحثاً قصيراً ، وقد اتبع في ترتيب مواده طريقة الصحاح للجوهري فرتب المواد حسب الحرف الأخير لا حسب الحرف الأول كما صنع الزمخشري في أساس البلاغة ، لأن الحرف الأخير في المادة لا يتغير بخلاف الحرف الأول إذ تدخله زيادات مختلفة . وحاول بعض القدماء نقده ببيان ما فاته من بعض المواد أو ما سبق خطأ إلى وهمه . وكان آخر من نهض بذلك أحمد فارس الشدياق في كتابه الجاسوس على القاموس ، ومع ذلك فالمعجم بحق مفخرة للفيروزابادى ، وقد ضمنه أسماء كثير من المواضع وأعلام الأشخاص وكثير من الكلمات الأعجمية العربية ، وهى جديرة بأن تجمع ويخرج فيها كتاب مستقل ، ولنفاضة المعجم تهده يميني بصنع شرح مطول له هو السيد مرتضى<sup>(١)</sup> الزبيدى المتوفى سنة ١٢٠٥ هـ / ١٧٩٠ م وقد اتخذ القاهرة مهاجراً له وموطناً منذ سنة ١١٦٧ هـ / ١٧٥٣ م وفيها ألف هذا الشرح الذى سماه « تاج العروس في شرح جواهر القاموس » وهو مطبوع في عشرة مجلدات ، ويتلافى نواقص القاموس في المادة اللغوية مستعيناً بلسان العرب لابن منظور وغيره من المعاجم المطولة ، ويتوسع في الحديث عن المواضع والأعلام بحيث يصبح دائرة معارف جغرافية تاريخية ، مع ما يعرضه من بعض الأحكام الشرعية والفوائد العلمية .

وهذه النهضة بعلوم العربية في اليمن كانت تتسع لتشمل إمامة الزيديين في صعدة وفيما يتبعهم أحياناً من البلدان مثل صنعاء وزييد حتى إذا دانت لهم اليمن بعد عهد الظاهريين

(١) انظره في فهرس الكتاب ١/١٩٨ والحيرى ٢/١٩٦ . المكتبة السلفية) ٢/٢١١ .

والخطوط التوفيقية ٣/٩٠ ونشر العرف لزيارة (طبع

نشروا هذه النهضة في كل مكان . وكان العثمانيون في أثناء احتلالهم لليمن يعنون بالمدارس وتعليم العربية ، وكان الزيدون يناقسونهم في هذا المضمار والزيدى نفسه من ثمرات هذا العصر المتأخر في اليمن وهو رمز قوى لما كانت تحظى به العربية حينئذ من نشاط خصب . ولم يكن هذا النشاط قاصراً على اليمن والحجاز بل كان عاماً في حضرموت وعُمان والبحرين وكانت العناية تبدأ أولاً بتحفيظ القرآن الكريم وبعض الأشعار ، ثم يأخذ المتعلمون قسطاً من العلوم اللغوية ليستعينوا به على ما يريدون أن يتعلموه من الدراسات الدينية ، وهل من شك في أن كل ما نقرأ من شعر وأدب في هذه البيئات المختلفة إنما هو ثمرة العناية بالعربية وعلومها اللغوية ، وتتخذ لهذه العناية مثالا هو الشيخ عبد الله البيهوشى<sup>(١)</sup> ، وأصله شهرزورى تنقف ببغداد واستوطن الأحساء حتى توفي سنة ١٢١١هـ/١٧٩٦م وله حاشية على شرح الفاكهى لقطر الندى تأليف ابن هشام، وصرف العناية بكشف الكفاية وهو مطبوع بالقاهرة ، وله مؤلفات ومنظومات شعرية مختلفة في اللغة والنحو والدين . وكان في كل بلدة وقرية معلمون رصدوا أنفسهم لتعليم العربية حتى نجد وقراها المتوغلة في الصحراء لم تكن تخلو من هؤلاء المعلمين . وبدل على ذلك ما نجد في كتاب «لمع الشهاب في سيرة محمد بن عبد الوهاب» من أنه تعلم العربية على شيخ لزم دروسه يسمّى عبد الرحمن بن أحمد من أهل بُرَيْدَة إحدى القرى المتعمقة في بوادى نجد . وإنه ليكنى من نشاط الجزيرة العربية في هذا العصر فيما يخص الدراسات اللغوية أنها أهدت إلى العربية معجم الجمهرة لابن دريد ، ثم أهدت مجموعة المعاجم التي خلفها الصغالى والقاموس المحيط للفيروزابادى وتاج العروس للزيدى فنشاطها اللغوى كان نشاطاً جياً مشمراً .

وإذا انتقلنا إلى مباحث البلاغة كان ينبغي أن لا يبرح أذهاننا أن كل ما كانت تتجه بيئة عربية في علم من العلوم يصبح حقاً مشاعاً لكل البيئات الأخرى ، ولذلك كنا نفاجأ من حين إلى حين بكتاب في بيئة يتصل مباشرة بمباحث البيئات المختلفة ، وما يصور ذلك من بعض الوجوه مقدمة في شرح نهج البلاغة لعلى بن أبى طالب ، تلك التي قدم بها كمال الدين ميثم<sup>(٢)</sup> بن على بن ميثم البَحْرانى المتوفى سنة ٦٧٩ هـ / ١٢٨٠ م شرحه الأكبر المطبوع على الحجر بشرير إذ له وراهه شرحان ، وفيه تحدث عن البيان في النهج ووزع

(١) انظر فيه كتاب البيهوشى همد الخال قاضى السلمانية (٢) راجع في ميثم كتاب سليمان البحرانى عنه باسم (طبع بغداد) وكتاب شعراء هجر لعبد الفتاح الحلوى السلافة البية في الترجمة المشيعة .  
ص ١٧ وما بعدها .

حديثه على ثلاث قواعد ، جعل الأولى لدراسة الألفاظ والثانية لدراسة المعاني ، والثالثة لدراسة الخطابة ، والصلة بين مباحثه ومباحث السابقين له واضحة .

ولعل خير كتاب يصور النشاط البلاغي في الجزيرة العربية لهذه العصور كتاب الطراز المتضمن لأسرار البلاغة وعلوم حقائق الإعجاز للإمام الزيدى اليمنى يحيى<sup>(١)</sup> بن حمزة العلوي ، المتوفى سنة ٧٠٥ وهو يقول في مقدمته إنه لم يطلع من كتب البلاغة إلا على أربعة كتب هي ، المثل السائر لابن الأثير والبيان في علم البيان لابن الزملاكني ونهاية الإيجاز في دراية الإعجاز للفخر الرازي والمصباح في البيان والبدیع لبدر الدين بن مالك ، ويشيد بعبد القاهر وكتابه : دلائل الإعجاز وأسرار البلاغة وفيه يقول : « أول من أسس في هذا العلم قواعده وأوضح براهينه وأظهر فوائده ورب أفانينه الشيخ العالم أنسحري ، علم المحققين عبد القاهر الجرجاني » غير أنه يصرح بأنه لم يطلع على كتابيه المذكورين آنفاً ، إنما استطاع على شذرات منها في كتابات البلاغيين . وقد ذكر السكاكي مراراً ، مما يدل على أنه اطلع على كتابه « المفتاح » ويقول إن الحافظ الذي دفعه إلى تأليف كتابه أنه حين حاول أن يقرأ مع طلابه تفسير الزمخشري المسمى بالكشاف وفيه مسائل بلاغية كثيرة طلبوا منه أن يؤلف لهم في البلاغة كتاباً ، فاستجاب لهم ، وأثر ابن الأثير والفخر الرازي والسكاكي بين في الكتاب ، وقد وزعه على مقدمات ومقاصد وتكملات ، وسمى كل فرع من هذه الفروع فناً ، وفن المقدمات عنده يتناول علم البيان والبلاغة والفصاحة والحقيقة والمجاز ، وسلك في الفصاحة والبلاغة علمي المعاني والبيان . ويتأثر بابن الأثير فيما كتبه عن معرفة الآلات الضرورية لإتقان البيان كاللغة والنحو والتصريف وحفظ القرآن . ونصوص الشعر والنثر . ويستوحى الفخر الرازي فيما كتبه عن أنواع الدلالات الوضعية والالتزامية ، ويتحدث عن الحقيقة والمجاز ويذكر للحقيقة تعريفات مختلفة وينسب أحدها إلى ابن الأثير . وبطيل في الحديث عن الحقيقة العرفية والشرعية ، ويتضح هنا تأثيره بعلم أصول الفقه . ويعرض المجاز وماهيته ويتحدث عن المجاز المغوى أو المرسل وعلاقاته ويسمى المجاز العقلي باسم المجاز المركب وينقل عن الرازي بعض أحكام المجاز . وينتقل إلى الفصاحة ويقول إنها خلوص اللفظ من التعقيد وبطيل مستضيئاً بابن الأثير في بيان وجوه الحسن في أفراد الحروف والكلمات . ويتحدث عن البلاغة مهتدياً بابن الأثير مع الانتفاع بما ذكره الرازي من مجال الرصف لحروف منقوطة أو بعضها منقوط وبعضها غير منقوط ويذكر آراءه في معنى

(١) انظره في البدر الطالع لشوكاني ٣٣١/٢ وكتابه ١٩١٤ وراجع كتابنا : البلاغة : تطور وتاريخ ( طبع

الطراز ) نشرته دار الكتب المصرية في ثلاثة مجلدات سنة ٣٢٠ . دار المعارف ) ص ٣٢٠ .

الفصاحة والبلاغة وأن الطرف الأعلى للأخيرة هو الإعجاز . ويخرج إلى بيان مواقع الغلط في اللفظ المفرد والمركب سواء من التصريف وفساده أو من النحو والغلط فيه . ويترك الفن الأول وهو المقدمات إلى الفن الثاني في الكتاب ، وهو المقاصد ، ويعود إلى الحديث عن الدلالات الوضعية والعقلية أو الالتزامية ، ويعرض أبواب البيان مبتدئاً بالمجاز وأنواعه من الاستعارة والكناية والتمثيل ، ويفصل القول في الاستعارة وتعريفاتها عند الرماني والفخر الرازي وابن الأثير ، ويدخل فيها التشبيه البليغ ويمثل لنا بشواهد كثيرة من القرآن الكريم والحديث ونصوص النثر والشعر ، ويتحدث عن أقسامها على هدى الرازي وبدر الدين بن مالك ، ويجعلها عدة أقسام باعتبارات مختلفة ، أما باعتبار ذاتها فتقسم إلى حقيقية وخيالية ، وباعتبار لزمته تنقسم إلى مجردة ومرشحة ، وباعتبار حكمها تنقسم إلى حسنة وقيحة ، وباعتبار استخدامها تنقسم إلى استعارة محسوس محسوس أو معقول لمعقول . ويخرج إلى التشبيه ، ويذكر أن ابن الأثير أدخله في المجاز ، ويفصل القول فيه ، متأثراً بالرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك ، ويجعله أقساماً : قسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف المحسوسة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف التابعة للمحسوسات كالشكل والاستدارة والقوام واللينة والصلابة ، وقسماً يشترك فيه المشبه والمشبه به في الأوصاف العقلية . ويؤكد أن مدار الجمال في التشبيه والاستعارة على الإتيان بالخيال الغريب غير المألوف . ويعود إلى تقسيات أخرى في التشبيه باعتبارات مختلفة ، إذ ينقسم باعتبار ذاته إلى أربعة أقسام : مفرد بمركب ومركب بمفرد ومفرد بمفرد ومركب بمركب ، وينقسم باعتبار حكمه إلى قبيح وحسن وباعتبار صورته إلى ما يسميه طرداً وعكساً وباعتبار أداته إلى مظهر ومضمر . ويعرض الكناية وتعريفات عبد القاهر وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وبعض الأصوليين لها ، ويقف مع ابن الأثير في عدّها ضرباً من المجاز قائلاً إنها « اللفظ الدال على معنيين مختلفين : حقيقة ومجاز من غير واسطة لا على جهة التصريح » ويتحدث عن أقسامها وعن التعريض والتمثيل . وينتقل إلى الكلام عن علم المعاني ، مازجاً فيه بين مباحث الرازي وابن الأثير وبدر الدين بن مالك وابن الزملاكي ، وقد ذكر فيه - على هدى الأخير - المعرفة والنكرة والأحرف الجارة وبعض صيغ الأفعال والأسماء والنفي ، وأيضاً ذكر على هداه وهدى ابن الأثير صور الالتفات . وتحدث عن الفصل والوصل والحذف والإيجاز وعنده أن الإيجاز قسمان : قسم بالقصر وقسم بالترقيق يريد به المساواة .

وعرض المبادئ والافتتاحات والتخلص وصوراً من المبالغة ، وهو في كل ذلك يستلهم

ابن الأثير. وفصل القول في علم البديع \* على هدى بدر الدين بن مالك ، وجعله نوعين : نوعاً يتعلق بالفصاحة اللفظية ، ويتنظم عشرين محسناً بلاغياً من مثل الجناس والترصيع والألغاز ، وعدّ من هذا النوع الطباق ومرده إلى المعنى ، ونوعاً ثانياً يتعلق بالفصاحة المعنوية ويتنظم خمسة وثلاثين محسناً بلاغياً . ويتنقل إلى التكيلات الملحقة بالكتاب ، وهي الفن الثالث من فنونه ، وهو فن خاص ببيان البلاغة في القرآن الكريم وآياته ، وهو يوضح روعة فصاحته في حروفه ومفرداته وتراكيبه ويطبّق على تعبيراته ومواطن الجمال فيها علوم المعاني والبيان البديع ، ويتحدث في إفاضة عن إعجازه البلاغي وجمال بيانه ونظمه وفصاحته ودقة معانيه الجمالية الإضافية .

وكانت قد نشطت منذ عصر يحيى بن حمزة العلوي البديعيات وهي قصائد في مديح الرسول ﷺ تتضمن آياتها كل ألوان البديع ومحسناته ، ومن أجل ذلك توضع لها الشروح ، وتوزع على المحسنات البديعية في أبواب متلاحقة ، وأول من صنع ذلك على بن عثمان الأربلي المتوفى سنة ٦٧٠ وتبعه صفي الدين الحلبي المتوفى سنة ٧٥٠ وتلاحقت بعده سيول من هذه البديعيات في جميع الأقطار العربية . ومن شارك في هذا الاتجاه من الجزيرة العربية ابن معصوم<sup>(١)</sup> الحسيني من أهل المدينة المتوفى سنة ١١١٧ وهو صاحب كتاب السلافة ومطلع بديعيته :

حُسْنُ ابتدائي بذكرى جيرة الحَرَمِ له براعةٌ شوق تسهّلُ دمي  
وألف عليها شرحاً سماه « أنوار الربيع في أنواع البديع » وتتضمن ألفاظ الأبيات أسماء المحسنات البديعية ، وذكر في مقدمة شرحه أسماء من سبقوه إلى نظم البديعيات والتأليف محاكياً بذلك أصحاب البديعيات وشروحها قبله .

وعلى نحو ما كانت البحوث البلاغية والبديعية نشطة في الجزيرة العربية كذلك كانت البحوث النقدية ومن خير ما يصور ذلك كتاب تنبيه الأديب على ما في شعر أبي الطيب من الحسن والمعيب لعبد<sup>(٢)</sup> الرحمن بن عبد الله با كثير الحضرمي المكي قاضي جدة المتوفى حوالي سنة ٩٧٥ للهجرة وقد بدأ مؤلفه بالحديث عن الفصاحة ثم فتح باباً لعرض وجوه من النقد لنحو خمسين قصيدة للمتنبّي مرتبة على الحروف الهجائية وعادة يذكر مطلع القصيدة ثم بمرض الأبيات المستهجنة فيها والمستحسنة ، ويعقد باباً ثانياً يتحدث فيه عن السرقات الشعرية وسرقات المتنبي من الشعراء وسرقات الشعراء منه . ثم يسوق خاتمة في

(١) انظره 3 نيسر الطالع ٤٢٨/١ وأمل (٢) راجع مقدمة محقق الكتاب : الدكتور رشيد عبد الرحمن صالح ، وما بها من مصادر عن المؤلف .  
الأمس ص ٥٢ .

بيان وجوه من محاسن المتنبي في إرسال الأمثال والحكم وبنه بالثناء عليه وعلى شعره . والكتاب يدل على بصير جيد بمعرفة الشعر ونقده وفيه ما يصور ثقافة هذا الناقد الحضرمي المكّي وأنه اطلع على كثير مما كتب عن المتنبي قبله وقد حاول أن يضيف إضافات جيدة في بيان محاسن شعره ومعانيه ، وهو يشيد به في فواتح كتابه إشادة بالغة وكذلك في تضاعيفه وفي خاتمته ونهايته . ومن أطرف صحفه الصحف التي تحدث فيها عن السرقات إذ عرض فيها أسماء شعراء متأخرين نابهن كثيرين مما يدل على ثقافته الواسعة بالشعر والشعراء حتى زمنه .

## ٤

### علوم الفقه والحديث والتفسير والقراءات والكلام .

ما قلناه عن التراث اللغوي والنحوي والبلاغي وأنه كان مشتركا بين البلدان العربية على اختلاف أقطارها ينطبق أشد الانطباق على تراث الفقه والحديث والتفسير والقراءات وعلم الكلام ، فهو تراث مشترك يدرس في كل أنحاء الجزيرة العربية كما يدرس في كل أنحاء العالم العربي ، لا فرق بين بلد وبلد ولا بين زمن وزمن . ولم يكن طلاب العلم حينئذ يكتفون بأخذهم عن علماء بلدهم ، بل كانوا يرحلون إلى لقاء العلماء النابهن في كل بلد وخاصة في العراق والشام ومصر ، ليتلقوا العلم عنهم شفاها . ولا يكتفى الطالب بالرحلة مثلا إلى بغداد ولقاء علمائها ، بل يرحل إلى بلاد أخرى طامعا في أن يجمع لنفسه كل ما يستطيع من مواد المعرفة في علم بعينه أو في مجموعة من العلوم .

وجعل الحجُّ والزيارة النبوية مكّة والمدينة قبلتين للطلاب والعلماء جميعا ، على نحو ما مرّ بنا في علوم العربية فكان يفد عليها أنه العلماء في العالم الإسلامي ، وكثيرا ما يتزلون بهما سنة أو سنوات ، وطلاب البلدتين ينهلون من ينابيع علومهم الغزيرة . ونضرب مثلا في الفقه بالحويّني<sup>(١)</sup> عبد الملك بن عبد الله النيسابوري شيخ الإسلام العلامة الأصولي الفقيه المتكلم المتوفى سنة ٤٧٨ وقد جاور بمكة أربع سنوات قضى منها شطرا في المدينة ولذلك سمى إمام الحرمين ، وكان يدرّس هناك ويفتي ويجهّد في نشر العلم بفقه الشافعي ، وكان علمه بهذا الفقه قد أحدث دويا هائلا لاسمه في موطنه وحين نزل بغداد ولقي علماءها وناظره ، ويقولون عنه : وقف علماء المشرق والمغرب معترفين بالعجز بين يديه ، ويقولون

(١) انظر مصادر ترجمته في الفصل الثاني من القسم

السبكي : « لا يشك ذو خبرة أنه كان أعلم أهل الأرض بالفقه والأصول والكلام وأكثرهم تحقيقاً . . وأن الوجود ما أخرج بعده له نظيراً ، مما جعل اسمه يطير في الأقطار وذكره يملأ الديار » . ومن تصانيفه في الفقه الشافعي النهاية في الفقه ويقول السبكي : « لم يصنف في مذهب الشافعي مثلها فيما أجزم به » ويذكر له في أصول الدين أو علم الكلام كتاب شامل وكتاب الإرشاد كما يذكر له في أصول الفقه كتاب البرهان غير كتب أخرى . ولم يكن يحضر مجلسه طلاب الفقه والأصول والكلام في مكة والمدينة فحسب ، بل كان يحضره أيضاً الوافدون على البلديتين من أقطار العالم الإسلامي ، مما جعل اسمه يسير ويشتهر وتضرب به الأمثال . وعاد إلى نيسابور ، فبني له نظام الملك وزير ألب أرسلان السلجوقي مدرسة ليلقي بها محاضراته من مدارسه المعروفة باسم المدارس النظامية وكانت حلقتة تضم نحواً من أربعائة طالب ، وحين توفي طافوا ببلده ينوحون عليه وكسروا الحابر والأقلام حزناً وجزعاً . والفقهاء بمكة والمدينة كانوا كثيرين ، وكان لكل مذهب من المذاهب الأربعة المشهورة : مذهب أبي حنيفة ومذهب مالك ومذهب الشافعي ومذهب أحمد بن حنبل فقيه يمثله ، يسمى مثلاً إمام الحنابلة أو إمام المالكية بالحرم ويضم منهم كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسي طائفة كبيرة . وكذلك غيره من كتب<sup>(١)</sup> التراجم ومن أهم فقهاء مكة المتأخرين ابن حجر الهيتمي المتوفى سنة ٩٧٣ وله شرح كبير على المنهاج للنووي ومصنفات كثيرة .

ونلتقي في مكة بمحدث من كبار المحدثين في العالم الإسلامي هو محب<sup>(٢)</sup> الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ شيخ الحرم وحافظ الحجاز وعالمه المولود بمكة سنة ٦١٥ فهو من علماء مكة . وهي مسقط رأسه وموطنه ، نشأ بها ، وفيها طلب العلم وسمع الحديث على أستاذه أبي الحسن علي بن المقير ، ومما قرأه عليه سنن أبي داود عن أبي الفضل بن سهل الإسفرائيني وعن الخطيب البغدادي وسنن النسائي أبي عبد الرحمن أحمد بن شعيب بن علي عن يزيد بن عبد الرحمن بن محمد الدوني . وكانوا يدققون فيمن يذكروهم من الحفاظ فلا بد أن يكونوا حملوا كتب الحديث عن شيوخ ناهين على نحو ما حمل ابن المقير سنن أبي داود

(١) راجع مثلاً في إمام لحنبة بالمسجد الحرام المنبل

الصاوق ٤٠٤/١ هو شيخ الإمام شهاب الدين أحمد بن علي بن يوسف ، وفي إمام المالكية العقد الثمين ٣٢٤/٤ هو خليل بن عبد الرحمن القسطلاني المكي ، وفي إمام الشافعية العقد الثمين ٢٨٠/١ وهو الرضي الطبري

المكي ، وفي إمام للحنابلة العقد الثمين ١١٩/٧ وهو ابن

الطباخ الحنبل .

(٢) انظره في طبقات الشافعية للسبكي ١٨/٨ والبلبل

الصاوق ٣٢٠/١ وتذكرة الحفاظ ١٤٧٤/٤ وشذرات

الذهب ٤٢٦/٥ ومرة الحنان ٢٢٤/٤ والنجوم الزاهرة

٧٤/٨ .

عن علمين من أعلام الحديث هما الإسفراييني والبغدادي ، فلا يذكرون فقط أخذ كتاب الحديث عن محدث كبير بل يحاولون أن يذكروا عن من أخذ له لصحة السند ولثقة بالرواية ، وينصون كما رأينا الآن على قراءة التلميذ على شيخه للكتاب كلمة كلمة ، وقد يقارن سمعه من شيخه ، وكانوا عادة يسمعون الكتاب وفي أيديهم نسخ للمراجعة والمعارضة . وقد يجمعون الحسينيين من السماع على الشيخ للكتاب وقراءته أمامه مرة واحدة ، فيقولون : سماعاً وقراءة .

وقرأ محب الدين الطبري صحيح البخاري على عبد الرحمن بن حرمي سبط السلتي الحافظ المشهور ، وقرأه أيضاً على عمين لأبيه وأخ له . وقرأ جامع الترمذي على يعقوب بن أبي بكر الطبري وصحيح مسلم وصحيح ابن حبان على شرف الدين بن أبي الفضل المرسي ، وقرأ الأربعين للحافظ الثقي على أبي الحسن بن الجُمَيْزِي وكذلك قرأ عليه الأربعين للسلتي ، وقرأ الأربعين البلدانية على شعيب الزعفراني ، وقرأ بعض الجمع بين الصحيحين للحمدي عن ابن البطي ، وقرأ على ابن العديم وريحان السكيني وشيخ الحرم نجم الدين التبريزي جزء الأنصاري . وكان يعنى بالفقه ، وقرأ كتاب التنبيه المشهور في الفقه الشافعي والذي ألفه أبو إسحق الشيرازي على ابن سكيئة وتفقه عليه . وسمع بعض كتاب الغريب لأبي عبيدة عن شهدة ، وهي إحدى المحدثات الكبيرات . وكأما تعب من يعدون كتب الحديث والفقه والغريب التي أخذها عن العلماء ، فيعقبون على ما سبق بقولهم : وأخذ العلم عن جماعة كثيرين من شيوخ مكة والقادمين إليها . والحرم المكي بذلك كان أشبه بجامعة كبيرة لعلوم الشريعة والعربية . ونقف قليلاً عند المشايخ والأعيان الذين تعلموا له فنهم القاضي جمال الدين الطبري قاضي مكة قرأ عليه في سنة ٦٤٩ بالروضة بالمسجد النبوي . وهذا يعني أنه كان يدرس في المدينة أحياناً .

ومن تلاميذه المحدث عبيد الله بن عبد العزيز المهدي والقطب القسطلاني المصري ثم المكي ونجم الدين بن عبد الحميد والحافظ الزاهد علاء الدين العطار وقاضي المدينة المنورة شمس الدين بن مسلم والحافظ الدمياطي المصري المشهور وعلم الدين البرزالي اندمشتي المصري وقاضي مكة نجم الدين الطبري وقطب الدين الحلبي وأبو حيان الغرناطي وخلق كثير ، كما يقول مترجموه ، آخروهم وفاة عثمان بن الصلي الطبري ، وآخراً أصحابه بالإجازة الشهاب الخنفي . وأما تلامذته وتلامذته هم أعلام الحديث في عصره بالحجاز وبغداد وإيران ودمشق والقاهرة ، غير من انتفع به في الفقه الشافعي ، واستدعاه المظفر السلطان الرسولي مراراً ، وسمع عليه بعض مروياته وتأليفه ولا بد أنه كان يلقى في أثناء ذلك محاضراته على الطلاب بربيد . ونقف مرة أخرى عند مؤلفاته الكثيرة ، منها في الحديث كتاب الأحكام

الكبرى جمع فيه صحاح الأحاديث وحسانها ، وهو في خمسة أجزاء ، وكتاب الأحكام الوسطى مجلد كبير ، وكتاب الأحكام الصغرى يتضمن ألف حديث وخمسة عشر ، وكتاب المحرر للملك المظفر جمع فيه أحكام الصحيحين ، واختصره في كتاب سماه العمدة ، وكتاب الرياض النضرة في فضائل العشرة المبشرين ببجعة الرضوان مجلدان وهو مطبوع ، وكتاب ذخائر العقبي في مناقب ذوى القربى ، وكتاب السمط الثمين في مناقب أمهات المؤمنين ، وتقريب المرام في غريب القاسم بن سلام ، وكتاب القُرَى من ساكن أم القُرَى جرد فيه أحاديث المناسك من الكتب الستة وغيرها ، وغاية بغية الناسك من أحكام المناسك ، وصفة حجة النبي ﷺ على اختلاف طرقها وجميع ألفاظها ، غير كتب أخرى .

ومن مصنفاته الفقهية شرحه على كتاب التنبيه لأبي إسحق الشيرازى في عشرة أجزاء ونكت كبرى عليه في أربعة أجزاء وكتاب المسلك النبى في تلخيص التنبيه ، وكتاب مختصر المهذب ، مجلدان . وما يتصل بالقرآن الكريم : القبس الأستى في كشف الغريب والمعنى ، والكافي في غريب القرآن ، وكتاب التحفة المدنية ، وكتاب مرسوم المصحف العثماني المدنى . وله مختصر كتاب عوارف المعارف للسهروردى . ومحب الدين الطبرى ، بهذا كله رمز كبير لتلك الحركة العلمية التي كانت منبئة في الحجاز والتي كان شررها يتطاير إلى جميع اليبثات في الجزيرة العربية . ومن الطريف أن المرأة كانت تشارك فيها ، وخاصة في رواية الحديث ، فكانت تأخذه عن شيوخه ويأخذه عنها الشيوخ ، ومن يرجع إلى الجزء الثامن من كتاب العقد الثمين سيرى عشرات من النساء المحدثات من مكة أو النازلات بها يروى جلة العلماء عنهن الحديث النبوى .

وطبيعى أن تنشط دراسة التفسير في مكة مع دراسة الحديث ، وقد رأينا محب الدين الطبرى يجانب عمه في الحديث يخدم التفسير خدمات كبيرة ، ويقال إنه كان قد نشط لكتابة تفسير جامع غير أنه توفى قبل إتمامه . وقد صُنِّف بمكة تفسير من أعظم التفاسير ، صنفه الزمخشري في أثناء مجاورته بها وهو « الكشاف » ومع أنه ضمنه آراء الاعتزالية أقبل عليه علماء السنة وغيرهم لروعته ، ويلقبه الفاسى المالكى بأنه « الإمام الكبير في التفسير . كان إمام عصره غير مدافع » ويقول ابن خلكان عن الكشاف وتفسيره للقرآن العزيز بأنه لم يؤلف قبله مثله . وكان يميله في مكة على الطلاب ، وممن رواه عنه قاضيه أبو المعالى يحيى ابن عبدالرحمن الشيبانى ، أخذه عنه بالحرم المكى الشريف ، وظل العلماء بعد الزمخشري يعنون بالكشاف في التفسير ، كما يسون برواية كتب الزمخشري المشهورة وإلقائها على

الطلاب والطالبات بالحرم المكي ، ويقال إن أم المؤيد زينب بنت عبد الرحمن الشعْرية خاتمة الرواة عن الزمخشري وإن لها منه إجازة تفردت بها عنه ، ويقول القاسي في العقد الثمين من طريقها وقع لنا حديثه .

ومنذ انتقال الرسول ﷺ إلى الرفيق الأعلى وقراء الذكر الحكيم يعلمون تلاوته وقراءته في الحرمين المكي والمدني ، ويختار ابن مجاهد في القرن الرابع قراءة ابن كثير التي كان يقرأ بها أهل مكة وقراءة نافع التي كان يقرأ بها أهل المدينة بين القراءات السبع المشهورة لعصره ، وظلت قراءة كل منها تتداول في بلدته وينقلها جيل من القراء إلى جيل ، وتلقانا في كتاب طبقات القراء لابن الجزري أسماء طائفة منهم مثل أبي يحيى المكي المتوفى سنة ٣٤٤ وأبي عبد الله البلخي المولود بمكة المتوفى سنة ٣٧٢ ويكتظ كتاب العقد الثمين بتراجم كثير من القراء في مكة والمدينة . وكانتا دارين للقراءات وعلوم الشريعة ، أما علم الكلام فلم يكن له بها كبير شأن .

وإذا ما تحولنا إلى اليمن وجدنا للفقه فيها نشاطاً من قديم مذ معمر بن راشد المتوفى سنة ١٥٣ وإليه ارتحل سفيان الثوري وابن عيينة ، وخلفه تلميذة عبد الرزاق بن همام المتوفى سنة ٢١٠ وعنه روى الحديث أحمد بن حنبل وغيره ، وخلفه أبو قرة موسى بن طارق . وكان الغالب في اليمن حتى القرن الثالث مذهبي أبي حنيفة ومالك ، ثم أخذ العلماء يعنون بمذهب الشافعي ، وفي مقدمتهم موسى بن عمران المعافري وآل زرقان إذ كان منهم عدة فقهاء عنوا بفقه الشافعي . ويقول الجعدى في كتابه «طبقات فقهاء اليمن» : وخلف هذا الجيل إمام أئمة الشافعية في صنعاء وعدن القاسم بن محمد القرشي المتوفى سنة ٤٣٧ وهو الذي نشر مذهب الشافعي في مخلاف الجند وفي صنعاء وعدن وزيد ، وكان قد جمع مع الفقه والحديث وأصول الفقه علم القراءات . وكان يعاصره الصعبي أحمد بن عبد الله وقد شرح مختصر المزني المصري صاحب الشافعي - كما يقول الجعدى - في أربع سنوات مقابلاً الكعبة الشريفة . ويخلف القاسم بن محمد مجموعة كبيرة من التلاميذ ينهضون بتعليم فقه الشافعي وبيان مذهبه . ولما ألف أبو إسحاق الشيرازي كتابيه . المهذب والتنبيه في الفقه الشافعي ، وأخذهما عنه حسين بن علي الطبري وأبو نصر البنديجي وسكنا مكة حمل الفقهاء اليمنيون وغيرهم عنها الكتابين ، كما حملوها عن تلميذه محمد بن عبدويه الذي سكن عدن مدة ثم انتقل منها إلى زيد ، وكان يتفق على طلبة العلم ويكرمهم كما يقول الجعدى . وينشط الفقه الشافعي أو المذهب الشافعي في الفقه بهامة وزيد نشاطاً واسعاً .

ويكثر فقهاؤه ، ومن أهمهم يحيى<sup>(١)</sup> بن أبي الخير شيخ الشافعيين باليمن المتوفى سنة ٥٥٨ وقد تفقه على جماعة ، منهم خاله أبو الفتوح بن عثمان العمراني وزيد بن عبد الله اليفاعي ، وقد قرأ كتاب التنييه للشيرازي على موسى بن علي الصعبي ، وحفظ كتاب الشيرازي : «المهذب» على عبد الله بن أحمد الهمداني ، وكذلك كتابه «اللمع» وأخذ عن زيد ابن الحسن الفايثي تعليق الشيخ الشيرازي في أصول الفقه مع ملخصه ، وحضر دروس فقهاء كثيرين ، وقرأ على القاضي مسلم بن أبي بكر الصعبي كتاب الحروف السبعة في علم الكلام والتوحيد وأصول الدين لمؤلفه الحسين بن جعفر المراغي ، وسمع على الشيخ سالم ابن عبد الله كتاب الجامع للسنن للترمذي ، وما قرأه ونص عليه الجعدي شروح المزني والجموع للمحاملي والشامل لابن الصباغ والفروع لسلم وشروح المولدات لأبي الطيب والعدة للقاضي حسين بن علي الطبري تلميذ الشيرازي كما أسلفنا والإبانة وشرح التلخيص لأبي علي السنجي وكتاب التبصرة لأبي الفتوح على مذهب السلف الصالح .

وكان الفقهاء في اليمن منقسمين بين أشعرية وأهل سنة ينصرون مذهب الحنابلة مع أنهم شافعية ، وكان يحيى بن أبي الخير يختار مذهب أهل السنة وينظر الفقهاء في مذهب الأشعري المتكلم . وكان يذكر لطلابه خلاف الإمامين مالك وأبي حنيفة ، وله مصنفات مختلفة ، من أهمها في الفقه الشافعي كتابه الزوائد ألفه في أربع سنوات وكتابه البيان ألفه في ست ، وكتابه استخراج المسائل المشككة في المذهب .

ومن الطريف أن الجعدي في كتابه طبقات فقهاء اليمن يوالى ذكر أسماء جماعات من الفقهاء الشافعية نبغوا في بيت بعينه ، من ذلك أسرة بني أبي عقامة ، ويقول عنهم الجعدي : «وفضائل بني أبي عقامة مشهورة : وهم الذين نصر الله بهم مذهب الإمام الشافعي في تهامة» ومن أهمهم أبو الفتوح<sup>(٢)</sup> عبد الله بن محمد بن علي بن أبي عقامة المتوفى سنة ٥٥٠ تفقه على جده علي وعلى أبي الغنائم الفارقي ، وله مصنفات جيدة منها كتاب الختائي وفيه نفائس حسنة ، قال النووي : لم يسبق إلى تصنيف مثله . وعقد العهاد الأصهباني لهذه الأسرة فصلاً في الخريدة ، ويقول الجعدي في كتابه السلوك عن أحدهم ، وهو القاضي أبو محمد الحسن بن أبي عقامة : «له كتاب نوادر مذهب أبي حنيفة التي يستشعها أصحاب الشافعية» وقد صار هذا الكتاب في اليمن قليل الوجود ، لأن الحنفية

(١) طبقات فقهاء اليمن للجعدي (طبع القاهرة) (٢) انظره في طبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠ والسبكي ص ١٧٤ وطبقات الشافعية للسبكي (الطبعة الثانية) ١٣٠/٧ وتهذيب الأسماء واللغات ٢/٢٦٢ وقسم الشام ٣٣٦/٧ وشنرات الذهب ١٨٥/٤ . من كتاب الخريدة للهاد الأصهباني ٢٤٦/٣ .

اجتهدت بتحصيله وإذها به (١) .

وكان للحنفية نشاطهم ومن أشهر علمائهم في القرن الخامس في اليمن القاضي محمد بن أبي عوف، ويعقد لهم الجعدي فصلاً قصيراً في كتابه يذكر أسماء طائفة منهم ، ويقف عند القاضي المذكور ، ويقول إنه صنف كتاباً بعنوان « القاضي » وهو مشهور في اليمن والعراق عند الحنفية . واشتهر منهم في القرن السابع أبو بكر بن عيسى المعروف بابن حنكاش (٢) المتوفى سنة ٦٦٤ وإليه انتهت رئاسة الحنفية في اليمن ، ويقال : لو لم يوجد لمات مذهب أبي حنيفة هناك ، إذ حمل السلطان نور الدين الرسولي على بناء مدرسة للحنفية بزييد وكان قد بنى بها مدرسة للشافعية .

وكان يقابل فقه الشافعية في تهامة وزبيد فقه الزيدية في صعدة من قديم . وكان الأئمة الرسيون كلما غلبوا على بلد في اليمن حاولوا أن يشيعوا فيه مذهبهم ، حتى إذا تمت لهم الغلبة في العصر العثماني أشاعوا مذهب الزيدية ، غير أن مركز الشافعية في زبيد وتهامة ظل ثابتاً إلى اليوم . ومعروف أن الفقه الزيدي نشأ مبكراً . فإن زيد بن علي زين العابدين بن الحسين المقتول سنة ١٢٢ بالكوفة هو الذي أرسى قواعده في كتاب فقهي له اشتهر باسم المجموع الفقهي (٣) ، وهو أساس الفتوى والأحكام القضائية عند الزيدية ، وقد طبع في القاهرة سنة ١٣٤٠ وطبع قبل ذلك مع شرح له باسم المروض النضير للحسين الحيمي في أربعة أجزاء سنة ١٣٣٧ وطبع أيضاً بشرح شرف الدين السباعي . والشرحان مطبوعان في القاهرة . وعنى أئمة الزيدية في اليمن - منذ تأسيس الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين دعوتهم - بهذا الكتاب فهو عمدتهم في الفقه والتأليف فيه ، ولالإمام الهادي كتاب يسمى كتاب جامع (٤) الأحكام في الحلال والحرام . ويتكاثرت تأليف أئمة الزيدية لكنب الفقه في اليمن ، وتذكر من كتبهم أطرافاً . فمن ذلك المنصور بالله عبد الله بن حمزة ، له فتاوى كثيرة مجموعة . ومن ذلك الإمام محمد بن المظهر المتوفى سنة ٧٢٨ له المنهاج الجلي شرح مجموع الإمام زيد بن علي . ومن ذلك الإمام المؤيد بالله يحيى بن حمزة صاحب الطرار الذي تحدث عنه في النشاط البلاغي له كتاب الانتصار الجامع لمذاهب علماء الأمصار في ثمانية عشر جزءاً . ومن ذلك الإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ له البحر الزخار الجامع لمذاهب علماء الأمصار طبع مع تحريجه أحاديثه في خمسة أجزاء ، وله أيضاً كتاب

(١) كتاب (السنوك - النكت) للحندي ص ٦٣٢ .

(٢) نونية ٣ : ٣٢٣ .

(٣) العقود اللؤلؤية للبخري ١ / ١٥٥ .

(٤) بروكلمان ٣ / ٣٢٨ .

(٥) انظر تاريخ الأدب العربي لبروكلمان (الطبعة

الأزهاري في فقه الأئمة الأخيار وصنع عليه شرحاً سماه « الغيث المدرار » . وهناك كثيرون من علماء الزيدية ، من الأمراء وغيرهم ، تعمقوا في الفقه الزيدي وألّفوا فيه وحوله كتباً ومصنفات مختلفة ، ومن طريف ما يذكر في هذا الصدد أن أحد أمراء الزيدية في القرن التاسع صنف رسالة استبعد فيها إمكان الاجتهاد حيثد ، فرد عليه محمد بن إبراهيم الوزير بكتابه « العواصم والقواصم » في أربعة مجلدات ، واختصره في كتابه « الروض الباسم في الذب عن سنة أبي القاسم » وهو مطبوع .

وبجانب هذا النشاط الفقهي في اليمن كان هناك نشاط واسع في علم الحديث ، وهو يبدأ في الحديث كما بدأ في الفقه بمعمر بن راشد فله الجامع المشهور في السنن ، ونعشى بعده في كتاب طبقات فقهاء اليمن فنجد لمحمد بن عبد الأعلى الصنعاني كتاب المتقى في السنن ، وقلماً يذكر فقيه إلا ويذكر معه أنه حُمل عنه الحديث ، وكثيراً ما يقول الجعدي عن هذا أو ذاك إنه سمع صحيح البخاري ، أو سمع موطأ مالك أو جامع السنن للترمذي أو صحيح مسلم أو سنن أبي داود أو سنن النسائي . ومن حين لآخر نجد الجعدي يعت الفقيه الذي يترجم له بأنه الحافظ المحدث ، أو يقول سيف السنة . وبنفس النشاط في هذه الرواية للحديث كانت بيثة الزيديين تنشط في روايته وللإمام المنصور بالله المتوفى سنة ٦٧٠ كتاب في الحديث يسمى الشفاء ، وللإمام القاسم المتوفى سنة ١٠٢٩ في الحديث كتاب الاعتصام .

وعُنيت اليمن بالتفسير والقراءات كما عُنيت بالحديث والفقه ، وكان فيها من المفسرين قديماً طاووس بن كيسان تلميذ ابن عباس . وهو باب هذه الحركة ، ومضى اليمنيون بعده يعنون بكتب التفسير ، حتى إذا ظهر تفسير الطبري أقبلوا على تداوله ، ولهم بحوث كثيرة تتصل بناسخ القرآن ومنسوخه وبشرح غريبه . ومر بنا نشاط الفيروزابادي للعهد الرسولي في هذا الاتجاه . ونجد الزيديين يعنون بالتفسير وكل ما يتصل به ، وقد ذكر بروكلمان لإمامهم زيد مخطوطات مختلفة منها تفسير غريب القرآن المجيد ، ومدخل إلى القرآن وتفسير لمواضع منه ، وذكر للإمام الهادي مؤسس العقيدة في اليمن تفسيراً لبعض سور الذكر الحكيم . ولأبي الفتح الديلمي المتوفى سنة ٤٤٠ تفسير للقرآن المجيد ، وللإمام المهدي محمد بن المطهر المتوفى سنة ٧٢٨ كتاب عقود العقيان في الناسخ والمنسوخ من القرآن . ولعل أروع تفسير صنفته اليمن في عصورها جميعاً على الإطلاق تفسير محمد<sup>(١)</sup>

(١) انظره في كتابه البدر الطالع ٢/٢١٤ وترجم له ابن

زيارة في كتابه (نيل الوطر من تراجم اليمن في القرن

الثالث عشره وقال إنه أستاذة .

ابن علي الشوكاني المتوفى سنة ١٢٥٠هـ/١٨٣٤م سماه «فتح القدير الجامع بين الرواية والدراية في التفسير» وكان قد بدأ حياته زيدا ونزع إلى الدعوة الوهابية ، وهو يعد إماما مجتهدا ، وله عشرات المصنفات في الفقه والأصول وعلم الكلام واللغة .  
واهتمت اليمن من قديم بالقراءات ، ويشتهر من قرائها الأولين أبو قرعة موسى بن طارق الذي حمل عن نافع أحد القراء السبعة قراءته التي كان يقرأ بها أهل المدينة ، وأذاعها في اليمن ، ومن أعلام القراء هناك زيد<sup>(١)</sup> بن الحسن الفايشي المتوفى سنة ٤٥٨هـ وكان عالما بعلوم كثيرة ، منها التفسير ، ومنها القراءات أخذها عن أبي معشر الطبري بمكة ، وكان شيخ الشافعية والفقهاء باليمن ، وعليه تفقه يحيى بن أبي الخير المار ذكره . ومن أعلام القراء أيضا ممن ترجم لهم الجزري في طبقاته ابن شداد البرعي علي بن أبي بكر الزبيدي شيخ القراء ببلاد اليمن ، وكانت إقامته بزيد أقرأ بها زمنا وأسمع الحديث ، توفي سنة ٧٧٠هـ وخلقه أحمد بن محمد الأشعري العبدل شيخ زيد في القراءات ، ويقول ابن الجزري : لما دخلت اليمن لازمني كثيرا وسمع مني نصف كتاب النشر وكتبا أخرى ، ويقول إنه أعطاه إجازة بالقراءات العشر<sup>(٢)</sup> . ومعروف نشاط ابن الجزري في القراءات ، ولاشك أن اليمن أفادت منه كثيرا . وهذا النشاط في القراءات كان يمتد ليشمل البيئة الزيدية وجميع البلدان اليمنية .

وعنيت اليمن في هذا العصر بالمباحث الكلامية ، وظلت عنايتها بها متصلة ، وقد توزع فقهاءها من غير الزيديين متزعا : متزعا أشعريا ومتزعا أهل السنة ، وكانت الكثرة تنزع المتزعا السني ، وتجد ذلك واضحا في تأليف الكتب التي تعنى بنقض آراء المعتزلة ، مثل « كتاب الحروف السبعة في الرد على المعتزلة وغيرهم من أهل الضلال والبدعة » للمراغبي<sup>(٣)</sup> ومثل كتاب يحيى بن أبي الخير الذي تحدثنا عنه آنفا بين الفقهاء ، وقد جعل عنوانه : « الانتصار في الرد على المعتزلة القدرية الأشرار » وفي مقدمته أنه ألفه للرد على شمس الدين جعفر بن أحمد بن عبد السلام ، أحد علماء الزيدية ، وكان قد ألف كتابا انتصر فيه لرأى المعتزلة بأن الناس يخلقون أفعالهم ، وأيضا لرأيهم بأن القرآن مخلوق وغير ذلك من آرائهم . وحاول يحيى بن أبي الخير تفنيد آرائه الاعتزالية ، إذ رد عليه برسالة ذكر فيها الأخبار المروية عن الرسول ﷺ في التحذير من القدرية . ولم يكده يقرأ رسالته شمس

(١) راجع ترجمته في طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٥ ١٥٣/١ .

والسيكي ٨٥/٧ . (٣) طبقات فقهاء اليمن ص ٨٣ .

(٢) عاية النهاية في طبقات القراء لابن الجزري

الدين حتى نقضها بكتاب سماه «الدامغ للباطل من مذهب الحنابل» فأثار حفيظة يحيى ابن أبي الخير، ورد عليه بهذا الكتاب ردا عنيفا، وأضاف إلى المعتزلة في الكتاب الأشعرية وأجحف بهم، مما جعل الشريف العناني الأشعري يناظره ويجادله في مذهب الحنابلة أهل السنة<sup>(١)</sup>.

ومعروف أن زيد بن علي زين العابدين صاحب مذهب الزيدية ومؤسسه تتلمذ لواصل ابن عطاء رأس المعتزلة ولذلك كان الزيدية جميعا يتضمون في المعتزلة، مما جعل الاعتزال يستقر في مباحثهم، كما جعلهم يكثر من هذه المباحث، ومن يرجع إلى الجزء الثالث من تاريخ الأدب العربي لبروكليان سيجد للقاسم بن إبراهيم الرسي جد الإمام الهادي مؤسس مذهب الزيدية في اليمن كتاب أصول العدل والتوحيد ونبي الجبر والتشبيه، وكتاب الأصول الخمسة وقد كتب فيها القاضي عبد الجبار أكبر معتزلي في نهاية القرن الرابع الهجري شرحا مطولا، وللإمام الهادي كتاب المسترشد في التوحيد، وللإمام المهدي المتوفى سنة ٤٠٣ كتاب الأدلة على الله ومختصر في التوحيد. وتتوالى كتب كلامية كثيرة في بيئة الزيدية، من ذلك شرح الفلاذ في علم الكلام للإمام المهدي أحمد بن يحيى المتوفى سنة ٨٤٠ وكتاب الأساس في علم الكلام للإمام القاسم المنصور بالله المتوفى سنة ١٠٢٩. ولم تولى هذه البيئة في الاعتزال وحده، بل أنفت أيضا كتب في رجاله، وكتاب ابن المرتضى في المعتزلة مشهور.

ولم تكن حَضْرَمَوْت بعيدة عن كل هذه الحركة الثقافية في اليمن والحجاز، فقد كان طلاب العلم فيها والعلماء يقدون بصورة منتظمة على اليمن ومكة والمدينة لحمل العلم وتلقيه، ويلقانا منهم كثيرون في كتب التراجم، وعادوا أو عادت كثرتهم إلى موطنهم في تريم وشيخام وغيرهما من بلدان حضرموت وسرعان ما أخذت في تلقيه للشباب. وبذلك كان هناك تواصل منظم بين حضرموت والعلماء اليمنيين والمكيين، بل منهم من كان يرحل في طلب العلم إلى بغداد وغير بغداد، ويعود محملا بالكتب وبالإجازات العلمية التي تتيح له روايتها ونشرها. ويقول الرواة إن مجلس الفقيه زيد بن عبد الله اليقاعي اليمني المتوفى سنة ٥١٤ كان يفتى بالفقهاء من حضرموت<sup>(٢)</sup>، ويذكر الجعدي من تلاميذ الفقيه يحيى بن أبي الخير الذي مر بنا في الحديث عن فقهاء اليمن محمد<sup>(٣)</sup> بن عبد الله الحضرمي من تريم حاضرة حَضْرَمَوْت وأيضا محمد بن مفلح الحضرمي وهو الذي طلب إليه تأليف كتابه

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ - ١٨٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٠٣ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن ص ١٥٢ .

« استخراج المسائل المشككة في المذهب » لأبي إسحق الشيرازي وأجابته إلى طلبه<sup>(١)</sup> .  
ويذكر الجعدي من فقهاء حضرموت أبا زُنَيْج وأبا جحوش وأبا أكر قاضي تريم وقد جمع  
بين الفقه والقراءات السبع<sup>(٢)</sup> ، وفي كتاب الجعدي فقيهان من شُبوَة بحضرموت هما عيسى بن  
مفلح وأحمد<sup>(٣)</sup> بن سليمان . ويقول المؤرخون إنه قُتل كثير من فقهاء حضرموت وقراءتها في  
الحملة التي وجهها نائب توران شاه من عدن إلى حضرموت . ويشيد السبكي بقطب<sup>(٤)</sup>  
الدين الحضرمي شارح المذهب المتوفى سنة ٦٧٦ ويقول « تفقه به خللائق » وله مصنفات  
كثيرة . وفي ذلك ما يدل على نشاط الفقهاء والقراء هناك . وكانوا يعنون إلى جانب ذلك  
بالحديث والتفسير . ويحدثنا السقاف في كتابه تاريخ الشعراء الحضرميين عن فقهاء كثيرين  
ترجم لهم : نذكر منهم ابن عقبة المتوفى في عدن سنة ٦٩٥ وعلى بن أبي بكر السقاف  
المتوفى سنة ٨٩٥ وعبد الله بن عمر باخرمة المتوفى سنة ٩٧٢ وعلى بن عبد الرحيم بالكثير  
المتوفى سنة ١١٤٥ وعبد الله بن حسين بن طاهر المتوفى سنة ١٢٧٢ . ومن ذكرهم السقاف  
من المحدثين عمر بن عبد الرحمن المتوفى بتعز في سنة ٨٨٩ وقد رحل إلى اليمن ومكة وكان  
يقراً للناس الصحيحين ، ومثله حسين بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩١٧ . وكثيرا  
ما ينعت السقاف أشخاصا بأنهم محدثون . ومن نعمتهم بأنهم مفسرون ومحدثون عبد الرحمن  
ابن علي السقاف المتوفى سنة ٩٢٣ . ومن مقرئها العظام محمد ابن إبراهيم بن أبي مشيرح  
الحضرمي الجاور بمكة مقرئ الحرمين صاحب كتاب المفيد في القراءات الثمان ، وقد أشاد  
به وبكتابه ابن الجزري ، وقال إنه توفي في سنة ٥٦٠ وأنه قرأ بكتابه المذكور على الشيوخ  
المصريين<sup>(٥)</sup> . ومن ذكرهم السقاف من المقرئين محمد بن عمر بن مبارك المتوفى سنة ٩٢٢  
وقال : له مختصر نهاية الناشرى في القراءات وشرح الجزرية . ويذكر السقاف ممن عنوا بعلم  
الكلام شيخ بن عبد الله العيدروس المتوفى سنة ٩٩٠ ويذكر له مصنفات في علم التوحيد ،  
وكان المقرئ محمد بن عمر بن مبارك يهتم بعلم الكلام وينهج منهج أهل السنة .  
وهذه الصورة من النشاط العلمي لحضرموت هي صورة ظفار وعُمان والبحرين ، ونجد  
نظفار فقيها ينسب إلى ميناها مرباط هو مفتيها محمد بن علي القلعي ، ويقول الجعدي : له  
مصنفات حسنة ، منها قواعد المذهب وغيره<sup>(٦)</sup> . ولا ريب في أن النشاط العلمي في دراسة

(١) طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٩ . (٥) انظر طبقات القراء لابن الجزري ٤٦/٢ وكتابه :

والنشر في القراءات العشر ٩٣/١ .

(٦) الجعدي ص ٢٧٠ .

(٢) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٣) طبقات فقهاء اليمن للجعدي ص ٢٠٢ .

(٤) طبقات الشافعية للسبكي ١٣٠/٨ .

الفقه والحديث والتفسير والقراءات ظل محتدما في عُمان لزمن بنى مكرم وبنى نهبان ، أما في نزوى عاصمة الخوارج وحين أصبح لهم حكم عمان في العصور المتأخرة فكانوا يعنون بالحديث وقراءات القرآن وتفسيره ، وقد عنوا طويلا بمسند الربيع بن حبيب بن عمر الأزدي الإباضى المتوفى سنة ١٧٠ وهو أقدم كتب المساند المعروفة في الحديث النبوى ، وانصبت عنايتهم الفقهية والكلامية على التأليف في عقيدتهم الإباضية . وفرقتهم ، كما قدمنا ، أكثر فرق الخوارج اعتدالا ، وأقربها إلى الجماعة ، ونصّبُ إمام المسلمين عندهم واجب ، وتجب طاعته ما اتخذ الحق والعدل شعاره ، فإن جار ولم يتب وجبت الثورة عليه ، ومر بنا حديث عن عقيدتهم في الفصل الماضى .

وكانت البحرين مثل عُمان نشطة في دراسة علوم الدين الخفيف ، وكانت تدخل في دائرة بغداد ومدن العراق مثل البصرة والكوفة ، فكان طلابها وعلمائها لا يزالون ذاهبين آيين من العراق وإليه . وكان كثير من علماء العراق يرحل إلى البحرين ، ويتخذها مقاما له وموطنا ، وظلت هذه الصلة العلمية مستمرة حتى نهاية هذا العصر . وكانت علوم الشريعة مطروحة في كل مسجد ، وظلت حلقاتها قائمة ، واشتهر كثير من الأسر بتوارثها للعلوم الشرعية واللغوية مثل آل عبد الجبار وآل عمران وآل عبد القادر وآل مبارك ، وبرز من بينهم الشيخ سلمان آل عبد الجبار بأخرة من العصر وله مصنفات مختلفة في المباحث الكلامية وشروح على تهذيب المنطق للفتازانى وكتاب إيساغوجى<sup>(١)</sup> وشاح هناك مذهب مالك قبل دخول المذهب الحنبلى مع الوهابيين ، وكانوا يعنون دائما برواية كتب الحديث وخاصة الصحاح الستة . ومنذ دخلت الأحساء في المملكة السعودية سنة ١٣٣١ عمّت فيها كتب محمد بن عبد الوهاب وأهل السلف ، غير أن هذا لا يدخل في عصرنا إنما يدخل في العصر الحديث .

ولم تكن نجد طوال هذا العصر غائبة عن الحركة العلمية العامة في البلاد العربية ، فقد كانت كتب الفقه والتفسير تدرس في قرى نجد ، وظل ذلك إلى الأزمنة المتأخرة ، إذ نجد من ترجموا للشيخ محمد بن عبد الوهاب يذكرون أنه لزم الشيخ عبد الرحمن بن أحمد في قرينته تريم ست عشرة سنة ، وأنه قرأ عليه فيها صحيح البخارى ومسلم ومسند ابن حنبل وأنه تركه إلى الشيخ حسان التيمى في قرى القنيم حيث تلمذ عليه في علم الفقه والتفسير سبع سنوات . ورحل بعد ذلك إلى المدينة وأخذ عن علمائها ، ثم رحل إلى العراق

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص

وتلّم على بعض شيوخ البصرة وعاد إلى موطنه وتعاقد مع الأمير محمد بن سعود ، كما مر في الفصل الماضي ، على نشر عقيدته . وهي ليست عقيدة جديدة بل هي عقيدة أهل السنة من السلف وإمامهم ابن حنبل وأشهر من ساروا على دربه ابن تيمية . وكان ابن عبد الوهاب ينشر دعوته في محاضراته ومؤلفاته ، ومراً بنا كتاب التوحيد ، ومجموعة التوحيد ومنها رسالة كشف الشبهات ومختصر زاد المعاد لابن قيم الجوزية تلميذ ابن تيمية وكتاب الكباثر ومعرفة العبد ربه ودينه ونبيه والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر وكتاب المسائل وكتاب الثلاثة الأصول في معرفة الله ودين الإسلام والرسول إلى غير ذلك من مصنفات بث فيها دعوته الوهابية . وتوالت بعده فيها مصنفات كثيرة منها : جواب أهل السنة النبوية في نقض كلام الشيعة والزيدية لعبد الله ابنه ، ولسليان بن عبد الله تيسير العزيز الحميد في شرح كتاب التوحيد . واتسع التأليف في الدعوة مبكراً وراء نجد ، إذ نجد محمد بن علي الشوكاني اليمنى يؤلف فيها كتابه نيل الأوطار من أسرار متقى الأخيار .

## ٥

### التاريخ

نشطت كتابة التاريخ في الجزيرة العربية كما نشطت في كل بلد عربي ، ونبدأ بالحديث عن هذا النشاط في الحجاز ، ومن أهم ما يلقانا عن مكة كتاب الأزرق « أخبار مكة » وهو كتاب مبكر . وأهم المصنفات التي تلقانا عنها في هذا العصر مصنفات الفاسي<sup>(١)</sup> أبي الطيب محمد بن أحمد الحسني المولود بمكة سنة ٧٧٥ وفيها نشأ وتكوّن علمياً حتى أصبح من علماءها الأفذاذ ، وسرعان ما تحول مدرّساً يفيد الطلاب من علمه . وتقلد منصب شيخ الحرم المكي إلى أن توفي سنة ٨٣٢ وعنى بتاريخ مكة ، فصنف فيها كتابه « شفاء الغرام بأخبار البلد الحرام » في مجلدين ، وهو مطبوع ، وأهم منه كتابه « العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين » الذي ترجع إليه ، وهو في ثمان مجلدات ، افتتحها بالحديث عن مكة تاريخياً وجغرافياً ثم أجمل السيرة النبوية ، وأتبعها بالتراجم حتى عصره مبتدئاً بالمحمدين ، ولم يترك حاكماً ولا عالماً ولا مؤذناً ولا مجاوراً بمكة ولا شاعراً إلا أسهب في الترجمة له ،

(١) انظره في الصوه اللامع ١٨/٧ والشذرات فيه انظر ٣٣١/١

١٩٩٧/٧ ومقدمة كتابه « العقد الثمين » وقد ترجم نفسه .

وهو بذلك تاريخ كامل لمكة : سياسى وثقافى وأدبى وحضارى . وللديار<sup>(١)</sup> بكرى المكي المتوفى سنة ٩٩٠ سيرة نبوية بعنوان «الخميس فى أحوال أنفس نفيس» فى مجلدين كبيرين ، طبعت مراراً ، وفيها تفصيل طويل عن تاريخ الكعبة . وكان يعاصره قطب الدين<sup>(٢)</sup> النهروالى المكي ، وكان مفتياً ومدرساً ، إلى أن توفى سنة ٩٩٠ وله «الإعلام بأعلام بلد الله الحرام» تحدث فيه عن تاريخ مكة وحكامها إلى زمنه فى عهد العثمانيين ، طبع مراراً . ولمكة مؤرخ عام هو عبد الحى<sup>(٣)</sup> بن العاد الحنبلى المتوفى بمكة سنة ١٠٨٩ وله «شذرات الذهب فى أخبار من ذهب» وهو كتاب تراجم مرتب على السنوات حتى سنة ألف للهجرة . ومن مؤرخى مكة المتأخرين أحمد زينى دحلان المتوفى سنة ١٣٠٤هـ/١٨٨٦م وله : «خلاصة الكلام فى أمراء البلد الحرام» .

وللمدينة بدورها مؤرخوها وفى مقدمتهم محمد بن الحسين بن زباله الذى ألف كتاباً فى تاريخ المدينة سنة ١٩٩ للهجرة ومن مؤرخى العصر الذى نحن بصددده ، بل قل من أشهرهم نور الدين السهمودى<sup>(٤)</sup> المصرى المجاور بالمدينة حتى وفاته سنة ٩١١ وهو صاحب كتاب وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى . والكتاب دائرة معارف كبيرة فى جغرافية المدينة وتاريخها وأخبارها طبع بمصر فى مجلدين وطبع مختصر له باسم «خلاصة الوفا» . ومن مؤرخى المدينة ابن خضر المدنى المتوفى فى أوائل القرن الثانى عشر ، وله مخطوطة فى طبقات الحنفية بدار الكتب المصرية . وجاء بعده جعفر البرزنجى<sup>(٥)</sup> المتوفى سنة ١١٧٩ وله قصة المولد النبوى ، طبعت بمصر مراراً منفردة ومع شرح لحفيده جعفر بن إسماعيل .

وتكثفت اليمن بالمؤرخين ومصنفاتهم التاريخية ومن أقدمهم على بن محمد بن عبيد الله العلوى الذى صنف كتاباً فى سيرة الإمام الهادى إلى الحق يحيى بن الحسين مؤسس المذهب الزيدى باليمن عقب مبايعته بالإمامة سنة ٢٨٣ وصنف بعده بقرن الحسن بن أحمد بن يعقوب كتاباً فى أخبار المنصور بالله القاسم الرسى المتوفى سنة ٣٩٣ للهجرة . وتشطت الكتابة التاريخية باليمن ، ويلقانا من مؤرخيها جياش بن نجاح أمير زبيد المتوفى سنة ٤٩٨ وله كتاب «المفيد فى أخبار زبيد» فقد ولم يصل إلينا ، غير أن عمارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ اختصره فى

(١) راجعه فى الشذرات ٤١٩/٨ ودائرة المعارف عشر للمعنى ٣٤٠/٢ الإملامية .

(٢) انظره فى الشذرات ٤٢٠/٨ والنور السافر ص ٥٠/٨ والبدر الطالع ٤٧٠/١ .

(٣) راجعه فى سلك الدرر ٩/٢ والجغرافى ٣٦٣/١ .

(٤) راجعه فى خلاصة الأثر فى أعيان القرن الحادى

كتاب سماه « مختصر المفيد في أخبار زبيد » وقد طبع في القاهرة . وشتهر عمارة <sup>(١)</sup> بكتاب له في تاريخ اليمن نشره كاي ثم نشر في القاهرة ، وهو يؤرخ فيه لليمن وأحداثها حتى عصره ، وله كتاب سماه « النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية » تحدث فيه عن الوزراء في آخر العهد بالفاطميين ، وهم طلائع بن رزيك وشاور والكامل ابنه ، وطُبع هذا الكتاب بشالون في آخر القرن الماضي وطبع معه ديوانه . ومرَّبنا ذكر طبقات فقهاء اليمن مراراً ، وهو لعمر <sup>(٢)</sup> بن علي بن سمرة الجعدي المتوفى لأواخر القرن السادس الهجري . وللقاضي حميد <sup>(٣)</sup> بن أحمد المحلى المتوفى سنة ٦٥٢ مصنفان تاريخيان هما « الحدائق الوردية في سير الأئمة الزيدية » و « محاسن الأزهار في فضائل العترة الأخيار » ومن مؤرخي اليمن الجندى <sup>(٤)</sup> بهاء الدين محمد بن يوسف المتوفى سنة ٧٣٢ وله « السلوك في طبقات العلماء والملوك » ويتضح من عنوانه أنه يؤرخ فيه لحكام اليمن وعلمائها من كل صنف ، ومرَّبنا ذكر السلطان الأشرف الرسولى وكتبه ، وللسلطان الأفضل عباس <sup>(٥)</sup> الرسولى المتوفى سنة ٧٧٨ كتاب « العطايا السنية والمواهب الهنية في المناقب اليمنية » . ومن مؤرخي اليمن الياغى عبد الله بن أسعد بن عفيف نزىل مكة أنجاور بها حتى وفاته سنة ٧٦٨ وله كتاب مرآة الجنان في التراجم العامة وهو مطبوع . وبلغانا مؤرخ كبير هو أبو الحسن الخزرجى <sup>(٦)</sup> المتوفى سنة ٨١٢ وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية كتاب نفيس وهو يؤرخ لتلك الدولة حتى وفاة السلطان الأشرف إسماعيل سنة ٨٠٣ وكان من كبار الفقهاء والقراء والمحدثين في عصره وقد رتب كتابه ترتيباً زمنياً محكماً ، وترجم للسلطين الرسولين ترجمات دقيقة . وهو لا يعرض في الكتاب التاريخ السياسى فحسب بل يعرض أيضاً للتاريخ الثقافى والحضارى عرضاً مفصلاً ، وهو مطبوع في مجلدين كبيرين . وجاء بعده مؤرخ مهم هو ابن الدَّبَّيع <sup>(٧)</sup> أبو عبد الله عبد الرحمن الزبيدى ، وكان محدثاً كبيراً درس الحديث في الجامع الأعظم بزبيد وتوفى سنة ٩٤٤ وله مصنفات تاريخية متعددة ، منها قرّة العيون بأخبار اليمن اليمون

- (١) انظر في ابن حلكان ٤٣١/٣ والخريدة قسم الشام ١٠١/٣ وسنأق مصادر ترجمته بين الشعراء .  
 (٢) انظر في التبريد به وكتابه مقدمة المحقق له : فؤاد السيد .  
 (٣) تاريخ اليمن للجزاى من ١٢١ .  
 (٤) انظر في إعلان التويخ للسخاوى ص ١٢٤ ويعتمد عليه الخزرجى في كتابه العقود اللؤلؤية  
 (٥) راجعه في العقود اللؤلؤية للخزرجى وى الشذرات .  
 (٦) وفي هدية الزمن في أخبار ملوك لحج وعدن ص ٨٨ .  
 (٧) انظر ترجمته في القصة اللاع ٢١٠/٥ والشذرات ٩٧/٧ .  
 (٨) المسجد والدير المسافر ص ٢١٢ والشذرات ٢٥٥/٨ .  
 (٩) انظر الطائع ٣٣٦/١ والكواكب السائرة ١٥٨/٢ .

حتى سنة ٩٢٣ وقد اعتمد على الخزرجي في دولة الرسوليين ، ثم أضاف إليه دولة بني طاهر التي خلفتهم وبعد أول من عُنِيَ بالتاريخ لها . ومن كُتبه التاريخية بغية المستفيد في أخبار مدينة زبيد وهو يعرض تاريخها مفصلاً حتى المائة التاسعة للهجرة . ومن الكتب الحيدة التي أُلُفَت في القرن العاشر تاريخ ثغر عدن لبنا مخزومي ( طبع ليدن ) . وتلقانا بعده كتب كثيرة في أئمة اليمن وفي الحكام العثمانيين ، من ذلك ما كتبه الجرهمزي المتوفى سنة ١٠٧٧ عن تاريخ الإمام المؤيد بالله بن القاسم ، وقد سماه « الجوهرة المضية في تاريخ الخلافة المؤيدية » وكتب عن تاريخ المنصور بالله القاسم بن محمد المتوفى سنة ١٠٢٩ كتاباً سماه « النبذ المشيرة إلى جمل من عيون السيرة » . وصنّف يحيى بن الحسين بن المؤيد بالله اليمني في أواخر القرن الحادى عشر تاريخاً لليمن حتى سنة ١٠٤٥ باسم أبناء الزمن في أخبار اليمن . وليوسف بن يحيى الصنعاني المتوفى حوالى سنة ١١٢٠ كتاب مشهور لم يطبع هو كتاب « نسمة السحر فيمن تشبّع وشعر » ويتضمن عشرات التراجم لشعراء شيعيين من حين ظهور الشيعة إلى عصره . ولمحمد بن علي الشوكاني العالم النابه كتاب في التراجم لمن بعد القرن السابع حتى عصره في القرن الثالث عشر سماه « البدر الطالع » وهو أحد المراجع التي يتكرر ذكرها في هذا الجزء . وهناك كتب أخرى كثيرة نفيسة مثل منتخبات في أخبار اليمن للهمداني ، ومثل النور السافر في تراجم القرن العاشر لعبد القادر العيدروس المتوفى سنة ١٠٣٨ وذُيِّلَ عليه جمال الدين الشلي الحضرمي بكتاب سماه « النساء الباهر بتكميل النور السافر » .

ولنجد كتب تاريخية مختلفة في الحقب المتأخرة منها « روضة الأفكار والأفهام لمرتاب حال الإمام وتعداد غزوات ذوى الإسلام » لحسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م وفيه يوضح تاريخ نجد ودعوة محمد بن عبد الوهاب ورسائله وآراءه والقتال في سبيل الدعوة ، وهو يكثر من السجع في كتابه . ويليه في الأهمية كتاب عنوان المجد في تاريخ نجد لعثمان بن بشر المتوفى سنة ١٢٩٠ هـ / ١٨٧٣ م وهو تاريخ على السنوات بيتدئ بسنة ١١٥٨ هـ / ١٧٤٤ م وينتهي بسنة ١٢٦٨ هـ / ١٨٥١ م أي من حين نزول محمد بن عبد الوهاب في « الدرعية » ووضع الأمير محمد بن سعود يده في يده لنصرته حتى وفاة فيصل بن تركي . وضمن الكتاب أحداثاً سابقة للدعوة منذ تأسيس السعوديين لإمارتهم في الدرعية بمتتصف القرن التاسع للهجرة ، وأسلوب الكتاب مرسل خال من السجع . ويلى الكتابين السالفين في الأهمية كتاب « عقد الدرر فيما وقع في نجد من الحوادث في آخر القرن الثالث عشر وأول الرابع عشر » لإبراهيم بن صالح بن عيسى وهو بيتدئ من حين انتهى ابن بشر سنة ١٢٦٨ ويستمر حتى سنة ١٣٤٠ هـ / ١٩٢١ موزعاً حديده التاريخي على السنوات .

## الفصل الثالث

### نشاط الشعر والشعراء

١

#### الشعر على كل لسان

ظل الشعر حياً يجرى على الألسنة في الجزيرة العربية طوال هذا العصر ، ومعروف أنه منها نوع قديماً وأن يتابعه كانت تمتد في شمالي الجزيرة وشرقيها وغربيها . أو قل في الجزيرة جميعها ، باستثناء اليمن في العصر الجاهلي أو بعبارة أدق باستثناء أعماقها ، إذ كانت اليمن الشمالية قد أخذت في التعرب واستخدام الفصحى ، ولم تبق إلا أنحاء قليلة تتكلم الحميرية ، بينما كانت العربية تنتشر في اليمن بإزاء الحجاز وفي نجران وفي حضرموت وبين أزد عمان . وتم تعرب اليمن سريعاً بعد الإسلام أو قل تم تعرب ما كان قد بقي منها يتحدث الحميرية .

ونحن لا نصل إلى هذا العصر الذي تؤرخ له والذي يتدئ بسنة ٣٣٤ للهجرة حتى نشعر بنشاط واضح للشعر والشعراء في كل أنحاء الجزيرة ، وكانت الحجاز - وخاصة مكة - داراً كبيرة للشعر والشعراء ، وتزخر كتب التراجم بأشعارهم لا أشعار من هاجروا إليها وأمضوا فيها بقية حياتهم أو من ظلوا بها أعواماً طويلة فحسب فإن ذلك أكثر من أن يحصى أو يستقصى ، بل أيضاً أشعار الشعراء من أهلها الذين ولدوا بها وأنفقوا حياتهم فيها . وكانوا يستمعون إلى من يفد عليها من الشعراء ويقيم فيها بين ظهرانهم . فكان ذلك غذاء سائغاً لشاعرياتهم . وكانوا يقرءون دواوين الشعراء المشهورين ، وكثير منهم كانت لديه ملكة شعرية خصبة . ولا بد أن نلاحظ أن لغة شعرهم الفصحى لم تكن هي نفس لغتهم اليومية ، فمن قديم لم يأخذ علماء اللغة في القرنين الثاني والثالث للهجرة اللغة والشعر عن المدينة ومكة لتزول كثير من الموالى بها ومعيشهم فيها ، وقد ذكرنا في كتاب العصر الإسلامي أن عدد القتلى من الموالى في موقعة الحرة بالمدينة لعهد يزيد بن معاوية كان خمسة آلاف بينما كان عددهم من العرب ثلاثة آلاف مما يؤكد أن أكثر سكان المدينة حينئذ كانوا

من الأعاجم . ولا بد أن الأعاجم بمكة كانوا أكثر من سكانها الأصليين في هذا التاريخ وهو منتصف القرن الأول للهجرة أو قل بعده بنحو ثلاثة عشر عاماً ، كما نالنا في هذا العصر؟ إن المعقول الذي يتفق مع حقائق الأشياء أن تكون نسبة الأعاجم إلى العرب في المدينتين المقدستين زادت زيادة كبيرة ، وهي زيادة أعدت في هذا العصر لشيوع لغة عامية متداولة على ألسنة العامة ، لغة تكثر فيها الألفاظ الأعجمية الدخيلة ، ويكثر فيها التحريف في مقاطع الكلمات ونبراتها . وعلى الرغم من ظهور هذه اللغة العامية كانت لا تزال الفصحى حية بفضل القرآن الكريم وحفظه واستظهاره ، وكان هناك أساتذة كثيرون للعربية يعلمونها الناس ، وكان الحرمان جامعتين كبيرتين تدرس فيهما جميع مواد الثقافتين الإسلامية والعربية ، وكان وراءهما مدارس وكتاتيب ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة ، ويظل كثيرون ينظمون الشعر العربي الفصيح .

ولم تكن العناصر الأجنبية في اليمن كثيرة . ومع ذلك كان ينزلها الأحباش والإفريقيون بكثرة ، ومرّ بنا أن الأحباش كونوا لأنفسهم في حقبة إمارة زيد ، وكان ينزل في عدن قليلون من الهنود الذين كانوا يتجرون مع اليمنيين ، ويبدو أن العناصر الإفريقية - وهي الكثيرة - كانت تتعرب سريعاً . وليس معنى ذلك أنه لم تتكون في اليمن على مر الزمن لغة عامية ، ولكن معناه أن هذه اللغة هناك تأخرت بالقياس إلى مكة والمدينة ، حتى القرن السادس الهجري على الأقل في بعض أنحاءها ، فعارة اليمنى المتوفى سنة ٥٦٩ للهجرة يحكى في كتاب المفيد في أخبار زيد أنه حين دخل من تهامة اليمن إلى مدينة زيد في سنة ٥٣٠ ليطلب الفقه وهو دون العشرين من عمره تعجب الفقهاء في جميع المدارس التي ألمّ بها في تلك البلدة من أنه لا يلحن في شيء من الكلام : ومن قوله : « وجبلا عكاد فوق (قرية) الزرائب (موطنه) أهلها باقون على اللغة العربية من الجاهلية إلى اليوم ولم تتغير لغتهم . . . ولما زارني والدي وسبعة من إخوتي في زيد تحدّثوا مع الفقهاء فلا والله ما لحن واحد منهم لحنة واحدة أثبوتها عليه»<sup>(١)</sup> . ويتضح من كلام عبارة أن المحدثين مثل زيد كان أهلها ينحنون في لغتهم اليومية منذ القرن السادس الهجري ، أما تهامة والوادي وأهل الجبال فكانوا لا يزالون ينطقون بالفصحى نطقاً سليماً . ويبدو أن أنحاء كثيرة من اليمن ظلت إلى عصور متأخرة تلفظ العربية لفظاً صحيحاً ، بل يقال إنه لا يزال إلى اليوم من يتحدثون بها في بعض تلك الأنحاء حديثاً غير ملحون ، إذ يقول صاحب الخلاف السلياني إن الفصحى لا تزال صحيحة لم تتغير في هذا الخلاف الذي يطلق عليه الآن اسم عسير ، وقد ضمّ إلى

(١) المفيد في أخبار زيد ص ٥٤ .

المنكحة العربية السعودية بأخرة ، ويصور ذلك تصويراً مهياً فؤاد حمزة إذ يقول : « أفصح اللهجات ( في الجزيرة ) وأقربها إلى الفصحى فيما نعتقد اللهجات الواقعة ما بين جنوبي الحجاز وشمال اليمن ( عسير ) وكثيراً ما سمعنا أهل هذه البلاد يلفظون الكلمات من محارجها الصحيحة ويتكلمون بما هو أقرب إلى الفصحى من سواه . وبعض البدو من أهل هذه المنطقة يخرجون جُملاً يظن منها الإنسان أنهم تمرنوا في المدارس على إخراجها على ذلك النحو بينما أن الحقيقة هي بخلاف ذلك ، لأهم يتكلمون بالسليقة وعلى البديهة ، فيجىء كلامهم فصيحاً معرباً لا غبار عليه . ويستعملون ألفاظاً نظماً في الأقطار العربية المتمدنة مهملات متروكة ، ولكنهم هم يستعملونها على البدهاء » (١) .

وليس معنى ذلك أن اليمن لم تعرف لنفسها لغة عامية كما عرفت الأقاليم العربية الأخرى ، بل معناه أنها لم تسارع إلى إحداث هذه اللغة ، ولكنها على كل حال أخذت في إحداثها بالمدن منذ القرن السادس الهجري . كما يدل كلام عارة السابق فقد عجب فقهاء زبيد عن أنه يوجد في بعض أنحاء اليمن قوم يتكلمون الفصحى ولا يخطئهم السداد فيها ، مما يدل بوضوح على أن اللهجات كان قد نشأ على ألسنة أهل المدن ، وأخذت تتكوّن بسرعة هناك لغة يمنية عامية . وكان ثراء اليمن عاملاً مهماً في أن يعنى حكامها بالعربية وبالعلوم الإسلامية ومربنا كيف أن دولة الرسوليين نهضت نهضة عظيمة بالثقافة والعلوم في اليمن ، وقد أنشأت عشرات المساجد والمدارس وخاصة في زبيد وتعز وصنعاء وعدن ، وكل ذلك عمل على أن تظل العربية مزدهرة في اليمن وأن تظل الأشعار تجرى على الألسنة . غير أنه يلاحظ أنه أخذت تُنظّم هناك ، كما كان الشأن في البلاد العربية الأخرى أشعار عامية . ولا تعرف متى ظهرت بواكير هذه الأشعار بالانضبط ، وإذا احتكنا إلى تاريخ أول أغنية عامية سجلها الدكتور محمد عبده غانم في كتابه النفيس : « شعر الغناء الصنعاني » وجدنا هذا التاريخ يرجع إلى القرن الثامن الهجري ، وهي للشاعر شهاب الدين أبي محمد أحمد بن قُليته ، وقد اشتهر زمن السلطان الرسولي المجاهد على الذي حكم من سنة ٧٢١ حتى سنة ٧٦٤ ويسهب الدكتور غانم في بيان خصائص هذه الأغاني اليمنية العامية من زمن ابن فليته إلى نهاية الربع الأول من القرن الرابع عشر الهجري . ويقول إنها جميعاً من الشعر الحميني وهو اسم خاص بالشعر العامي اليمني الذي لا يلتزم قواعد الفصحى النحوية والاشتقاقية ، كما لا يلتزم عروضها وتكثر فيه المسطّطات والموشحات ، وتبدو المحاكاة واضحة بينه وبين الموشحات والأزجال الأندلسية . ويوضح الدكتور غانم

(١) فلب جزيرة العرب لفؤاد حمزة ص ٩٩ .

توضيحاً مفصلاً كيف أن هذا الشعر الحميني أو العامي البني يرتفع في لهجته عن اللغة اليمنية العامة ويهبط في الوقت نفسه درجات عن اللغة الفصحى . وهو بذلك يُعدّ فرعاً كبيراً من شجرة الشعر النبطي الذي أخذ يشيع في الجزيرة العربية منذ القرن الثامن الهجري . بل لعله أخذ يشيع قبل ذلك بقرن أو يزيد . وهو شعر يلقانا في كل أنحاء الجزيرة لهذا العصر ، نلقاه في الحجاز وحضرموت وفي عمان والبحرين ونجده جنوباً وشمالاً . وجميعه شعر يعلو درجات فوق العامة لكل تلك الأقاليم ويهبط درجات عن الفصحى ، شعر بلغة بين العامة والفصحى . ويسمونه باسم الشعر النبطي ، وهو كله غير معرب ، وكأنه يحلّ في الجزيرة محل الشعر الجاهلي فيها قديماً . فقد كان شعر جميع القبائل تُشارك فيه ، وكانت لها لهجاتها المحلية الخاصة ، وكان الموقف في هذا الشعر يتعكس مع ما كان في الجاهلية ، فالجاهليون كانوا يحافظون على النظم بالفصحى وألحان عروضها وأنغامه ولم يكونوا ينفكّون عنها أبداً ، مع أنها ليست لغتهم اليومية تماماً . وشعراء الجزيرة مع هذا الشعر النبطي يريدون أن يقتربوا من لغتهم اليومية ، فيترك نفر منهم بالنظم بالفصحى ويتخذ هذه اللغة دتواً من قبيلته ولغتها العامة ، ومع ذلك يظنون يرفدونه بالعناصر البيانية والبديعية للشعر الفصيح ، وكأنما في دخائلهم إحساس أن الشعر ينبغي أن يظل مرتفعاً قليلاً أو كثيراً عن اللغة العامة اليومية ، وهو ما جعلهم ينفذون إلى لغتهم النبطية المستحدثة . ومهما يكن فإن هذا الشعر العامي أو قل الحميني البني لم تَعَلُّ كِفْتَهُ يوماً على الشعر الفصيح الذي ظل صاحب الصولجان وظل له ازدهاره في اليمن إلى اليوم . وما يصدق على اليمن يصدق على حضرموت ، فقد كان فيها شعراء ينظمون الشعر الحميني العامي ، ولكن ظلت للشعر الفصيح السيطرة حتى على من ينظمون الشعر الحميني وتمثّل لذلك بأبي بكر العيدروس الحضرمي المتوفى سنة ٩١٤ فإن له شعراً وأغاني حُمينيّة عامية ولكن شعره الفصيح هو الذي ذاع وشاع أو قل هو الذي غلب عليه ، كما يصور ذلك ديوانه : «حجة السالك وحجة الناسك» . على أن شعره الحميني يقترب من الفصحى اقتراباً شديداً . وكانت تنزل عُمان عناصر أجنبية إفريقية وهندية وإيرانية ، وبما هيأ للأخيرة النزول كثيراً أن حاكم هرمز الإيرانية أو قل حكامها كانوا يغيرون من حين إلى حين على عمان ، وكانت أحياناً تبعهم ، فكثرت نزول الإيرانيين بها ، وكثرت لذلك الكلمات الإيرانية الدخيلة في لغة العمانيين اليومية ، وطبيعي أن يتبع ذلك تغيرات في الألفاظ العربية ذاتها في بعض مقاطعها وبعض ضغوطها ونبراتها ، لذلك كان ابن بطوطة محقّقاً حين زار عمان ولاحظ على أهلها أن «كلامهم ليس بالفصح مع أنهم عرب ، وكل كلمة يتكلمون بها يصلونها بلا فيقولون مثلاً لا تأكل ،

لا تمش ، لا تفعل كذا» . فكلامهم دخلته رطانة الإيرانيين ودخلته ألفاظهم ، أما لا التي ذكر ابن بطوطة أنهم يصلون الأفعال بها دائماً حين يطلبون من شخص شيئاً فأكبر الظن أنها لام الأمر حُرِّفَتْ ومُدَّت قليلاً أولعها لام التوكيد . وينبغي أن لا نظن من ذلك أن العمانيين كانوا قد هجروا الفصحى في عهد ابن بطوطة ، فهو إنما يتحدث عن لهجتهم ولغتهم اليومية ، أما بعد ذلك فكانوا يهتمون بالفصحى اهتمام الأقاليم العربية بها جميعاً ، يتخذونها لغة للعلم وللشعر ، وكثيراً ما تقرأ في ترجمة من اشتهروا بالشعر هناك أنهم تلقوا العربية والعلوم الشرعية عن أربابها في عُمان ، وقل ذلك نفسه في تَزَوَى وفي صُحار وغيرهما من المدن .

وهذا نفسه نلاحظه على البحرين فواجهتها لإيران جعلت عناصر إيرانية كثيرة تنزها ، وكان لذلك بعض التأثير في اللغة العامية التي نشأت هناك ، وإن كان لا يصل إلى تأثير الإيرانية في عامية عمان لأن الإيرانيين كثيراً ما تزلوا هناك وحكموها . وقد ظل البحرينيون يعكفون على العلوم الإسلامية وعلوم العربية وظلوا يروون الشعر وينهلون من موارده مما أعد لظهور شعراء مختلفين على مر الزمن طوال هذا العصر . وكان سيل الشعر كان لا يمكن رده ولا صده في أى إقليم عربى ، فهو دائماً زاد للعرب وعُدَّة وعتاد .

ومعرفتنا بالحركة الشعرية في نجد قليلة ، ومع ذلك نستطيع أن نتعرف على أطراف منها من خلال من كانوا يرحلون عنها إلى الأقطار المجاورة ، إذ لم تكن وسائل حفظ الشعر عندهم مهياة ، وتقصد وسائله الأولى من الأقلام والحبر والورق . وهؤلاء المهاجرون يَدْتُوننا على ما كان من نشاط شعري وراءهم ، وقد نشط الشعر في عهد بنى مزيد الأسديين الذين شادوا الحجة على حدود العراق وكذلك في عهد بنى عَقِيل العامريين حين هاجروا إلى الموصل على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع . ونفاجأ بنشاط واسع للشعر في نجد مع دعوة محمد بن عبد الوهاب منذ أواسط القرن الثالث عشر الهجرى .

## ٢

### كثرة الشعراء

بعثت دول الجزيرة العربية التي تحدثنا عنها في أقاليمها المختلفة نشاطاً واسعاً في الشعر ، فقد كان الحكام دائماً يعنون بأن تحفَّ بهم جمهرة من الشعراء ، وخاصة في اليمن التي قامت فيها دويلات صغيرة تنافست في جذب الشعراء ونثر الأموال والعطايا عليهم . غير أن أخبار هؤلاء الشعراء في القرن الرابع الهجرى قليلة ، وكان المظنون أن يترجم الثعالبي في اليتيمة وتتمتها لطائفة

منهم ، غير أنه لم يُفَعَّ بهم ، وإن كان قد ذكر أبا الحسن الناهي ، وستترجم له في غير هذا الموضوع ، وجاء عنده ذكر شعراء قليلين مغمورين خرجوا من الجزيرة إلى العراق أو إلى إيران مثل ابن أبي مرة المكي وينشد له قوله في أبي الفتوح أمير مكة الآتي ذكره<sup>(١)</sup>:

يَاسِيدًا قَدْبَتَهُ بِرُوحِي خَوَّلَكَ اللهُ أَبَا الْفَتْوحِ  
مُلْكَ سَلْيَانٍ وَعُمَرَ نُوْحِ

وإذا كان الثعالبي قصر في الترجمة لشعراء الجزيرة العربية لعصره فإن أبا الحسن الباخري المتوفى سنة ٤٦٧ للهجرة عني بهم في فاتحة كتابه «دُمية القَصْرِ وَعُصْرَةَ أهل العصر» إذ ترجم لطائفة كبيرة منهم ، مقدما لهم بقوله :

«إن أحسن أبيات الأشعار ماطلعت من أبيات الأشعار<sup>(٢)</sup> ، ورعت مع الأطباء الشَّيْح ، وتزوَّدت مع الضَّبَاب<sup>(٣)</sup> الريح ، مستغنية بحسنها عن التصنع والتحمل ، حلوة إذا ذاقها الناظر بحسن التأمل . . وقد وقع لي من أشعار هذه الطبقة ما هو أعذب من الماء الزُّلال ، وأرقُّ من الشَّمولِ صُفِّقت بالشمال» .

وأول ما يلاحظ على مجموعة الباخري من الشعراء أنهم من مدن وقبائل شتى في الجزيرة العربية ، فمنهم المكي والمدني والطائفي الثقفي والنجفي ، ومنهم العامري والأسدي والبكري والطائي والعسائي والرَّبَعي والشيباني والمَهْداني . وهم بذلك يمثلون الجزيرة في جميع أنحاءها غربيًا وشرقيًا ووسطًا وشمالًا وجنوبًا . وفي ذلك ما يؤكد أن الفصحى كانت لا تزال مسيطرة على الجزيرة حتى منتصف القرن الخامس الهجري ، ولا تزال حية ناضرة على ألسنة العرب في نجد والحجاز واليمن ، كما توضح ذلك تراجم الباخري وما ساقه لأصحابها من أشعار ، وهو لم يدخل الجزيرة إذ لم يمد رحلاته إلى ما وراء البصرة وبغداد ، ومنهم من لقيه في هاتين المدينتين أو في مدينة الرُّيِّ حاضرة السلاجقة ووزيرهم العظيم نظام الملك الذي وقد عليه الشعراء من أنحاء الجزيرة العربية ليقدموا له مدائحهم . وجمهورهم لم يلقهم الباخري ، وقد روى أخبارهم وأشعارهم عن بعض الأديباء المكيين والمدنيين الذين ذكروهم له أو عن بعض الأديباء الإيرانيين وخاصة أبا عامر الفضل بن إسماعيل التيمي الجرجاني ، وهو تارة ينقل عنه مشافهة وتارة ثانية ينقل عن كتاب له يسمى «قلائد الشرف» . وأول من ترجم له أبو الفتوح<sup>(٤)</sup> الحسن بن جعفر الحسني أمير مكة المتوفى سنة

(١) تمة البيتة للثعالبي ٨٣/١ .

(٢) أبيات الأشعار هنا يقصد بها الباخري الحياض . العقد .

(٣) انظره في العقد الثمين ٦٩/٤ .

(٤) انظره في العقد الثمين ٦٩/٤ .

٤٣٠ للهجرة ، وقد أنشد له قوله :

وَصَلَّتْنِي الْمَهْمُومُ وَصَلَّ هَوَاكِ وَجَفَلَنِي الرَّقَادُ مِثْلَ جَفَاكِ  
وحكى لى الرسولُ أنكِ غَضَبِي يَا كَفَى اللهُ شَرَّ مَا هُوَ حَاكِ

والبيتان طريفان فكرة وصورة ، وقد نسبها العماد فى الخريدة لابن أبى الفتح شكر<sup>(١)</sup> الذى خلفه على إمارة مكة إلى أن توفى سنة ٤٥٣ وهو الذى حاك بعض بنى هلال قصة له بين أقاصيصهم الهلالية إذ زعموا ، كما مر بنا ، أنه تزوج الحجازية بنت الحسن بن سرحان الهلالي ، ثم حدث بينه وبين عشيرتها مفاصبة ، فاحتالوا عليه بحجة أنهم يريدونها لزيارة أبويها ، وذهب معهم إلى نجوعهم فى نجد . فذكروا له أنهم سيخرجون إلى الصيد وهى معهم ، ومضوا فى رحلتهم الكبرى إلى إفريقيا ، على نحو ما هو معروف عن رحلة بنى هلال المشهورة ، وظل لها بين جوانحه حب دفين ، وظلت تكلفُ به إلى أن ماتت وهى هائمة بحبه عاشقة . ويبدو أن بنى هلال نسجوا هذه القصة بعد رحلتهم من الجزيرة ، إذ يجرى فيها خلل الإعراب كما يجرى فى بقية أقاصيص الهلالية ، وإنما نزعهم هذا الزعم ، لما رواه الباخري من أشعار النجديين فى هذا التاريخ ، وهى تدل على أن الخلل الإعرابى لم يكن قد فشا على ألسنتهم حتى أواسط القرن الخامس الهجرى ، وفى تقديرنا أن ذلك إنما حدث فى القرون التالية مباشرة . ومن طريف ما ينسب إلى الأمير شكر قوله<sup>(٢)</sup> :

قَوْصُ خِيَامِكَ عَنْ أَرْضِ تُضَامٍ بِهَا وَجَانِبِ الدُّلِّ إِنْ الدُّلُّ يُجْتَنَّبُ  
وَارْحَلْ إِذَا كَانَ فِي الأَوْطَانِ مَنْقُصَةً فَالْمَنْدَلُ الرُّطْبُ فِي أَوْطَانِهِ حَطْبُ

والبيتان يصوران إباء العربى وشعوره بالكرامة ورفضه للضميم مها احتمل فى هذا الرفض من العناء الشاق . وترجم الباخري لشاعر يسمى المجاشعى ويلقبه بشاعر الحرمين ، ويسوق له مدحة فى نظام الملك ، ويتلوه بأبى الحسن العبشمى المكى ثم بأبى الفضل جعفر بن الحسين الشيبى ، ويسوق له أبياتاً سمعها منه فى مديح بعض الوزراء ، كما يسوق له أبياتاً فى النسيب ، وترجم لعم له يسمى جعفر بن يحيى الحكاك وشعره متوسط . وترجم الباخري بجانب هؤلاء الشعراء المكين لشاعرين من المدينة : خزرجى وأوسى ، ثم لشاعر من الطائف يسمى سليمان بن خضر ، وينشد له غزلاً رقيقاً . ويضم إلى هؤلاء الشعراء الحجازيين شاعراً يمينياً يسلكه فيهم هو على بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية الإسماعيلية باليمن ، وكان فارساً ، وله أشعار جيدة فى تصوير فروسيته وفتكه بأعدائه فى القتال من مثل قوله<sup>(٣)</sup> .

(١) الخريدة (قم شعراء الشام) نشر المجمع العلمى (٢) المقد الثمين ١٦/٥ . والمندل : عود الطيب .  
العربى بدمشق ١٩/٣ وانظر المقد الثمين ١٥/٥ (٣) الخريدة (قم شعراء الشام) ٢٢٥/٣ .

زَوَّجَتْ بَيْضَ الْمَهْدِ سُمَرَ رِمَاحِهِمْ فَرَعَوْهُمْ عَوَضَ النَّارِ نِثَارُ  
وَكَذَا الْعَلَا لَا يُسْتَبَاحُ زَوَاجُهَا إِلَّا بِحَيْثُ تَطَلَّقَ الْأَعْمَارُ

والنثار ما ينثر على العروسين في الزفاف من الدراهم والدنانير والبرود ، وهو يتصور معاركه مع أعدائه أفرحاً ، نثارها رموس خصومه التي تطيح بها سيوفه وسيوف جنوده ، ويقول إن هذا دائماً مهر العلاء وصدقتها .

ويترك الباخري شعراء غربي الجزيرة إلى شرقها مصعداً إلى أقصى الشمال حيث إمارة بني عُقَيْلِ العامريين الذين أسسوها في الموصل وبوادي نجد العراقية في القرن الرابع الهجري ، ويرجم الباخري لأمر منهم هو قرواش بن المقلد الذي ولي الإمارة سنة ٣٩١ وظل أميراً نحو خمسين عاماً إلى أن غلبه على إمارته أخوه بركة وسجنه وتوفي في سجنه ، كما مر بنا ، سنة ٤٤٤ ويقول المؤرخون : « كان كريماً وهاباً نهاباً » وكان يحسن صوغ الشعر وحوكه ، من مثل قوله الذي أنشده الباخري :

لِي أَشَقْرُ سَمَحُ الْعِانِ مِغَاوِرُ يُعْطِيكَ مَا يُضِيكَ مِنْ مِجْهودِهِ  
وَمَهْدٌ غَضْبٌ إِذَا جَرَّدَتْهُ خَلَّتَ الْبُرُوقُ تَمُوجٌ فِي تَجْرِيدِهِ  
وَمَشَقٌّ لَدُنَّ السَّنَانِ كَأَنَّمَا أُمُّ الْمَنَايَا رُكِبَتْ فِي عودِهِ  
وَبِنَا حَوِيْتُ الْمَالِ إِلَّا أَنِّي سَلَّطْتُ جَوْدَ يَدِي عَلَى تَبْدِيدِهِ

وهو يفتخر بأن ماله ليس ميراثاً عن آبائه ، وإنما هو ما أنعم به عليه فرسه الذي لا يُشَقُّ غباره في الغارات ، وسيفه القاطع المسلول دائماً للترال ورحمه الذي يفنك بالرجال ، وتلك أدوات جليلة للمال وسرعان ما تبدده يدها في الناس . ويرجم الباخري لابن عم له يسمى أبا جوثة ، ثم يهبط من الموصل وبواديها إلى بوادي الحلة بالقرب من الكوفة حيث إمارة بني مزيد الأسديين التي أسسها قبيلتهم بنو أسد في أواخر القرن الرابع الهجري ، ويرجم للئيس بن علي بن مزيد الذي ولي إمارتها سنة ٤٠٨ حتى وفاته سنة ٤٧٧ وله حروب كثيرة مع بني خفاجة ، واستنجد به قرواش ضد الغزحين أغاروا على بلاده ، فنجده . ونشده له الباخري

يَتَيْنُ يَدِلَانِ عَلَى شَاعِرِيَّةٍ مُتَوَسِّطَةٍ بَلِ عَلَى شَاعِرِيَّةٍ ضَعِيفَةٍ

ويأخذ الباخري بعد ذلك في الترجمة لطائفة من شعراء نجد ، يتقدمهم بمحمد بن الجراح من قبيلة بكر . وما أنشده له في كرم الضيافة الذي يشتهر به العرب من قديم قوله :  
لَا يَرْفَعُ الضَّيْفُ عَيْنًا فِي مَنَارِنَا إِلَّا إِلَى ضَاحِكِ سَا وَمِيسَمِ  
ويطيل الباخري في التوقف عند شاعر طائي ، هو أبو كامل تميم بن المفرج ، وفيه يقول :  
« كامل » وبالكمال قد كنتي ، وإذا وصف تمام الفضل فتميم عني ، وناهيك بذلك الأملئ .

ويذكر الباخري أنه مدح الوزراء في إيران ونال جوائزهم ، وأنه أبعده في الرحلة حتى غزوة . ولم  
 ببعض مدائح وخمريات ، وينشد له أشعاراً في الغزل تذوب رقة ، من مثل قوله :  
 ودّعينا - إن كنت أزمعت - جاره  
 قبل أن يمنع الفراق الزيارة  
 زودى وامقاً أجداً ارتحالاً  
 ما قصى في مقامه أوطارة  
 لم يرب يحذر الفرق حتى  
 حققوا يوم رامتني حذاره  
 كان يكفيه - والمحب قنوع -  
 وقفة أو تحية أو إشاره  
 كاعب في الحجال يمنها الرو  
 ر حياء يصونها وعساره  
 ذات نغر كأنه حين يبدو  
 عقد در أو أقحوان قراره

والآيات تسيل عذوية ورشاقة ، والألفاظ فيها ملتحة أوثق التحام ، وكلما قرأنا بيتاً فيها ،  
 بل شطراً ، أحسنا بحمال اتساقه ، وأنه يتصل بسابقه اتصال ذوى الرحم والقربة ، وما أجمل  
 قوله : « والمحب قنوع » فأى شيء يقنعه : وقفة أو تحية أو إشارة من بعيد . وقد عبر عن حجابها  
 وأنها لا تستطيع أن تراه تعبيراً ظريفاً ، إذ ذكر أنها في الحجال والأستار داخل بيتها ، ولا يصونها  
 الحجاب وحده ، بل يصونها أيضاً حياؤها وخجلها . والمعاني رقيقة رقة بالغة ، والصور جميلة  
 وطبيعية ، ولا تكلف ، ولا تصنع ، بل شاعر وامق يعبر عن حبه وهيامه تعبيراً حافلاً بالوجد  
 والصبابة دون أى أثر للحب الحسى المادى وأثراته ، بل هو حب عذرى ظاهر يخلو من كل إثم  
 ووزر ، سوى اللوعة . وترجم الباخري لشاعر من غسان ولشاعر ثان بدوى ، ثم لشاعر ثالث  
 همدانى يسمى المنيع ، وينشد له قطعة غزلية في ابنة عم له تسمى ذؤابة شغفت قلبه حبا ،  
 وفيها يقول :

كأن ذؤابة في القر تمشي ريباً مهاً ترتدى بالظلال

وهي صورة بديعة ، إذ يصور صاحبه وثوبها المفهاف بمهارة في يوم قبط شديد الحرارة ،  
 وقد أوت إلى ظلال شجرة وسط الصحراء تتخذ منها غلالة تقيها حرارة القبط . ويمضى  
 الباخري ، فيترجم لشاعر من ربيعة ثم لشاعر عامري يسمى قيساً ، وكأنما يعيد لنا ذكرى قيس  
 مجنون للى ، وهو يكثر من الحديث عن ديار صاحبه ومعاهدتها من مثل قوله :

فما صاحبى قليلاً علياً ولا تُعجلانى يا صاحبياً  
 وعوجاً على ظلل دائرٍ زرياً وأين من العين رياً  
 معاهد لم يُبق صرف الزمان منها ومنى إلا شوياً

« وشوياً » تصغير شيء بمعنى بقية قليلة ، بالضبط كما نستعملها في عاميتنا المصرية ، وكأن لها  
 أصلاً صحيحاً في العربية ، والآيات تفيض بالوجد والحنين . وترجم الباخري لشاعر شياني

من مدّاح نظام الملك الوزير السلجوقي ولشاعر من بني عجل من شيان من مدّاحه أيضاً ،  
ويبدأ مدحته فيه بوصف الخمر . ويتبعها الباخري بثلاثة من الشعراء النجديين ، ويقف  
وقفه طويلة عند شاعر من الإمامة يسمى على بن الأزهر ، ويقول : «مما سحر لبي من لب»  
كلامه قوله :

ديارهمُ بالرُقْمَتَيْنِ سُقِيَتْ      سَحَاباً مِنَ الوَسْمِيِّ ثُمَّ وُلِيَتْ (١)  
وما لكِ في رِيِّ السَّحَابِ حَاجَةٌ      فقد طالما من مُقْلَتِي رَوِيَتْ  
وكم قد سَبَّتِي فِكْ مِنْ ذَاتِ بَرْقُعٍ      بأحسن عَيْنٍ لِلْمَهَاءِ وُلِيَتْ (٢)  
أيا بأبي الفُورَانِ طَبَّبْتَ فِيهَا      وأَرْضُ مِنَ الفُورَيْنِ كُنْتَ وَطِيتِ (٣)  
وماءٌ حَلَّتِيهِ وَإِنْ كَانَ آجِئاً      وروضٌ رَعِيَتْ العُشْبَ فِيهِ رُعِيَتْ

والصورة في البيت الثاني بديعة ، إذ ذكر ، بعد أن دعا للديار بالسُّقيا ، أنها ليست في حاجة  
إلى رى السحاب فقد طالما رويت من مقلته ، وقد سبه صاحبه بعينها وصفحة جيدها .  
ويذكر في البيت الرابع الفورين ، وهما موضعان بالإمامة كثيراً ما التقيا فيهما ، ويهتف مفديا  
الأرض التي وطئها قدمها وكل مامرت به أنزلت عنده من مياه ورياض . وفي البيت الخامس  
يشبع الكسرة في كلمة «حَلَّتِيهِ» فتمتد تاء التأنيث على نحو ما تمتد في عامتنا المصرية . والكلمات  
محبوكة ، وكل بيت يستدعي ما يليه في سلاسة وعضوية ، ويستطيب الماء الذي حلت به وإن  
كان آجئاً متغيراً ، كما يستطيب الروض والعشب مع الدعاء لها ، ويقول الباخري :  
«ما أحسن ما جمع بين قوله : «رَعِيَتْ العُشْبَ» على الإخيار و«رُعِيَتْ» على الدعاء» .  
ويستعجل الشاعر الركب معه في السير ، وينشأ بينه وبين صاحبه حوار طريف على هذا  
النظ :

فقلت لهم سيروا ولا تروحو      فليس لنا وادي العُضَا بميتِ  
فقلتُ : ولمُ أُمِيتَ تطوى بلادنا      فقلتُ أمرتيني غداةً نَهَيْتِ  
وقد كنتِ لا تَرْضِينِ منهم بما أرى      من الضَّيْمِ لِي فالْيَوْمَ كيف رَضِيَتْ  
وأقسمتُ أن لا تُقْبَلِي قولَ كاشِحٍ      كذوبٍ فكَم أَقْسَمْتِ ثُمَّ نَسِيَتْ  
والحوار مع صاحبه طبيعي ، ولكل بيت رفته وعضوبته ودقته ، فلم يعد العضا مبيتاً صالحاً  
لها ، وقد أمرته بالسير غداة نهته ، ولم تكن ترضى له بالضيم والهوان فرضيت ، وكم أقسمت  
له وعاهدته أن لا تقبل في قول كاشح كاذب ، ولم يقل لها - كما لاحظ الباخري - نقضت

(١) الرقة : جانب الوادي والروضة . الوسمي : أول

(٢) الليت : صفحة العنق .

(٣) طبت : أقت . وطبت : سرت فيها .

مطر الريح .

العهد وحشت في يمينك ، بل قال لها متلطفاً « نسيت » القسم والعهد بل الأقسام والعهود . وهو لطف ورقة حسنٌ ما بعدها رقة ، وترجم الباخري بعدة لشاعر بدوي نجدى يسمى على بن حسان ، وينشد له قوله :

سَقِيًّا لَأَيَّامِ التَّصَابِي      مع كُلِّ خَرَعْبَةٍ كَعَابِ (١)  
إِذْ نَحْنُ تَرْتَعُ فِي الْهُوَى      وَنَجْرُ أَرْدِيَةِ الشُّبَابِ  
وَالدَّهْرُ عَنَا غَافِلٌ      كَالسَّيْفِ يُؤَمِّنُ فِي الْقِرَابِ

والأبيات سلسلة سائفة ، والصور والأخيلة فيها طريقة ، وخاصة الصورة الأخيرة التي صور فيها الدهر وكأنه سيف احتواه غمده ، فلم يعد يخيفهم ولا يرهبهم ، فالسيف في غمده ، والدهر بهيمومه يغشاه حجاب من الغفلة إلى حين . وينشد له الباخري من قصيدة قافية :

وَحَقٌّ لِي وَجَدِي عَلَى شَادِنِ      أَدَقُّ جِسْمِي مِنْهُ خَصْرٌ دَقِيقٌ  
وَشَاهِدٌ بِشَهْدِ فِي خَدِّهِ      أَنْ لَيْسَ فِي الْحَسَنِ لِهَذَا رَفِيقٌ  
فَكَلِمًا عَزَّيْبِي هَجْرُهُ      صَحْتُ مِنَ الْوَجْدِ الْحَرِيقِ الْحَرِيقِ

فخصر الشادن الدقيق أنحل جسمه ، وكأنما أعداه نحولاً وصنّى ، وما أجمل البيت الثاني الذي جعل فيه من الخد شاهداً يشهد بحسنه وجماله بل بتفوقه على كل حسن وجمال . والحب يكوى فؤاده ويلذعه ، وكأنه جمرات نار يصلى بها قلبه بل يحترق ، وهو ينادى ، الحريق الحريق . وترجم الباخري بعدة لشاعر أسدي من شعراء المديح ولغنية بدوية تسمى أم كلثوم . وإنما أطلنا عرض شعراء البدو في الدمية لأنها تكاد تكون المصدر الوحيد لشعراء نجد عامة في الحقب الأولى من هذا العصر ، فلولاها ما اتضح لنا شعر البدو في القرنين الرابع والخامس الهجريين ولا أن البوادي كانت لا تزال تكتظ بالشعر والشعراء . ومن الغريب أن العماد الأصهباني وزير صلاح الدين الأيوبي وشاعره الذي عني مثل الباخري بالترجمة لشعر العالم العربي جميعه لم يعن بشعراء نجد ولا أفرد لهم صحفاً في خريدته إلا ما ذكره عن شعراء عُقَيْلٍ أصحاب إمارة الموصل وبواديه ، أودعهم في قسم الشام والجزيرة . وكذلك ما ذكره من شعراء بني مزيد الأسديين أصحاب الحلة وبواديها أودعهم قسم العراق ، وبالمثل أودع شعراء الحجاز واليمن في القسم الخاص بالشام ، أو قل ألحقهم به . ولم يعن أى عناية بشعراء عُمان والبحرين . وكتابه يُعدّ المصدر العام الثاني بعد الدمية لشعراء الجزيرة العربية في القرنين الخامس والسادس الهجريين . وقد صنّفه في مطالع العقد الثامن من القرن السادس ، وهو يصرّح بذلك مراراً في تضايعه .

ولم يدكر العادل بن عَقِيل أصحاب الموصل وبوادي الجزيرة سوى مسلم<sup>(١)</sup> بن قريش ابن أخي قرواش الذي مر ذكره ، وهو أعظم أمراء هذه الأسرة سلطاناً ، إذ كان يستولى على ديار ربيعة ومضرق في نجد . وملك حلب من بني مرداس ، وبذلك قضى على إمارتهم فيها نهائياً ، وأخذ الإتاوة من الروم . وكانت سيرته منذ ولى سنة ٤٥٣ من أحسن السير وأعدلها ، وعمّ الأمن دياره ، وكان يصرف الجزية في جميع بلاده إلى الطالبين من أبناء علي بن أبي طالب . وكان هو وأهله شيعة إسماعيلية على مذهب الفاطميين ، ومما يدل على ذلك أن قرواشاً عمه خطب في بلاده للحاكم صاحب مصر ، كما يقول المؤرخون ، ثم رجع عن ذلك خوفاً من حكام بغداد السلاجقة . وعُني هو وأفراد أسرته بنثر الأموال على الشعراء فأتوهم من بغداد وغير بغداد . وكان مسلم يجزل العطايا للشعراء ، وحين قصده ابن حيّوس شاعر الشام وأنشده مدائح فيه بالغ في إكرامه . ويقول العباد الأصبهاني إنه أقطع الموصل ، غير أن ابن حيّوس لم يلبث أن توفي ، وخلف أكثر من عشرة آلاف دينار ، فحمل ذلك إلى خزانة مسلم فردّه ، وقال : لا يتحدّث الناس عنى أنني أعطيت شاعراً مالاً ، ثم شرهت فيه وأخذته ، ويروى أنه لما ملك حلب هجاه بعض شعرائها ، فسأل عنه ، فقيل له : إنه من أهل قرية المعرة رعيثك ، فقال : أوصوا به الوالي ليحسن إليه ، وحذروه أن يجني عليه ، فهذا لا يعرفنا ، ولو لم تكن له شكايه من والينا ما قال هذا القول<sup>(٢)</sup> . وفي ذلك ما يدل على حصافته وبعد نظره وحسن سياسته وكان شاعراً يحسن صوغ الشعر ورفضه ، وله مكاتبات شعرية مع منصور بن دُبَيْس المزيدي أمير بوادي الجبل وأنشد له العباد إحدى هذه المكاتبات ، كما أنشد له شعراً شيعياً ، أو بعبارة أدق ثلاثة أبيات شيعية . ويروى له<sup>(٣)</sup> :

وما كنتُ مِجْزَاعَ الفُؤَادِ وإِنَّمَا فُؤَادِي عَلَى بَيْنِ الحَلِيبِ جَزُوعُ  
وكانتُ سَلِيمِي للمُحِبِّينَ رَوْضَةً ووَضَلُ سَلِيمِي رَوْضَةً وريبعُ

والصورة في البيت الثاني بديعة وتدلّ على شاعرية جيدة . وكان طموحاً كريم النفس يطلب العلا مهما يكن مطلبها باهظاً ، وله في ذلك مهوّنًا من أهل عصره ومصغراً :

وَإِنِّي لِأَحْتَرِ هذا الزَّمانَ ولا سِما أَهلَ هذا الزَّمانِ  
يريدون نِكَلُ العِلا بِالْمَنَى وَنِكَلُ العِلا بِرِغِيبِ الثَّمَنِ

وكانت وقفه العباد عند بني مزيد الأسديين أكثر طولاً ، وأول من ترجم له منهم بهاء الدولة

(١) انظر في ترجمة مسلم الخريذة (قسم الشام) (٢) الخريذة قسم الشام ١٢٨/٢ .

(٣) ٢٥٥/٢ وابن خلكان ٢٦٧/٥ والنجوم الزاهرة (٣) انظر في هذين البيتين وما بعدهما هامش الخريذة في

ترجمة مسلم نقلا عن الواقي للصفدي . ١١٩/٥ .

منصور<sup>(١)</sup> بن دُبَيْس الذي خلف أباه على رئاسة القبيلة سنة ٤٧٤ وكان إسماعيلياً رافضياً مثل آبائه ، وله - كما ذكرنا آنفاً - مكاتبات شعرية مع مسلم بن قريش صاحب الموصل وبواديه ، وظل على رئاسة قبيلته الأسدية حتى توفي سنة ٤٧٩ وبعث هو وأبوه دبيس نشاطاً أدبيا في بيئتهما ، فقصدهما الشعراء بالمديح . وكان منصور يجيد الشعر وله في رثاء صاحب له يُكْنَى أبا مالك :

فإن كان أودى خدتنا وندمنا أبومالك فالنائب تنوب  
وكلُّ ابن أُنْتى لا محالة ميتٌ وفي كلِّ حَيٍّ للمنون نصيبٌ  
ولو ردَّ حزنٌ أوبكاءُ هالكٍ بكيناه ما هبتُ صباً وجنوبٌ

وله فخر جيد . وخلفه ابنه سيف الدولة صدقة<sup>(٢)</sup> ، وهو الذي بنى مدينة الحلة لقبيلته ، كى تتقل من حياة البداوة إلى حياة الحضارة ، وفيه يقول العماد : « كان جليل القدر ، جميل الذكر . له دار الضيافة التي يفتق عليها الأموال الألوفا . المعروف بإسداء المعروف ، وإغاثة الملهوف » وقد قصده الشعراء من كل فج ، وله قدم ابن الهيثمية - كما مرَّ بنا - كتابه الصادح والباغم « الذي نظمه في عشر سنوات على غرار كليلة ودمنة . ونازل محمد بن ملكشاه السلجوقي سنة ٥٠١ وقُتل في المعركة ، ولما سمع نظام الملك وزير السلجوقيين في الرِّي خبر موته قال : مات أجلُّ صاحب عمامة . وكان فارساً شجاعاً عادلاً في رعيته ، كما كان محسناً للأدب حافظاً أشعار الجاهليين والإسلاميين والعباسيين . ويقول العماد : كان يقبل على الشعراء ، ويمدهم بحسن الإصغاء وحزب العطاء » وكان يرتب لهم سنويا مكافآت ، كل حسب طبقة . واسطاع ابنه دُبَيْس<sup>(٣)</sup> أبو الأغر سيف الدولة أن يلم شتات إمارته ، غير أنه خرج على المسترشد مراراً وتفرَّق عنه جنده تكراراً إلى أن قتله السلطان المسعودي السلجوقي صبراً سنة ٥٢٩ وهو الذي يشير إليه الحريري - كما مرَّ بنا - في مقامته « العمانية » واصفاً كيف أقبل الناس يشنون على أبي زيد ، حين سمعوا فصاحته ، يقول : « حتى كأنه الأسدى دُبَيْس » في إقبال الناس وتزاحمهم على رؤيته لشجاعته ، وكان شاعراً ، وأنتشد له العماد محاورات شعرية مع أخيه بدران وكان ينشد :

حُبُّ عليِّ بن أبي طالبٍ للناس مقياسٌ ومغيارٌ  
يُخْرِجُ ما في أصلهم مثلما تُخْرِجُ غَشَّ الذهبِ النارُ

(١) ترجمته في الخريدة (قسم العراق) ١٥٧/١/٤ ١٩٦/٥ .

وابن خلكان ٤٩١/٢ والنجوم الزاهرة ١٢٢/٥ . (٣) راجعه في الخريدة ١٧٠/١/٤ والمتنظم ٥٢/١٠

(٢) انظر في صدقة بن منصور الخريدة (قسم العراق) وابن خلكان ٢٦٣/٢ والنجوم الزاهرة ٢٥٦/٥ .

١٦٣/١/٤ وابن خلكان ٤٩٠/٢ والنجوم الزاهرة

ولم يستقم لآل مزيد بعد دئيس سلطان ، وأبدلت العزة بالذلة ، كما يقول العماد . وترجم لأخيه بدران (١) ، ويقول إنه تغرب عن الحجة ، وقصد الشام ثم توجه إلى مصر وبها توفي سنة ٥٣٠ هـ وروى له العماد أشعاراً يحن فيها إلى الحجة باكياً مجد آبائه ، وأخرى غزلية ، أو شيعية ، أو يذيب فيها بعض أمانيه الضائعة من مثل قوله :

لا والذي قصد الحجاجُ على بُرْلِ وما يَقَطَعَنَّ من جَدَدِ (٢)  
لا كنتُ بالراضى بمنقصةِ يوماً وإلا لستُ من أسدِ  
لأقلِّلَنَّ العيسَ داميةً الـ أخفاف من بلدٍ إلى بلدِ (٣)

ولم يستطع أن يبعث الإبل ولا غير الإبل لرد إمارة آبائه . ولا يلقانا بعده شاعر لبني مزيد في الحجة ، وأغلب الظن أن قبيلة بني أسد عادت أوعاد معظمها إلى البوادي ، وكأنما كان ذلك كله دوراً نهضت به وانتهى بانتهاى بني مزيد وانتقاض سلطانهم .

وترجم العماد لشعراء الحجاز وتهامة ويريد بها مكة ، إذ يطلق عليها اسم تهامة أحياناً ، وأول من يترجم لهم شكر بن أبي الفتح ، وقد مرت بنا ترجمته عند الباخري . وتلاه بترجمة الجعفر (٤) بن محمد بن إسماعيل الحسني ، وقال إنه كان عارفاً بالنحو واللغة ، شاعراً يمدح الأكابر طلباً لرفدهم وعطائهم ، وقال نقلاً عن السمعاني إنه كانت في رأسه دعاوى عريضة خارجة عن الحد ، لا يرى أحداً في علم اللغة فوقه . رحل من الحجاز إلى العراق ، ثم دخل خراسان وأقام بها ، ثم عاد إلى بغداد وألمَّ بواسط والبصرة في ستة نيف وثلاثين وخمسمائة على عزم المسير إلى بلاد فارس ، وأنشد له العماد قطعتين : حاثية ولامية ، ومن قوله في أولهما :

أما لظلام لَيْلِي من صباحٍ أما للنجم فيه من بَراحٍ  
كَأَنَّ الأفقَ سُدَّ فليس يُرْجَى له نَهْجٌ إلى كلِّ النواحي  
كَأَنَّ الصبحَ منقُ طريدُ كَانَ الليلَ بات صريعَ راحٍ

ويتلوه العماد بأبي عبد الله (٥) محمد بن إبراهيم الأسدی الحجازي ، ويقول إن مولده بمكة ومنتشأه بالحجاز ، وإنه لقي أبا الحسن التهامي شاعر مكة المشهور في صباه ، ويبدو أنه عمّر طويلاً ، إذ يقال إنه ولد سنة ٤٠١ هـ وتوفي سنة ٥٠٠ هـ وقد رحل إلى العراق واتصلت رحلاته إلى غزته ، وينسب له البيتان المشهوران :

(١) الخريدة ١٧٧/١/٤ وابن خلكان ٢/٢٦٤ . والعقد اللين ٣/٤٢٨ وإنباه الرواة للقفطي ١/٢٦٦ .

(٢) البزل : جمع بازل وهو البعير القوى المتين ، (٥) انظره في الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣ والواف

والجلد : الأرض المستوية . بالوفيات للصفدي ١/٣٥٦ والعقد اللين ٣/٣٩٨

(٣) العيس : الإبل . والمتظم لابن الجوزي ٩/١٥٣ .

(٤) انظر ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٠

قلت : ثَقَلْتُ إِذْ أَتَيْتُ مَرَارًا      قال : ثَقَلْتُ كَاهِلِي بِالْأَبَادِي  
قلت : طَوَّلْتُ قَالَ : لِأَبْلِ تَطَوُّدٍ      ست . وَأَبْرَمْتُ قَالَ : حَبْلَ الْوِدَادِ

وتداول البيتين كتب البلاغة ، إذ يصوران لوناً من ألوان البديع وهو القول بالموجب ، وهو توجيه الكلام في الحوار وجهة طريفة ، تنبئ ظاهره المراد . ويترجم العماد عقبه لشاعر يسمى أبا بكر<sup>(١)</sup> محمد بن عتيق السَّوَارِقِيُّ الذي توفي بطوس سنة ٥٣٨ وأنشد له العماد أشعاراً منها قوله :

أَيَا سَاكِنِي نَجِدِي سَلَامٌ عَلَيْكُمْ      وَإِنْ كُنْتُ لَا أَرْجُو إِيَابَا إِلَيْكُمْ  
وَإِنْ كَانَ جَسْمِي فِي خُرَّاسَانَ تَأْوِيًا      فَقَلْبِي بِنَجْدٍ لَا يَرَالُ لَدَيْكُمْ

ويترجم العماد بعده لشاعر من خُدَّامِ سُدَّةِ الْمُصْطَفِيِّ عليه السلام يسمى كافوراً النبوي ، ويقول إنه رحل أيضاً عن المدينة ، وأوغل في رحلته حتى بُخَّارِي ، ونشده له العماد بعض شعره ، ثم يترجم لشريف سلبياني هو عَلِيُّ<sup>(٢)</sup> بن عيسى كان أبوه عيسى أميراً على الخلفاء السلبياني وقتله أخوه أبو غانم يحيى ، ففرَّ ابنه علي إلى مكة ، وظل فيها إلى وفاته سنة ٥٥٦ يقول العماد : «وله تصانيف مفيدة وقربحته في النظم والنثر مجيدة» ويقول القفطي : «لما نزل الزمخشري مكة وجد بها الشريف علي بن عيسى بن حمزة الحسني فعرف قدره ، ورفع أمره وتلمذ عليه ، ونشطه لتصنيف ما صَنَّفَ» وقد ألف له تفسيره الكشاف المشهور ، وفيه يقول علي مادحاً ومثوِّهاً :

جَمِيعُ قُرَى الدُّنْيَا سِوَى الْقَرْيَةِ الَّتِي      تَبَوَّأَهَا دَارًا فِدَاءً زَمَخْشَرًا  
وَأَحْرَبَانُ تَزُهَى زَمَخْشَرٌ بِأَمْرِي      إِذَا عُدَّ فِي أَسَدِ الشَّرَى زَمَخَ الشَّرَا<sup>(٣)</sup>

وينشد له العماد طائفة من أشعاره تدل على شاعرية خصبة وأنه كان يملك زمام اللغة ويعرف أساليبها السوية الموثقة ، وله أبيات فخر كثيرة تصور عزة نفسه وإبائه الضيم ومروءته ، ومن قوله في رثاء بعض آبائه :

غَاضَ النَّمِيرُ الْعَدْبُ يَا وَارِدًا      وَحَالَ عَنْ عَهْدِكَ ذَلِكَ الرُّلَالُ  
وَيَتَرَجَّمُ الْعَمَادُ عَقْبَهُ لِابْنِ عَمٍ لَهُ يَسْمَى دَهْمَشَ<sup>(٤)</sup>      بِنِ وَهَامَسَ ، بظهور أنه فارق الخلفاء السلبياني مثله وأقام بمكة ، فترجم له العماد بين أبنائها ، ويقول إنه وفد على صلاح الدين في

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢٦/٣ .  
(٢) راجع ترجمته في الخريدة (قسم الشام) ٣٢/٣ .  
(٣) الشرى : مأسدة . زمخ : ترفع عليها وتكبر .  
(٤) راجعه في الخريدة (قسم الشام) ٣٥/٣ والعقد والفقهاء ٢١٧/٦ . ومادة زمخشري في معجم البلدان الثمين ٤/٣٦١ .  
لياقوت .

ذى الحجة سنة إحدى وسبعين ، وهو على باب حلب ، لم يتلوه بابتن الریحانی (١) على بن الحسن المکی الذی وفد على صلاح الدین فی سنة سبعین ، ویزکر له قطعة فی مدح أمير المدينة قاسم الحسینی ، وفيه یقول :

سما بکرامٍ من ذؤابةِ هاشمٍ غطاريفَ صيدٍ ماجدين ججاجٍ  
ويلقانا بعد ذلك في مكة القائد سالم بن أبي سليمان ، وهو معرّب الأصل ، وينشد له العباد قصيدة في المديح لعيسى بن قُليبة أمير مكة ، تزخر بالعقيدة الزيدية ، وسنعرض لها في موضع آخر ، حين نتحدث في الفصل التالي عن شعر العقيدة الزيدية . ويتنقل العباد من شعراء الحجاز إلى شعراء اليمن ، ويترجم لأكثر من أربعين شاعراً منهم ، وهم يصورون ما بُثت دويلات اليمن من نهضة شعرية في بلدانها ، وكان كثير من أمراء هذه الدويلات شاعراً ، وترجم العباد لأربعة منهم ، هم علي بن محمد الصليحي مؤسس الدولة الصليحية ، وجياش أمير آل نجاح حكام زبيد وحاتم بن أحمد الهمداني أمير صنعاء والمهدى بن علي بن مهدي أمير زبيد الذي قضى على دولة آل نجاح . ومر بنا حديث عن الصليحي عند الباخريزي ، وكان جياش شاعراً مجيداً ، ويروى أن ابن القيم شاعر اليمن في عصره أرسل إليه عتاباً (٢) .

يأيها الملك الذي خرت له غلبُ الملوك نواكس الأذقان  
أترى الذي وسع الخلائق كلها يابنَ النصير يضيقُ عن إنسانٍ  
فأجابه جياش :

لا ، والذي أرسى الجبال قواعداً ذى القوة الباقي ، وكلُّ فانٍ  
ما إن يضيق برحبتنا لك منزلٌ ولو أنه في باطن الأجفانِ  
ويشيد الشعراء طويلاً بما كان يصلهم من عطايا الأمراء وأضرابهم من مثل أمراء بني زريع والامراء الزيديين وأئمتهم . ومن ترجم له العباد من شعراء الصليحيين ابن القيم وعمارة اليمنى وسنخصص كلا منها بكلمة في حديثنا عن شعراء الإسماعيلية . وبالمثل ترجم لشاعر إسماعيلي ثالث من شعراء الصليحيين هو عمرو بن يحيى الهيشمي شاعر الداعي علي بن محمد الصليحي . ومعروف أن آل زريع حكام عدن خلفوا الصليحيين حين انتهت دولتهم بموت الملكة الحرة أروى سنة ٥٣٢ هـ وصارت إليهم حصونهم ومعاقلهم وأموالهم ، كما صاروا هم القائمين على الدعوة الفاطمية الإسماعيلية ، وترجم العباد لشاعرهم أبي بكر العبيدي وسنخصصه بكلمة بين شعراء المديح . وشعراء زبيد ودولة آل نجاح كثيرون ، وعلى رأسهم جياش كما

(١) انظر في الخريدة (قسم النعام) ٣٢/٣ وانقد (٢) الخريدة (قسم النعام) ٣/٢٢٤ .

أسلفنا ، وله فضل تخليد أسماهم في كتابه «المفيد في أخبار زبيد» والكتاب مقفود ، غير أن عمارة اليمنى كتب له مختصراً كما مرّ بنا وهو الذي رجح إليه العماد في الترجمة لجمهور شعراء اليمن ، وأول شاعر بارع يلقانا منهم زَكَرِيُّ<sup>(١)</sup> بن شَكِيل وله مدائح بديعة في جيش ، ويستهل إحداها بوصف طريف للخمر والمرأة الفاتنة ، وفيه يقول :

اسْتَقْنِي الرَّاحَ إِنَّمَا تَجْلِبُ الرُّوْحَ      حَ وَرِيحَانَهَا إِلَى الْأُرُوْحِ  
بَزَلُوهَا فَاْمَتَدَّ مِنْهَا لَجْوُ اللَّذِّ      نِيلٌ نُورٌ أَغْنَى عَنِ الْمَصْبَاحِ<sup>(٢)</sup>  
مَا يُزِيلُ الْهَمُومَ مِثْلُ اصْطِبَاحِ      فِي صَبَاحٍ لَدَى وَجْهِهِ صَبَاحِ  
إِذْ تَرَى الدَّيْكَ كَالْبَعِيرِ ، وَكَالْأَرْ      ضِ السَّمَوَاتِ ، أَوْ فَإِنَّكَ صَاحِ  
وَأَرَعَ عَيْنِكَ فِي عَيُونِ مِنَ الزَّهْرِ      بِرِ جَلَالِهَا نُورٌ كَنُورِ الْأَقَاحِي  
شَفَاتِهَا تُقْلَى وَمَاءٌ ثَنَابًا      هَا عُقَارِي وَخَدُّهَا تُفَاحِي<sup>(٣)</sup>  
هَذِهِ الْجَنَّةُ الَّتِي وَعَدَ اللَّهُ      مَا عَنْ نَعِيمِهَا مِنْ بَرَاكِ

والآيات تسيل عدوية ورشاقة وخفة وتكاد تطير عن الأفواه طيراناً ، والألفاظ تتداخل فيما بينها تداخل أفراد الأسرة المتشابهين في الرحم ، وما أجمل الجناس بين الاصطباح والصباح بفتح الصاد والصباح بكسرهما أى الوجوه المشرقة المضيئة . وصور خدر الخمر في البيت الرابع تصويراً جيداً ، وأحكم مراعاة النظير في البيتين الخامن والسادس ، إذ قرن العيون والثغر إلى الزهر ونور الأقاحي ، كما قرن الشفاه والرضاب والخندود إلى النقل من الفستق وغيره والخمر والتفاح ، وسمى ذلك كله الجنة ، مبعداً في الخيال . وبقانا بعده من شعراء آل نجاش القاضى العثماني<sup>(٤)</sup> ، وله في الصليحي حين فتك به سعيد بن نجاش هجاء مرير ، وساق له العماد خمريتين ، يتاجن فيها ، أما الأولى فيقول إنه شرب حتى حسب المهر أربنا ، وأما الثانية فيستوفي فيها ما سبقه إليه أبو نواس من فكرة العفو الإلهي عن الكبائر كما كان يزعم ذلك المرجئة ، يقول متاجناً :

قَمِ فَاسْتَقْنِي بِالكَأْسِ مِنْ تِلْكَ الَّتِي      أَهْلُ النَّهْيِ فِي وَصْفِهَا قَدْ حَارُوا  
وَأَشْرَبْتُ وَلَا يَلْحَقُكَ خَوْفٌ عَقُوبَةٍ      فِيهَا فُوبٌ حِسَابِهَا غَفَارٌ

ويترجم العماد لإسماعيل بن البوقا وزير جيش ، وأهم من ترجمته ترجماته لبني أبي عقامة قضاة زبيد في عهد آل نجاش ، وفي مقدمتهم القاضى أبو عبد الله محمد بن أبي عقامة

المشهيات .

(١) الخريدة (قسم الشام) ٢١٨/٣ .

(٤) انظر الخريدة (قسم الشام) ٢٣١/٣ ولعله

(٢) بزل الدن : فقه .

(٣) العقار : الخمر . النقل : ما يرافق الشراب من

الشريف العثماني المذكور في طبقات فقهاء اليمن ص ١٧٧

الحفائلي<sup>(١)</sup> الذي قتله على بن مهدي حين دانت له زييد سنة ٥٥٤ وينشد له العماد أشعراً رائعة ، منها قوله في مديح قوم راحلين :

للمجدِ عنكم رواياتٌ وأخبارٌ      وللعلا نحوكم حاجٌ وأوطارٌ  
تشتاقكم. كلُّ أرضٍ تنزلون بها      كأنكم لبقاع الأرض أمطارٌ  
فحيث كنتم فنغر الرّوض مبتسمٌ      وأين سرّهم فدمع المزن مدرارٌ  
لله قومٌ إذا حلّوا بمنزلةٍ      حلّ الندى وسير الجود إن ساروا  
لا يعجب الناس منكم في مسيركم      كذلك الفلك العلوي دوارٌ  
والبدْر مذ صيغ لا يرضى بمنزلةٍ      فيها يخيم فهو الدهر سيارٌ

وهو مديح رائع ، فالجد لا يزال يروى أخبارهم ، ولا يزال للعلا منهم أمانى موصولة ، وكل أرض تشتاقهم وتلهف عليهم ، كأنهم غيث جذبها الممثل ، وكل مكان ينزلون يصبح روضاً مشرقاً ، وكلما ساروا عن مكان بكاهم الناس بدمع هتون ، بكوا شائهم وكرمهم الذي يتبعهم أينما حلوا وساروا . وتصويره في البيتين الأخيرين لهم في رحيلهم بالفلك الدوار والبدر السيار تصوير دقيق يارع . ومن شعره في الحدائث قوله يصف روضة :

وروضةٍ مارأى الراون مُشبهها      كأنما سرقت سراً من الزمن  
غيمٌ وظلٌّ وروضٌ موقنٌ وهوى      يجرى من الروح مَجْرَى الروح في البدن  
عنتٌ بها الطيرُ ألحاناً وساعدها      رقصُ الغصون على إيقاعها الحسن  
لقد سكرتُ وما الصهباءُ دائرةٌ      فيها ولا نغفات العود في أذني

وتصوير فنته بالروضة تصوير جيد ، فقد تصور كأنها سرقت من الزمن سرا دون أن يدري لما يرى فيها من اجتماع جمال الطبيعة وجمال صاحبته التي تأسر له ، ويتخيل الروض كله من حوله يتغنى ويرقص ، تتغنى فيه الطير وترقص الأغصان على ألحانها متعانقة مرة ومنفرجة مرة ، وهو مسلوب الحسن فنته وجمالاً ، حتى لكأنما هو في مشهد غناء ورقص حقيقي . وكل شيء من حوله يأخذ بعقله . ويترجم العماد لابن مكرمان ، وهو شاعر زيدي ، سنعرض له في حديثنا عن الدعوة الزيدية وشعرائها ، كما يترجم لشاعر خارجي من شعراء علي بن مهدي هو ابن الهيثبي ، وسلم به في حديثنا عن شعراء الخوارج ، ويترجم أيضاً لنشوان بن سعيد وشعره يكتظ بفخر عنيف بأصوله اليمينية ، وستحدث عنه بين شعراء الفخر والهجاء . ووراء من سميناهم من شعراء اليمن في الخريدة كثيرون لم نعرض لهم ، لأن شعرهم متوسط

(١) راجع في ترجمة محمد بن أبي عقامة الخريدة والنجم الزاهرة ٥ / ٣٣٠ .

(قسم الشام) ٣ / ٢٤٠ . وطبقات فقهاء اليمن ص ٢٤٠

أو دون المتوسط . ولعل القارئ لاحظ أننا اكتفينا بالحزبة عن عرض المختصر في أخبار زيد لعارة اليمنى الذى أشرنا إليه آنفاً ، لأن الحزبة تستغرقه .

ونترك العماد ومصدره العام أو خريدته عن اليمن والحجاز وشعرائها حتى منتصف القرن السادس الهجرى ، وبعد ذلك فالحجاز أهم مصدر له من منتصف هذا القرن حتى الربع الأول من القرن الثامن الهجرى كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين للفاسى وبه شعراء ممن جاؤوا بمكة كثيرون ، وبه مكِّيون ، ولدوا في مكة ونشئوا بها واستيقظت مواهبهم الشعرية فيها ، وأكثر أشعارهم مدائح زيدية في حكام مكة وأمرائها الزيديين . وتكثر المدائح النبوية في هذا الكتاب سواء لشعراء مكة أو لمن نزلوها وأنفقوا بقية حياتهم فيها أو في المدينة ، ولهم غزل رقيق نحس فيه نفحات الوجد الصوفى . ويلى هذا المصدر في الأهمية من الترجمة لشعراء الحجاز كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وقد ترجم في مكة لأكثر من ثلاثين شاعرا من شعراء القرنين العاشر والحادى عشر الهجرين ، وأكثر أشعارهم مدائح لأمرء مكة ، وكثير منها معارضة لقصائد الشعراء السالفين التايين ويلاحظ ذلك ابن معصوم في غير موضع من كتابه ، كما يلاحظ كثرة تصنعهم لألوان البديع وللتعبير عن التواريخ . وتكثر في أشعارهم المدائح النبوية ( والمناجيات ) الإلهية . ومثلهم شعراء المدينة الذين ترجم لهم ابن معصوم ، وهم أربعة عشر شاعراً وتجد عندهم الألوان الشعرية المتأخرة مثل الدوييت . ويلقانا بعض شعراء الحجاز في كتاب ريحانة الألبا للحفاجى المتوفى سنة ١٠٦٩ وبه قسم عن مكة والمدينة ، وألف ذبلا له المحبى سماه نفحة الريحانة ، وبه قسم عن نبغاء الحجاز وألف المحبى أيضاً كتاب خلاصة الأثر في أعيان القرن الحادى عشر وبه تراجم لبعض شعراء مكة والمدينة ومثله كتاب سلك الدرر في أعيان القرن الثانى عشر للمرادى وكتاب تاريخ الجبرى ، ففيها بعض تراجم لمكبيين ومدنيين .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن بعد من ترجم لهم العماد في خريدته وجدنا توران شاه الأيوبى يفتتحها سنة ٥٦٩ ونزيل منها الدولات التى تحدثنا عنها آنفاً ، ويتحول شعراء اليمن إلى مديحه وفي مقدمتهم أبو بكر العيدى شاعر دلة الرُّبَّيعيين . ويتولاها بعده أمرء من أسرته ، لعل أهمهم الأمير المسعود بن الملك الكامل صاحب مصر ، وقد دخلها سنة ٦١٢ وكان يصحبه بعض الشعراء والأدباء وفي مقدمتهم أبو الغنائم الشيزرى ، ولحزائنه وباسمه ألف في اليمن كتابه « جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام » وقد قسمه إلى أكثر من عشرة كتب ، وختم كل كتاب ببعض أشعاره في مديح المسعود . وكان قد حج الأمير المسعود في سنة ٦٢٥ وأتاب عنه عمر بن على بن رسول ، وتوفى بمكة ، فانتهاز الفرصة عمر واستقل باليمن وأسس فيها دولة بني رسول التى ظل

لواؤها مرفوعاً على اليمن من سنة ٦٢٦ إلى سنة ٨٥٨ وقد أرخ على بن الحسن الخزرجي تاريخاً بديعاً لهذه الدولة من منشئها إلى سنة ٨٠٣ وهي السنة التي توفي فيها السلطان الأشرف ، وتاريخه في مجلدين ، وهو كما قلنا في غير هذا الموضع تاريخ حضاري وسياسي وأدبي ، إذ عُنِيَ بوصف احتفالات الرسولين وأحداثهم ووقائعهم الحربية وما نُظِم فيها من أشعار ، ويذكر مع كل سلطان شعراءه وتهنئتهم له بالجلوس على أريكة الحكم وبالأعياد الإسلامية وبانتصاراته على أعدائه ، فعمربن علي بن رسول الذي تلقب بالملك المنصور معه شاعره محمد بن حمير الذي لم يكن يترك مناسبة إلا ويقدم له فيها مدائح ، ومع ابنه المظفر شعراؤه : ابن حمير وابن هُتَيْمَل وأضرابها ، وبالمثل من خلفها من السلاطين . وبلغنا بعد الخزرجي وكتابه العقود اللؤلؤية في تاريخ الدولة الرسولية ابن الدَّبِيع وكتابه قرة العيون ، وفيه حديث مفصل عن دولة آل طاهر وشعرائهم ، وقد ظلت من سنة ٨٥٨ إلى سنة ٩٢٢ وكان زوالها على يد الجراكسة جنود قانصوه الغوري ، على نحو ما مرّ بنا في الفصل الأول ، فقد نازلوا آخر سلاطينها عامراً وقتلوه وقتلوا أخاه ، وفي رثائهما يقول عبد الرحمن الدَّبِيع :

أخلاقى ضاع الدين من بعد عامر وبعد أخيه أعدل الناس بالناس  
وينزلها العثمانيون سنة ٩٤٥ ويظنون بها نحو قرن . وتحول اليمن إلى الرّسّيين أصحاب  
صَعْدَة ، وينزلها العثمانيون ثانية سنة ١٢٦٥ هـ / ١٨٤٩ م ويظنون بها حتى سنة ١٣٣٦ هـ /  
١٩١٧ م . وكل المصادر العامة التي ذكرناها للشعراء في الحجاز تفرد فصولاً طويلة لشعراء  
اليمن ، ومرّ بنا ذكر كتاب « نسمة السحر فيمن تشيع وشعر » وهو كتاب نفيس غير أنه لم  
يطبع . ومن الكتب التي تحمل معلومات قيمة عن الشعر والشعراء في اليمن كتاب سلاقة  
العصر لابن معصوم وكتاب نفحة الريحانة للمحجي وكتاب البدر الطالع للشوكاني وكتاب  
نشر العرف لنبلأ اليمن بعد الألف حتى سنة ١٣٧٥ هـ / ١٩٥٥ م لابن زبارة الصنعاني  
وكتاب المخلاف السلهماني لمحمد بن أحمد العقيلي ، وشعر الغناء الصنعاني لمحمد عبده غانم ،  
غير الدواوين المطبوعة مثل ديوان ابن هُتَيْمَل وديوان البرعي وديوان مدائح إلهية لمحمد بن  
إبراهيم الوزير وديوان الأمير الصنعاني محمد بن إسماعيل .

ولحضر موت شاط شعرى غزير . وقد استطاع السيد عبد الله السقاف أن يؤلف  
كتاباً من ثلاثة أجزاء في تاريخ الشعراء الحضرميين ، وهو يشتمل من شعراء هذا العصر  
الذي تؤرخ له على نحو مائة وعشرين شاعراً ، ويقول في مقدمته : « لا أكتف أن شعراء  
حضر موت لسوا في رتبة المجيدين من الشعراء ولا المفلقين . . . ولما كانت حضر موت تسودها  
الروح الصوفية والترعة الفقهية فإنك ترى على شعرهم طلاء صوفيا ومسحة فقهية ، ومع هذا

الطلاء وتلك المسحة فإنهم لا يخرجون عن كونهم شعراء ، وإن لم يكونوا من المجيدين غالباً . ولعل السيد السقاف بالغ في حكمه حين جعله عاماً ، ومما لا ريب فيه أن بين من ترجم لهم شعراء نابهن يمكن أن يُعدّوا في رتبة المجيدين ، مثل أبي بكر العيدروس وعبد الرحمن بن مصطفي العيدروس المتصوفين ، ومثل عبد الصمد بن عبد الله باكثير وهو يعد من الشعراء الممتازين في الجزيرة العربية لهذا العصر بعامة وستترجم له بين شعراء المديح . ولم يترجم السيد عبد الله السقاف لأحد من شعراء المذهب الإباضي الخارجي في حضرموت ، ومن أهمهم أبو اسحق الهمداني وستترجم له في الحديث عن شعراء الإباضية .

ولم يكن للشعري عمان هذا النشاط جميعه الذي رأيناه في حضرموت ، ولكن لا ريب في أن الشعراء كانوا كثيرين في هذا الإقليم كثرتهم في الأقاليم الأخرى ، ومن يلقانا منهم في النصف الأول من القرن الخامس الهجري أبو علي أبرزون الجوسمي الملقب بالكافي العماني ، وقد ترجم له الباخريزي في دمية القصر (١) ، وأنشد طائفة جيدة من شعره ، ويذكر من ترجمته عن الفارسية قوله :

وصَحْرَاءُ رَدَّتْهَا الطَّيَّاءُ حَفَائِرًا      بِأُظْلَافِهَا أَحْبَبَ بِهَا مِنْ حَفَائِرِ  
فَهَبَّتْ رِيَّاحٌ لِلصَّبَا فَمَلَأَهَا      بِمَسْكِ فَعَادَتْ نُزْهَةً لِلنَّوَاطِرِ

وقد عني نور الدين السالمي في كتابه تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان بعرض نماذج من أشعارهم على مر الحقب ، وخاصة الحقب الأخيرة من هذا العصر . وكان للخوارج في نزوى شعراؤهم وأيضاً للدول السنية حين كانت قائمة في عمان ومسقط شعراؤهم ، فقد شجع بنو مكرم وبنو نبهان الذين خلفوهم الشعراء ، واشتهر للأخيرين شاعر عني بمدحهم هو أحمد بن سعيد الخروصي الستالي وستترجم له بين شعراء المديح واشتهر من الأسرة نفسها بأخوة من زمنها شاعر هو سليمان النهاني ، وستترجم له بين شعراء الفخر ، ومن شعراء الخوارج الحبسي شاعر الأمير سيف بن سلطان الإباضي (١١٠٤ - ١١٢٣) ومن الشعراء بين الأئمة الإباضية المتأخرين بلعرب بن سلطان الذي خلف الإمام السابق ، ومن شعره (٢) :

ولما بلوتُ النَّامِرَ لم أرَ صاحباً      أخا ثقةً في النَّائِبَاتِ العِظَامِ

وتحولت مقاليد الحكم إلى أسرة البوسعيدين إذ خلصوها من أيدي العاربة سنة ١١٥٤ هـ وظلوا في دست الحكم إلى اليوم ، ومن أهم أئمتهم سعيد بن سلطان ، وكان شاعراً مجيداً ، وله يتغزل (٣) :

(١) دمية القصر ٩٨/١ .

إطفيش الجزائري ٩٣/٢ .

(٢) تحفة الأعيان (طبع مطبعة الشباب) بعناية إبراهيم (٣) الصفحة ١٦٦/٢ .

يا من هواه أعزّه وأذنتي  
وتركتني حيراناً صبياً هائماً  
عاهدتني أن لا تميل عن الهوى  
جاء الزمان وأنت ما واصلتني  
واصلتني حتى ملكت حشاشتي  
ولا ملكت قياد سريّ بالهوى  
كيف السبيلُ إلى وصالك ذلّي  
أزعى النجوم وأنت في نوم هني  
وحلفت لي يا عُصْنُ أن لا تنسى  
يا باخلاً بالوصل أنت قتلتي  
ورجعت من بعد الوصال هجرتي  
وعلمت أني عاشق لك حُتّي

والأبيات جيدة والألفاظ فيها تتعاقب في خفة والمقابلات بارعة ، والصور دقيقة ، وقد أكمل صورة العُصْنِ بانثائه كناية عن جفاء صاحبه وإقبالها على غيره . وهو يأسي لنفسه أنها هجرته بعد وصالها وبعد أن ملكت عليه شغاف قلبه ، وإنه ليتعثّر في شباك حبّها ، بينما انصرفت عنه إلى غير مآب ، وعلى هذا النحو كان الشعر ناشطاً في عهد البوسعيديين ويلقانا من شعرائهم بأخرة من العصر أبو الصوفي سعيد بن مسلم .

وكانت البحرين تكتظ بالشعر والشعراء طوال حقب هذا العصر ، ومن أوائل من تلقاهم بها الحسين بن أحمد الملقب بالأعصم الذي ولي أمر القرامطة سنة ٣٥٩ ومربنا حديث عنه وكيف أنه حارب الفاطميين تحت ألوية الخلافة العباسية ، وكان شاعراً مجيداً ، ومن شعره قوله :

إني امرؤ ليس من شأنى ولا أدبى      طَبْلُ بَرْنُ ولا نائى ولا عودُ  
ولا اعتكافُ على خَيْرٍ ومَحْمَرَةٍ      وذات دَلْ لها بالدَلِّ تأويدُ<sup>(١)</sup>

وتوفى بالرملة في فلسطين سنة ٣٦٦ وكان يتخذ أبا نصر<sup>(٢)</sup> بن أبي الفتح كشاجم كاتباً بين يديه ، وكان شاعراً محسناً ، وأنشد له الثعالبي في البيعة طائفة من أشعاره في الأظعمة وألوانها المختلفة لعصره ، ومن قوله في وصف كتاب :

وصاحب مؤنيس إذا حَضَرَ      جالسنى بالملوك والكُبرا  
جسمٌ مَوَاتٌ تحياً النفوسُ به      يَجِلُّ معنى وإن دَنَا خطراً  
أظلل منه في مجلسٍ حَفِلٍ      بالناس طَرّاً ولا أرى بشراً

وسرعان ما انتهى عصر القرامطة وخلفهم بنو الأصفهر ، ولا يظنون طويلاً ، ويعقبهم بنو العيونى منذ سنة ٤٦٦ ويعملون على النهوض بالبحرين علمياً وأديباً ، وتكون ثمرة ذلك ظهور شاعر نابه من الأسرة هو على بن مقرب العيونى ، وسترجم له بين شعراء المديح . ويخلف

(١) تأويد : انتطاف . وانظر في الأعصم وشعره ابن

(٢) انظر ترجمته في البيعة ٢٨٥/١ . الأثير (تحقيق إحسان عباس) ٦١٤/٨ وما بعدها .

العيونيين - كما مرّ بنا - بنو عصفور وبنو جبر العقيليون ، وتظل النهضة الشعرية مستمرة ويستولى البرتغاليون بأخرة على البلاد في سنة ٩٢٧ ويخرجهم منها العثمانيون في سنة ٩٤٣ ويلقانا للبحرين غير شاعر في كتب التراجم الأدبية التي ذكرناها في حديثنا عن شعراء الحجاز ، وخاصة في «سلافة العصر» و«نفحة الرحمانية» . ويسترجع بنو خالد البحرين من العثمانيين سنة ١٠٨١ ويظنون يحكمون الأحساء حتى يستولى عليها السعوديون في أوائل القرن الرابع عشر الهجري ، ومن الكتب التي تصور نشاط الشعر بعد خروج العثمانيين من البحرين كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر لعبد الفتاح الحلوي ، وقد أشهد شعراً كثيراً من منظومات لهم نحوية وفقهية . ومن الشعراء في أواخر العصر على نقي الأحسائي وهو شعبي إمامي وله ديوان مطبوع ومؤلفات مختلفة في العقيدة الإمامية .

### ٣

#### شعراء المديح

يكثر شعراء المديح كثرة مفرطة في جميع أقاليم الجزيرة . وقد عرض البازرزي في دمية القصر طائفة من مدائح شعراء نجد في الوزير نظام الملك السلجوقي ، وكثرتهم إنما رحلوا إلى العراق وإيران طلباً للنوال ، وخاصة من هذا الوزير الذي غمر الشعراء بجوارته وعطاياه ، وللهذّاب بن دَهَمّ الشيباني من قصيدة في مديحه<sup>(١)</sup> :

ماخلق الله تعالى وجلّ مثل وزير الوزراء الأجلّ  
أروع كالتّصل ولكنّه أمضى من التّصل إذا ما يسّلّ

وقد بعث بنو عقيل في الموصل وبواديها حركة أدبية طلت مزدهرة طوال حكمهم ، مما جعل شعراء إقليمهم يدجون القصائد في مديحهم ، وقصدتهم الشعراء من العراق والشام ، وفي مقدمتهم أبو علي بن السبيل البغدادي مادح قرواش والمشيد بنصره على الغزّ بمثل قوله<sup>(٢)</sup> :

ترهت أرك عن قبور جُومهم فعدت قبورهم بطون الأُسُر  
ومن شعراء قرواش الطاهر<sup>(٣)</sup> الجزري . وكان مسلم بن قريش - ابن أخيه - ينثر الأموال نثراً على الشعراء فجاءوه من كل فجّ وفي مقدمتهم ابن حَيّوس شاعر الشام ، وبلغ من إعجابه بمدائحهم فيه أن أقطعهم - فيما قيل - الموصل على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضع ، وله يقول من قصيدة طويلة<sup>(٤)</sup> :

(١) دمية القصر ١/٦٠ .

(٢) انظره في دمية القصر ١/١٢٦ .

(٣) ابن خلكان ٥/٢٦٣ - ٢٦٤ .

(٤) خريدة القصر للهاد (قسم الشام) ٢/٢٥٧ .

ولقد جمعتَ فضائلاً ما استجمعتَ بَقِيَّ الزمانُ وذكَّرها لم يَهْرَمَ  
 كرمًا يُبيحُ حِمِيَّ الغِنَى وما تِرا وَضَحاً تُبيحُ بلاغَةً للمُفحِّمِ  
 ولم يكن بنو مزيد الأسديون في الحلة وبواديها أقل اهتماماً بالأدب والأدباء من بني عقيل في  
 الموصل وبواديه ، وكانوا قريين من بغداد ، فكثرت إلام الشعراء بديارهم لأخذ جوائزهم ، غير  
 من كانوا يتشئون بينهم وفي مقدمتهم علي<sup>(١)</sup> بن أفلح العنسي الشاعر ، ويقال إنه  
 كتب بين يدي دُبَيْس بن مَزِيد في شببته . وكان ابنه منصور ممدحاً ، ومن مدأحه  
 البندنجي<sup>(٢)</sup> الشاعر البغدادي ، ومحمد<sup>(٣)</sup> بن خليفة أبو عبد الله السنسي ، وكان  
 ابنه سيف الدولة صدقة مفزعة للشعراء ، وكان السنسي شاعره الأثير وله فيه مدائح مختلفة ،  
 ومن مدأحه أيضاً المطاميري<sup>(٤)</sup> وأبو طاهر<sup>(٥)</sup> البغدادي وابن أبي الجير<sup>(٦)</sup> . ومن زار الحلة عاصمة  
 المزيديين ومدح أمراءها الأبيوردى الشاعر الإيراني المشهور . ويغمر نجداء وراء دولتي المزيديين  
 والعقيليين الظل ، فلانكاد نبتين شيئاً من أخبار شعرائها ، حتى تلقانا دعوة محمد بن  
 عبد الوهاب وأصدائها في الشعر والشعراء .

ومن يرجع إلى كتاب العقد الثمين يجد مدائح كثيرة طوال هذا العصر موجهة إلى أمراء مكة  
 والمدينة وبالمثل تلقاه هذه المدائح في سلافة العصر لابن معصوم و«نفحة الرحمان» وفي  
 كتب التراجم المتأخرة ، وكانت الإمارة في مكة زيدية شيعية وفي المدينة إسماعيلية علي  
 الأقل في الحقب الأولى وسفرد لشعراء هاتين النحلتي في الجزيرة دراسة خاصة في الفصل  
 التالي :

أما اليمن فقد نشط فيها الشعر طوال هذا العصر . وكان لتنافس الإمارات والدويلات  
 الكثيرة في أوائله أثر بعيد في ذلك ، فإن كل إمارة عملت على أن تجمع حولها الشعراء ليكونوا  
 دعاة لها ، وفي سبيل هذه الغاية كانت تجزل لهم في العطاء ، وتلقانا في إمارة الزيديين في  
 صعدة ، وستحدث عن شعرائها في الفصل التالي . وبالمثل إمارة الصليحيين الإسماعيلية  
 كان لها شعراء كثيرون سنعرض لهم في الفصل التالي أيضاً . وقل ذلك نفسه في إمارة بني  
 مهدي الخوارج فستحدث عنهم مع الإباضية وشعرائهم . وربما كانت أهم إمارة عُتبت  
 بالشعر في القرن الخامس إمارة آل نجاح في زبيد ، وكان جيش ( ٤٨٢ - ٤٩٨ هـ ) أهم  
 أمراء هذه الدولة وأكثرهم عناية بالشعراء حتى لقد صنف فيهم كتابه «المفيد» الذي مررنا

(١) انظر في الخريدة القسم العراقي ٥٢/٢ .

(٢) الخريدة ، الجزء الرابع ، المجلد الأول ص ١٣٣ .

(٣) نفس المصدر ص ٢٠٩ .

(٤) الخريدة ، القسم العراقي ١٩٥/٢ .

(٥) نفس المصدر ص ٢٢٠ .

(٦) نفس المصدر ٥٢٥/٢/٤ .

ذكره ، ويذكر عبارة في المختصر الذي صنعه لهذا الكتاب أنه كان لجياش ديوان ضخم  
وعدة مجلدات تجمع نثراً ونظماً ، ومن أهم شعرائه زكري بن شكيل المارّ ذكره ، وفيه  
يقول من مدحة طويلة<sup>(١)</sup> :

المُشْتَرَى حَلَّ النَّاءِ بِمَا حَوَتْ كَفَّاهُ وَالْحَامِي لَهَا أَنْ تُشْتَرَى  
والموقدُ النَّارِينَ : نَاراً لِلْوَعَى لَا تَنْطَفِي أَبَداً وَنَاراً لِلْقِرَا

وكان بنوزريع في عدن مورداً عذباً للشعراء ، وكانوا إسماعيلية ، وكان كل من تولى منهم يسمى  
نفسه الداعي أى للمذهب الفاطمي ، ولذلك ستؤخر شعراءهم إلى حديثنا عن شعراء  
المذهب الإسماعيلي في اليمن . وقد تحول كثير من شعراء اليمن إلى مديح الأيوبيين منذ استولى  
توران شاه الأيوبي سنة ٥٦٩ على اليمن إلى أن تحلوا عنها وملكها قائدهم نور الدين عمر بن  
علي بن رسول وأسس فيها الدولة الرسولية ، ومن طريف ما تقرأ لهؤلاء الشعراء قصيدة لأبي  
بكر العيدي يمدح بها توران شاه حين فتح اليمن وفيها يقول<sup>(٢)</sup> .

أَعَاكِرًا سَيَّرْتَهَا وَجُنُودًا أَمْ أَنْجُمًا أَطْلَعْتَهُنَّ سَعُودًا  
أَمْ تَلِكْ مَاضِيَةُ الْعَزَائِمِ أُزْهِفَتْ بِالرَّأْيِ مِنْكَ وَجُرِّدَتْ تَجْرِيدًا  
أَمْ تَلِكْ أَقْدَارُ الْإِلَهِ وَنَصْرَهُ رَفَعْتَ عَلَيْكَ لَوَاءَهَا الْعُقُودَا

ومن أهم الحكام الأيوبيين هناك الملك المسعود ، وهو آخر من حكمها منهم ، وكان يصحبه  
أمين الدولة أبو الغنائم الشيرزي وصنف له كتابه «جمهرة الإسلام ذات النثر والنظام» كما مرّ ،  
وهو مستحبات شعرية ونثرية ، وكان شاعراً . ويؤسس نور الدين عمر بن علي بن رسول منذ سنة  
٦٢٦ دولة أسرته الرسولية ، وبعث هو وأسرته في اليمن نهضة شعرية ، بجانب ما بعثوا من  
النهضة العلمية على نحو ما مرّنا في غير هذا الموضع . ويكثر مادحوه من الشعراء في الأعياد وفي  
المناسبات المختلفة حين يتصرّف في بعض المعارك ، وحين يفضى إلى بعض مجالس أنسه وشرابه ،  
ولأبي الغنائم الشيرزي فيه مديح<sup>(٣)</sup> يدل على أنه عاش إلى ما بعد سنة ٦٢٣ وكان شاعره الأثير  
عنده محمد<sup>(٤)</sup> بن حمير ، وكان لا يترك مناسبة دون أن ينشد فيها بين يديه بعض مدائح من  
مثل قوله<sup>(٥)</sup> :

قَد قِيلَ جَاوِزٌ - لَتَغَيَّيَ - الْبَحْرَ أَوْ مَلِكَا  
مَا حَاظَ مَا حُرِّتَ لَا عَرَبٌ وَلَا عَجَمٌ  
أَنْتَ الْمَلِيكُ وَأَنْتَ الْبَحْرُ يَا عَمْرُ  
مَا شَادَ مَا شِدَّتَ لِاجِنُّ وَلَا بَشَرٌ

(٤) الخرجي ١١٠/١ وفي مواضع متفرقة .

(٥) الخرجي ٨٧/١ .

(١) الحريدة قسم الشام ٢١٩/٣ .

(٢) تاريخ نثر عدن لابن خزيمة ٣٧/٢ .

(٣) العقود اللؤلؤية ٣٦/١ .

إذا الجدودُ بهم أبناؤهم شرفوا أوفاخروا فبك الأجداد تفتخر  
عزوا بعزك أولاهم وآخروهم كما بأحمد عزت كلها مضر  
ويقول الخزرجي : كان ابن حمير أوحده شعراء عصره وقد توفي سنة ٦٥١ وبذلك لحق  
عصر المظفر الرسولي (٦٤٧-٦٩٤ هـ). وشاعره غير مدافع القاسم بن هيثم ، ومنخصه  
بكلمة ، وتكثر تهنئات الشعراء له منذ استيلائه على صولجان الحكم بعد أبيه ، وكان كلما أهل  
عليه عيد أو انتصر في موقعة حربية أكثروا من مديحه وتهنئاته ، ومن المحقق أن كثيرين منهم  
كانوا يرددون معاني الشعراء العباسيين النابيين من أمثال أبي تمام والبحتري والمتنبي ، ومن  
الطريف في هذا الصدد أن أحد شعراء المظفر البارزين - وهو ابن دعام - كان معاصروه من  
أهل زيد يرمونه بسرقة الشعر ، ويقولون - متدرين عليه - إذا حوسب الشعراء يوم القيامة يؤتى  
بابن دعاس للحساب ، فيعترف بسرقاته من سابقه ، ويقول هذا البيت لفلان وهذا الصدر  
لفلان وهذا العجز لفلان ، وبذلك يخرج بريئاً . ويذكر له الخزرجي مدحة في المظفر يصفها  
بأنها بأهرة ، ومع ذلك يلاحظ هو نفسه أنه افتتحها بقوله :

ليس في قدرة ولا إمكان نيل ما نلت يامليك الزمان  
ويقول إنه لابن الحجاج البغدادي (١) ، ويعرض الخزرجي في أثناء حديثه عن السلطان المؤيد  
(٦٩٦-٧٢١ هـ) أسماء جماعة من شعرائه ومدائحهم فيه ، وفي مقدمتهم العنسي والغيث  
عبد الله بن جعفر من مثل قول الأخير (٢) :

ساد الملوك فلا تكون مثاله أبد الزمان ولا يكون مثالها  
وحوى الخلافة لم تكن إلا له طول الزمان ولم يكن إلا لها  
ومن الرسولين المدحجين الأشرف إسماعيل (٧٧٨-٨٠٣ هـ) . ومن مدائح الخزرجي  
صاحب العقود اللؤلؤية ، وله فيه مدحتان أولاهما في بيان (٣) ازدهار الدراسات الدينية التي  
أقامها السلطان الأشرف في الجامع المبارك الأشرفي ، وقد مضى الخزرجي يسمي  
القائمين على هذه الدراسات وغيرها من القراء والمحدثين والفقهاء والنحاة وأصحاب الحساب  
والجبر ، والثانية (٤) في وصف الاحتفال بختان أبناء الأشرف وتهنئته والإشادة بملكه وفتوحاته  
وأبجاده . ونصى إلى عصريني طاهر غير أنهم لا يُعنون بالشعر والشعراء على نحو ما كان يعني  
الرسوليون ، ويانتهاء دولتهم ، يُطل اليمن حكم الزيديين أصحاب صعدة ، ومنخصهم بحديث  
مستقل .

(٣) الخزرجي ٢٠٢/٢ .

(٤) الخزرجي ٢٣٦/٢ .

(١) الخزرجي ٢٨٣/١ .

(٢) الخزرجي ٣٣٤/١ .

وتكثر في حضرموت مدائح العلماء والصوفية وهذا طبيعي لأن كثرة الشعراء من الزهاد والفقهاء ، ويمتلى كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بهذه المدائح كقول أحمد السقاف العلوي في شيخه محمد بن عبدالرحمن الأسقع<sup>(١)</sup> :

فقيهٌ شريفٌ حاز فضلاً ورفعةً له نسبةٌ تَعْلُو على كل نسبةٍ

وأكبر الشعراء المدّاحين في حضرموت عبد الصمد بن عبد الله باكثير، وسنخصه بكلمة . ويكثر شعراء المديح أيضاً في عمان ودائماً يتجه الشعراء بأشعارهم إلى مديح الأمراء النبهانيين ، وسنقف قليلاً عند شاعرهم السّالي . وبالمثل كان الشعراء في البحرين لا يزالون يمدحون أمراءها من العيونيين وغيرهم وفي مقدمتهم شاعر البحرين غير مدافع علي بن مقرب العيوني :

وواضح مما سبق أننا سنقف قليلاً عند أربعة من شعراء المديح في اليمن وحضرموت وعمان والبحرين بصورون لنا ازدهار هذا الفن في بلدانهم في حقب مختلفة ، وهم القاسم بن هُتَيْمِلَ اليمني وأحمد بن سعيد الخروصي السّالي العُماني وعلي بن مقرب العيوني البَحْراني وعبد الصمد بن عبد الله باكثير الحضرمي .

### القاسم بن هُتَيْمِلَ<sup>(٢)</sup>

هو القاسم بن علي بن هُتَيْمِلَ أكبر شعراء اليمن في القرن السابع الهجري ، وهو من نَجْران بوادي ضِمْد في المخلاف السلياني وهي غير نجران المشهورة وبها نشأ . وقد تيقظت موهبته الشعرية مبكرة ، وله ديوان شعر كبير يدل على أنه وجّه شعره منذ شبابه إلى مديح أمراء المخلاف السلياني وكانوا يتبعون الدولة الرّسولية ، كما وجهه إلى الرسولين وأمراءهم وولاتهم وإلى الأمراء الزيديين في جهة صنّعاء وصَعْدَة . ولا تُعرّف سنة ميلاده ، والمظنون أنه ولد في العقد الثاني أو أوائل العقد الثالث من القرن السابع ، وإن كان هناك من يظن أنه ولد في أوائل هذا القرن ، غير أننا لا نجد له شعراً في السلطان عمر بن علي بن رسول نور الدين المتوفى سنة ٦٤٧ بينا يُعد بحق شاعر ابنه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤ هـ) وحفيده السلطان الأشرف (٦٩٤ - ٦٩٦ هـ) . ويبدو أنه توفي لزمته إذ لا نجد له مدبجاً في أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢١ هـ) الذي استولى على صولجان الحكم بعده . وكان يتخذ شعره

(١) للخزرجي في مواضع متفرقة (راجع القهوس) واندبوان مطبوع بدار الكتاب العربي بالقاهرة سنة ١٩٦١ .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١ / ٤٤ .  
(٢) راجع في ترجمة ابن هُتَيْمِلَ مقدمة تحقيق ديوانه محمد بن أحمد عيسى العقيلي . وانظر العقود اللؤلؤة

متجراً ، فهو يمدح به المظفر وأسرته وعمله ، كما يمدح أمراء الخلفاء السليمانى وأعيانه ، والأئمة الزيديين وفي مقدمتهم الإمام أحمد بن الحسين ، وأمراء ظفار ، وأمراء قبائل حل بن يعقوب ، ويروى أنه قال في أميرهم أحمد بن علي الحرامى الكنانى من مدحة طويلة :

إن الملك بنو يعقوبَ قاطبةً قطعاً وكلُّ ملوكٍ بعدهم سوقُ  
والسوق جمع سوقة وهى الرعية وبلغت المدحة سَمَعَ المظفر الرسول ، فاستشاط غضباً حين سمع  
هذا البيت وطلب ابن هتميل ليطير به طيرة بطيئاً سقوطها حتى إذا مثل بين يديه وأشدّه  
البيت حِقْناً ، نَحْضُصُ تَحْلُصُ لطيفاً ، فائلاً : أطال الله عمر السلطان ! إنما قلت :  
« وكل ملوك غيرهم سبق » فاستحسن تخلصه <sup>(١)</sup> ، وله فيه كثير من المدايح البديعة من  
مثل قوله

أعزُّ رسوليُّ يَزُرُّ قَيْصُهُ      على القمر التَّمَّ الخِصَمَّ العَضَفَرُ  
أعمَّ سماحاً من سماحةِ حاتمٍ      وأعظم بأساً من بسالةِ عترةِ  
وقوله <sup>(٢)</sup> :

هَدَى كَهْدَى رَسُولِ اللَّهِ مَتَّبِعُ      ما سار آلُ رسولِ الله في السَّيرِ  
وعزْمَةٌ كُلُّ حَدٍّ مِنْ صِرَامَتِهَا      أمضى من الموت أو أمضى من القَدْرِ  
لو أن هَيْبَتَهُ أَوْ بَعْضَ هَيْبَتِهِ      تَلَقَّى عَلَى الْفَلَكَ الدَّوَّارِ لَمْ يَدُرْ

ونسجته اللفظى متين قوى ، وكلماته تروق السمع بحرسها وبحسن انتقائها ، إذ كان  
يعرف كيف يصطفى لفظه وكيف يلائم بين كلماته ملاءمات تلذ الأذن حين تصيخ إليها وتلذ  
اللسان حين ينطق بها وهو بحق صانع ماهر . ومدوحه الثانى بعد المظفر فى ديوانه الإمام  
الزيدى أحمد بن الحسين ، وفيه يقول فى إحدى مدائمه <sup>(٣)</sup>

حفظ الله أحمداً حينما كان      نَ وَجَادَتُهُ دِيمَةُ مِذْرَارُ  
الشَّريْفُ الشَّريْفُ وَالجَوهرُ الجَوهرُ      هَرُ وَالخَالِصُ التَّضَارُ التَّضَارُ  
سَيِّدُ أُمَّه الْبَتُولُ وَجَدًّا      هُ الْمُشَى وَأحمدُ المِخْتَارُ

والبتول : السيدة فاطمة الزهراء ، والمثنى : الحسن بن الحسن بن علي جد المدوح  
وأحمد المختار الرسول ﷺ . وواضح ما فى لفظ ابن هتميل من سهولة وعذوبة ، وهو  
عادة يقدم لمدايحه بغزليات تسيل رقة وخفة . كقوله فى مقدمة هذه القصيدة :

(١) انظر فى هذا الخبر مقدمة الديوان .

(٢) الديوان ص ١٥٥ وشعر لعنه الضماني للدكتور

محمد عده غام من ١٧٩ .

(٣) الخزرجى ١/١٥٩ .

يَاقِصِيًّا مِنْ فِضَّةٍ يُقَطِّفُ النَّرَّ جِسٌّ مِنْ وَجْتِيهِ وَالْجُلُنَّارُ  
 قَرُّ طَوْقِهِ الْهَلَالُ وَمِنْ شَمْسِ الدِّيَاجِي فِي سَاعِدِيهِ سَوَارُ  
 عَجَبًا مِنْكَ تَحْتَ بَرْقَعِكَ النَّارُ وَفِيهِ الْجَنَّاتُ الْأَزْهَارُ  
 وَاللِّيَالِي الطَّوَالُ تَنْحَتُ مِنْ جَسَدِي مَا أَبَقْتَ اللَّيَالِي الْقِصَارُ  
 وَيَبِينُ مَا يَتَضَمَّنُ هَذَا الْغَزَلَ مِنْ رَوْعَةِ التَّصَاوِيرِ ، فَالْقَدْرُ الشَّقِيقُ لِصَاحِبَتِهِ قَضِيبٌ  
 أَوْغَضْنَ مِنْ فِضَّةٍ يَقَطِّفُ مِنْهُ النَّرَّ الْجُلُنَّارُ إِشَارَةٌ إِلَى جَمَالِ عَيْنِيهَا وَخُدُودِهَا ، وَقِلَادَةُ الْفِضَّةِ  
 تَطْوُقُ جِيدَهَا ، بَيْنَمَا نُورُ الشَّمْسِ يَلْتَفُّ حَوْلَ سَاعِدِيهَا سَوَارًا ، وَيَعْجَبُ أَنْ تَتَوَهَّجَ النَّارُ نَارًا  
 وَجْتِيَّتِي تَحْتَ بَرْقَعِيهَا بَيْنَمَا يَجَانِبُهَا الْجَنَّاتُ مِنَ النَّرَّاسِ وَالْجُلُنَّارُ وَالْأَزْهَارُ . وَتَطْوُلُ بِهِ اللَّيَالِي سَهْرًا  
 وَسَهَادًا ، حَتَّى تُلْغِزَنِي ، بَلْ حَتَّى كَأَنَّهَا تَنْحَتُ جِسْمِي ، مَخْلَفَةٌ لِي الْأُمِّ وَالشَّحُوبِ . وَدَائِمًا يَلْقَانَا  
 هَذَا الْغَزَلَ وَالنَّسِيبَ الرَّائِعَ فِي مَقْدَمَاتِهِ لِمُدَاخَمَةِ عَلِيٍّ شَاكِلَةَ قَوْلِهِ فِي اسْتِهْلَالِ مَدْحَةٍ ثَانِيَةٍ  
 لِأَحْمَدَ بْنَ الْحُسَيْنِ :

إِذَا جِئْتَ الْعِضَا - وَنَكَتَ السَّلَامَةَ فَصَارِحَ بِالْتَّحِيَةِ رِيْمَ رَامَةً (١)  
 وَقَلَّ لِلْوَالِيَةِ هَلْ لِرُوحِي وَمَا أَتْلَفْتِ مِنْ جَسَدِي غَرَامَةَ  
 حَلَلْتِ تِهَامَةَ وَحَلَلْتُ نَجْدًا فَأَيْنَ وَأَيْنَ نَجْدُ مِنْ تِهَامَةَ  
 وَسَارَتِ الْقَصِيدَةُ مَسِيرَةَ أَخْتِهَا السَّابِقَةَ وَعَارَضَهَا كَثِيرًا مِنَ الشُّعْرَاءِ ، وَلَا رَيْبَ فِي أَنَّهُ كَانَ  
 يَعْتَنِي بِهَا كَمَا كَانَ يَعْتَنِي بِأَخْتِهَا الرَّائِيَةِ السَّالِفَةِ . وَمِنْ طَرِيفِ نَسِيهِ :

أَرَاكَ تَرُوحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا أَحْدَثْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا  
 وَلَا صَافَحْتَ أَهْلَ الرَّمْلِ كَفًّا فَكَفًّا فِيهِ أَوْ خَدًّا فَخَدًّا  
 ضَلَّالًا مَا أَتَيْتَ مِنَ التَّجَافِي الْأَبْعَدَا لِمَا أَضْمَرْتَ بَعْدَا  
 وَكَيْفَ سَلَوْتَ عَنْ أَرْضِ بَارِضِي يَفُوحُ تَرَابُهَا مِسْكًَا وَنَدًّا (٢)  
 وَالْأَبْيَاتُ تَسِيلُ رِقَّةً وَعَذُوبَةً ، وَيُرْوَى أَنَّ بَعْضَ الْوُجْهَاءِ فِي الْيَمَنِ جَاءَهُ طَلَبٌ عَاجِلٌ مِنْ  
 أَحَدِ الْأَمْرَاءِ بِأَنْ يَفِدَ عَلَيْهِ لِأَمْرٍ مَعَهُمْ ، وَكَانَتْ زَوْجَتُهُ اخْتَدَتْ زَيْنَتَهَا لَهُ أَوْشِيًّا مِنْ زَيْنَتِهَا ، فَلَمَّا  
 رَأَتْهُ يَهْمُ بِالْخُرُوجِ تَعَرَّضَتْ لَهُ مَشْتَدَّةٌ قَوْلَ ابْنِ هَتَيْمَلٍ .

أَرَاكَ تَرُوحُ مَا وَدَّعْتَ نَجْدًا وَلَا جَدَّدْتَ بِالْعَلَمَيْنِ عَهْدًا  
 فَابْتَسِمَ الزَّوْجُ وَأَجَّلَ زِيَارَةَ الْأَمِيرِ (٣) . وَفِي هَذَا الْخَيْرِ مَا يُشِيرُ بِوَضُوحٍ إِلَى أَنَّ أَهْلَ الْيَمَنِ  
 رِجَالًا وَنِسَاءً كَانُوا يَتَدَاوَلُونَ شُعْرَاءَ الْيَمَنِ هَتَيْمَلٍ فِي حَيَاتِهِ وَبَعْدَ مَمَاتِهِ . وَكَانَ الْمَغْتُونُ يَتَغَنُونَ فِي بَعْضِ

(١) العضا : من شجر نجد وبواديها . الريم : الظباء . (٢) الند : عود ينطبخ به ، طبخ الرائحة .

ورامة : موضع بنجد . (٣) مقدمة الديوان ص ٨ .

أشعاره بل قد يغنون له بعض مدائحه بما يتقدمها من غزل ونسيب وما تدبج من ثناء ومدبج .  
وله مراتٍ لزوجه وبعض أهله تفيض بالأسى واللوعة الممضة كقوليه في أخ وأخت له ماتا في  
أسبوع واحد :

مضت ما ابيضت الضفائرُ منها      ومات وما بدا شعرُ العذارِ  
فأيُّها على الخلوات أبكى      أبدرُ التَّمَّ أم شمسُ النهارِ

وفي الحق أن ابن هتميل كان شاعراً مجيداً سواء في مراثيه أو في غزله ونسيبه أو في مدائحه ،  
وهو في المدائح يسجل أحداث عصره وما كان فيه من وقائع حربية ، وخاصة حروب السلطان  
المظفر ، مما جعل الخزرجي ينشد كثيراً من أشعاره في العقود اللؤلؤية .

#### أحمد بن سعيد الخروصي الستالي<sup>(١)</sup>

عُماني من وادي خروص ، ومن قرية منه تسمى ستال ، وفيها ولد سنة ٥٨٤ وبها نشأ وتلقن  
الشعر واللغة والنحو والبلاغة وفي هذا دليل واضح على ما نقول من أن الثقافة العربية كانت  
منتشرة في كل ركن من أركان الجزيرة ، بل في كل قرية ، ومثلها الثقافة الإسلامية ، فقد كان  
الناشئة يبدعون بحفظ القرآن ، ويقعدون في حلقات بعض الشيوخ لسماع العظات وشيء من  
التفسير للذكر الحكيم وبعض الأحاديث النبوية . ولا شب الستالي عن الطوق غادر قرينته إلى  
عُمان ، وأخذ فيها ينهل من موارد العلم والعلماء في عصره . وحين أنس من نفسه تدبيج المدائح  
قصد بها حكام عمان السنين من بني نيهان ، وسجل شعره كثيراً من أحداث زمنه ، وخاصة  
ما كان بين بني نيهان وبين الفرس من حروب ، فقد كانوا يكثرون من الإغارة على ديارهم ،  
غير أنهم كانوا يعودون دائماً مدحورين على نحو ما يصور ذلك الستالي في مديحه للأمير النبهاني  
كهلان سنة ٦٥٠ وكذلك في مديحه للأمير النبهاني عُمر بن نيهان بن عمر بن محمد بن عمر بن  
نيهان سنة ٦٧٤ وهو وأبوه نيهان وعمه أبو القاسم علي وكذلك عمه محمد تتردد أسماؤهم في  
مدائحه ومراثيه في الديوان ، من ذلك قوله في أبي القاسم علي مادحاً ومهنئاً بالعيد :

أبا القاسم اليمونَ أوتيتَ في الدُّنْيَى      من الفضل ما لم يُوتَ عَجْمٌ ولا عَرَبٌ<sup>(٢)</sup>  
لك الشِّيمُ الغرَّاءُ والمهممُ العُلا      وأنت السَّنَانُ الصَّدْقُ والمُرْهَفُ العَضْبُ<sup>(٣)</sup>  
أبا القاسم اسلِّمْ وابقَ للمجدِ وادعاً      وحلَّ بشانيك الحفاةَ والرُّعبُ

(١) انظره في تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان لنور الدين

(٢) الدُّنْيَى : جمع دنيا .

(٣) المرهف : السيف . العضب : القاطع .

السلي ٣٠٣/١ وراجع مقدمة ديوانه .

وعَيْدٌ سَعِيداً في علاءٍ ورفعةٍ وطولٍ يدٍ مالاحتِ السَّبْعَةُ الشُّهُبُ (١)  
 وواضح أن صوت الشاعر يحمل غير قليل من الجزالة والرصانة ، وفيه استواء وتناسق  
 وما يدل على أن الشاعر كان يُحْكَمُ كلمه ويصوغها صياغة جيدة دون أي نَبْوٍ والتواء ، وله  
 يمدح نهبان بن عمر من قصيدة طويلة :

أنبهانُ إنك من عصيةٍ نأها إلى المجد قَحَطَانُها  
 همُ العين في يَعرَبٍ كُلُّها وأنت من العَيْنِ إنسانُها  
 إذا طَلَبْتَ مَكْرَماتِ العلا بدا في جَبِينِكَ عُنُونُها  
 فَعَشَتْ وَبُغَّتْ من سَيِّدٍ مُنْساكَ وَسِرِّكَ لُقْبَانُها  
 ولازال يغدوك في نعمةٍ شبابُ الحياة ورَبِيعَانُها

والأبيات تصافح الأذان في خفة ، وهي توج بالحركة ، وكأنما أَعَدَّها لكي تَعْتَى وتَمَلَأُ  
 الخوق بجلاوة رنانها ، وانظر إلى تكملة البيت الرابع : « وسرِّك لُقْبَانُها » فإنك تحس القدرة  
 على تكملة البيت بقافية تروعك ، إذ لم تكن تتوقعها ، وكنت تحار كيف يأتي بها .  
 ويبدو أنه كان يكثر من الرحلات إلى العراق ، ففي أشعاره ذكر لبعض بلدانها مثل  
 تكريت وهيت والجزيرة ، وكان يمد رحلاته إلى جزيرة زنجبار شرق تنزانيا ، ونواد يمدح  
 سَبَّحَتْ وغيره من أعيانها ، وفيه يقول :

إذا أنت أبصرت في الدُّسْتِ سَبَّحْتُ ست كالشمس أنكرت خلق العبادِ  
 سما بمعالٍ وفضلٍ كمالٍ وحسنِ فعاليٍّ وصَفْوِ اعتقادِ  
 جرى القتال غداة التَّزَالِ بييض النَّصَالِ وسُمرِ الصَّعَادِ (٢)

ويكثر من تقديمه لمداخه بالنسب ، وهو - كغيره من شعراء الجزيرة العربية يكثر من  
 التغزل بالأعرابيات ووصف جاهن وسحرهن وكيف يشغفن القلوب ، وخاصة حين  
 يرحلن . فتبعهن الأفئدة ، من مثل قوله :

لمن الطعائنُ طَطَّعُ الأَحْدَاحِ وقفتُ لسانٍ وانثنتُ لمعاجِ (٣)  
 رفعوا هودجَ كالسَّقِينِ وكِنَّةٍ محفوفةً بالوشى والدَّبِيَّاجِ (٤)  
 فيهن كلُّ معيدةٍ علقَ الهوى نجلها ودلاها الحِثْلَاجِ (٥)

وهو يبدئ ويعيد في وصف هذا الترحال الذي يقف أسباب المودة والحب ، والذي

(١) السبعة الشهب : الكواكب السبعة السيارة .

(٢) الصعاد : جمع صعدة وهي القنادة .

(٣) الأحداج : هودج . معاج : تعطف .

(٤) الكنة : إشارة الهودج .

(٥) علق : جمع علقه وهي التعلق . الحلاج :

الحجاب .

يملاً قلوبَ العشاق في البوادي فتنة وإغراء وصبابة ، ويذيبها أسى وحسرة ، فتذكر العهود والأطلال والربوع وأكتاف الحمى ، وقد غابت الأثمار وأظلمت الدنيا ، وعم المحبين اليأس وتعمقهم الحزن . وقد يجعل الستالي المقدمة لقاءً بهيجاً على شاكلة قوله :

قَصْرَنَ الحُطَا وهَزَزَنَ العُصُونَا      وَرَقْرَقَنَ تَحْتَ الثَّقَابِ العُيُونَا  
ووشَّيَنَ بالتَّيْرِ بِيضَ التَّرَاقِي      وَعَشَّيَنَ سَوْدَ الفُرُوعِ المَتُونَا  
وَأَقْبَلَنَ يَحْظِرُنَ مَشَى الهَوِيَتِي      وَيُبْدِينَ مِنْ كُلِّ حَسَنِ فَنُونَا  
فَلِمَا عَرَّضَنَ لَنَا سَافِرَاتِ      أَعْدَنَ الهَوَى وَيَعْتَنَ الشُّجُونَا

والآبيات تصور فرحة الستالي باللقاء وبرؤية صاحبه تسير وسط صواحبها ، وقد ترققت عيونهن بالدموع ولكن دموع الابتهاج وإنهن لبيدين زينتهن ، ويحظرون دلالاً ، ويسفرن عن وجوههن ، فتلالاً الدنيا بجمالهن من حول الستالي ، ويعود الحب كما كان فتنة لا يستطيع إفلاتاً منه ولا خلاصاً . وللستالي خمريات ، يجمع فيها بين وصف الرياض والغزل ونعت الخمر والغناء من مثل قوله :

هَاتِ اسقِي الرِّاحَ فِي رَاووقِهَا عَلَلَا      وَعَاطِطِي فِي الحَدِيثِ اللِّهَوَ والغَزَلَا  
أَمَا تَرَى نَفْحَاتِ الصَّيْفِ قَدْ نَشَرَتْ      مِنْ النَّبَاتِ عَلَى وَجْهِ الثَّرَى حُذَلَا  
وَالرُّوِضُ يُخْتَالُ فِي زَهْرِ البِهَاءِ وَقَدْ      غَدَا الثَّرَى بَفَنُونِ الوَشَى مُشْتَمَلَا  
وَشَادِنِ يَتَهَادَى فِي الصَّبَا عِيدَا      مَيْسَ القَضِيبِ تَتْنِي لُتْمَ اعْتَدَلَا<sup>(١)</sup>  
يَسْعَى عَلَيْنَا بِنُورِ فِي زَجَاجَتِهِ      لَوْلَا حَدُوثُ مَزَاجِ المَاءِ لِاشْتِعَلَا  
وَقِيْنَةَ أَنْطَقَتْ صَوْتَ الكِرَانِ وَقَدْ      غَنَّتْ بِسَيْطَا عَلَى الأوتَارِ أَوْرَمَلَا<sup>(٢)</sup>  
وَالشَّرْبُ قَدْ مَزَجُوا صَفْوَا خَلَائِقِهِمْ      كَمَا مَزَجَتْ بِمَاءِ المُرْزَةِ العَسَلَا

ونحس بروح أني نواس تطل علينا من خلال هذه الخمرية التي تصور مجلس أنس في سنان وساقية تتنى جلالاً . تسعى على الشرب بदन الخمر أو دنانها ، وقينة تشد أوتار العود وتعنى عليه ألواناً من الغناء ، وكأنا في مجلس من مجالس أني نواس التي كانت تزخر بالنهو والقصف . وهذا الجانب في ديوان الشاعر يلتقي بجانب آخر من الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة . ويتضح ذلك في مراثيه إذ يتحدث فيها عن الحياة والموت وأن الدنيا ومتاعها إلى فناء ، وله ميمية كلها ثناء على الله وآله ، وقد حتمها بدعوة حارة إلى الانصراف عن الدنيا ومتاعها الزائل .

(١) الصبح . ولسيط والرمل من أوتار الشعر

(٢) الكران : من أدوات الطرب ويسمى به العود

وتكثر في أشعاره الحكم وربما كان يأتسى فيها وفي غزله بالأعرايات البدويات بالمتنبى .  
وربما كان يأتسى به أيضاً في شكواه الكثيرة من الدهر وما يصبُّه عليه وعلى الناس من  
فواجع وكوارث . وفي ديوانه بعض مخمسات طريفة ، وله لامية كلامية كثير يلتزم في نهايتها  
أو قافيتها اللام قبل التاء ، ولكن من الحق أنه لم يكن متصنعاً في أشعاره ولا متكلفاً ،  
وكأن ما وهبه من ملكة شعرية أصيلة حال بينه وبين التكلف والتصنع ودفعه دفعاً إلى أن  
تكون أشعاره سلسلة سائغة .

### علي بن المقرب العيوني<sup>(١)</sup>

شاعر من أسرة العيونيين حكام الأحساء والبحرين من سنة ٤٦٦ إلى سنة ٦٣٣ وقد  
ولد سنة ٥٧٢ وعاش نحو ستين عاماً إذ توفي سنة ٦٣١ وديوانه يصور ثقافة لغوية وأدبية  
وإسلامية ، وهو يمتلى بإشارات تاريخية ، إذ كثيراً ما يذكر تاريخ العرب القديم وأيامهم  
وملوكلهم وملوك الفرس الأولين . ومما يدل على ثقافته الأدبية واتساعها كثرة معارضاته  
لقصائد المتنبى والشريف الرضى ومهيار ، مما يؤكد أنه أكب على دواوين الشعراء النابيين  
وخاصة هؤلاء الثلاثة يتزود منها ويتخلق فيها . ويبدو أن الشعر جرى على لسانه في باكورة  
حياته ، وسرعان ما قدمه إلى أمير أسرته محمد بن أبي الحسين (٥٨٤ - ٦٠٣) وهو أهم  
أمرء الأسرة العيونية جميعاً ، وقد شمل سلطانه البحرين بمدنها مثل القطيف والأحساء  
وجزرها مثل أوال التي يطلق عليها الآن اسم البحرين . ودانت له قبائل نجد الشرقية ،  
ولعل ذلك ما جعل الخليفة الناصر لدين الله (٥٧٥ - ٦٢٢ هـ) يعهد إليه بخفارة الحجاج  
من العراق إلى مكة ذهاباً وإياباً مع رسم سنئ قرضه له . وفيه يقول علي بن المقرب :

رِمَاحُ الأَعَادِي عَن حِجَاكِ قِصَارُ      وَفِي حَدِّهَا عَمَّا تَرُومُ عِثَارُ  
وَكَلُّ أَمْرِي لَيْسَتْ لَهُ مِنْكَ ذِمَّةٌ      يُضَامُ عَلَي رَعْمٍ لَهُ وَيُضَارُ  
قَيْشٌ فِي عَظِيمِ الْمَلِكِ مَالِحِ كَوَكْبُ      وَأُظْلَمَ لَيْلٌ أَوْ أَضَاءَ نَهَارُ

ويحدث أن تفكر طيئ في قطع الطريق على الحجاج سنة ٥٩٨ فينكل بها تنكيلاً  
شديداً ، ويشيد ابن المقرب ببسالته في الحرب وانتصاره . وتضع بعض قبائل الشام يدها  
في يد طيئ وتحاول الإغارة على الحجاج ، فيمزقهم محمد بن أبي الحسين شرمزق . ويعم  
الأمن ربوع البحرين ونجد الشرقية جميعاً ، غير أن يدا آتمة تمتد إلى هذا الأمير الشجاع ،

(١) انظر ترجمته في ساحل الذهب الأسود ص ٢٣٢ والقاهرة . وراجع مقالنا عنه في مجلة مجمع اللغة العربية  
بالقاهرة ، الجزء الثامن والثلاثين .  
وتحفة المسجد بتاريخ الأحساء في القديم والجديد  
ومقدمات طبقات ديوانه وقد طبع في الهند ودمشق

فتغاله ، ويكيه شاعره ويندبه ندباً حاراً بمثل قوله :

لَيْبَتْ الْعُلَا وَالْمَجْدُ وَالْبَاسُ وَالنَّدَى لَقَدْ صَلَّى وَاذِيهَا وَجَعَتْ مَسَابِلُهُ (١)  
وَتَنْدُبُهُ الْبَيْضُ الصَّوَارِمُ وَالْقَنَا لَمَّا أَنْهَتْهَا كَفَّهُ وَأَنَا مِلُهُ  
لَقَدْ مُنِّتَ مِنْهُ الْأَعَادَى بِنَائِرِ هَامٍ أَبِي أَنْ يَحْمَلَ الضَّمِيمَ كَاهِلُهُ  
وطبيعي أن لا تفتح أبواب قتاليه الذين خلفوه في دست الحكم لابن المقرَّب ، بل لقد  
زَجُّوا به في السجن وصادروا أمواله ، ورُدَّتْ إليه حرّيته وخرج من السجن فرحل إلى  
العراق ، ونزل البصرة ومدح حاكمها باتكين بن عبد الله الرومي في سنة ٦٠٥ ودخل  
بغداد ومدح الخليفة الناصر ، وتعرّف على بعض علمائها وأدبائها . ورأى العودة إلى موطنه  
وأن يحمل معه طائفة من أعمدة الحديد للاتجار فيها . وألّمّ بواسطة في طريقه فطالبه ابن  
الديبشي ضامن المكوس بضريبة كبيرة بلغت نصف ثمن بضاعته ، فصبّ عليه جام هجائه  
بمثل قوله :

يَابْنَ الدَّبِيشِيَّ اللَّعِينُ لَقَدْ رَمَتْ الْمَحَالُ فَعُصَّتْ فِي بَحْرِ  
خُنْتِ الْخَلِيفَةَ فِي رَعِيَّتِهِ وَعَصَيْتَهُ فِي السَّرِّ وَالْجَهْرِ  
ومر بالبصرة فطالبه ضامن المكس بها ببعض الضرائب ، أو بالضريبة المقررة ،  
فاستجار منه بممدوحه باتكين أمير البصرة ، وينشده مدحة طويلة يقول فيها :  
يَا شَمْسَ دِينِ اللَّهِ كَمْ لَكَ مِنْ يَدِي يُشْبِي بِهَا بَادٍ وَيَشْهَدُ حَاضِرُ  
أَذْمَعُ بِجَاهِكَ أَوْ بِمَالِكَ مُتَعَمِّمًا عَنِّي فَالْكَ لِلْعَفَا ذَخَائِرِ  
ويعود إلى موطنه ويقدم مدائح إلى أمير الأحساء محمد بن علي بن عبد الله الذي ردّه  
إليه حرّيته ، ويأمل أن يرد عليه أمواله وبساتينه ، ولكنه لا يرد عليه شيئاً . ويحدث أن  
ينهض الفضل بن الأمير محمد بن أبي الحسين بأخذ الثأر لأبيه من قتله ، ويصبح الحاكم  
العام للبحرين ، ويقدم إليه علي بن المقرَّب مدائح كثيرة ، ولا يحظى منه بشيء ، أو بما كان  
يأمله . وسرعان ما يثور عليه ابن أخيه علي بن ماجد ، وتثور معه البحرين لتوقيع معاهدة  
بينه وبين أمير جزيرة كيش تنازل له فيها عن بعض جزر البحرين ، مع تقديم خمسمائة  
دينار له سنوياً ، ويفرح الشاعر بهذه الثورة ويديج في علي بن ماجد مدائح كثيرة من مثل  
قوله :

أَضْحَتْ بِكَ الْأَحْسَاءُ سَاكِنَةً وَقَدْ رَجَعَتْ بَيْنَ فِيهَا وَكَادَتْ تُقَلَّبُ  
وَمَلَاتْهَا عَدْلًا وَكَانَتْ عُمَمَتْ جَوْرًا تَغُورُ بِهِ الدِّيَارُ وَتَحْرَبُ

ويثور مقدم بن غرير العيوني ، ويستخلص حكم البحرين لنفسه بمساعدة بعض عشائر عبد القيس النجدية . ويثس ابن المقرب لما صارت إليه أداة الحكم ، فأبناء الأسرة يتحاربون ، والحكم يفسد ويضعف . ويولّى وجهه نحو العراق ويمتدح باتكين والى البصرة والخليفة ببغداد فى سنتى ٦١٣ و ٦١٤ . ويعود إلى موطنه ، وقد أصبح زمام الحكم بيد محمد بن مسعود ، ويمتدحه ويمتدح أخاه الفضل على بن مسعود الذى تحولت إليه مقاليد الأمور بعده ، بمثل قوله :

رَفَعْتَ عِمَادَ الْمَجْدِ مِنْ بَعْدِ مَا وَهَى      وَرَثَ وَأَضْحَى رُكْنَهُ وَهُوَ مَائِلٌ  
وَقَمَتَ بِأَحْكَامِ الشَّرِيعَةِ فَاسْتَوَتْ      لَدَيْكَ ذُؤُودُ الْأَجْبَالِ : طَىُّ وَوَاتِلُ

ويترك البحرين إلى العراق فى سنة ٦١٧ ويمتدح باتكين فى طريقه إلى بغداد ويمتدح الخليفة الناصر ، ويوغل فى رحلته إلى الشمال حتى الموصل وديار بكر ويمتدح بدر الدين لؤلؤاً مدير الحكم فيها لسلطانها القاهرين نور الدين أرسلان شاه ، وفيه يقول :

أَرَسَى قَوَاعِدَ مَلِكٍ لَوْ يَدِيرُهُ      كَسْرَى وَإِسْكَندَرُ أَعْيَتْهَا الْحَيْلُ  
وَعِدَ رِحْلَاتِهِ إِلَى الْمَلِكِ الْأَشْرَفِ      مُوسَى بْنِ الْعَادِلِ الْأَبْيُونِ سَاحِبِ حِرَّانِ وَدِيَارِ  
الْجَزِيرَةِ ، وَيَشِيدُ بِلَاتِهِ مَعَ أَخِيهِ سُلْطَانَ مِصْرَ الْكَامِلِ فِي قِتَالِ الصَّلِيبِيِّينَ بِدِمِشْقَاطِ وَسَحْقِهِمْ  
سَحْقًا ذَرِيعًا حِينَ اغَارُوا عَلَيْهَا فِي السَّنَوَاتِ ٦١٥ - ٦١٨ وَفِيهِ يَقُولُ مِنْ مَدْحَةِ طَوْلِيَّةَ :

سَلَّ الْكُفْرُ مِنْ أَوْهَى بِدِمِشْقَاطِ كَفْرُهُ      وَقَصَّرَ أَعْلَى فِرْعَوَ وَهُوَ بَاسِقُ  
وَقَدْ جَاءَتْ الْإِفْرَنْجُ مِنْ كُلِّ وَجْهِهِ      كَأَنَّ تَدَاعِيَهَا السَّيْلُ الدَّوَاقِقُ  
فَوَلَّوْا فَكَيْبُوبٌ عَلَى أُمِّ رَأْسِهِ      لَدُنْ ذَلِكَ لَمْ يَنْفُقْ وَأَخْرَ نَافِقُ<sup>(١)</sup>

ويعود ابن المقرب إلى موطنه ، فيجد أداة الحكم قد أصابها فساد لا صلاح لها بعده ، إذ وضع أمير البحرين الفضل البلاد تحت تصرف البدو من بنى عقيل . فأفسدوا زروعها وثمارها ، حتى أصبح البستان الذى تبلغ قيمته مائتى دينار يباع بدينار واحد أو يثوب أو يشاة ، ويأسى لذلك فى شعره أسى عميقاً . وشعر ابن المقرب يعدُّ بحق سجلاً تاريخياً لأسرته وحكمها البحرين ، فكل من عاظرهم صور حكمهم وأحوال البلاد فى أيامهم ، وله قصيدة ميمية سجل فيها تاريخ أسرته منذ مؤسسها الأول حتى زمنه ، مناخراً مباحياً ، وفيها يفخر بأن جده عبد الله بن على قضى على القرامطة وما أذاعوا فى البلاد من عقيدتهم الفاسدة ، يقول :

سَلَّى الْقَرَامِطَ مِنْ شَطَى جِاجِسِهِمْ      فَلَقَّا وَغَادَرَهُمْ بَعْدَ الْعُلَا خَدَمَا<sup>(٢)</sup>

(٢) شطى : حطم .

(١) ينفق : يهلك .

ويسترسل مبيناً أنهم كانوا أبطلوا الصيام والصلاة وهدموا المساجد ، فطهر البلاد منهم ، ويمضى في القصيدة مسجلاً مآثر أبنائه وأحفاده لمدة قرن من الزمان . والديوان يتلى بفخر عنيف . وإذا كانت مدائح ابن المقرب سجلت تاريخ أمراء أسرته وأهلهم ومآثرهم فإنها سجلت أيضاً جوانب من أعمال الخليفة الناصر ، وكذلك واليه باتكين حاكم البصرة فقد ضمن مدائحه له أعماله بمثل قوله :

بني بالبصرة الفيحاء سوراً يُضاهي السدَّ سبكاً وانعقادا  
وزينها بأسواق أراننا بها كلَّ البلاد لها سوادا<sup>(١)</sup>  
وكم من مشهدٍ ورباط زهدٍ ومدرسةٍ بنى وهُدَى أفادا

ويردد في مدائحه بجانب ذلك أنه بنى المدارس وأقام فيها علماء الفقه والحديث والتفسير وألحق بها المكتبات النفيسة ، ومدائح ابن المقرب بذلك تعد وثائق ذات أهمية بعيدة في تاريخ عصره ، ولا نبعد إذا قلنا إنها هي الوثائق الوحيدة في تاريخ الدولة العيونية ، لأن تاريخ حكامها لم يعن به المؤرخون .

#### عبد الصمد بن عبد الله باكثير<sup>(٢)</sup>

الشعراء الثلاثة السابقون من شعراء القرن السابع الهجري ، أما عبد الصمد بن عبد الله باكثير فمن شعراء القرن الحادى عشر وهو حضرمي ، ولد في تَريس سنة ٩٥٥ للهجرة وتوفى بحضرموت في سنة ١٠٢٥ . تلقن علومه وحفظ القرآن الكريم في مسقط رأسه ، واختلف إلى العلماء في المدن الحضرمية . وحين سأل الشعر على لسانه اتجه به أولاً تجاهاً صوفياً على عادة أهل إقليمه ، وأخذ يستغله في مديح بعض الحكام والأعيان ، حتى إذا تحول صولجان الحكم في حضرموت إلى عمر بن بدر أبنى طويرق المتوفى سنة ١٠٢١ للهجرة أصبح شاعره المفضل ، وليس ذلك فقط ؛ بل أصبح أيضاً منشئ الرسائل في عهده ، وكذلك في عهد ابنه عبد الله (١٠٢١ - ١٠٢٤) . حتى إذا تنازل عن الحكم لأخيه بدر طلب الشاعر إعفاءه من العمل بديوان الرسائل ، ولم يكد يدور العام حتى لبي نداء ربه . وجمهور مدائحه في عمر بن بدر من مثل قوله :

الطالع ص ١٢١ وملاحة العصر ص ٤٦١ وتاريخ  
حضرموت السيامي ١/١٣٣ ، و ٢/١٧١ وتاريخ  
الشعراء الحضرميين ١/١٩٠ وله ديوان كبير لا يطبع .

(١) السواد : الريف بزروعة وقراه .  
(٢) انظر في ترجمة عبد الصمد خلاصة الأثر للمحبي  
٢/٤١٨ وكتابه نفحة الريحانة ٣/٥٤٦ وملحق البدر

عُمَرُ الَّذِي أَحْيَا الْمَكَارِمَ وَابْتَنَى لِلْمَجْدِ بَيْتاً دُونَهُ الْجُوزَاءُ  
فِيهِ الزَّمَانُ تَفَاخَرَتْ أَيَّامُهُ وَتَعَطَّرَتْ بِوُجُودِهِ الْأَحْيَاءُ  
مَلِكٌ تَفَجَّرَ مِنْ مَنَابِعِ مَجْدِهِ كَرَمٌ وَحِلْمٌ وَاسِعٌ وَوَفَاءُ  
وكان لا يزال يروح ويغدو عليه بمدائحها وخاصة في أعياده وفي الاحتفال بانتصاراته ،  
مردداً دائماً دائماً الثناء على خصاله وشجاعته وكرمه ، ومن مدحة له فيه :

إِذَا نَابِي خَطَبُ الزَّمَانِ فَإِنِّي إِلَى عُمَرَ الْخَيْرَاتِ فِي يَتَهَيِّ السَّيْرُ  
مَوَاهِبُهُ مَوْصُولَةٌ بِمَوَاهِبِ إِذَا ضُنَّتِ الْأَنْوَاءُ وَاحْتَسَسَ الْقَطْرُ (١)  
لَهُ فِي النَّدَا أَيْدٍ تَسُحُّ بِنَائِهَا لُجَيْنًا وَإِيرِزًا وَنَائِلُهُ عُمَرُ (٢)

ومن مدحة الرصين في عمر بن بدر تهته له بانتصاره على بعض أعدائه من رجال  
القبائل الثائرين عليه وعلى حكمه ، وفيها يقول مهنتاً :

نَصْرٌ عَزِيزٌ مِنَ الرَّحْمَنِ قَارَنَهُ قَتَحٌ وَطَالِعُهُ بِالسَّعْدِ يَبْتَدِرُ  
مَنْ كَانَ مَعْتَصِماً بِاللَّهِ كَانَ لَهُ عَوْنًا وَسَارَ بِمَا يَخْتَارُهُ الْقَدْرُ  
لَا تَأَلَّبَتِ الْأَعْدَاءُ وَاعْتَصَمُوا بِحَبْلِ غَدْرِهِمْ بَاعُوا بِمَا غَدَرُوا  
فَأَمَكْنَ اللَّهُ مِنْهُمْ فَاتَّشَوْا هَرَبًا كَمَثَلِ مَانِقَرْتٍ مِنْ قَسُورٍ حُمُرٌ (٣)

وكان يخلص للسلطان عمر بن بدر إخلاصاً مصفى ، ولذلك أكثر من مدحجه ، حتى  
إذا توفى أحس بحزن بالغ ولوعة مميضة ، مما جعله يرثيه مرثي حارة يبكي فيها خصاله  
الكريمة وما فقدته رعيته فيه ومحبوه من جود وعون وعفو عند المقدرة من مثل قوله :  
هَوَى مِنْ سَمَاءِ الْمَجْدِ كَوَكْبِهَا الْقُطْبُ فَأَظْلَمَ فِي أَقْطَارِنَا الشَّرْقُ وَالْغَرْبُ  
تَضَعَّضَ طَوْذُ الْمَجْدِ وَانْهَدَّ رُكْنُهُ فَيَا لَكَ رُكْنًا قَدْ تَضَمَّنَهُ التُّرْبُ  
ثَوَى عُمَرَ الْخَيْرَاتِ أَكْرَمُ مِنْ سَعْيِ إِلَى سَاحِهِ تَطْوِي سَبَابِهَا التُّجْبُ (٤)  
لَقَدْ كَانَ لِلْعَافِينَ ظِلًّا وَمَلْجَأً وَلِلْجَاهِلِ الْإِعْضَاءُ وَالصَّفْحُ وَالْعَنْبُ (٥)

وله مرثية ثانية فيه تكتظ بزفراته ولوعاته . وله غزل رقيق يزخر بمشاعر فياضة ،  
تدل على أنه كان يمجّد أحياناً وجداً شديداً ، حتى ليقع في شباك بعض النساء ،

(١) الأنواء : الأمطار .  
(٢) تسح : تهطل . اللجين : الفضة ويريد الدراهم .  
(٣) قسور : أسد . الحمر : حمر الوحش .  
(٤) ساح : جمع ساحة . الساسب : المغاور .  
التجب : الإبل الكريمة .  
(٥) العافون : طلاب العرف .  
عمر : كثير .

ويطول تعثره فيها ، وقد انقطعت به الحيل في الخلاص فيفزع إلى دموعه ، على شاكلة قوله :

يا ظَبْيَ وادى الأَجْرَعِ      رِفْقاً بصباً مولع  
يكي أسى وصبايةً      بكآبةً وتوجع  
ودموعه فوق المحَا      جر كالغيوث الهمع<sup>(١)</sup>  
ويقول من وجدٍ ومن      كمدٍ بقلبٍ موجع  
حيّاً المرباعِ والرُّبَا      غيثٌ كفائض أدمعي  
يَهْجِي على تلك الدِّبَا      رِ بوابلٍ لا يُقْلِع

فهو يكي بدموع غزار لا تزال تنهم كأنها أمطار ، ولا يزال يلتاع لوعات شديدة ، كلها أوجاع وأوصاب وآلام . ويكثر غزله الرقيق من مثل قوله :

ولى من العُربِ ظَبْيٌ مارأى بصرى      شِبْها له فى الورى بدواً ولاحصراً  
الوردُ فى خدّه الحمُرُّ من خَجَلٍ      يدعو إلى حُسْنه الفتانِ مَنْ نظراً  
كم ليلةٍ زارنى فيها على وَجَلٍ      مستعجلاً خائفاً مستوفزاً حذيراً<sup>(٢)</sup>

وتصوره لخوف المحبوبة فى البيت الأخير من أن يراها أحد معه رائع ، فهى عجلة حذرة لا تكاد تطمئن ، واختار بدقة شاعريته كلمة «مستوفزاً» ليصور فيها هذه الحركة النفسية ، فكأنها دائماً مستوفزة تهباً لفراقه وتناهب لوداعه . وله بعض خمريات طريفة يجمع فيها بين الروض والخمر والغناء والصَّحْب ، مصوراً بذلك بعض مجالس أنسه كقوله :

تلاعبتْ مَرَحاً فى روضها القُصْبُ      كشاربى خنْدَريسِ هزهم طَرَبُ<sup>(٣)</sup>  
قُمْ يا نديمى فقد نادى الهَزَّازُ إلى      صَهْباً مُشْعِشَةً تُجَلِّى بها الكُربُ<sup>(٤)</sup>  
يديرها رَشاً كالشمسِ طَلَعَتْهُ      وكفهُ بِدَمِ الصَّهْبَاءِ مَخْتَضِبُ  
فى روضةٍ أخذتْ بالزُّهرِ زُخْرَفُها      وَازَيْتُ وَتَجَلَّتْ كُلُّها عَجَبُ

ولم يكن اللهو غالباً على حياته ، فثل هذه الخمرية وميضٌ كان يلمع حيناً فى سماءها وسرعان ما يجبو ، وقد أمضى شطراً كبيراً من حياته بانساً يشكو الفاقة قبل اتصاله بعمربن بدر أميره ، ولذلك نجد عنده قطعاً يشكو فيها من حظه العائر ، نذكر منها قوله :

(٤) الهزار : طائر صغير الحجم حسن الصوت .

الصهباء : الخمر . المشعشة : المزوجة بللاء .

(١) الهمع : الماطلة السائلة .

(٢) مستوفزاً : منحفضاً للقيام .

(٣) القصب : الأغصان . الخندريس : الخمر .

أراني إذا ما الليلُ جاشتْ كئابةُ      أبيتُ وقلبي حائرُ الفكرِ ذاهبةُ  
تبيتُ أفاعي الهممِ في غيبِ الدُّجَى      تُساوِرُ قلبي بالعنا وتوأثيهُ (١)  
وماليَ فيما قد دهانِي حيلةُ      أداري بها دهري إذا ازورَّ جابه (٢)  
فياربُ يا ذا المنِّ والفضلِ والعطاء      أغنني فوجُ الهممِ فاضتْ غواريهُ (٣)

وتصوير عبد الصمد الهمم بأفاع لا تزال توائبه طوال الليل تصوير طريف ، وشعره فيه سهولة وعدوية ويحنج كثيراً إلى استخدام ألفاظ اللغة اليومية ، ولعل ذلك ما جعله ينظم بعامة موطنه بعض أشعاره . وكان يستخدم الموشحات أحياناً فيجيد فيها لسلامة ألفاظه وكلياته .

## ٤

### شراء المرثي

بجانب مجرى المديح الذي كان يتدفق بالشعر من قديم كان يتدفق مجرى الرثاء ، فلم يمت حاكم ولا قائد ولا وال ولا قاض في أقاليم الجزيرة العربية إلا رثاه الشعراء وأبنوه تأبيناً يفيض بالأسى والحزن ، وكثُر في هذا العصر تأبين الشيوخ والفقهاء والمعلمين ، يؤنبهم تلاميذهم وزملائهم ويكون فيهم خصالهم وخسارة العلم والعلماء فيهم ، من ذلك تأبين شهاب الدين محمود بن مسكّن القرشي الفهرى لشيخه نجم الدين الطبري قاضي مكة ، وفيه يقول (٤) :

ما للحفون بها التَّسْهِيدُ قد نزلا      وما لطيب الكرى عن مقلتي رحلا  
ما بالُ قلبي بتذكّار الهموم له      شُغْلُ ودمعي إن كَفَفْتَهُ هَمَلا  
نجمُ أضاء علينا صُبْحُ طَرَّتِه      حتى إذا ما انجلتْ أيامه أفلا  
مفتاحُ كتيرِ علومِ الدين كم فُتِحَتْ      بهِ بصائرُ قومٍ للورى ذُللاً

وراء مرثي الشيوخ والعلماء في الحجاز مرث كثيرة في أمراء مكة الزيديين حين يلبنون نداء ربهم ، وبالمثل تلقانا مرث كثيرة للأئمة الزيديين في اليمن ، كما تلقانا مرث أخرى لدعاة النحلة الإسماعيلية الفاطمية من الصليحيين وآل زريع ، وسنعرض لها في حديثنا عن

(١) تساور : توائب .

(٣) غواريه : أعاليه .

(٢) ازور : مال والحرف .

(٤) العقد الثمين ٣/ ٣٢ .

## شعراء الدعوة الإسماعيلية .

وفي كل زمن وكل دولة تلقانا مرأى الشعراء ، ونفس من ترجمنا لهم من شعراء المديح نجد بجانب مدائحهم مرأى كثيرة على نحو ما نجد في ديوان ابن هتيمل فقيه باب خاص بالمرأى ، وهي تتردد عنده بين الندب والتأبين ، أما الندب فعلى أبنائه وإخوته ، وزوجته وقد بكأها في مرثيتين ، يقول في إحداها (١) :

يعزّ عليّ أنْ عَظُمَ المصابُ      ولا صَبِرَ لَدَيَّ ولا احتسابُ  
بنفسى عَصَرَ يَوْمَ السَّبْتِ نَعَشُ      تداولُهُ المناكبُ والرَّقابُ  
من الحَقِيرَاتِ يُعْفَى اللَّيْلُ مِنْهَا      إذا ما جَنَّ مالا يُسْتَرَابُ  
تَكْفَنُ فِي الثِّيَابِ فليت جَلْدِي      لها كَفَنٌ وليت دَمِي خِصَابُ

والمرثية تمتلئ بمشاعر صادقة ، مشاعر شخص اکتوى قلبه بالحزن على زوجته ، ولم يعد أمامه إلا أن ينظم فيها أشعاراً تعبر عن لوعته وما يكتظ به فؤاده لها من وجد وصباية . وله تأبين لبعض أمراء الخلف السليمانى وحكام مسقط رأسه «نجران» بوادى «ضيمد» من ذلك تأبينه لحاكمها «سلطان» صاحب ضيمد جميعها بمثل قوله (٢) :

الرُّزْءُ أكبر أن يقوم بيومه      جَزَعُ الرجالِ ورثةَ النسوانِ  
ويلٌ لأمِّ الأرضِ ماذا ضُمَّتْ      من أعظمِ أدرجنَ فى الأكفانِ  
ذاك الندى والبأسُ بين حَصِيرَةٍ      أطباقها طُوِبَتْ على نَهْلانِ  
إن التمسكُ بالسماحِ وبالوفا      من بعده ضَرَبُ من الهديانِ

ولم يكن يموت سلطان من سلاطين الرسوليين إلا ويكثر الشعراء من تأبينه وذكر خصاله وأعماله وما نهض به فى دولته ، وربما بالغوا فى بيان الحزن فجعلوا الدين والدنيا والكواكب السماوية محزونة تبكيه ، على شاكلة افتتاح الخزرجى لراثه السلطان الأفضل المتوفى سنة ٧٧٨ يقول (٣) :

بكتِ الخِلافةُ والمقامُ الأعظمُ      والمُلْكُ والدينِ الحنيفُ القِيمُ  
والشمسُ والقمرُ المنيرُ كلاهما      والأرضُ تبكى والسما والأنجُمُ  
والبيتُ والحرمُ الشريفُ بمكة      والحجرُ والحجرُ اليمانيُّ الأَسْحَمُ (٤)

(١) الديوان ص ٨٣ . (٤) الحجر بكسر الحاء . ماحواه العظيم بالكعبة .

(٢) الديوان ص ٩٧ . الأسمه . الأسود .

(٣) العقود النورانية ٢ / ١٦٠ .

ومدارسُ العلم الشريف وأهلُه والمسلمون فصيحهم والأعجمُ  
 فالعالم كله يبكي الأفضل والحرم الشريف وكل ما فيه من مقدسات والأرض والسماء  
 والنجوم ومدارس العلم وأساتذته وطلابه . ومضى يصور مجده وحروبه وكرمه وبأسه  
 وانصياع أمراء اليمن له وعدله الذي عمَّ به رعيته . ولم يلبث أن جعل الشمس عليه كاسفة  
 تنوح وتلطم والأرض راجفة تميد وتهتز والجو مغبراً مظلماً وبكل ركن من بلاده حسرة وبكل  
 بيت مأمم . وكل هذا إسراف في التأبين ومبالغات مفرطة . ويتولى الحكم بعده ابنه  
 الأشرف ، وله مآثر كثيرة ، وتوفى زوجه في سنة ٧٩٦ فيريثها جماعة من الشعراء ، وهي  
 ظاهرة كانت تشيع في اليمن منذ عصر الصليحيين ، إذ توثن سيدات الأمراء ، وتُعقد لتأبينها  
 الاحتفالات ، ويتبارى الشعراء في وصف فضائلها وبكائها وندبها ندباً حاراً ، بمثل قول  
 الخزرجي (١) :

بكتها السما والأرضُ يومَ وفاتها      وأمسى سحبُ الأفقِ أدمعهُ تَسْرِي  
 على وجهك الميمون حياً وميتاً      سلامٌ يزيد العطرَ عطراً إلى العطرِ  
 سلامٌ على ذلك الجبينِ ورحمةً      على شخصك المدفون في ذلك القبرِ

وتوفى الأشرف سنة ٨٠٣ ولإسماعيل بن أبي بكر المقرئ فيه مرثية بديعة (٢) .  
 ويموج كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بمراثٍ كثيرة ، وهي تتردد بين الندب والتأبين  
 والعزاء ، أما الندب فإننا نجد في الكتاب شعراء كثيرين يبكون آباءهم مشيدين بتقواهم  
 وعلمهم الفياض ، كقول محمد بن عبد العليم الخولاني في رثاء والده (٣) :

تبكى عليه منابرٌ ومحابرٌ      تبكى عليه محاجرٌ بدماء  
 فأنه يسكنه الجنانَ بفضلِه      ويعمه بسوايغ النعماء

وقد أطال في وصف خسارة العلم والعلماء بفقده ، إذ يجعله مفسراً كالأولادى وقتادة  
 وعطاء بن أبي رباح ، ومتصوفاً كمكي والغزالي ، ومحدثاً يدرس لطلابه صحيحى  
 البخارى ومسلماً وموطأ مالك ، وفقياً شافعيًا يتقن درس أمهات الفقه الشافعى من مثل  
 الوسيط في المذهب للغزالي والمهذب للشيرازى والروضة للنوى . ويكثر تأبين التلاميذ  
 لشيخهم من الفقهاء والمتصوفة ، وقد يخالطونه بالعزاء كقول عبد الله بن جعفر العلوى في  
 شيخه عبد الله بن أبي بكر باحسن (٤) :

(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٤٤ / ٢

(١) العقود اللؤلؤية ٢ / ٢٥٤ .

(٤) نفس المصدر ٢ / ١١٣ .

(٢) نفس المصدر ٢ / ٣١٨ .

خطبُ ألمَّ وهولُ هائلٌ وردًا      وقد شغفنا بدارٍ لا وفاء لها  
 وشمْلُ سكانها أضحى بها بددًا<sup>(١)</sup>      والمراء فيها كظلُّ زائلٍ نسحت  
 أفبهاء ظلماتُ الليل إذ وفدا<sup>(٢)</sup>      والطرفُ بالكِ وإن الأرض تبكي أسى  
 كلاهما يتدبانُ السيدُ السندا      لتاجُ الكرام شريفُ طاب عنصره  
 لمطلب المجد في الآفاق كم وردًا      نسلُ الأفاضل ينبوعُ الفضائل بل  
 كترُ الأمانل خيرُ الأكرميين ندًا

وللشاعر نفسه مرثية ثانية في شيخٍ آخر جعلها عزاء ودعوة إلى الإذعان للقضاء فالدينا دار زوال وانتقال ، والأيام تمضي بالناس جميعاً إلى وادي الفناء والعدم ، والسعيد من سارع إلى المتاب واعتبر بمن يموتون كل يوم ، وانجه إلى ربه وعمل لآخرته . وهذه الصورة من المراثي كانت تعم في كل مكان : في عمان والبحرين ونجد ، فالمرثي دائماً ندب أو تأبين أو عزاء ، وقد تترج الصور الثلاثة ، ومن ظريف ما نقرؤه للستالي شاعر عمان من رثاء قوله في أبي محمد بن نهان المتوفى سنة ٦٧٤ للهجرة يؤوبه :

رُزقنا هماماً يعلمُ الأزُدُ أنه      إذا خطرتُ صيدُ الملوكِ خطيرُها<sup>(٣)</sup>  
 نبواً من قحطانٍ بيتاً ثقلهُ      قواعدُ بنينِ العتيكِ وسورها<sup>(٤)</sup>  
 فطال به أصلُ المعالي وقرعها      وطاب له خيرُ المساعي وخيرُها<sup>(٥)</sup>

ولابن المقرب العيوني مراتٍ مختلفة في بعض القضايا وبعض أهله ، ولعل من الخيزران نخص بالحديث شاعرين من شعراء المراثي هما : محمد بن علي التهامي وجعفر الخطي السحراني .

### التهامي<sup>(٦)</sup>

هو أبو الحسن علي بن محمد الشاعر المشهور بلقبه التهامي أي المكبي ، إذ تسمى مكة باسم تهامة ، ولذلك يقال الرسول ﷺ تهامي . لأنه من مكة . وتطلق تهامة على الساحل الممتد على طول الخريزة شرقي الحجاز بين مكة واليمن ، ولكن نسبة الشاعر إنما هي إلى مكة

(٦) انظر ترجمة التهامي في تنمة البيهية ٣٧/١ ودمية القصص ١١٠/١ والنجوم الزاهرة ٢٦٣/٤ وشدرات الذهب ٢٠٤/٣ وابن حلكان ٣٧٨/٣ وعمر الذهبي ١٢٢/٣ وديوانه مطبوع مطبعة الأهرام بالإسكندرية سنة ١٨٩٣ .

(١) بددًا : متفرقاً .

(٢) أفبهاء : ظلاله .

(٣) الصيد : السادة .

(٤) العتيك : عشيرة ابن نهان الأردنية .

(٥) خيرها بكسر الخاء : خيارها .

إذ ينسب نفسه إليها في بعض شعره حين نزلت به كارثة السجن في آخر حياته كما سيأتي قائلًا  
عن نفسه :

وهذا التهاميُّ من مكّةٍ برجليه يسعى إلى حتفه

ولا يُعرفُ زمن مولده ، وتدل مدائحه في الديوان على أنه ارتحل من موطنه إلى العراق  
والموصل وديار بكر ، إذ بين ممدوحيه أناس من الكوفة وبغداد وميّا فارقين وآمِد ونصيين ،  
وأيضاً بينهم قُرَواش ( ٣٩١ - ٤٤١ هـ ) صاحب الموصل وبواديه . ويلاحظ أن ديوانه  
يخلو من مدائح أمراء مكة ، مما يدل على أنه غادرها مبكراً . ويبدو أنه بارح كل تلك  
الأثناء إلى الشام كما يذكر صاحب دمية القصر ، وبها ألقى عصاه في الرملة عند آل الجراح  
أمراء طيبى ، وقد عينوه خطيباً لبلدتهم . وفي ديوانه مدائح مختلفة لأمرهم المفرج  
دَغفل المتوفى سنة ٤٠٤ ولعله أول من استقبله من آل الجراح أصحاب فلسطين ، وعاش  
في رحابه ورحاب ابنه حسان ( ٤٠٤ - ٤٦٧ هـ ) . وكانت نفسه حدثه بالشغب على  
الفاطميين - على عادة آبائه - فرأى أن يرسل التهامي إلى بنى قُرّة في صعيد مصر كي يحدثوا  
شغباً عليهم ، وأرسل معه كتباً كثيرة إليهم . فقدم القاهرة مستخفياً في سنة ٤١٦ غير أن  
الفاطميين ظفروا به ، فاعتقلوه في سجن خزانة البنود في السادس والعشرين من شهر ربيع  
الآخر ، وظل به إلى أن توفى - أو قُتل - في تاسع جادى الأولى من نفس السنة .  
والتهامي يُعدّ في الذروة من شعراء الجزيرة في هذا العصر ، وفيه يقول صاحب  
الدمية : « له شعر أدقُّ من دين الفاسق ، وأرقُّ من دمع العاشق ، كأنما رُوِّح بالشّال  
(الريح) أو عُلِّلَ بالشّمول (الخمر) فجاء كئيل البغية ودرك المأمول » وقال ابن تغرى  
بردى : « كان من الشعراء المجيدين وشعره في غاية الحسن » ونقل ابن خلكان عن ابن بسام  
قوله عنه في كتابه الذخيرة : « كان مشتهر الإحسان ، ذرب اللسان ، مخلى بينه وبين  
ضروب البيان ، يدل شعره على فوز القِدْح ، دلالة برّد النسيم على الصبح ، ويُعرب عن  
مكانه من العلوم ، إعراب الدمع عن سر الهوى المكتوم » . وقد اشتهر بمرثيات له في ابنه أبي  
الفضل الذى هصرت المنون غصنه النضير تحت عينه ، وأهم تلك المرثى رائيته ، وهو  
يستهلها واعظاً ، بقوله :

حُكْمُ المنيّةِ في البريّةِ جارِي	ما هذه الدنيا بدارِ قرارِ
طُبِعَتْ على كدَرٍ وأنت تريدها	صَفْواً من الأثداء والأكدارِ
ومكَلَّفُ الأيامِ ضِدّاً طباعها	متطلّبٌ في الماءِ جِدوةِ نارِ
والعيشُ نَوْمٌ والمنيّةُ يَقْظَةٌ	والمرءُ بينها خيالٌ سارى

فأفضوا مآربكم عجالاً إنما أعماركم سقر من الأسفار  
 ليس الزمان وإن حرّضت مسالماً خلقت الزمان عدواة الأحرار  
 ويمثل هذه العظات التي تمس دخائل القلوب وأعماق النفوس بفتح التهامي مرثيته  
 لفلذة كبده ، مصوراً الدنيا وكنوسها المليئة بالأفداء وأيامها التي تدنى الآجال وتقطع  
 الآمال ، وتجعل الإنسان دائماً بين يومين : يوم مضى بنكده وبؤسه ويوم بقى لا يدري  
 الإنسان هل سيقطعه إلى نهايته أو أن أنفاسه ستقطع دون غابته ، فتخرج منه النفس وعجل  
 في الرّمس ويتجه بعد هذا العزاء الذي يذيب فؤاده حشرات إلى بكاء ابنه الذي اختطفه  
 الموت منه وهو لا يزال غصّاً في كيمه :

يا كوكباً ما كان أقصر عمره وكذلك عمر كواكب الأسفار  
 وهلال أيام مضى لم يستدبر بدرأ ولم يمهّل لوقت سرار<sup>(١)</sup>  
 جاورت أعدائي وجاور ربه شتان بين جواره وجواري  
 أخني من الرّقاء ناراً مثلاً يُخني من النار الرّناد الواري  
 وتلهب الأحشاء شيب مفرق هذا الضياء شعاع تلك النار

ويمضي في وصف زفراته وعبراته ونيران الأسي تلذع فؤاده ، وقلبه يمتلي حسرة وشقاء  
 ونفسه تمتلي لوعة وعناء ممحّضاً ، وما الحياة ؟ إنها لم تعطه ما كان يريد من ابتسام بل أعطته  
 كل ما أمكن من أذى وآلام ، وإن ذكرى ابنه هي نفس هذه الآلام الثقيل ، وإنه ليحس  
 إزاءها بجريق لا يزال يأخذ بسويداء فؤاده . والمرثية تمتد إلى مائة بيت ، ومثلها في الطول  
 مرثية رائية لابنه تبلغ ٧٨ بيتاً وفيها يقول محزوناً :

محاك الرّدى من رأي عيني وما محا خيالك من قلبي وذكرك من ذكرى  
 وهو من شعراء المديح المبدعين ، ويكاد المديح يستنفد شعره جميعه ، وهو فيه طويل  
 النفس ، ومن خير مدائح ما قدمه للمفرّج الطائي وابنه حسان ، وفيه يقول :  
 فتى جيلت يده على العطايا كما جيل اللسان على الكلام  
 ويسراه لئيل أو عنان ويمناه لرمح أو حسام<sup>(٢)</sup>  
 لقد أحيا المكارم بعد موت وشاد بناءها بعد انهدام  
 بصفحة خده للبشر ماء كمثل الماء في صفح الحسام<sup>(٣)</sup>

(١) السرار : ليل آخر الشهر التي لا يظهر فيها القمر .

(٢) النيل : العطاء . والعنان : عنان الفرس .

(٣) الماء هنا : الروق .

سواءً عنده قولُ المنادي هَلُمَّ إلى الطَّعَانِ أو الطَّعَامِ  
 وواضح في مديحه سهولة الشعر عليه وأنه يُطلق نفسه على سجيته ، فيأتي بكثير من  
 المعاني الطريفة والصور البديعة ، على نحو ما يلاحظ في صورة البيت الأول ، فهي صورة  
 بسيطة ، فالعطايا في يد مفرج كالكلام في لسانه لا يزال يرسلها ، ومثل هذه الصورة في  
 الطرفا صورة البيت الأخير ، فمدوحه لا يزال في حشد من جوده وبأسه على طعامه  
 وطعامه . وفيه يقول في مدحة ثانية :

هو السالِبُ الأعداء في ساحة الوغَى وَيَسْلُبُهُ في ساعة السَّلْمِ زائرُهُ  
 يَجْرِنَا عن جوده بِشْرٌ وَجَهْهِ وَقَبْلَ انصداعِ الفَجْرِ تبدو بشارته  
 وَيَصْدُقُ فيه المدْحُ حتى كأنما يَسْبِغُ مِنْ صِدْقِ المقالة شاعِرُهُ  
 والبيتان الأخيران تتضح فيها الفكرة التي أشرنا إليها آنفاً وهي سهولة كلمه مع طرافة  
 صوره ، مما يدل على فطرة شعرية أصيلة عند الشاعر ، ومن قوله في مديح حسان بن المرح  
 من مدحة طويلة :

هو المَلِكُ يُبْلِي بُسْطَهُ قَبْلَ وقتها سَجُودُ ملوكٍ فوقها وقيامُها  
 بعيدُ مداه ليس تألف كفه من المكرمات الغرِّ إلا جسامُها  
 ولو أن للأفكار ضوءَ جبينه لما زال عنها نُورها . وتأمُها  
 وليس بمشغولِ البنانِ عن التَّدْيِ إذا شغَلَ الكفَّ اليمينَ حُسامُها  
 وواضح تخلصه في البيت الأخير من أن تكون بنان المدوح مشغولة دائماً بالسيف ،  
 فَشغَلَ عن العطايا والكرم ، وتكرر في أشعاره مثل هذه التخلصات والصور الدقيقة . وله  
 نسيب بالديار وغزل رقيقان ، وكثير منها يقدم به مدائح ، على شاكلة قوله في إحدى  
 مقدمات مدحة دالية :

أترومُ تَفْطِيَةَ الهوى بِمَجْودِهِ وَنَحُولُ جسمك من أدلِّ شهودِهِ  
 كم قلتُ إياك الحجازَ فَإِنَّهُ ضَرَيْتَ جاذِرُهُ بِصَيْدِ أسوده  
 وأردتَ صَيْدَ مَهَا الحجازَ فلم يُساَ عدك القضاءَ فصرتَ بعضَ صُيُوده  
 أُخْفِي هواه وهو نارٌ مثلاً يُخْفِي الزنادُ ضيرامه في عوده  
 والصورة في البيت الثاني بديعة فظباء الحجاز أو جاذره تصيد أسوده ، ومحاول صيد  
 المها فيصبح من صيودها ، ونار الحب كامنة في فؤاده كمون نار الزناد في عوده . ونحس  
 دائماً بأن الصور والمعاني طبيعية ، وكذلك الألفاظ فهي سلسلة سائغة عذبة . وفي أشعاره  
 حكم وزهد ورفض للدنيا ومتاعها ، ومن طريف حكمه قوله :

وإذا جفاك الدهر وهو أبو الورى طراً فلا تَغْتِيبْ على أولاده  
فمن جفاه الدهر أو قلب له ظهر المجن ينبغي أن لا يتزل جام غضبه على الناس ، لأن  
ما أصابه إنما هو من أبيهم الدهر وليس منهم ، وما كان الابن ليسأل عما قدمته يد أبيه .  
والحق أنه كان شاعراً مبدعاً ، وكان الشعر طوع لسانه ومدَّ خيالاته ومشاعره .

### جعفر الحطّطي<sup>(١)</sup>

من قبيلة عبد القيس التي نزلت في الأحساء والقُطيف وبواديها منذ العصر الجاهلي ،  
والحطّطي نسبة إلى الحطّط وكان يطلق على مدينة القطيف وعلى ساحل الإقليم كله ،  
ولا يُعرفُ زمن مولده ، ويبدو أنه نشأ في القطيف ، وفيها حفظ القرآن وتلقن على الشيوخ  
مبادئ الكتابة والقراءة والعربية ، وسال ينبوع الشعر على لسانه ، واتخذة - مثل لداته -  
حرفة يتكسب بها منذ أواخر القرن العاشر الهجري ولم يلبث أن غادر مسقط رأسه إلى جزيرة  
أوال التي تسمى في عصرنا باسم البحرين ، حاملاً مدائحهم إلى بعض أمرائها وقضاتها  
وعلمائها ، واستقبلوه استقبالاً حسناً ، وأسبغوا عليه بعض عطاياهم ، وخاصة وزير أمير  
البحرين ركن الدين محمد بن نور الدين وقاضيا عبد الرؤوف البحراني . ولا توافي سنة  
١٠١٢ للهجرة حتى يرحل إلى إيران وينزل شيراز ، ويتردد بينها وبين أصفهان ، ويلتقي في  
الأخيرة بهاء الدين العاملي صاحب كتاب الكشكول ، ويعارض بعض قصائده ويعجب  
بهاء الدين به وبشعره ، وكان يقدمه هناك لبعض ممدوحيه ويجزلون له في العطاء مما جعله  
يفضل الإقامة في إيران حتى وفاته سنة ١٠٢٨ للهجرة . وقد أشاد به وبشعره ابن معصوم  
في كتابه «سلافة العصر» قائلاً في نعته : «البدیع الأثر والعيان ، الحكيم الشعر الساحر  
البيان ، أتى بكل مبتدع مطرب ، ومخترع في حسنه مغرب . وقد وقفت على فرائده التي  
لمعت ، فرأيت مالا عين رأت ولا أذن سمعت .» ومن محاسن مراثيه مرثيته في الشيخ  
أبي محمد حسين البحراني سنة إحدى وألف ، وفيها يقول :

جَدَّ الرَّدَى سببَ الإسلامِ فَانجَدمَا      وَهَدَّ شامخَ دينِ اللهِ فَانهدمَا  
نبكى فَنَى لم يَحَلِّ الصَّيْمُ ساحتَه      ولا أَباحَ له غَيْرَ الحِجَامِ حِمَى  
ذا منظرٍ يُبصرُ الأعمى برؤيتِه      هُدَى وذا منطِقٍ يستنطقُ البُكْمَا

(١) ساحل الذهب الأسود لمحمد سعيد المسلم ص ٢٣٥  
وديوانه طبع في إيران سنة ١٣٧٣ هـ .

(١) انظر في ترجمة جعفر الحطّطي سلافة العصر لابن  
معصوم ص ٥٣٢ وخلاصة الأثر في أعيان القرن  
الحادي عشر للمحبي ٤٨٣/١ ونفحة الرحمة ٢/٢٠٤

لو عَلَّمَ الوَحْشَ ما يُنْشِئُه من حِكمٍ لراحتِ الوَحْشُ من تَعلِيمِه عَلمًا  
 ما راحَ حتّى حَشا أَساعِنًا دُرُراً من لَفظِه وَسى أذهاننا حِكمًا  
 والتكلف في هذا الرثاء واضح ، ويكشفه ما يحمل من مبالغات على نحو ما نرى في  
 البيت الأول والثالث والرابع ، وكان يكنى الشاعر أن يعلم صاحبه الناس فيصبحوا  
 علماء ، أما أن يعلم الوحش فتتحول علماء على يديه ، فهذه مبالغة مفرطة . ويتوفى في نفس  
 السنة الشيخ أبو علي عبد الله بن ناصر الخطي ، فيشيعه بمرثية ، يقول في تضاعيفها :

فَتى كَرمتُ آباؤَه وجُدودَه وطابتُ مَساعِيه فَمَ له الفَخْرُ  
 جوادُ له في كُلِّ أُنمَلَةٍ مَجْدُ بصيرُ له في كُلِّ جارِحَةٍ فَكْرُ  
 ويا بلدَ الحَظِّ اعترَكَ لفقده مدى الدهر كَسْرَ لا يُرامُ له جَبْرُ  
 من الآنَ بَدءُ الشرِّ فيكَ وإنه لتصلُ باقى وآخِرُه الحَشْرُ  
 ولو خَلدَ المعروفُ في النامِ واحدًا لخلدَ عبدُ الله نائلُه القَمْرُ

وفرق بعيد بين لغة هذه الأبيات ومعانيها وصورها ولغة الأبيات السابقة وما تحمل من  
 معان وصور ، فهنا طواعية ومرونة في التعبير ، فالألفاظ يشيع فيها التناسق كما يشيع في  
 الأفكار والأخيلة . وقد يكون السبب في ذلك أن الشاعر لم يصدر في المرثية الأولى عن تأثر  
 حقيقي بخلاف الثانية التي رثى فيها مواطنه الخطي . وطبيعي أن تكون أكثر أشعاره مدائح ،  
 مثله في ذلك مثل معاصريه ومن سلفوا قبلهم ، من ذلك قوله في وزير أمير البحرين ركن  
 الدين محمد بن نور الدين من مدحة طويلة نظمها في سنة إحدى وألف للهجرة .

ملكٌ رَمَى دَرَجَ الفَخارِ فلم يَدَعُ فيها لُراقٍ بَعده من مَطْمَعِ  
 وتناولتُ كَفاهَ أَشرفَ رتبةٍ لو قامَ يَلِمُها السُّها لَم يَسْطَعِ<sup>(١)</sup>  
 أُندى من الغيثِ المَلتُّ إذا اجتَدى أحمى من اللَّيثِ الهَزْبِ إذا دُعِيَ<sup>(٢)</sup>  
 حَيَّتْ يا كَسرى الملوِكُ تَحِيَّةً تُربى على كَسرى الملوِكِ وتُبعِ

والتكلف واضح في هذا المديح ، وتبدو في الأسلوب رقع غير ملائمة ، ككلمة « قام  
 يلمسها » وكلمة « اجتدى » أى طلبت جداوه وفائدته ، بالإضافة إلى كلمة « كسرى »  
 المكررة في البيت الأخير . وهو يستهل هذا المديح بنغمة أى نواس المعروفة من الدعوة إلى  
 الانصراف عن ذكر الأطلال إلى ذكر الخمر ، وله بعض خمريات . لعل أطرفها خمرية  
 حاثية يقول فيها :

(١) السها : كوكب صغير من نبات نعش الصغرى . القوى .

(٢) الملت : الدائم الملح . العزيز : الأسد الضخم

عاطنيا قبل ابتسام الصباح      فهى تُغنيك عن سنا الصباح  
 أنت تدرى أن المدامة نارٌ      فاقتدحها بالصب في الأقداح  
 فهى تمحو بضوئها صبيغة اللب      ل فيغدو وجهه اللججى وهو ضاح  
 أرسلتها وردية كدم الكب      شى أسالته مديبة الذباح

وواضح أن التكلف يسرى في هذه الأبيات ، وأن كلمة : «أنت تدرى» في البيت الثانى أفسدت النسق فيه . والشطر الثانى في البيت الثالث تكرار للشطر الأول ، وكان يكفيه أن يشبه الخمر بدم الكباش ولا يضيف كلمة «أسالته مديبة الذباح» . ومع ذلك كله يعد جعفر الخطي أهم شاعر ظهر في زمنه بالقطيف والأحساء أو بعبارة أخرى بالبحرين ، وهو بلا ريب أشعر من ترجم له ابن معصوم في سلافة العصر والمجى في نفحة الريحانة بالقياس إلى مواطنيه .

## ٥

### شعراء الفخر والهجاء

ظل الفخر والهجاء نشطين في هذا العصر نشاطهما في العصور السابقة ، ولكن يلاحظ أن المصادر احتفظت بشعر الفخر أكثر من احتفاظها بشعر الهجاء ، ومررنا أن الطاهر الجزرى كان من شعراء قرواش صاحب الموصل وبواديه ، وله ثلاث أبيات يصف في أولها وثانها الليل وظلماته وفي الثالث فرسه ، واستطرد من وصفه في كل بيت إلى هجاء شخص يقول (١) :

وليل كوجه البرقيدي ظلمة      ويرد أغانيه وطول قرونه (٢)  
 قطعت دياجيه بنوم مشرد      كعقل سليمان بن فهدي ودينه  
 على أولتي فيه التفات كأنه      أبو جابر في خبطه وجنونه (٣)

ويبدو أن البرقيدي كان مغنياً ويصفه ببرودة غنائه وسوء خلقه إذ كان قواداً ، والهجاء في البيتين التاليين مقذع كما هو واضح . ومن الهجائين المقذعين القاضى العثماني اليمنى وله مدائح في أمراء زبيد آل نجاح وفي غيرهم من أمراء الدول اليمنية ، ومن أقذع هجائه قصيدته في الداعي على بن محمد الصليحي حين قتله سعيد بن نجاح أمير زبيد ، وفيها

(٣) الفرس الأولي : شديد السرعة إلى درجة الجنون .

(١) اللامية ١/ ١٢٨ .

(٢) البرقيدي : نسبة إلى برقيد قرية بالموصل .

يصف مظلته التي كان يحتمى بها من حرارة الشمس ، وكيف أن سعيداً رفع على عمودها رأسه ، يقول <sup>(١)</sup> :

بكرت مِظلتهُ عليه فلم تُرْحُ إلا على الملك الأجلِّ سعيدها  
ما كان أقبحَ شخصه في ظلها ما كان أحسنَ رأسه في عودها  
وأرادَ مُلكَ الأرضِ قاطبةً فلم يَظفَرُ بغيرِ الباعِ من مَلحودها  
سودُ الأراقمِ قاتلتُ أسدَ الشرى يا رحمةً لأسودها من سودها

وكان آل نجاح إفريقيين من الحبشة كما مر بنا ، ولذلك كنى عنهم بسود الأراقم أي الأفاعي ، والقصيدة مليئة بالتشفي من الصليحي وبهجاه مرير . وللشيخ محمد بن سعيد المكي في هجاء بعض أهل عصره <sup>(٢)</sup> :

اترك العُجبَ فما أنت سوى رجلٍ إما لضحكك أو لغمِّ  
كغرابِ السوءِ يَمشى مَرِحاً مُعجِباً وهو أخو الشؤمِ الأذمِّ  
يَقبِلُ الثوبَ وفي أكتافِهِ وسخُ العِرضِ وآلاتُ التَّهمِ

ويلقانا الفخر في كل مكان من الجزيرة على ألسنة الأمراء والشعراء ، ومر بنا فخر عارم لِقرواش أمير الموصل وبواديه . ولهباء الدولة منصور بن ديبس المزبدي (٤٧٤-٤٧٩ هـ) أمير بوادي الحيلة قصيدة يفخر فيها بمثل قوله <sup>(٣)</sup> :

أولئك قومي إن أعدَّ الذي لهم أكرمٌ وإن أفخرَ بهم لا أكذبِ  
همُ ملجأُ الجاني إذا كان خائفاً ومأوى الضربك والفقر المعصبِ <sup>(٤)</sup>  
بطأة عن الفحشاء لا يحضرونها سراعٌ إلى داعي الصباح المثوبِ <sup>(٥)</sup>  
مناعيشُ للمولى مَساميحُ بالقرى مصاليتُ تحت العارضِ المتلهبِ <sup>(٦)</sup>

وهو يفخر بقومه ، ويقول إنهم ملجأ الجاني يلوذ بحماهم ، فلا تمتد إليه يد ، ومأوى الفقراء والبؤساء ، مع اجتناب للمحرمات لا يقترفونها ، ومع مسارعة إلى الصلاة في الفجر وطوال النهار ، ومع إنعاش للصحاب وكرم مدرار ونفاذ في الشدائد . ومن طريف ما للرسوليين من فخر موشح للسلطان المجاهد الرسولي بسهله بقوله <sup>(٧)</sup> :

(١) الخريدة (قسم الشام) ٣/٢٣٣ ، ٣٧٧ .

(٢) سلاقة العصر ص ٢٢٥ .

(٣) الخريدة (قسم العراق) ٤/١٥٨ .

(٤) الضربك : البائس . المعصب : الذي لا يجد

مصاليت : نافذون في الأمور .

قوته

(٥) الخرجي ٢/١٢٤ .

نلت أنا العزَّ بأطراف القنا  
ليس بالعجز المعالي تُجتنى  
نحن بالسيف ملكنا اليمنا

كلُّ فخرٍ تدعى الناسُ لنا أعرق العالم في الملك أنا  
وهو يفاخر بأسرته فخرًا شديدًا ، ويمضى فيسمى آباءه متحدثًا أو مفاخرًا بشجاعته  
وجوده وبذله للمال واتتجاع العفاة السائلين له وصفحه الجميل وعفوه . والفخر كثير في  
اليمين ، غير أننا نتركها إلى حضرموت وشاعرها ابن عقبة المتوفى سنة ٦٩٥ وشعره يمجج  
بالفخر من مثل قوله (١) :

إني امرؤ عَفُّ الإزار عن الحنَّا لم أَغشَرَ مُتَدُّ نَشَاتُ بَابِ المنكِرِ  
إني على كَسْبِ العلومِ مَحِيْمٌ وِبُكَائِي فِي طلبِ العُلا وَتَحْسُرِي  
إني من العَرَبِ الذينِ نِجارُهُم من خالصِ العِقيانِ لبَّ الجَوْهَرِ  
وتَحَدَّتْ أَصحاباً إِذا نادَمْتهم لَمْ أَخْشَ منهم من يَنْمُ وَيَقْتَرِي  
عِلْمِي وَحِلْمِي وَالْحِصانُ وَصارمِي وَنَدَى يمينِي وَالْعِفافُ وَدَفْتَرِي

وابن عقبة يفتخر بسجاياه الكريمة من العفة والارتفاع عن المنكر والتحلل بالعلم فهو  
حيه الذي يقف نفسه عليه ويكيه بكاء المحبين لصواحبهم ، ويفاخر بأصله العربي ،  
ويحدثنا عن صحابه وندمائه من العلم والحلم والفرومية والبأس والجود والعفاف ودفاتر  
الدراسة ، ويطنل في الفخر بقومه من خولان وكهلان وكندة وملوكها الأقدمين . ويكتظ  
ديوان ابن مقرب العيوني بالفخر بآبائه والأمراء من أسرته حكام البحرين وبيان ما لهم من  
أبجاد ومآثر ، ويفخر كثيراً بنفسه وبشعره ، وقد يخلط فخره بالشكوى من الدهر ، على  
شاكلة قوله :

تجاهلَ هذا الدهرُ بي فَتَكْتَبْتُ عَلِيَّ بأنواعِ البَلايا كَنائِبُهُ  
وَإني وَإِنْ أْبْدَى اصْصِراراً بِنَجْدِهِ وَأَوْجَفَ بي وَازورَّ لِلْبِغضِ جانِبُهُ (٢)  
لأَعْضِي على بَغْضائِهِ وَازورارِي وَأَعْجَبُ من حَرِّ كَرِيمٍ يَعاينُهُ  
وَاسْتَقْبَلِ الخُطْبَ الجَليلَ بِثاقِبِ من العزمِ يعلو لاهِبَ النارِ لاهِبُهُ  
وكانه يحس نفسه صخرة عاتية لا يستطيع الدهر مها ألح عليه ببلاياه أن ينال منه  
شيئاً ، مها أْبْدَى من تكبر واستعلاء ومها عدا عليه بكوارثه ، ومها انحرف عنه وأظهر من

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/٦٧ وتاريخ حضرموت السياسي ١٦٩/٢ .  
(٢) اصصرارا بنجده : ميلا ، كناية عن الكبر . أوجف : بالحلل : عدا بها للقتال . ازور : مال وانحرف .

بغضائه . وإنه ليلقاه بعزم كالشهاب الثاقب تعلقوا ناره على نيرانه وتحمدها فلا تشتعل ضده أبداً . ونقف عند شاعرين من شعراء الفخر والهجاء ، هما نشوان بن سعيد الحميري وسليمان التُّبَيْهِي العُمَاني .

### نشوان بن سعيد الحميري<sup>(١)</sup>

من أهل جبلِ شامخٍ مطلقاً على «تعز» اسمه صَبْرٌ ، ولا يعرف بالضبط تاريخ مولده ، وتدل نسبته إلى حمير أنه من سلالتها ، وكان ملوكها يسمون بالأقبال والأذواء ، ونزاه ينسب نفسه في قصيدته الحميرية إلى قبيل يُدعى ذا سحر ، يقول :

أو ذو مرشد جدنا القَيْلِ ابنِ ذِي سَحْرٍ أبو الأذواء رَحْبُ السَّاحِ  
ويبدو أنه أكب منذ نشأته على العلوم المختلفة ينهل منها ، حتى أصبح عالماً في اللغة والتاريخ والنحو والفقه والأصول وعلوم الأوائل وعلم الكلام ، وينص من ترجموا له على أنه كان معتزلياً . وذكروا أنه اشتغل بالقضاء في بعض مخاليف اليمن وأنه كانت له في الفرائض (الموارث) وقسمتها يد . وله مصنفات مختلفة ، أشهرها «شمس العلوم ودواء كلام العرب من الكلوم» في نحو ثمانية مجلدات ، وذكرنا في الفصل الثاني أنه معجم لغوي ، وهو فيه لا يكتفي بالحديث عن اللغة بل يتبع بالحديث عن المعادن والحيوانات والنباتات والتاريخ وبعض مسائل الطب والفلسفة . وبذلك حوَّله إلى دائرة معارف لغوية وجغرافية وتاريخية ونباتية وحيوانية وطبية وقد طبع من القسم الأول إلى آخر حرف التاء في ليدن ، ثم طبع منه جزآن في القاهرة إلى آخر حرف الشين ، ويتخلل الكتاب فخر عارم باليمن وفضائلها وملوكها الأولين . وله رسالة الحور العين وقد طبعت مع شرحها طبعة سقيمة . وطبعت له بالقاهرة القصيدة الحميرية مع شرحها المسمى «خلاصة» السيرة . الجامعة لعجائب أخبار الملوك التابعة ، وهي في أكثر من مائة وثلاثين بيتاً ، استهلها بقوله :

الأمرُ جدُّ وهو غيرُ مزاحٍ فاعمَلْ لنفسك صالحاً يا صاح  
ومضى قليلاً في الوعظ ثم خرج إلى تعداد ملوك التابعة والأقبال والأذواء ، والقصيدة بذلك من الشعر التعليمي التاريخي . وقد نال شهرة مدوية في وطنه

(١) انظر في ترجمة نشوان معجم الأدباء ٢١٧/١٩ كنية ومقالة المشرق سترستين عنه في الجزء الأول من كتاب المتقى من دراسات المشرقين (طبع القاهرة) ٣/٣٤٢ والخزبذة (قسم الثام) ٣/٢٦٨ و ٣٨٥ وبنية الوعاة للسيوطي ومقدمات محقق ص ٧٥ .

لعصره ، لمعارفه الواسعة ، ويبدو أنه لم يكتبف بالمجد العلمى فقد رأى أن يضيف إليه مجد الحكم والسلطان ، واستطاع فعلاً أن يستقل بجبل صبر موطنه وقلاعه وحصونه وأن يظل مسكاً بصولجان الحكم فيه حتى وفاته سنة ٥٧٣ للهجرة . وما تأليفه القصيدة الحميرية إلا صورة من صور اعترازه اعترازاً لا حد له بقحطانيته . وهو يسوق أشعاره جميعها في هذه العصية المفرقة لقحطان من مثل قوله :

منا التَّابِعَةُ الْيَمَانُونَ الْأَلْيُ      ملكوا البسيطة ، مكلٌ بذلك تُحْبِرُ  
من كلِّ مرهوبٍ اللقاء مُعَصِّبُ      بالتاج غازٍ بالجيش مظفر  
تَعْنُو الوجوهُ لسيفه ولرمحه      بعد السجود لتاجه والمِعْفَرُ<sup>(١)</sup>  
فأفخرَ بقحطانٍ على كلِّ الوَرَى      فالناس من صدَفٍ وهم من جوهرٍ  
وإذا غَضِبْنَا غَضَبَةً يَمِينَةً      قطرتُ صَوَارِمُنَا بموتِ أحمرٍ  
فَتَدَّتْ وَهَادُ الْأَرْضِ مُتْرَعَةً دَمًا      وغدتُ شِبَاعًا جَائِعَاتُ الْأَنْسْرِ

والآيات تحمل عصية عنيفة ، وهى عصية لا يشيد فيها بالملوك والتبابعة الأولين من قومه ، بل أيضاً لا تزال الحماسة تشد به وتتأجج في صدره ، حتى يجعل قحطان فوق الورى والناس جميعاً ، بل حتى يجعلهم من معدن غير معدنهم ، فهم من جوهر والناس من صدف ، ولا كغضبيهم ، فغضبهم يملأ الوهاد دماً وأشلاء ما تزال تحط عليها النصور والصقور ، تملأ بطونها الجائعة . ولم يكتبف بهذه العصية الجائعة لقومه ضد مضر والعالم جميعه ، فقد اندفع في نقائض مع الأشراف الرسيين أصحاب صعدة ، وشاع أنه قال :  
أما الحسينُ فقد حواه المُلْحَدُ      واغتاله الزمنُ الخنُونُ الْأَنْكَدُ  
فتبصَّروا يا غافلين فإنه      فى ذى عرارٍ ويحكُمُ مُسْتَشْهَدُ<sup>(٢)</sup>  
و حين وصل البيتان إلى أسمع الرسيين غضبوا غضباً شديداً ، وعظم هياجهم ، وردوا عليه بعنف ، مهديين متوعدين بمثل قول عبد الله بن قاسم الزيدى :  
أما الصحيحُ فإن أصلك فاسدٌ      وجَرَكَ منا ذابِلٌ ومَهْدُ<sup>(٣)</sup>  
فى قصيدة طويلة . ووصلت أسمع نشوان ، فلم يجلد إلى الصمت والسكوت ، بل مضى بردٌ بقصيدة دالية يقول فيها :

من أين يأتى الفسادُ وليس لى      نسبٌ حيثُ فى الأعاجم يوجدُ  
لا فى علوج الرومِ جدُّ أزرقُ      أبداً ولا فى السُودِ خالٌ أسودُ

(١) تعنو: تقاد. المغفر: زرد يضعه المحارب تحت القلنسوة.

(٢) العرار: زهر بدوى ويقصد بذى العرار أن الحسين

(٣) ذابِل: رمح. مهندا: سيف.

ومضى يتصل من البيتين السالفين . غير أنه ساق تنصه في تهكم وسخرية لاذعة من تهديده بسفك دمه ، قائلاً :

فَدَعِ التَّهْدِدَ بِالْحِصَامِ جِهَالَةً فَحُصَامُكَ الْقَطَّاعُ لَيْسَ لَهُ يَدٌ  
مَنْ قَدْ تَرَكْتَ بِهِ قَتِيلًا ١٩ أَنِّي مِمَّنْ تَوَعَّدُهُ وَمَنْ تَهْدِدُ  
إِنْ لَمْ أَمْتِ إِلَّا بِسَيْفِكَ إِنِّي لِقَرِيرٌ عَيْنٍ بِالْبَقَاءِ مَحْلُدٌ  
وكل هذا يمكن أن يحدث من نشوان في سبيل دفاعه عن نفسه ، ولكنه لم يلبث أن وصم جبينه ووصمة لا تمحى بالأبيات التالية :

مُوتِي قَرِيشُ فَكَلُّ حَيٍّ مَيِّتٌ لِلْمَوْتِ مَنَا كُلُّ حَيٍّ يُولَدُ  
قَلَمَ لَكُمْ إِرْثُ النَّبُوَّةِ دُونَنَا أَزْعَمْتُمْ أَنْ النَّبُوَّةَ سَرَمَدٌ  
مَنْكُمْ نَبِيٌّ قَدْ مَضَى لِسَبِيلِهِ قَدِّمًا فَهَلْ مِنْكُمْ نَبِيٌّ يُعْبَدُ  
وهذه سفاهة وخرق وحقاقة ، ويقول العماد الأصهباني تعليقاً على هذه الأبيات : « قاتله الله ولعنه وأحزاه ، ما أشد افتراه على الله وأجراه ، وأية فضيحة فوق هذا ولولا النبي المصطفى الذي اختاره الله واجتياه ، وجعله الوسيلة إلى نيل رضاه ، صلوات الله عليه وسلامه ، ما سعدوا ولا فازوا ولا حازوا من الشرف والفضيلة ما حازوا » وحقاً إنها كلمات خبيثة كلها نكد وخزى ووبار ، ولو أن الشاعر وجّه شعره وجهة أخرى غير وجهة هذه العصبية الحرقاء لكان ذلك له أفضل وأجدى .

### سليمان النبهاني<sup>(١)</sup>

آخر سلاطين بني نهبان العنانيين ولا يعرف تاريخ مولده ، وقد عاش حتى سنة ٩١٥ للهجرة وكانت حياته في الحكم سلسلة من الحروب بينه وبين أخيه وبينه وبين خوارج نَزَوِي ، منها وقعة « حَمَت » بينه وبين خوارج نَزَوِي لعهد إمامهم عمر بن الخطاب ، وفيها انهزم عمر ، ودارت الأيام وانتصر عمر عليه ، وسرعان ما توفي فتفكس سليمان الصعداء وعاد إلى عاصمته وأخرج منها شيوخ الخوارج المقيمين بها . وحاربه الخوارج في « واقعة أركي » ودارت الدوائر عليه . وما زال به أبو الحسن بن عبد السلام الذي ولي أمر الخوارج بعد عمر بن الخطاب ، حتى غادر الديار إلى هَرْمَزُ في أرض فارس ومات أبو الحسن فعاد واسترد سلطانه ، غير أن العنانيين تابعوا إمام الخوارج محمد بن إسماعيل الخروصي سنة ٩٠٦

(١) انظر في ترجمة سليمان النبهاني تحفة الأعيان ديوانه عز الدين النوحى ، وهى مقدمة بديعة . والديوان لتور الدين السالى ١/٣٢١ وما بعدها ومقدمة محقق مطبوع بدمشق .

ونشبت بينهما موقعة الحمة وهزم فيها سليمان ولم تقم له بعدها قائمة . وبذلك ضعفت دولة  
النبانيين وكاد يقضى عليها قضاء نهائياً . وديوانه يفيض بثقافة لغوية وأدبية جيدة ، وهي  
ثقافة تتضح بجلاء خلال معارضاته الكثيرة للشعراء ، إذ كان يعارض أشعار الجاهليين  
من أمثال امرئ القيس وطرفة وعنترة وزهير وعمرو بن معد يكرب والنابعة والأعشى وأشعار  
الإسلاميين من أمثال جرير والغزدق وذى الرمة وكثير وقطرى بن الفجاءة وأشعار  
العباسيين من أمثال أبي نواس وأبي العتاهية وأبي تمام والبحترى وابن دريد والمنتبى  
وأبي العلاء . وقد تتبع محقق الديوان الأستاذ عز الدين التبوخنى ذكره للمواطن والأماكن  
التي نثرها امرؤ القيس في أشعاره ، كما تتبع أخذها من عنترة ومعارضته لطرفة في معلقته  
وعمر بن معد يكرب في داليتيه وابن دريد في مقصورته وأبي نواس في خمرياته وما تطوى  
من معان وصور وأوزان وقواف ، ولاحظ معارضته لأبي العلاء في قصيدته ( ألا في سبيل  
المجد ) وأنه استعار منه المعانى وكثيراً من الألفاظ كما استعار الوزن والقافية ، على شاكلة  
قوله :

ألا في سبيل المجد ما أنا صانعُ نَفُوعٍ وَضَرَّارٍ وَمُعْطٍ وَمَانِعٍ  
وإني لذو طَعْمينَ شَهْدٌ يشوبه رحيقٌ وسمٌ دونه السُّمُّ ناقع

ولكن من الحق أنه مع هذه المعارضات الكثيرة في ديوانه وإغاراته على معانى  
الأسلاف وأخيلتهم وأفكارهم شاعر مجيد يحسن رصف الكلم . والموضوع الأساسى في  
ديوانه هو الفخر ، وهو شئ طبيعى ، لأنه كان سلطاناً وصاحب دولة ومن فخره الذى  
يصور فيه بسالته وشجاعته :

يمينا بالصَّوَّارمِ والحِرَابِ	وبالْخَيْلِ الْمَسُومَةِ العَرَابِ (١)
وَكُلُّ مُفَاضَةٍ كَالنَّهْيِ سَرْدٍ	تَرْدُ العَضْبِ مَفْلُولَ الذُّبَابِ (٢)
أنا ابنُ السَّابِقِينَ إني المَعَالَى	ورغْمُ الصَّيْدِ والشُّوسِ الغِضَابِ (٣)
أنا المَلِكُ الذى ساد البرَايا	مَقَرُّ الفَخْرِ والحَسْبِ اللَّبَابِ
ولى يومان من نُعْمَى وبُؤْسَى	ولى طعان من أَرَى وصَابِ (٤)

ويتضح لنا من هذه الأبيات صوته فى الفخر ، فهو يُقسِّم بأدوات الحرب والبأس أنه

(١) المَسُومَةُ : الملعمة . العَرَابِ : الجليدة .  
 (٢) المُفَاضَةُ : الدرع . النَّهْيِ : الغدير . والشعراء  
 يشبهون الدروع وعضونها بمياه الآبار حين تمر بها الريح  
 فتحدث فيها حركات وعضونها . سرد . منسوجة .  
 (٣) الصَّيْدِ : السادة . الشُّوسِ : جمع أشوس وهو  
 المتعاطم الذى يتبه بنفسه زهواً .  
 (٤) الأَرَى : عمل النحل . الصَّابِ : المر .

سليل السابقين إلى الشرف : شرف النسب وشرف الفعال ، ويتمدح بأنه كاللنذر بن ماء السماء الذى كان يتخذ له يومين كل عام يوم نعمى ويوم يؤسى وأن له طعمين حلواً ومراً . وهو يلتقى مع نشوان بن سعيد فى الإكثار من الفخر بقحطان وملوك اليمن وأقباها بمثل قوله :

ونحن ملكنا الجنتين بمأربِ ودُسنا برغمِ أنفِ كِسرى وقبَصِرِ  
ويكثر من تعداد أسماء هؤلاء الأقبال والملوك ، ولكنه لا يبلغ من التيه بهم والزهو مبلغ نشوان ، وإن كنا نحس عنده أيضاً نغمة الفخر على نزار حين يردّد ما قدمه الأنصار للرسول ﷺ وما أدوه من جهاد فى سبيل إعلاء الإسلام وما بذلوا من الأرواح والأموال ، على نحو ما نرى فى قوله :

ولولا الملوك الصبيدُ قومى لم يُقيمَ لعمرى قومٌ قبلة الصلواتِ  
ضربنا على الإسلام أبناءَ هاجرِ فدانوا وأدوا واجبَ الزكواتِ  
ويقصد بأبناء هاجر قريشاً ، وهى أم إسماعيل عليه السلام كما هو معروف . وكثيراً ما يبالغ مبالغات مفرطة فى فخره تتجاوز الحدود كقوله :

وهبَ الإلهُ لى الفضائلِ مثلاً أعطى الكليمَ الصُحفَ والألواحِ  
والكليم هو موسى عليه السلام ، وما كان أغناه عن مثل هذه المبالغة . ويكثر فى ديوانه من ذكر الأطلال والفزل ، وهو فيها مقلد يحتذى على معانى الأسلاف وصورهم . ويتعرض كثيراً لوصف الناقة ، وأهم من وصفه لها وصفه للفرس لأنه يتصل بشجاعته وحروبه ، غير أنه لا يأتى فى الوصفين بجديد ، ويكثر من ذكر الصيد وهو طبيعى لأمر يجد فراغاً كثيراً . وله قصيدة ميمية يصف فيها حمار الوحش وأتته ومسيرته معها فى الصحراء بحثاً عن ماء حتى إذا ألمَّ به أرسل عليه وعلى الأتن صائدٌ متربص وراء الأشجار سهامه ، فأخطأت الصيد ومضى الحمار وأتته عبر الصحراء . ويتلو هذا المشهد بمشهد ثانٍ لمعركة بين ثور وكلاب صائد ، ويذكر لنا لون الثور وميته بين أشجار تقيه صوب الغمام ، حتى إذا أسفر الفجر وخرج الثور من كِناسه أرسل الصائد عليه خمسة كلاب ، فقتل منها اثنين ، ومضى يشق طريقه فى القلوات مثيراً للغبار من حوله . والمشهدان منقولان حرفياً من بائنة ذى الرمة المشهورة التى عرضنا لها فى كتابنا «التطور والتجديد فى الشعر الأموى» ولم يلتمس الشاعر منه المشهدين فحسب ، بل التمس أيضاً بعض عباراته ومعانيه ، حتى وصف ذى الرمة لثوره بأنفته من الفرار من المعركة نجده عند التنبأ إذ يقول :

واعتاده أنفُ الكريدِ هم فكرٌ كالبطل المحامى

وللخمر حيزٌ كبير في الديوان ، ويستظهر الأستاذ عز الدين التتوخي أنه كان يطلق  
لنفسه العنان في مطالع حياته ، ويقرن إحدى خمرياته إلى خمرة لأبي نواس ، ويبين  
مدى إغارته على معانيها وصورها وعلى الوزن والقافية ، ومن شعره في الخمر قوله :  
وكم جنة في الأرض دانٍ قَطُوفُها بها عُرُفاتُ أبا عُرُفاتِ  
قضيّنا بها أياّنا بمُدّامةٍ لدى قاصراتِ الطُرفِ بين سُقاةِ  
وَحُورٍ كأمثالِ الدُمى وبراغِزٍ يُطربننا بالنأي والنغاةِ  
وواضح أنه لكي يجمل صورة الجنة جاء بقاصرات الطرف اللاتي يقصرن عيونهن على  
صواحين ولا يلتفتن إلى غيرهم ، كما جاء بالخور العين وأضاف إليهن أولادهن من البراغز  
وهن يطربنهم بالضرب والعزف والغناء على الآلات الموسيقية . ويبدو أنه كثيراً ما كان يفكر  
في الدنيا ونوائبها إذ نرى له بعض مواعظ في ديوانه - وله رثاء حار لأخ ثار عليه وقلته -  
ولعل من الطريف أن نجده يحتّم بعض قصائده بالصلاة على الرسول ﷺ ، على شاكلة  
قوله في خاتمة إحدى قصائده :

وأختمُ شعري بذكر الرسولِ نبيِّ البريةِ نورِ الظلامِ  
وفي الحق أنه كان شاعراً مجيداً ، وتكثر معارضاته واقتباساته من الشعراء السابقين ، غير  
أن ملكته الشعرية كانت ملكة خصبة .

## الفصل الرابع

### طوائف من الشعراء

١

#### شعراء الدعوة الإسماعيلية

كان أول ظهور للدعوة الإسماعيلية في الجزيرة العربية على يد حمدان قرمط الذي ينسب إليه القرامطة ، وقد أخذ يدعو دعوته القرمطية الإسماعيلية منذ فواتح الربع الأخير من القرن الثالث للهجرة في سواد الكوفة والبصرة . وأرسل أحد دعائه المسمى أبا سعيد الحسن بن بهرام الجنائي إلى البحرين ، فنشر الدعوة فيها واستطاع في سنة ٢٨٦ أن يؤسس بها لنفسه وأبنائه دولة هناك ، على نحو ما مرّ بنا في غير هذا الموضوع . وظلت دولته قائمة يتناوب عليها أبنائه وأحفاده حتى سنة ٣٥٨ إذ قطعوا علاقتهم بالفاطميين نهائياً - ودخلوا في طاعة الخليفة العباسي وخطبوا له على المنابر ، وبذلك يتضح كيف أن الأعصم أميرهم حارب الفاطميين - كما مرّ بنا - تحت راية العباسيين سنة ٣٦٠ . وقد أرسل حمدان قرمط داعيين من دعائه إلى اليمن أحدهما يميني هو علي بن الفضل والثاني كوفي هو منصور بن حوشب ، واستطاع علي أن يستولى على صنعاء ، كما مرّ بنا في غير هذا الموضوع ، غير أنه قلب للقرامطة وللفاطميين ظهر المجن ، فأخذ يدعو لنفسه ، وزعم لأتباعه أنه نبي وأنه جاءهم بشريعة جديدة تحلّ لهم المحارم والمآثم وترفع عنهم الصلاة والصيام والحج ، ويروى أنه صعد يوماً المنبر وأشد له أو لبعض شعرائه (١) .

خُدَيْ العودَ يا هِذِهِ واضْرِبِي	نُقِيمُ شرائعَ هذا النَّبِيِّ
تولِّي نبيُّ بني هاشمٍ	وجاء نبيُّ بني يَعْرَبِ
أحلَّ البناتِ مع الأُمهاتِ	ومن فضله زادَ حِلَّ الصَّبِيِّ
وقد حطَّ عِنا فروضَ الصلاةِ	وحطَّ الصيامَ فلم تتعب

(١) الخلاف السلياني ١/١٤٢ .

ولا تطلب السَّعَى عند الصَّفا ولا زورة القَبْرِ في يَثْرِبَ  
 فهو نَبِيُّ يَعْزِبُ أو قحطان كما يزعم زورا وبهتانا بل كفرا وضلالا . ولم يلبث عدو الله  
 والإسلام أن لقي حتفه -- كما مر بنا -- في سنة ٣٠٣ بمشروط حَسَنَى متطرب ظل يرصده حتى  
 وجد الفرصة سانحة . أما منصور بن حوشب فنفض يده من القرامطة واتصل مباشرة  
 بالفاطميين حين كانوا لا يزالون في المهديّة بالقرب من تونس ، واتخذوه داعية لهم في الجزائر  
 فاستولى على بعض الحصون ، وتوفى سنة ٣٣١ فخلفه ابنه حسن على الدعوة . وتوفى  
 وظلت الدعوة قائمة وظل لها دعاة مختلفون ، وتولاها الداعي الكبير على بن محمد الصُّليحي  
 (٤٣٩ - ٤٥٩ هـ) مؤسس الدولة الصليحية باليمن كما مر بنا ، وكان قد تتلمذ على داع  
 فاطمي يمني يسمى سليمان بن عبد الله الأزواحي ، حتى إذا مات خلفه عليها ، وكان يستغل  
 الحج إلى بيت الله الحرام وسيلة لنشر دعوته في اليمنيين الذين يتجمعون هناك من أنحاء  
 مختلفة . وبإيعاز رؤساء قبيلة هَمْدان على نصرته ، ولم يلبث أصحابه أن تكاثروا فاستولى بهم  
 على صنعاء وعدن وزييد ودانت له البلاد من مكة إلى حضرموت ، وكان شاعرا ، وتنسب  
 إليه أشعار جيدة ذكرنا منها بيتين في مستهل حديثنا عن كثرة الشعراء في الفصل الماضي ،  
 ويشك بعض القدماء فيها ينسب إليه من شعر أحيانا ، ويقولون إنه كان ينظمه بعض  
 الشعراء على لسانه <sup>(١)</sup> . ويذكرون أنه لما قطع الشريف شكر أمير مكة ذكر اسم المستنصر  
 الفاطمي من خطبة الجمعة سنة ٤٥٣ تبادل معه رسائل تحمل تهديداً ووعيداً ، وكان مما  
 أجابه به الشريف شكر قصيدة سينية ينذر فيها بحرب مبيرة فأمر شاعره عمرو بن يحيى الهيثمي  
 أن يرد عليه بقصيدة تنقض قصيدته نقضاً ، فردَّ بقصيدة طويلة يقول فيها على لسانه <sup>(٢)</sup> :

دَمُ الأبطال في اليوم العَبَسِ      مُدَامِي لِأَشْرَابِ الحَنْدَرِيسِ  
 وَكَمْ مَلِكٍ أَسْرَتْ وَكَمْ حَمِيسٍ      أَبَادِ سَرَاتَهُ قَتْلًا حَمِيسِي <sup>(٣)</sup>

وكان الهيثمي مايني يشيد بعلي الصليحي وحروبه وما سجلَّ فيها من انتصارات . وكان  
 لا ينهض بعمل دون أن ينشده بعض مدائح . من ذلك أنه لما عزم على الحج في سنة ٤٥٩  
 وأُتاب عنه ابنه أحمد المكرم انبرى الهيثمي بنشد <sup>(٤)</sup> :

إِنَّ سَيْفَ الإِمَامِ كَالْبَحْرِ ذِي المَوْجِ      جَرَّ لَهُ فِي البِلَادِ مَدًّا وَجَزْرًا  
 وَلَنْ سَاعَنَا فِرَاقُ عَلِيٍّ      فَبِحَمْدِ ابْنِهِ لَنَا مَا يَسِّرُ

ولم تكتب لعلي الصليحي العودة إلى عاصمته ودياره من الحج ، إذ كان قد استولى من

(٣) الحميس : الجيش . السراة : السادة .

(١) الخريدة (قسم الثام) ٣ / ٢٢٦ .

(٤) الخريدة (قسم الثام) ٣ / ٢٢٧ .

(٢) الخلاف السلطاني ٢ / ٢٧ .

آل نجاح على زيد ، فرصده سعيد بن نجاح - وكان معه أخوه جياش - في عودته ، وكانت برفقته زوجته أسماء ، فاغتاله ، واقتاد زوجته أسيرة ، وأخذ الشعراء يعزّون فيه ابنه المكرم وبرثونه ، من ذلك قول الهيثمي <sup>(١)</sup> :

وأنشأ الحجّ إلى مكّة يبغي رضا الله وأجرًا جزيلًا  
وارتجّت الأرضُ له هيبةً بمن بها بين فواتٍ ونيلٍ  
فإن يكن نيلَ على غرّةٍ فالبدرُ لأبدٍ له من أفولٍ

وظلت السيدة أسماء في الأسر ثمانية أشهر إلى أن استطاع ابنها المكرم في سنة ٤٦٠ أن يستخلصها من الأسر ويرد إليها حريتها . وفي العام التالي فتك بسعيد وهرب أخوه جياش إلى الهند . وكانت للسيدة أسماء أعمالٌ بكثيرة ، وكان يُخطبُ لها على المنابر بعد الخليفة المستنصر وزوجها على الصليحي <sup>(٢)</sup> ، وفيها يقول الهيثمي <sup>(٣)</sup> :

رسمتُ في السماح سنّةً جودٍ لم تدعُ من معالم البُخلِ رسمًا  
قلتُ إذ عظّموا بلقيسَ عرشًا دسّتُ أسماءَ من دُرَى النّجمِ أسمى

وكانت السيدة أروى بنت أحمد زوجة السلطان المكرم لا تنقل عنها فضلا ، وقد نشأت في حجر السيدة أسماء وعُيّنت بتربيتها وأحضرت لها الدعاة كي يعلموها أصول الدعوة الإسماعيلية الفاطمية . وتوفّي زوجها سنة ٤٧٧ فأسند الفاطميون إليها الدعوة وتدبير شئون الدولة الصليحية ، فكان يُخطبُ لها على منابر اليمن . واستطاع جياش بن نجاح أن يسترد زيد سنة ٤٧٨ وكان مما أعانه على ذلك نشوب نزاع شديد بين أسعد بن شهاب واليها الصليحي ووزيره على بن القيم ، ويقال ان ابن القيم أحسن استقبال جياش حين دخل زيد ، وتزوجت السيدة أروى بالداعي سبأ بن أحمد الصليحي وأشركته معها في الحكم وكان شاعرا جواداً ، وفيه يقول ابن القاسم من قصيدة <sup>(٤)</sup>

ولما مدحتُ الهيرزى ابن أحمدٍ أجاز وكافاني على المدح بالمدح  
فعوّضني شعرا بشعرٍ وزادني عطاءً فهذا رأسُ مالى وذا ربحي

وتوفّي سبأ سنة ٤٩١ وظلت أزمّة الأمور بيدها إلى أن توفيت سنة ٥٣٢ . وبوفاتها انتهت هذه الدولة الإسماعيلية ، وترغم الدعوة في اليمن بعدها آل زريع أصحاب عدن وكانوا يُجزّلون العطايا للشعراء حتى عدّوا عند بعض أمراءهم بالعشرات ، وأكبر

(١) الهداني ص ١٠٣ والخلاف السلياني ٢/ ٣٢ . خطأ أسعد بن يحيى . انظر الهداني ص ٦٧ .

(٢) الهداني ص ٦٧ . (٤) ابن خلكان (طبع دار الثقافة بيروت) ٢/ ٣٣٧ .

(٣) تاريخ اليمن لمبارة طبعة كاي ١٦ وللشاعر يسمى فيه والمهيرى : الأسد .

شعرائهم غير متنازع أبو بكر العيذى . وله مدائح طنانة في الداعي الزريعى عمران بن محمد ابن سبأ من مثل قوله (١) :

مَا إِنْ تَحَطَّ يَدُ الْعُلَى أَوْصَافَهُ      إِلَّا يَسْمُرُ الْخَطَّ لَا بِيَرَاعَ (٢)  
 لَوْ أَنْ تَبِعَ كَانَ أَدْرَكَ عَصْرَهُ      أَضْحَى لَهُ مِنْ جُمْلَةِ الْأَنْبَاعِ  
 خَضَعَتْ لَهُ غَلْبُ الْمُلُوكِ وَإِنَّمَا      خَضَعَتْ لَضَرَّارٍ لَهَا نَفَّاعُ  
 وَعَنْتَ لَعَالَى الْقَدْرُ مِنْهُ مُؤَيِّدٍ      مَاضَى الْأَمْرِ فِي الزَّمَانِ مَطَاعُ  
 وَالْمَالُ مَقْتَسَمٌ مُشَاعٌ عِنْدَهُ      يَبِيدُ النَّدَى وَالْمَجْدُ غَيْرُ مَشَاعِ

وروى له العباد في الخريدة مدائح كثيرة مُعْجَبًا بها ، وذكر أنه كان وزير الدولة الزريعية وصاحب ديوان الإنشاء بها ، وينقل عن عمارة اليمنى إشادة قوية ببيانه وبلاغته . ومع كثرة ما أنشده العباد من مدائحه للداعي الزريعى لانجده فيها إشارات للمذهب الإسماعيلى ، وبالمثل ما أنشده لشعراء الصليحيين ، والعباد في خريدته يتحاشى مثل هذه الإشارات إلا ماجاء عفوا على نحو ما يلاحظ في القسم الخاص بشعراء الدولة الفاطمية في مصر ، واتخذت موقفه أكثر كتب التراجم في عصره وبعد عصره ، وجرى بنا أن نقف عند ثلاثة من الشعراء الإسماعيليين اليمنيين في العصر ، وهم ابن القم ، والسلطان الخطاب ، وعمارة اليمنى .

### ابن القم (٣)

هو أبو عبد الله الحسين بن على بن القم ، وُلد بزَيد ، وبها نشأ وتلقى معارفه ، واستيقظت موهبته الأدبية مبكرة على ما يظهر ، وكان أبوه على من أنصار على بن محمد الصليحي وشيعته ، فحين وُلّى الأسعد بن شهاب على زيد وتهامة بعد استيلائه عليها سنة ٤٥٢ جعله وزيره . ويبدو أن الأب ألحق ابنه بدواوين على الصليحي في صنعاء منذ سنة ٤٥٨ على الأقل إذ نجده يهني المكرم ابنه بزواجه من السيدة أروى الملقبة بالملكة الحرّة في هذه السنة منشداً :

وَكِرِمَةَ الْحَسْبِيِّنِ تَكْنَفُ قَصْرَهَا      أَسَدٌ تَخَافُ الْأَسَدُ مِنْ صَوْلَاتِهَا  
 ظَفَرْتُ يَدَاكَ بِهَا فَبِيحُ إِنَّمَا      لَكَ تَذَخَّرُ الْعُلِيَاءُ مَصْنُونَاتِهَا

أشيع وكتاب الصليحيون ، للهمداني في صفحات مختلفة (انظر الفهرس) والمخلاف السلياني ٤١/٢ . وراجع أيضاً في ترجمته وشعره المقيد في أخبار صنعاء وزيد لعمارة اليمنى تحقيق محمد بن على الأكواع .

(١) الخريدة (قسم الثام) ١٨٢/٣ .  
 (٢) سمر الخط : الرواح . البراع : القلم .  
 (٣) انظر ترجمته وأشعاره في الخريدة (قسم الثام) ٧٤/٣ ومعجم الأدياء ١٠/١٣٢ وفوات الوفيات (نشر مكتبة النهضة المصرية) ١/٢٧٨ ومعجم البلدان : مادة

ولما توفى على الصليحي رثاه على لسان أخته السيدة تحفة . وسرعان ما أخذ الشعراء يحرّضون ابنه السلطان المكرم على الأخذ بثأره والانتقام من سعيد بن نجاح وأخيه وكانوا حبّشانا ودولتهم حبشية كما مر بنا . وانبرى الحسين بن علي بن القم يحثه هو وقومه على الانتقام لعلي الصليحي بمثل قوله :

أَقْحَطَانُ هَزَى الْبَيْضَ وَاعْتَقَلَى السُّمْرَا      وَرُدَّى الْعَوَالَى مِنْ دِمَاءِ الْعِدَا حُمْرَا<sup>(١)</sup>  
وَلَا تُهْدِرِي نَارَ الْمُظْفَرِ إِنَّهُ      بَنَى لَكُمْ مَجْدًا وَشَادَ لَكُمْ فَخْرَا<sup>(٢)</sup>

وليس في المصادر التي بين أيدينا مدائح له في المكرم ، ولكن أثرت له بعض رسائل وجهها على لسانه إلى المستنصر الخليفة الفاطمي ، مما يدل بوضوح على أنه كان كاتب الإنشاء في عهده ، بينما كان أبوه وزير أسعد بن شهاب في زييد ، كما أسلفنا ، ويبدو أنه استقبل جياش بن نجاح استقبالا حسنا حين استولى على زييد ، وربما كان من أسباب استيلائه على زييد . وأكبر الظن أن الحسين لم يشترك أباه في خروجه على الصليحيين ، على كل حال شعره يدل على أنه ظل يخدم الملكة الحرة أروى وزوجها سبأ ، وله فيها قصيدة دالية بديعة يقول في تضاعيفها :

أَعْلَمْتَ أَنْ مِنَ الرَّمَاحِ قُدُودًا      وَمِنَ الصِّفَاحِ مَحَاجِرًا وَنُهُودًا  
أَعْلَى الْأَنَامِ أَبَا وَأَكْرَمُ طِينَةً      وَأَنْتُمْ أَعْرَاقًا وَأَصْلَبُ عُودًا  
لَوْ كَانَ يُعْبَدُ لِلْجَلَالَةِ فِي الْوَرَى      بَشَرٌ لَكَانَتْ ذَلِكَ الْمَعْبُودًا  
هِيَ نِعْمَةُ اللَّهِ الَّتِي مَا مَاؤُهَا      تَمُدُّهَا وَلَا مَعْرُوفُهَا مَجْهُودًا<sup>(٣)</sup>

والبيت الأول رائع في تصوير حزم هذه السيدة وقدرتها على تصريف شئون الحرب ، إنها ذات بأس وجلال وجمال ، ومن المؤكد أنه ظل على كتابة الإنشاء لها بعد وفاة السلطان المكرم<sup>(٤)</sup> وكذلك لزوجها سبأ بن أحمد حتى توفى سنة ٤٩١ إذ ينص القدماء على أنه كان يقيم معه في حصن أشيخ حتى وفاته ، وفيه يقول من مدحة بائية :

إِنْ ضَامَكَ الدَّهْرُ فَاسْتَعَصِمْ بِأَشِيخٍ أَوْ      أَزْرَى بِكَ الْفَقْرُ فَاسْتَمْطِرْ بِنَانَ سَبَا  
تَخَالُ صَارِمَهُ يَوْمَ الْوَعْدَى نَهْرًا      تَصْرَمَتْ حَافَتَاهُ مِنْ دَمٍ لَهَا

والصورة في البيت الثاني طريفة ، وكان يحسن اجتلاب الصور والمعاني ، مع جزالة الأسلوب ونصاعته ، وفي سبأ يقول من قصيدة ثانية :

(١) البيض : السيوف . السمر : الرماح . العوالى : قليلاً .

أسنة السيوف والرماح .

(٢) المظفر : لقب على الصليحي .

(٣) تمداً : قليلاً .

(٤) في المقيد لعارة أنه (كان شاعراً و مترسلاً يكتب عن

السيدة الحرة إلى الديار المصرية) .

كريمٌ إذا جادت فواضلُ كفهٍ      تيقنتُ أن البُخلَ ما تفعلُ السُّحبُ  
وما كنت أدري قبل قطعِ هباته      إلى الفياقِ أن أنعمهُ ركبُ

والصورتان طريفتان ، ويروى أنه سمع بيتا لابن سنان الخفاجي معاصره ابتكر معناه كما يقول العماد - نقلا عن نجم الدين بن مَصال - وقد أحسن صياغة مغزاه ، وهو :

طويتُ إليك الباخلين كأنني      سررتُ إلى شمس الضحى في الغياهِبِ

وهو بيت من قصيدة له في ناصر الدولة أبي علي بن ناصر الدولة بن حمدان ، فأعجب به إعجابا شديدا وقال : والله لآخذن هذا البيت منه ، وما هي إلا أن مدح سبأ ابن أحمد فقال فيه :

لفظتُ ملوكَ الأرضِ حتى رأيتُهُ      فكنتُ كمن شقَّ الظلامَ إلى الصُّبحِ

يقول العماد : « ولم يقصِّر في هذا المعنى لكنه لم يبلغ رتبة ابن سنان فيه » . وربما لم تعجبه كلمة « لفظت » عند ابن القم وربما فضل شمس الضحى في بيت ابن سنان على الصبح في بيت ابن القم ، ولكن هذا تشريح أكثر مما ينبغي ، ومن المؤكد أن بيت ابن القم بديع . ولاحظ الدكتور شكرى فيصل في تعليقاته على أبياته في الخريدة أنه كان يتأثر غير شاعر ، من ذلك أنه ردَّ قوله في جياش بن نجاح :

وما أنت إلا البدرُ أظلمَ منزلي      وكلُّ مكانٍ نورُهُ فيه ساطعُ

إلى قول البحترى في مديح الفتح بن خاقان :

وبدرُ أضواءِ الأرضِ شرقاً ومغرباً      وموضعُ رجلي منه أسودُ مظلمُ

والصلة بين البيتين واضحة ، ولكن ابن القم مع ذلك حاول أن يحدث تحويرا في الصورة بحيث تُنسب إليه ، ويدل هذا البيت من قصيدة في عتاب جياش وقصائد أخرى في عتابه على أنه حاول الاتصال - أو اتصل - به فعلا مما جعل سبأ بن أحمد يسخط عليه ، وكأنا أنضم ذلك إلى صنيع أبيه الذي أسلفناه مما جعله يكتب إلى سبأ بن أحمد معتذرا مستعظما . ويرد الدكتور شكرى فيصل أيضاً أبياتا مختلفة له في مدحة ميمية إلى المتنبي ، من ذلك قوله فيها :

كأن مواضيه طُبعنَ من الشجَا      فهنَّ من الأعداءِ بين الغلاصِمِ

فقد ردَّه إلى قول المتنبي في مديح علي بن إبراهيم التنوخي :

وقد صُنعتَ الأسنه من همومِ      فما يحطرون إلا في الفؤادِ

وبيت المتنبي أروع إذ أين الشجا والمهموم من الغلاصم التي تصل بين الرأس والعتق .  
بينما موضعها القلب والفؤاد . وردّ قوله في نفس القصيدة يصف الإبل التي ركبوها إلى  
المدوح :

قَصْدُنْ بِنَا مَنْ لَوْ تَجَنَّبْنَ قَصْدَهُ سَرَّتْ نَحُونَا جَدَّوَاهِ مَسْرَى الْعَاقِمِ  
إلى قول أبي تمام :

كَالغَيْثِ إِنْ جِئْتَهُ وَأَفَاكَ رَيْقَهُ وَإِنْ تَرَحَّلْتَ عَنْهُ لَجَّ فِي الطَّلَبِ  
وأيضاً بيت أبي تمام أكثر روعة . وقد ردّ العهاد قديماً قوله في تصوير بأس البطل  
المحارب الذى يبلغ من شجاعته أن يُشغف بسيفه شغفَ المحبين فيقبله ، ولا يزال يعانقه :  
يَظُنْ هِنْدِيَّةً هِنْدًا فَيَلْتِمُهُ فَمَا يَزَالُ لِبَلِيلِ مُعْرِسِ الضَّرْبِ<sup>(١)</sup>  
إلى قول أبي العلاء في تصويره البطولة :

يَقْبَلُ الرُّمَحَ حُبًّا لِلطَّعَانِ بِهِ كَأَنَّمَا هُوَ مَجْمُوعٌ مِنَ اللَّعَسِ<sup>(٢)</sup>

وبيت أبي العلاء أجمل وأكثر روعة وإبداعاً وهو فرق ما بين كبار الشعراء وشاعر مثل  
ابن القمّ : وبدون شك يُشكر ابن القمّ لمحاولته منافسة الشعراء السالفين البارعين ونفوذه  
إلى صور إن لم تكن لها روعة صورهم فإنها جيدة وتدل على لون من المهارة . وله أشعار  
مختلفة في الهجاء والرتاء والغزل ، ونسب إليه ياقوت البيتين التاليين في تحمل مشقات الحب  
والمتاع بلذاته :

تَشَكَّى الْحَبُونَ الصَّبَابَةَ لَيْتَنِي تَحَمَلْتُ مَا يَلْقَوْنَ مِنْ بَيْنِهِمْ وَحَدِي  
فَكَانَتْ لِنَفْسِي لَذَّةُ الْحَبِّ كُلُّهَا فَلَمْ يَدْرِهَا قَبْلِي مَحَبُّ وَلَا بَعْدِي

ولأي عرف تاريخ مولده ولا تاريخ وفاته ، وزعم ياقوت أنه ولد سنة ٥٣٠ وتوفى سنة  
٥٨١ وهو خطأ واضح ، فإنه من شعراء القرن الخامس الهجرى لا القرن السادس ، وقد  
أنشدنا له أشعاراً نظمها في سنة ٤٥٨ وفيها تبعها من السنوات حتى وفاة سبأ بن أحمد  
الصليحي سنة ٤٩١ ، وربما رجع إلى مسقط رأسه زيد بعد وفاة سبأ ، وقد حاول أن ينال  
شيئاً من صلات جياش حاكمها كما تدل على ذلك أشعاره في الخريدة . والجزء الأخير من  
حياته أو قل نهايته أوبعبارة أدق تاريخ وفاته غير واضح ، وربما أدرك أوائل القرن  
السادس .

(٢) اللعس : سيرة في الشفة .

(١) هندية : سيفه . الضرب : عمل النحل .

### السلطان الخطّاب<sup>(١)</sup> :

هو الخطّاب بن الحسن بن أبي الحفاظ الحَجَّويزي الهَمْداني ، كان أبوه الحسن حاكما لوادى الجُرب ومدينته في إقليم الحِجور ، وكان فيما يبدو من رجال الدولة الصليحية إذ يقال إن ابنه الخطّاب كان أخوا في الرضاة للملكة الحرة أروى . وتوفى الحسن لأوائل القرن السادس وخلفه ابنه سليمان في حكم الجرب ، ودان له أخوه الخطّاب بالطاعة ، ثم لم يلبث النزاع أن دبَّ بين الأخوين ، ونشبت بينهما حروب انتهت في سنة ٥١٤ بغلبة الخطّاب على أخيه ، بفضل مساعدة الملكة أروى له . وظل الخطّاب يستدرج أخاه ، حتى أمن جانبه وعاد إليه ، غير أنه قتله غيلة سنة ٥٣٠ ولم يممه القدر طويلا ، فقد عاجلته المنية في سنة ٥٣٣ . وكان الأخوان شاعرين ، ولكل منهما ديوان ، وكان أحدهما سنيا وهو سليمان والثاني وهو الخطّاب فاطميا إسماعيليا ، بل لقد كان الساعد الأيمن لداعي اليمن الفاطمي في عصره الدُّويب بن إسماعيل ، وكان من مرديه وتلاميذه القريبين من نفسه ، فجعله نائبا له ومؤازرا ومعينا في نشر الدعوة الفاطمية الإسماعيلية باليمن . وقد أخذ عنه علومها مثل الفقه والتأويل والعقيدة أو كما يقولون علم الحقائق . وحدث أن قتل الأمر الخليفة الفاطمي في سنة ٥٢٤ وتولى بعده عبد المجيد ، أحد أبناء الأسرة ، الخلافة والإمامة وتلقب بالحافظ ، وأحدث ذلك انقسامًا ، فإن من أسس الدعوة الفاطمية عند كثيرين أن يعقب الخليفة في إمامته وخلافته ابنه الأكبر ، وكانت زوجة الأمر حاملا ، فرأى بعض المتسبين إلى الدعوة أن خلافة الحافظ غير صحيحة وأن صاحبها هو الإمام المستور أبو القاسم الطيب بن الخليفة الأمر . وأعلنت الملكة الحرة أروى تمسكها بخلافة هذا الإمام المستور ، وبذلك انفصلت الدعوة الفاطمية في اليمن عن مركزها في مصر ، وانفصل معها داعيها الدُّويب ونائبه السلطان الخطّاب حاكم الجرب .

وقد نشر إسماعيل قربان حسين ديوان السلطان الخطّاب وألحقه بتعليقات تفسر إشاراتة للعقيدة الفاطمية ، ويكاد القسم الأول منه يكون قسما عقائديا خالصا ، وكل من يقرؤه ويقرأ التعليقات يحس بالصلة الوثيقة بين السلطان الخطّاب وابن هانئ شاعر المعز الفاطمي وأكبر من استظهروا العقيدة الفاطمية الإسماعيلية في أشعارهم لأوائل الحقبة الفاطمية بمصر . وستقف قليلا عند المبادئ الإسماعيلية في الديوان من خلال مديح السلطان

(١) انظر في ترجمة السلطان الخطّاب الحزينة (قسم إسماعيل قربان حسين لديوانه المطبوع بدار المعارف الشام) ٢٠٧/٣ وكتاب الصليحيون، للهمداني ومقدمة بالقاهرة وما بها من مراجع إسماعيلية فاحمية .

الخطاب للآمر الخليفة الفاطمي ، من ذلك قوله في قصيدته الأولى التي يمدح بها الأمر :  
يَأْمَنُ أَسْمِيَهُ بِالْأَلْفَاظِ مَعْتَرِفًا أَنَّ الْمَعَانِيَ فِيهَا عَنَّهُ تَقْصِيرُ  
وَمَا ظَهَرَتْ مِنَ النَّاسُوتِ أَنْتَ بِهِ نَجِيًّا لِهْدَانَا فَهُوَ مَشْكُورُ  
صَفْوٌ مِنَ الصَّفْوِ شَفَافٌ تَقَدَّسَ أَنَّ يَشُوبَ جَوْهَرَهُ الشَّفَافَ تَكْدِيرُ  
وهو يصرح في الآيات بأن الأمر فوق الحدود المعروفة لعقول البشر ، ويقول إنه في  
الظاهر ناسوت أي جسم وبشير إلى ما كان يردده دعاة الفاطميين من أن جسم الإمام ليس  
جسماً مادياً ، هو شيخ يمكن فيه اللاهوت وهو الجانب النوراني . وفكرة  
الناسوت واللاهوت مأخوذة عن عقيدة المسيحيين في المسيح . ويقول الخطاب عن الأمر  
إنه صفو شفاف لاتشوبه الأكدار أي أنه نوراني خالص . ونغضى معه إلى القصيدة  
الثالثة ، وهي أيضا في الأمر :

يَأْمَنُ نَسْمِيَهُ تَعْرِيفًا نَقَرَّهُ	بَشَخْصَهُ فِي نَفُوسِ الْقَوْمِ تَقْرِيرًا
وَلُونِشَاءَ لَقَلْنَا فِي النِّدَاءِ لَهُ	بِالْصِّدْقِ يَا حَيُّ يَا قِيَوْمَ مَشْهُورًا
يَاعَالِمَ الْغَيْبِ مَنَا وَالشَّهَادَةِ يَا	بَارِي الْبَرِيَّةِ تَرْكِيبًا وَتَصْوِيرًا
شَهِدْتُ أَنْكَ فَرْدٌ وَاحِدٌ صَمَدٌ	شَهَادَةٌ لَمْ تَكُنْ مَيْنًا وَلَا زُورًا

والخطاب يشير في الآيات إلى مازعمه الفاطميون ودعاتهم من أن الله لا يجوز أن يسمى  
باسم لأنه أسمى من كل اسم ، ومن ثمَّ يُصَفُّون أسماءه الحسنى في القرآن الكريم على أمتهم ،  
غلوًا مدمومًا ، زاعمين أنهم ربانيون لهم القاب الله وصفاته ، على نحو ما ترى الآن عند  
الخطاب ، إذ لا يجد بأسًا من أن ينادى على الأمر بأنه الحي القيوم وأنه الفرد الواحد  
الصمد ، كبرت كلمات تخرج من فمه وفم أضرابه من دعاة الفاطميين المارقين ، ويزعم أنه  
عالم الغيب والشهادة ، ويمضي في هذا الغلو الشنيع قائلاً للآمر :

أَنْتَ الَّذِي كُلُّ شَيْءٍ نَحْنُ نَعْلَمُهُ	فَإِنْ سِوَى وَجْهِهِ عَكْسًا وَتَغْيِيرًا
أَنْتَ الَّذِي قَطَرَ الْأَشْيَاءَ قَاطِبَةً	خَلْقًا وَأَمْرًا وَإِعْبَارًا وَمَأْمُورًا
أَنْتَ الَّذِي سَمَكَ السَّبْعَ الشَّدَادِ عَلَى	عِلْمٍ أَدَارَ بِهَا الْأَفْلَاكَ تَدْوِيرًا
أَنْتَ الَّذِي سَطَحَ الْأَرْضَ الْمِهَادَ لَنَا	فَرَشًا وَقَدَّرَ فِيهَا الرِّزْقَ تَقْدِيرًا

وهو يزعم أن الأمر سرمدى الحياة ، لا بلحقه فناء ، وكأنه إلهي الذات ، وبشير في  
البيت الثاني إلى وصف القرآن للذات العلية في مثل قوله : ( فاطر السموات والأرض )  
وقوله : ( إله الخلق والأمر ) . ويجعله في البيت الثالث رافع السموات السبع ومدبر الأفلاك  
فيها . والبيت الرابع مأخوذ من مثل قوله تعالى : ( والأرض فرشناها فنعم الماهدون )

وقوله : ( قُلْ إِنْ رِئِي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَنْ يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ) . ويقول أيضا في مديح الأمر :  
يا عِلَّةَ لوجود الشيء من عَدَمٍ وكاشفاً عنه بالأَنْوارِ لِلظُّلَمِ  
وعالماً بِخَفِيَّاتِ الأُمُورِ غَدَاً لِلنَّاسِ أَشْهَرَ مِنْ نَارٍ عَلَى عِلْمِ  
شهدتُ أَنكَ فَرْدٌ وَاحِدٌ نَطَقْتَ بِفَضْلِهِ سُورُ الْقُرْآنِ عَنْ أُمَّمِ  
وَجَّهْتُ وَجْهِي فِي سِرِّي وَفِي عَلَنِي إِلَيْكَ إِذْ أَنْتَ مَعْنَى الْبَيْتِ وَالْحَرَمِ

وهكذا يردد الخطاب ما كان يزعمه دعاة الفاطميين من أن الإمام ممثل العقل الأول  
الفعال وأن قدرة الله تحلُّ فيه ، بحيث يصبح العقل الكلي وجوهر الملكوت وعنه تصدر  
جميع المخلوقات ، فهو العلة الأولى ، علة لوجود كل ما سواه . ويزعم الخطاب أنه : ( يعلم  
السر وأخفى ) وأن آيات القرآن الكريم نطقت بفضلته من أُمَّمِ أى قريب ، يشير إلى مثل  
قوله تعالى : ( إنما يريد الله ليذهب عنكم الرُّجْسَ أَهْلَ الْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) . وكلمة  
« البيت والحرم » مصطلحان إسماعيليان ، أما البيت فيريد به الإمام وأنه بيت معرفة الله  
ومستقر التوحيد وحقيقته . وأما الحرم فهو حِمَى الإمام وعقيدته الفاطمية . وللخطاب رثاء  
في الملكة الحرة أروى حين توفيت سنة ٥٣٢ يصدر فيه عن عقيدته الفاطمية منشداً مثل  
قوله :

أمولاتنا يا مَنْ بياهرِ نورها تَجَلَّيْنَ عَنْ أَبْصَارِنَا الظُّلُمَاتُ  
ويا حُجَّةَ الْمُؤَلَّى الَّتِي بَيَّانَهَا هَدَى اللهُ مَنْ حَيَّرَنَاهُ الشُّبُهَاتُ  
أَجَلُّكَ عَنْ مَوْتِ بَرُوحِكَ نَازِلٍ وَأَنْتَ لِأَرْوَاحِ الْأَنْامِ حَيَاةُ

وهو يصفها في البيت الثاني بأنها حُجَّةُ الإمام ، والحجة في الدعوة الفاطمية  
الإسماعيلية مرتبة تلي مرتبة داعي الدعوة في المركز الأم مصر ، وصاحبها يتولى الدعوة في  
إقليمه والنيابة عن الإمام . وكانت الملكة الحرة حجة المستنصر والأمر في اليمن وزعيمة الدعوة  
الفاطمية فيها . ويزعم الخطاب في البيت الأخير أنها لم تمت ، وكان حياتها سرمدية كحياة  
الأئمة ، وكل ما قدمنا علو ومروق واضح . ووراء هذا القسم من الديوان قسم ثان يتصل  
بأحداث حياة الخطاب وحروبه وصلاته بأمراء الدول من حوله . وفيه كثير من المديح  
والهجاء والنضج ، وأجود مدائحه فيه ما قدمه للملكة الحرة أروى . وجعله تعمقه في العقيدة  
الفاطمية الإسماعيلية يكتب رسائل مختلفة في بعض قضاياها وأصولها ومبادئها الكلية ،  
وعرض إسماعيل فربان حسين اطائفة منها بالتحليل والتعريف .

### عمارة اليمن<sup>(١)</sup>

هو أبو حمزة عمارة بن أبي الحسن اليمني ، من أهل الجبال في تهامة . من قرية يقال لها مُرْطَان في وادي وَسَاع ، وهو قحطاني مَدْحَجِي من سلالة الحكم بن سعد العشيرة . ولد في سنة ٥١٥ في أسرة تهتم بالعلم والثقافة ، ولم تكد توافي سنة ٥٣١ حتى أرسله أبوه إلى زيد فتقف فيها الفقه الشافعي ، وقرئ عليه مدة ، وله في الفرائض مصنف مشهور في اليمن . واتصل بآل نجاح حكام زيد ووزرائهم ، كما اتصل بآل زُرَيْع حكام عدن وبعلي بن مهدي الذي خلف آل نجاح على زيد ، وكان الأولون سُنِّيَّين والثانون إسماعيليين والثالث كان خارجيا . حتى إذا كانت سنة ٥٤٩ توجه إلى حج بيت الله الحرام ، وتعرف إلى أمير مكة قاسم بن هاشم بن فليته الزيدي ، وكلفه بحمل رسالة إلى الخليفة الفاتر الفاطمي ، فقدم القاهرة سنة ٥٥٠ واستقبله طلائع بن رزّيك وزير الفاتر في قاعة الذهب بقصر الخلافة ، وأنشده عمارة ميمية طويلة يقول في تضاعيفها :

قد رُحْتُ من كَعْبَةِ البَطْحَاءِ والحَرَمِ وَقَدْأُ إِلَى كَعْبَةِ المعروف والكَرَمِ  
فهل دَرَى البيت أني بعد قُرُوتِهِ ماسِرْتُ من حَرَمِ إلا إلى حَرَمِ  
ولم يكد يفرغ من إنشاد القصيدة حتى أفيضت عليه الخلع ، وأغدق عليه طلائع خمسمائة دينار . وصنعت مثله سيدة القصر بنت الخليفة الحافظ . وتهاداه أمراء الدولة وموظفوها الكبار . وقفل راجعا إلى مكة ، فإلى زيد . وعاد إلى الحج سنة ٥٥١ فكلفه أمير مكة برسالة ثانية إلى الخليفة بمصر ، فقدم إليها واستوطنها حتى آخر حياته . وبالغ طلائع وبنوه في إكرامه ، وله فيهم مدائح كثيرة . وقُتِل طلائع بعد قدومه الثاني بأربع سنوات سنة ٥٥٦ . وحظي بعده بجوائز الوزيرين شاور وضرغام ، وله في شاور وطلائع مرات بدعية ، وكان قريبا من نفس الكامل بن شاور قبل وزارة أبيه ، فلما وزر أعرض عنه ، فعاتبه عتابا رقيقا . ومازالت العطايا تُسبغ عليه ، حتى إذا ملك مصر السلطان صلاح الدين مدحه ومدح جماعة من بيته ، وخاصة توران شاه الأيوبي ، وله ميمية حرّضه فيها على أخذ اليمن أوطا :

عدن لباعرمة والشذرات ٢٣٤/٤ وتاريخ ابن الأثير  
٣٩٨/١١ وصبح الأعشى ٥٢٦/٣ والاتصار لرواسطة  
عقد الأمصار لابن دقاق ص ٩٤ وكتابه النكت المصرية  
في أخبار الوزراء المصرية ، وذيل النكت وبه ديوانه .

(١) انظر في عمارة وترجمته وأشعاره الخريدة (قسم  
الثام) ١٠١/٣ وابن خلكان ٤٣١/٣ والروضتين  
٥٧٢/٢/١ ومفرج الكرب ٢١٢/١ ، ٢٣٨  
والسلوك للمقرئ ٥٣/١/١ والنجوم الزاهرة ٧٠/٦  
والسلوك في طبقات العلماء والملوك للجندي وتاريخ ثغر

العِلْمُ مذ كان محتاجٌ إلى العَلْمِ وشَقْرَةُ السيفِ تَسْتغنى عن القَلَمِ

ويقول ابن خلكان إنه كان فقيها شافعيًا شديد التعصب للسنة ، ويبدو أن ذلك إنما يصدق على أوائل حياته حين كان يدرس مذهب الشافعي في زيد . أما بعد ذلك فإننا نراه يتصل بآل زُرَيْعِ الإسماعيليين وبأمر مكة الزيدي . ولعل السبب في أن ابن خلكان أطلق كلامه عليه وعممه أنه وجدته في كتابه « النكت العصرية » يتبرأ من التشيع ويذكر أن طلائع بن رزّيك عرض عليه أن يدخل في العقيدة الإسماعيلية ، فأجابته بأن يمنّ عليه بسدّ هذا الباب . ولكن كتاب النكت - فيما يبدو - ألف في عصر الأيوبيين ، فكان طبعًا أن يُخنى إسماعيليته أو تشيعه ، وأن يعلن براءته في تصانيفه وقصائده من التشيع وآله . ونراه في قصيدة له كتب بها إلى صلاح الدين وسماها « شكايمة المتظلم ونكايمة المتألم » يصف كثرة ما كان يصله من عطايا الفائر والعاضد ووزرائها بمثل قوله :

مذاهبهم في الجود مذهبُ سنّةٍ وإن خالفوني في اعتقاد التشيع

وهذا وأمثاله كان - في رأينا - سبب ضلال ابن خلكان في الحكم عليه ، فإن من يرجع إلى ديوانه ومدائحه في الخليفة الفاطمي العاضد وطلائع وزيره وابنه العادل لا يشك في أنه اعتنق المذهب الفاطمي الإسماعيلي ، من ذلك قوله من قصيدة في مديح العاضد وطلائع :

لا يبلغ البلغاء وَصَفَ مناقِبِ أُنثى على إحسانها التنزيلُ  
شيمٌ لكم غرٌّ أنى بمدحها الـ فُرْقَانِ والتَّوراةُ والإنجيلُ  
سيرٌ نَسَخْنَاها من السُّورِ التي ما شانها نَسْخٌ ولا تَبْدِيلُ

وهو يشير إلى ما جاء في الذكر الحكيم من مثل قوله تعالى : (إنما يريد الله ليذهب عنكم الرّجسَ أهل البيت ويظهركم تطهيرا) ويمد ذلك إلى التوراة والإنجيل وما جاء فيها من ذكر الرسول على لسان موسى وعيسى ، وكان ذكره يتضمن ذكر ذريته ، وقد جاء في سورة الصفّ على لسان عيسى : (ومبشرا برسول يأتي من بعدي اسمه أحمد) وهذا الفكرة التي تصل بين الرسول والأئمة الفاطميين في التوراة والإنجيل كان يرددها شعراؤهم من مثل قول السلطان الخطاب في الخليفة الأمر :

هو الذي كُنْتَ التَّوراةُ عَنْهُ وفي الإنجيل ما ضُمِنَتْ فيه المزاميرُ  
ودائماً يقرّر عمارة حق العاضد الثابت بالمعقول والمنقول كما يقول في نفس اللامية

السالفة ، ونراه يقول في دالية مدح بها العاضد ووزيره العادل بن طلائع بن رزّيك :

أغنى عن التَّقْلِيدِ نَصُّ إمامةٍ والنَّصُّ يَبْطُلُ عنده التَّقْلِيدُ

لا شيء من حلِّ وعقدِ في الوريِّ إلا إلى تدبيره مردودٌ  
ملكُ أغاثَ المسلمين وحاطَهمُ منه وجودٌ في الزمان وجودٌ

وهو يرَدُّ ما يزعمه الشيعة من أن الإمامة في الأمة إنما تورث بالنص عن الإمام السابق ، فهي ليست مفوضة للأمة ، بل هي من حق الأئمة وحدهم يتوارثونها خالفا عن سالف . ويشير عمارة في البيت الثاني إلى نظرية العقل الفعال التي يمثلها الإمام والتي تجعله - كما مر بنا عند السلطان الخطاب - يدبِّر الكون وشئون الوري وكل ما يتصل بها من حلِّ وعقد . أما البيت الثالث فيصور فيه فكرة الفيض الأفلاطوني المعروفة عند الإسماعيليين والتي تجعل الأئمة مائلين في كل وجود إنساني . ويقول في مديح العاضد من قصيدة طويلة :

كم آية رويت لكم أسرارها آل الوصي وللوري إعلانها  
فكأنما تأويلكم أرواحها وكأنما تفسيركم أئدائها  
وكان علم الكائنات وديعة مخزونة وصدوركم خزائنها

وهو هنا يرَدُّ ما يؤمن به الشيعة الإسماعيلية الفاطميون من أن للقرآن الكريم وآياته ظاهرا وباطنا ، والباطن لا يعلمه إلا الأئمة ، فهم الذين يعلمون أسرار الآيات القرآنية وحدهم دون غيرهم ، وهم الذين يعلمون تفسيرها وتأويلها علما حقيقيا . وليس ذلك فحسب ، بل هم يعلمون كل علم ، وما صدورهم إلا خزانات لهذا العلم : علم الحاضر وعلم الغيب . وكل هذه شواهد بيّنة على أن عمارة تحول في مصر فاطميا إسماعيليا . وكان حزنه لا يحدد ولا يوصف حين دالت دولة الفاطميين ، وبث هذا الحزن الغاصب غضبا عنيفا في لامية له مشهورة استهلها بقوله :

رमित - يا دهر - كف المجد بالثلل وجيده بعد حُسن الحللي بالعطل  
هدمت قاعدة المعروف عن عجل سقيت مهلا أما تمشي على مهل  
يا عاذلي في هوى أبناء فاطمة لك الملامة إن قصرت في عتلي

وهو في هذا الاستهلال ملتاع لوعة شديدة على زوال الدولة الفاطمية ، وإنه ليسب الدهر الذي أطاح بها ويدعو عليه أن يسقى المهل شراب أهل الجحيم . ويدعو عذاله على حب الأئمة الفاطميين أن يظفروا في عذلم ولومهم وكأنه يجد فيه شفاء لعليل نفسه . ويمضي فيدعو رفيقه أن يبكي معه على ساحة القصرين لا على ساحات معارك صفين وواقعة الجمل ، وكان النكبة هنا أكثر أسي وفجعية ، ويقول إن الجرح الذي أصاب قواده بزوال الدولة الفاطمية لا يندمل ، وما يلبث أن يقول عجبا ينزل كل هذا بالفاطميين لا من الصليبيين ولكن من إخوانهم في الدين ، ويقول :

لربِّها عادتِ الدُّنيا لِمَعْقِلِها مِنكُمْ وَأُضحتْ بِكُمْ مَحلوَّةَ العُقُلِ (١)  
 والله لا فَازَ يومَ الحَشْرِ مُبغضكم ولا نجا من عذاب النار غيري ولي  
 وهو في البيت الأول يعلن الثورة صريحة على صلاح الدين زاعما أنه ربما عادت الدنيا  
 لمعقلها ، وكأنما غاب عن صوابه ورشده أن أداة الحكم في هذا المعقل كانت قد فسدت  
 فساداً لا حدَّ له ، وبلغ من فسادها أن استلب الصليبيون فلسطين من مصر وأغاروا على  
 القاهرة . وأراد الله لمصر بل للعرب أن تُردَّ القوسُ إلى يارِها ، وأن يبدأ صلاح الدين حكمه  
 بانقضاء على هذا المعقل الفاطمي إلى الأبد . وكأنما أصابت العقيدة بصَرَ عمارة بغشاوة ،  
 فلم ير الحقيقة ، وقد مضى يتوعَّد مبغض الفاطميين بالنار وسوء المصير ، وتهادى في هذا  
 الغيِّ والضلال ملوِّحاً بيده في وجه صلاح الدين زاعماً أن الأئمة الفاطميين باب النجاة وأن  
 حبيهم أصل الدين ، يقول :

أُمَّةٌ خَلَقُوا نوراً فنورهمُ من نور خالصٍ نور الله لم يَقِلْ (٢)  
 والله لأزلتُ عن حَبِيٍّ لهم أبداً ما أخر الله لي في مدَّة الأجلِ

فالأئمة الفاطميون نور خالص ، نور شفاف ، وهو فيض من نور الله ، لا تشوبه أى  
 مادة ، وهو غلو واضح في تصور الأئمة كان يردده شعراؤهم . وكُتِبَ لعامة أن يظل يردده  
 حتى بعد زوال دولتهم ، بل إنه ليعلم أنه سيظل على حبيهم حتى الأنفاس الأخيرة من  
 حياته . وكأنه كان يظن أن دولتهم ستعود إذ تسؤل له نفسه أن يشترك مع ثمانية من أعوان  
 الفاطميين ، في مؤامرة كبيرة ضد صلاح الدين وكاتبوا الفرنج الصليبيين طالبين منهم  
 مدداً ، وعُرفت نيهم ومؤامرتهم ، فأحيط بهم ، وأعدموا في يوم السبت ثانی شهر رمضان  
 سنة ٥٦٩ بالقاهرة . وكان لا بد لعامة أن ينتهى هذه النهاية المفجعة بعد أن كاد لدولة  
 صلاح الدين بلسانه وهم أن يكيد بيده . وكأنما غطَّى القدر - كما يقول العماد - على  
 بصره . وقد طُبعت له مصنفات مختلفة ، منها أخبار اليمن نشركاى ، ومنها مختصر المفيد في  
 أخبار صنعاء وزيد ، ومنها النكت العصرية في أخبار الوزراء المصرية .

## ٢

### شعراء الدعوة الزيدية

تحدثنا في الفصل الأول عن النحلة الزيدية وأنها كانت أكثر نحل الشيعة اعتدالا ،

(٢) يفل : يأفل : يفرغ .

(١) العفل : جمع عقال .

وهي تُنسبُ إلى زيد بن علي زين العابدين بن الحسين الذي ثار على الأمويين بالكوفة سنة ١٢١ وانتهت ثورته بالقضاء عليه ، غير أن دعوته ظلت قائمة بعده ، ومر بنا أن كل العلويين الذين ثاروا على العباسيين في القرنين الثاني والثالث للهجرة كانوا زيديين ، إذ لا تعرف نحلتهم التستر والتخفي للإمام في الدعوة ، وهي لا تشارك نحلتي الإسماعيلية والإمامية في العلم الباطني ، ولا تتغلغل في فكرة العقل الفعال التي مرت بنا عند الإسماعيلية والتي تعطى الإمام صفات الله وأسماءه الحسنى والتي تسند إليه تدبير الكون وأن الوجود بل كل موجود إنما هو فيض منه . وهي لا تأخذ بفكرة النص على الإمام وأن الإمامة تنتقل من الأب إلى الابن عن طريق الوراثة ، بل يكفي أن يكون الإمام الكفء الداعي لنفسه من أبناء السيدة فاطمة الزهراء وأن يكون عادلا عالما بالشرعية ورعا شجاعا جوادا ، وتَجَوَّز هذه النحلة إمامة المفضول مع وجود الأفضل ، وبذلك صحَّحت خلافة أبي بكر وعمر مع وجود علي ، ولم تجوِّز القَدْحَ فيها كما تصنع الإسماعيلية والشيعة الغالية . وارتبطت نحلة الزيدية ارتباطا وثيقا بمدرسة المعتزلة ومبادئها إذ كان إمامها زيد تلميذاً لواصل بن عطاء ، وقوى هذا الارتباط مع الزمن . وإذا كانت ثورات الزيديين في الحجاز والعراق وإيران أخفقت في القرن الثاني للهجرة فإنها نجحت في المغرب على نحو ما هو معروف عن دولة الأدارسة التي أسسها إدريس بن عبد الله الحسني بفاس في عهد الرشيد ، وظلت نحو مائة وأربعين عاما . ونجحت كذلك في طبرستان في النصف الثاني من القرن الثالث للهجرة ، فقامت هناك دولة زيدية ظلت نحو سبعين عاما . واستطاعت أسرة بني سليمان أو بنى موسى الرسيين أن يقيموا دولة لهم في مكة منذ سنة ٣٥٦ على نحو ما مر بنا في غير هذا الموضع ، وظلت فيهم حتى اضطرتهم المواثم من أسرته أن يغادروا مكة إلى المخلاف السلياني ، وهناك ظل هذا الفرع يدعو للنحلة الزيدية حتى ذاب في دولة الرسوليين ، وقد أسلفنا أن محمد بن جعفر الحسني عاد إلى مكة وأعاد الإمارة إلى أسرته الحسينية .

وقامت في صعدة باليمن دولة زيدية أقدم من الدولتين السالفتين ، إذ أسسها هناك الإمام الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم في سنة ٢٨٤ واستطاعت هذه الدولة أن تستولى على صنعاء في حقب كثيرة ، حتى إذا كان القرن العاشر الهجري انضوى اليمن جميعه تحت لوائها ، وإذن كانت للزيدية في الجزيرة العربية لهذا العصر ثلاثة مراكز ، هي مكة والمخلاف السلياني وصعدة وكان المركز الأخير كثيرا ما يتسع ، وشمل بأخرة ديار اليمن جميعها . وعنى الأمراء والأئمة في كل مركز من هذه المراكز بالشعر وأصحابه ، لأنهم أقلام

الدعاية للدولة ، وكثير من الأئمة كانوا شعراء فكان طبيعياً أن يعنوا بالشعر والشعراء . وأول من يلقانا من أئمة مكة الشعراء الأمير أبو الفتح وقد أنشدنا له أبياتاً طريفة في غير هذا الموضوع ، وكان عيسى بن فُلَيْتة أمير مكة المتوفى سنة ٥٧٠ يجزل العطايا لشعرائه وفي مقدمتهم قائده النوبى الأصل سالم بن أبى سليمان ، وفيه يقول من مدحة طويلة (١) :

هو نورُ ربِّ العرش بين عبادِهِ      فليعلموا والحجَّةُ البيضاءُ  
لله يأمر باطننا أو ظاهراً      فتصرفُ الأقدار كيف يشاءُ  
يوماه يومٌ للتَّوَالِ وآخِرُ      تُرْدَى بسَطْوَةِ بأسِهِ الأعداءُ  
إن الثناء عليك من ربِّ السَّاءِ      أغناكَ عما قالت الشعراءُ

وهو يغلو في مديحه لهذا الإمام الزيدى ، وكأننا نقرأ عنده ما نقرؤه عند السلطان الخطاب من الغلو في مديح الأمر الخليفة الفاطمى ، فإمامه نور خالص هو نفس نور الله ، وهو الحججة القائم على رعيته ، وتجرى الأقدار بما يشاء وكيف يشاء ، أما ثناء الله عليه فيريد به ثناءه على أهل البيت فى القرآن الكريم وأنه أذهب عنهم الرجس وطهرهم تطهيرا . ومن أئمة مكة الحسن بن على بن قتادة المتوفى سنة ٦٥١ وكان شاعرا ، ومن قوله (٢) :

وأذنتُ حين تجلَّى الصباحُ      بحىِّ على خَيْرِ هذا العملِ

وكان الزيدية فى الجزيرة بمكة وفى اليمن والخلاف السلماني ينادون فى الأذان : بحىِّ على خير العمل . . ويمتلى كتاب العقد الثمين بمدائح أمراء مكة ، ويكنى أن نستشهد ببعض الأمثلة ، فن ذلك قول موفق الدين على بن محمد الحنيدى فى حُمَيْضة أمير مكة المتوفى سنة ٧٢٠ للهجرة (٣) :

خليفةٌ لا يُخلف الوعدَ ولا      يَصْنُ عن سائله بما اقتنى  
إمام حَقٌّ جدُّ فى الله فا      فى الله مُدًّا جدُّ وهى ولاونى  
أخاف فى الله تعالى من بَغَى      وأمن الخائف حتى أمينا  
هو ابنُ من أسرى به الله ومن      من قابِ قوسين تدللى ودنا

وليس فى مديحه غلو ، بل هو مديح لإمام زيدى بالكرم والتقوى والعدل ورفع البغى والظلم ونشر الأمن ، ويشير فى البيت الأخير إلى الإسماء بالرسول ومراجعه إلى السموات وما جاء فى سورة النجم : ( ثم دنا فتدللى فكان قاب قوسين أو أدنى ) . وللحنيدى فى مديح

(٣) العقد الثمين ٤ / ٢٤٨ .

(١) الحريدة (قسم الشام) ٣ / ٤٦ .

(٢) العقد الثمين ٤ / ١٦٢ .

أخيه رُمَيْتة أمير مكة المتوفى سنة ٧٤٦ للهجرة<sup>(١)</sup> :

نَسَبُ كَمَشْتَقُ الشَّمْسِ وَمَفْخَرُ      بَاعُ الكَوَاكِبِ قَاصِرٌ عَن طَوِيلِهِ  
أَمَّا الفُرُوعُ فَلَيْسَ مِثْلُ فُرُوعِهِ      وَكَذَا الأَصُولُ فَلَيْسَ مِثْلُ أَسْوَئِهِ  
يَابِنَ المِظَلِّ بِالعِمَامَةِ وَالَّذِي      قَدْ أُنزِلَ القُرْآنُ فِي تَفْضِيلِهِ  
مَاذَا عَسَى مَدْحِي وَقَدْ نَزَلَ الثَّنَا      فَيَكُم مِّنَ الرُّحَمَنِ فِي تَنْزِيلِهِ

ووراء الخنديدي كثيرون من الشعراء كانوا يمدحون أمراء مكة الزيديين لا في زمنه فحسب ، بل في جميع الأزمنة ، وفي سلافة العصر لابن معصوم ونفحة الرحانة للمحبي طائفة كبيرة من مدائح الشعراء لهؤلاء الأمراء في القرن العاشر الهجري ، من ذلك قول عبد الرحمن بن وجيه الدين المتوفى سنة ١٠٣٧ للهجرة في حسن بن أبي تَمَى أمير مكة من مدحة طويلة . عارض بها رائية ابن هانئ المشهورة<sup>(٢)</sup> :

مَلِكٌ إِذَا مَا جَالَ يَوْمَ كَرِيمِهِ      لَمْ تَلَقَ غَيْرَ مُجَدَّلٍ وَمُعْتَرٍ  
مَلِكٌ نَدَاهُ البَحْرُ إِلا أَنَّهُ      عَذَبُ أَهْذَا البَحْرِ نَهْرُ الكَوَافِرِ  
ذُو الهِمَّةِ العَلْيَا الَّذِي قَدْ نَالَ مَا      عَنْهُ تَقَصَّرَ هِمَّةُ الإِسْكَانِدِرِ  
أَعْظَمَ بِهَا مَن نِسْبَةِ نَبَوِيَّةٍ      عَلَوِيَّةٍ تَنْحَى لِأَصْلِ أَطْهَرِ

وكثيرون من أمراء المخلاف السلياني وأشرفه كانوا شعراء مثل ابن وهَّاس ودَهْمَش وهما شاعران مجيدان ، ومن أمرائهم الممدحين غانم بن يحيى بن حمزة السلياني المتوفى سنة ٥٦٠ ويروى أن ابن مَكْرَمَانَ مدحه بقصيدة لامية أعطاها عليها ألف دينار ، وفيها يقول<sup>(٣)</sup> :

عَلَوِيٌّ مَتَوَجَّحٌ هَاشِمِيٌّ      حَسَنِيٌّ نَوَالُهُ مَبْدُولُ  
يَا سَلِيلَ البَطِينِ وَالْحَرَّةِ الزَّهْدِ      رَا هِيَ الطُّهْرُ وَالْحَصَانُ البَتُولُ<sup>(٤)</sup>  
خَمْسَةٌ خَصَّصَهُم بِتَخْصِيصِهِ الخَا      لِقُ رَبِّي وَهُوَ اللطِيفُ الجَلِيلُ  
مَالَهُمْ سَادِسٌ عِدَاةُ الَّذِي مَدَّ      يَدَهُ عَلَيْهِم كَسَاءَهُ جَبْرِيلُ

وهو يشير في البيتين الثالث والرابع إلى ما تذكره الشيعة من أن الرسول ﷺ أتى عليه وعلى عليٍّ وفاطمة الزهراء والحسن والحسين كساء وقال : نحن أهل البيت إيماء إلى قوله تعالى : ( إِنَّمَا يَرِيدُ اللهُ لِيُذْهِبَ عَنْكُمُ الرِّجْسَ أَهْلَ البَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيراً ) . ومعروف

(١) العقد الثمين ٤ / ٤١٩ .

(٢) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ٢٦٢ وما بعدها .

(٣) سلافة العصر ص ٧٩ .

(٤) الحصان البتول : العفيفة الطاهرة .

أن الخلاف السلطاني أصبح جزءاً من أرض الدولة الرسولية غير أنه اشتمل على إقطاعات كثيرة للسلطانيين ، وكانوا يصلون الشعراء ، ويقدمون لهم مدائحهم ، على نحو ما نجد عند ابن هُتَيْمِل في مديحه للأمير قاسم بن علي صاحب صُبيّا ، وله فيه مدائح كثيرة من مثل قوله (١) :

حسنيُّ للسائلين وللمخدُ رومٍ فيما حوتُ يدها نصيبُ  
ساحةٌ لا يزال فيها رئيسُ مستجيرٍ وسائلٌ لا يخيبُ  
عزٌّ في ظلِّ رحلك القاسميُّ نٌ ومنهم قبائلٌ وشُعوبُ  
وسنانُ القناة لولاه في طٌ سى العوالى لم ينفع الأنيبُ (٢)

والمركز الثالث للزيدية في الجزيرة أهم مراكزهم ، وكانت صعدة نقطة الدائرة فيه ، فيها انبثقت النحلة ، وظلت فيها ثابتة وظل شأنها يتسع ، حتى انضوت اليمن جميعها منذ القرن العاشر الهجري تحت رايته . ومؤسس هذه الإمامة الزيدية - كما أسلفنا - يحيى بن الحسين بن القاسم ، وله مصنفات مختلفة في الفقه والعقيدة والتفسير ، ويقول فيه ابن حزم : « له رأى في الفقه وقد رأيتُه ، ولم يبعد فيه عن الجماعة » وكان شاعراً ، وله وصية شعرية ذكرها في كتابه الأحكام عند ذكر الجهاد ، ومن شعره (٣) :

بني حسنٍ إني نهضتُ بثاركمُ وثأرٍ كتابِ الله والحقُّ والسُننُ  
وصيرتُ نفسي للحوادثِ عُرْضةً وغبتُ عن الإخوان والأهل والوطنُ  
ويتوالى أبنائه على صعدة من بعده ، حتى يقدم أبو الفتح الديلمي الحسني في القرن الخامس فينتزعها منهم ، وينسحبون إلى جبل قطاية ، وتتوالى أمتهم هناك ، ثم يعودون إلى حاضرتهم صعدة . ومن أهم أمتهم وأشهرهم في القرن السادس المتوكل على الله أحمد بن سليمان (٥٣٢ - ٥٦٦ هـ) وكان شاعراً مجيداً وله مكاتبات ومحاورات مع نشوان بن سعيد الحميري الذي مرت بنا ترجمته بين شعراء الفخر والمجاء ، ومما كتبه إليه قصيدة مطلعها (٤) :

دعيني أظني عبثي مابدا ليا وأبكي ذنوبي اليوم إن كنتُ باكياً  
واستطرد فيها يتحدث عن الملوك وآثارهم ومصيرهم ، ولم يكذب يقرؤها نشوان بن سعيد حتى ردَّ عليه بقصيدة عظيمة مماثلة مطلعها :

ذكرتُ دياراً دارساتٍ خواليا رُسوماً عفتُ عن أهلها ومغانيا

(١) ديوان ابن هُتَيْمِل ص ٣٥ .

(٣) صبح الأعشى ٤٧/٥ .

(٢) العوالى : جمع عالية وهي النصف الذي يلي السنان

(٤) انظر في هذا البيت والبيتين التاليين الجراقي

وهي قصيدة تاريخية طريفة لما ذكر فيها من الملوك الماضية والقرون الخالية ، ومما كتبه إلى المتوكل قوله في أبيات :

وأنت تصلح للرايات تَعْقِدُهَا      وفي المواكب تُحْيِي الدِّينَ والسُّنَنَا  
ومن الأئمة الذين عاصروا دولة بني أيوب في اليمن المنصور بالله عبد الله بن حمزة . أما في عهد الرسولين فأشهر الأئمة الذين عاصروهم الإمام المهدي أحمد بن الحسين المكنى بأبي طير ( ٦٤٦ - ٦٥٦ ) وله حروب كثيرة مع المظفر الرسولي ، انتهت بمقتله في معركة الحُصَّات . وكان أحمد بن الحسين جوادا ، مدحه كثير من الشعراء ، وفي مقدمتهم ابن هُبَيْمِل ، ويقال إنه أجازه على إحدى قصائده خمسين فرسا ، وقد عرضنا في ترجمته طرفا من مدائحه الرائعة فيه ، ومن أشهر الأئمة الزيدية في عهد أسرة آل طاهر الإمام المتوكل على الله شرف الدين ( ٩١٢ - ٩٦٥ هـ ) ، وهو ممدوح موسى بن يحيى بهران ، وستترجم له . أما أئمتهم في عهد الاحتلال العثماني الأول ( ٩٤٥ - ١٠٤٥ هـ ) فأشهرهم المؤيد بالله محمد بن القاسم ( ١٠٢٩ - ١٠٥٤ ) وهو الذي قاوم العثمانيين مقاومة عنيفة حتى اضطروا إلى الجلاء عن البلاد ، ولشاعره محمد بن علي بن شمس الدين قصيدة يذكر فيها وقائعه معهم وانتصاراته ، مطلعها (١) :

بلغتْ بنو الزُّهْرَا بك المأمولا      وبطولِ سَيْفِ عَلَاك زادوا طولا  
وخلفه المتوكل على الله إسماعيل ( ١٠٥٤ - ١٠٨٧ هـ ) وقد استولى على عدن وحضرموت وظفار ودانت له جميع الديار اليمنية ، وفيه يقول إبراهيم بن صالح المهدي من ميمية طويلة (٢) :

إِمَامٌ عَظِيمٌ السَّرَّ أَمَّا نَهَارُهُ      فَصَوْمٌ وَأَمَّا لَيْلُهُ فَنِيَامٌ  
رِيَاضُ الْأَمَانِي فِي حِيَاهِ نَضِيرَةٌ      وَسُحْبُ النَّدَى مِنْ رَاخَتَيْ سِجَامٍ (٣)  
تَحْمَلُ سِرَّ الْمِصْطَفَى بِسِرِيرَةٍ      وَسِيرَةٌ عَدَلٌ لَا تَكَادُ تُرَامُ  
تَدْفُقُ بَحْرَ الْعِلْمِ فِي طَيِّ صَدْرِهِ      أَوَادِي لُجَّ دُرْهَنْ تُوَامُ (٤)

ويوجد كتاب « نشر العرف لتبلاء اليمن بعد الألف » وهو في مجلدين ضخمين شعر زيدى كثير . واشتهرت قصيدة تاريخية في نحو ٢٤٠ بيتا لصارم الدين إبراهيم بن محمد الوزير الحسيني اليمني المتوفى بصنعاء سنة ٩١٤ وتسمى البسامة ، عرض فيها لأئمة العنويين على مر التاريخ بالحجاز والعراق واليمن والمغرب حتى زمنه ، ومع مر الأرمنة أخذت تضاف

(١) الخواص ص ١٤٨ .

(٢) سلافة ندر ص ٤٧٩ .

(٣) سجام : مائلة كثيرة والانصباب .

(٤) أودى : أنواع . توام : مزدوج .

لها ديول كثيرة تشير إلى الأئمة التالين في اليمن<sup>(١)</sup> . وحرى بنا أن نقف عند ثلاثة من شعراء الزيدية ، أحدهم مكى هو يحيى بن يوسف الملقب بالنشو ، والآخران يمينان ، هما موسى ابن يحيى بهران وعلى بن محمد العنسى الصنعانى .

### يحيى بن يوسف النشو<sup>(٢)</sup>

مكى مولدا ومنشأ وحياء ، ولد سنة ٧١٢ للهجرة ولم يلبث أن حفظ القرآن الكريم واختلف إلى دروس ابن عمه شيخ العربية أبى العباس النحوى وأخذ كل ما عنده ، واستمع إلى غير محدث ، ونال في الحديث إجازات مختلفة . وعنى بالشعر والرسائل ، فكتب الإنشاء لأمرء مكة في زمنه : عطيفة وابنه مبارك ومحمد وابن عمها عجلان بن رُمَيْثَة . وكانت ملكته الشعرية خصبة ، ويقول مترجموه : « له شعر كثير سائر مدح وهجابه جماعة من الأعيان » . وتوفى سنة ٧٨٢ . ونجده يكثر من مدائح أمرء مكة الزيديين وفي مقدمتهم من سميانهم آنفا ، وفي عطيفة المتوفى سنة ٧٤٣ يقول في بعض مدائحه له :

له هِمةٌ تَسْمُو إلى كُلِّ غَايَةٍ	هو الطَّاهِرُ الأَنْسَابِ والعَلَمُ الفَرْدُ
هو المَلِكُ المَاحِي لمن كان قَبْلَهُ	فما في مَلوكِ الأَرْضِ طُرًّا لَهُ نَدُّ
هو المَنعمُ المُولُ الجَميلُ تَفْضالًا	فمن سَيِّهٍ قد أَوْرَقَ الحَجَرُ الصَّلْدُ <sup>(٣)</sup>
نَحَرَ لَهُ كُلُّ المَلوكِ مَهابةً	وتَحَرَّسُ من إجلالهِ الأَلْسُنُ اللُّدُّ <sup>(٤)</sup>

وواضح أنه يبالي في مديح عطيفة ، ودائما يصفه بأنه سيف دين الله وأن المقادير تجرى بما يشاء ، وينعتة بالكرم والعدل ، ويشيد بنسبه من الرسول ﷺ ، وهو فخر ما وراءه فخر ، ويمدح ابنه مباركا المتوفى سنة ٧٥١ بنفس الشاكلة ، وفيه يقول :

ورثَ الفَخْرَ عن جَدودِ كِرامِ	قد بَنَى فوق ما بَنَى أمثالُهُ
شَرَفٌ ما استفادَهُ من بَعيدِ	مَلِكٌ أَرَفَعُ المَلوكِ جَلالَهُ
نَسَبٌ بينَ أحمدِ وعَلِيٍّ	فَهُوَ من خَيرِ [أَلِ] تلكِ السَّلالةِ
وهو كالشمسِ مُدْرِكُ آمالِهِ	وجَميعِ البلادِ تَهوى وِصالِهِ

(١) انظر في السَّلْمَة وذوها نشر العرف لزيارة ١١٣/٢  
وما بعدها .  
٧٢/٦ .

(٢) راجع في ترجمة يحيى وأشعاره المقدم الثمين ٤٥٢/٧

(٣) السب : العطاء . الصلْد : الصلب .

(٤) اللد : شديدة العداوة .

(١) انظر في السَّلْمَة وذوها نشر العرف لزيارة ١١٣/٢

وما بعدها .

(٢) راجع في ترجمة يحيى وأشعاره المقدم الثمين ٤٥٢/٧

وكذلك ترجمة عطيفة في ١٠٢/٦ وابنه مبارك في

وواضح أنه سلس اللغة ، فالكلمات خفيفة الوقع على الآذان ، وهي شديدة الاستواء والتناسق يلائم بعضها بعضا ، ويشعر الإنسان إزاءها بجمال الجرس جمالا بديعا ، جمالا يلذ الألسنة والآذان والقلوب ، وله من قصيدة في محمد بن عطفة مدحه بها سنة ٧٣٩ للهجرة :

إمامٌ له فَضْلٌ عَظِيمٌ على الوَرَى      كَرِيمٌ الأَبَادى بِالسَّاحَةِ أَوْحَدُ  
يَجُودُ بِمَا تَحْوَى يَدَاهُ تَكْرُمًا      وَيَعْلَمُ أَنَّ المَالَ لَيْسَ يُخَلَّدُ  
فَتَى لَمْ يَرِ الرَّاءُونَ مِثْلَ صِفَاتِهِ      إِذَا قِيلَ هَذَا حَانَمَ فَهَوَ أَجُودُ  
أَجَلُ الوَرَى جَاهًا وَقَدْرًا وَرِفْعَةً      وَأَكْرَمُ مَنْ يُرْجَى عَطَاهُ وَيُقْصَدُ

وعلى هذا النحو يشيع الانسجام في كلماته ، إذ يلائم بينها موسيقيا ملامات دقيقة ، بحيث لا تجد فيها قصورا ولا انحرافا ، وإنما تجد صفاء في الجرس ، سواء عمد إلى الأسلوب الرصين الجزل كما في هذه الأبيات أو عمد إلى الأسلوب الرقيق كما في الأبيات السالفة . ومن قوله في مديح عجلان بن ربيعة المتوفى سنة ٧٧٧ للهجرة :

ماذا يَقُولُ المَدْحُ فِيهِ وَمَا عَسَى      إِذْ كَانَ يَخْدُمُ جَدَّهُ جَبْرِيْلُهُ  
أَمَّا المُلُوكُ فَكُلُّهُمْ مِنْ دُونِهِ      كَالْبَدْرِ فِي أَفْقِ السَّمَاءِ حُلُولُهُ  
سُلْطَانُ مَكَّةَ وَالْمَشَاعِرِ وَالصَّفَا      مِنْ لَا يَخَافُ مِنَ الزَّمَانِ نَزِيلُهُ  
لَوْ حَاوَلَ النُّجُومَ العَظِيمَ لَنَالَهُ      تُنْبِيكَ عَنْهُ رِمَاحُهُ وَنُصُولُهُ  
سَكَنَتْ مَجَّتَهُ القُلُوبَ جَمِيعَهَا      لَمَّا تَقَارَنَ سَعْدُهُ وَقَبُولُهُ

وكان عجلان محبوبا حقا للقريب والبعيد إذ كان دون أمراء مكة الحسينيين من آباءه وأقاربه يحب أهل السنة وينصرهم على الشيعة ، ويقال إنه كان شافعي المذهب<sup>(١)</sup> . وقصيدة الشوف فيه بديعة ، وقد افتتحها بغزل رائع ، إذ يقول :

لولا الغرامُ ووجدُهُ ونحوهُ      ما كنت تَرَحِّمُهُ وَأنتِ عَدُوْلُهُ  
إن كنتَ تنكره فَسَلِّ عن حالِهِ      فالحبُّ داءٌ لا يُفِيقُ عَلِيْلُهُ  
يا مَنْ يَلُومُ على الهوى أَهْلَ الهوى      دَعَّ لَوْمَهُمْ فَالصَّبْرُ ماتَ جَمِيلُهُ

وأشدد صاحب العقد الثمين في ترجمته للنشو مدائح له جيدة في الشريف طفيل بن منصور الحسيني أمير المدينة ، استهلها بغزل بديع ، يتحدث فيه عن الغرام وأنه يجد بمحبوبته وجدا لا يشبهه وجد ، إذ نزلت مع صواحبها بالمنحنى لا من الأودية والتلال ، ولكن من أضلعه ، ومن غزله الرقيق :

(١) النجوم الزاهرة ١١ / ١٣٩ .

أَبْنُ الْمَرْءِ لِمَنْ هَوَاكَ طَلْبِيهِ  
يَشْكُو وَلَا أَحَدٌ يَرْقُ لِمَا بِهِ  
وَجَمِيعُ مَا فِي الْقَلْبِ مِنْكَ عَرَفْتَهُ  
حَنْ الْعَدُولُ عَلَيْهِ حِينَ هَجَرْتَهُ  
يَا وَيْحَ مَنْ يَزِيءُ لَهُ أَعْدَاؤُهُ  
وَسِهَامٌ لَحَظِكَ بِالسَّقَامِ تُصِيْبُهُ  
وَارْحَمَتَاهُ لِمَنْ جَفَاهُ حَبِيْبُهُ  
أَتَكُونُ سَاكِنَهُ وَأَنْتَ تُذْيِبُهُ  
وَرَنَا لَهُ الْوَأَشَى وَرَقٌّ رَقِيْبُهُ  
فَشُجُونُهُ لَا تَنْقُضِي وَنَحِيْبُهُ

وهو غزل كله وجد ولوعة وهيام ، غزل يتفرق فيه الشوق واللهفة والحنان ، حتى ليحن على الحب العدول والواشي الرقيب ، فكلهم يأسي له ، وهو يلتاع بحبه وشجونه ، ولا يكف عن النحيب ، إذ يجب صاحبته كما لم يجب فتاة قط ، ويحتمل في ذلك آلاما ثقلا . وله مدائح نبوية كثيرة بديعة ، يستهلها بنسب رائع ، من مثل قوله :

عَرَّجُ بِسُنْعَرَجِ اللَّوِيِّ وَالْمُنْحَنَى  
أَهْوَاهُمْ وَهَوَاهُمْ لَا يَنْقُضِي  
فَلَنْ ظَفِرْتُ بِزُورَةٍ أَحْيَا هَا  
يَا أَهْلَ طَيْبَةٍ إِنْ لِي فِي حَيْكِمِ  
أَنْوَارُهُ مِنْهَا الدِّيَابِجِي أَشْرَقْتُ  
وَلُهُ الْفَضَائِلُ وَالْمَأْتَرُ وَالْعُلَا  
فَعَسَاكَ تَطْفَرُ مِنْ لِقَاهِمِ بِالْمُنَى  
أَبْدَأُ وَإِنْ شَطَّ التَّبَاعُدُ بَيْنَنَا  
فَلِي السَّعَادَةُ وَالْمِسْرَةُ وَالْهِنَا  
قَرَأَ لَهُ كُلُّ الْمَحْسَنِ وَالسَّنَا  
بَدْرٌ بِهِ قَدْ نَوَّرَتْ كُلُّ الدُّنَا  
وَلَهُ الْمَفَاخِرُ وَالْمَحَامِدُ وَالسَّنَا

والنسب كالمديح النبوي يذوب رقة وخفة ورشاقة ، مما يدل بوضوح على قدرة الشاعر الموسيقية وأن أذنه كانت من رهافة الحس بحيث تحسن اختيار القوافي واصطفاء الألفاظ إحسانا بعيدا .

### موسى بن يحيى بهران<sup>(١)</sup>

شاعر الإمام شرف الدين (٩١٢ - ٩٦٥ هـ) . وليس بين أيدينا معلومات واضحة عن زمن مولده ووفاته . وكان شرف الدين مدَّ يده إلى المصريين مُعِينًا حين أرسل قانصوه الغوري طائفة من الجراكسة في سنة ٩٢١ إلى جنوبي البحر الأحمر لرد عدوان البرتغاليين ونزلت في جزيرة كمران ، وطلبت من السلطان عامر آخر أسرة بني طاهر أن يعينها ضدهم ، ولكنه رفض عونها ومنع عنها الميرة ، وكان شرف الدين قد أرسل إليها شيئا من

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب شعر الغناء الصنعاني محمد عبده غام ص ١٨٤ - ١٨٧ ، السلفية) ص ٤٩ . وللشاعر ديوان نظمه في مديح الإمام شرف الدين .

(١) انظر في ترجمة موسى بن يحيى بهران وأشعاره كتاب شعر الغناء الصنعاني محمد عبده غام ص ١٨٤ - ١٨٧ ، ١٩٩ - ٢٠٠ وتاريخ اليمن لعبد الواسع (طبع المطبعة

العون والمؤن ، وشكا من السلطان عامر ، فتعاون قائدها معه على حربه ، وقضيا عليه وعلى حكم أسرته سنة ٩٢٢ . ودخل شرف الدين صنعاء ، ودخلت البلاد جميعها في طاعته وأكثرت الشعراء من تهنته بهذا النصر المبين ، وفي مقدمتهم موسى بن يحيى بهران إذ هنأه بقصيدة رائعة ، فيها يقول :

خليفةُ الرحمن في أرضه مباركُ الوجه كريمُ الجدودُ  
 برُّ كريمٍ من بني المصطفى إمامٌ حقٌّ ساعدته الجدودُ  
 قالتْ له الأيامُ إذ أقبلتْ ما أحسنَ الوصلَ عقيبَ الصدودُ  
 وأهلكَ الباغينَ حتى تَوَوَّأ واستبدلوا بعدَ القصور اللُّحودُ  
 واستبشَرَ العدلُ بأيامه فامتلاً الغورُ به والتُّجودُ  
 وأصبحتْ صنعاءُ من عُجْبها ترْفُلُ في مُستحسِناتِ البرودُ

وقد ورى الشاعر في البيت الثاني بكلمة الجدود وهو لا يريد بها الآباء كما في البيت الأول - وكما قد يتبادر - وإنما يريد بها الخطوط . وهو يذكر نسب شرف الدين من الرسول ﷺ ، إذ هو من سلالة الحسن بن السيدة فاطمة الزهراء . ولا يلبث أن يمدحه برفع أعباء الظلم عن كواهل الشعب وإحلاله في كل مكان للعدل الذي لا تصلح حياة الأمم بدونه ، ويشير في البيت الأخير إلى فتح شرف الدين لصنعاء وكيف اتخذت زينتها ابتهاجا به وفرحا . ويسترسل في القصيدة منشدا :

يا شرفَ الدين وُقيتَ الردى ودمتَ تحمي بالحداد الحدودُ  
 لا غرَّو أنْ سُدَّتْ جميعَ الورى مثلك يا بحرَ الندى من يسود  
 علمك بحرٌ ماله ساحلٌ زَنَدُكَ أَوْرى من جميع الزنود<sup>(١)</sup>  
 وجودُ كَفَيْكَ إذا ما همى غيثٌ مُغيثٌ ما له من رعود

وفي البيت الأول جناس واضح بين الحداد أى السيوف والحدود . ومنذ هذا التاريخ بل ربما قبله بحقب يكثر الجناس في شعر اليمنيين ، وقد مضوا أيضا يكتثرون من التورية محاكاة للمصريين . والشاعر يمدح شرف الدين بالكرم والشجاعة والعلم بالشرعية . وفي الأبيات السالفة مدحه بالعدل . وكل هذه مبادئ أساسية في الإمامة الزيدية كما مربنا في صدر هذا الكلام . ومضى في القصيدة مبالغا في مدحيه خاتما لها بالدعاء له . ولموسى قصيدة بائنة بديعة يهني فيها شرف الدين بأحد أعياد الفطر ، وفيها يقول :

حوى شرفُ الهدى والدين مجداً رفيعاً وابتنى شرفاً علياً

(١) أورى : من ورى الزند إذا خرجت ناره .

بَرَاهِ الْهِنَا بَرًّا صَفِيًّا      ولم يخلقه جَبَّارًا عَصِيًّا  
 سَرَى سِرُّ النَّبُوَّةِ فِيهِ حَتَّى      حَكَى عَنِ جَدِّهِ خُلُقًا سَيِّئًا  
 حَوَى عِلْمَ الَّذِينَ مَضَوْا جَمِيعًا      وَأَصْبَحَ وَارثًا لَهُمْ وَلِيًّا  
 تَأَزَّرَ وَارْتَدَى بِالْحُكْمِ كَهَلَا      وَأَوْفَى حُكْمَ خَالِقِهِ صَيًّا

وواضح أن قوافي الأبيات مأخوذة من فواصل سورة مريم ، وأن الشاعر لم يكتب بذلك ، بل حاول أن يسبغ على شرف الدين بعض ما جاء في السورة من نعوت للنبي يحيى ، وقارن بين البيت الثاني وقوله تعالى في نعت يحيى بن زكريا : (وَبَرًّا بِوَالِدَيْهِ وَلَمْ يَكُن جَبَّارًا عَصِيًّا) . ويشير الشاعر في البيت الثالث إلى فكرة ميراث النبوة التي جاءت في السورة على لسان زكريا إذ يدعوره أن يهبه غلاما : ( فَهَبْ لِي مِنْ لَدُنْكَ وَلِيًّا يَرِثُنِي وَيَرِثْ مِنْ آلِ يَعْقُوبَ وَاجْعَلْنِي رَبًّا رَحِيمًا ) . ويكمل الفكرة في البيت الرابع . ولا يلبث أن يسلك في البيت الأخيرة نهاية الآية الكريمة : ( يَا يَحْيَى خُذِ الْكِتَابَ بِقُوَّةٍ وَآتِنَاهُ الْحُكْمَ صَبِيًّا ) . وهو غلو واضح . ويمضى في القصيدة قائلا :

وَقُلْ يَا بَنِي الْآكَارِمِ مِنْ قَرِيشٍ      وَأَحْسَنَهُمْ - إِذَا ذُكِرُوا - نَدِيًّا  
 وَمَنْ دَنَتْ الْمُلُوكُ لَهُ وَذَلَّتْ      وَخَرَّتْ مِنْ مَهَابَتِهِ جَنِيًّا  
 بِفَضْلِكَ تَتَّقَى نُوبُ اللَّيَالِي      فَكُنْ فِي التَّائِبَاتِ بِنَا حَقِيًّا

والشطر الثاني في البيت الأول مستمد من قوله تعالى في السورة : ( أَيْ الْفَرِيقَيْنِ خَيْرِ مَقَامًا وَأَحْسَنَ نَدِيًّا ) أى مجلسا وجماعة . والبيت الثاني يستضىء بالفاصلة ( جَنِيًّا ) الواردة في السورة أى تحخر الملوك على ركبها ولا تستطيع الحراك هيبة له وإجلالا . وقافية البيت الثالث مأخوذة من قول إبراهيم في السورة لأبيه : ( مَا سَأَلْتُكَ رُبِّي إِنْ كَانَ لِي حَفِيًّا ) أى رعوفاً يرعاني . ويغتم الشاعر القصيدة بالدعاء لشرف الدين والصلاة على رسول الله ﷺ ، يقول :

عَلَيْكَ سَلَامٌ رَبِّكَ مَا تَعَنَّتْ      حَامُّ الْأَيْكِ صُبْحًا أَوْ عَشِيًّا  
 وَصَلَّى اللَّهُ خَالِقَنَا عَلَى مَنْ      تَحَيَّرَهُ نَبِيًّا هَاشِمِيًّا  
 مُحَمَّدٍ الْمَشْفُوعِ فِي الرِّيَا      صَلَاةٍ تُبَلِّغُ الْأَمَدَ الْقَصِيًّا

وتكثر هذه الخاتمة عند شعراء الجزيرة وخاصة في القرون الأخيرة من هذا العصر ، وكثيرا ما يضمنونها كما صنع الشاعر الإشارة إلى شفاعة رسول الله ﷺ لأتمه يوم القيامة . ولهذا القصيدة وسابقتها مقدمتان غزليتان بديعتان ، ومن قوله في مقدمة القصيدة الأولى :

مَلَقْتَنِي فِي خَدِّهِ جَنَّةٌ      مَحْفُوفَةٌ بِالنَّارِ ذَاتِ الْوُقُودِ

له سيفٌ طالما سلَّها      من لَحَظَه يَحْمَى وِرْوَدَ الخُدُودِ  
سبحانَ من صَوَّره فتنَةً      لخالقِهِ وهو الرَحِيمُ الوَدُودُ  
لم أَدْرِ أين الثَّغْرُ من عَقْدِهِ      لما تساوى ثَغْرُهُ والعقودُ  
وفى المَهَا ضِدَّانَ لم يَبْرَحَا      قساوةَ القَلْبِ ولينُ القُدُودِ

والآيات تكثف بالصور وبعنصر المفاجأة الذى يجعلها طريقة كل الطرافة ، فالورود فى خَدِّ صاحبه جنة محفوفة بحمرة شديدة كأنها النار الحامية ، وما لحظها إلا حام بسيفه لورود الحدود ، وإنما لفتته لا تُحاكيها فتنه . ويعود إلى التصوير وعنصر المفاجأة ، فلا يدرى أين ثغرها ولآلىء أسنانها وأين العقود ولآلتها فقد اختلط عليه الأمر . ويخالها تحمل من المهما قساوة قلبه ولين قَدِّه وقامته . أما مقدمة القصيدة الثانية فجعلها حوارا بينه وبين محبوبته نطقتف منه هذه الآيات :

فقلتُ له ونحن ببحرٍ حالٍ      أتفقُدُ من جنان الخُلْدِ شيئا  
فقال وقد تعجَّب من مقالٍ      جنانُ الخُلْدِ قد جُمِعَتْ لَدَيَّا  
فقلتُ : فسحرٌ بابلَ أين أضْحَى      فقال : أما تراه بِمُفْلَتِيَا  
فقلتُ : الورْدُ أين يكون ؟ قل لى      فقال : أما تراه بوجْهِيَا  
فقلتُ الشَّهْدُ أين ؟ فقال : هَدَى      شِفاهى قد حوتُ شَهْدَا جَنِيَا

ويستمر فى حوارهِ مع صاحبه سائلا عن البرق ، فتذكر له أنه يطلُّ من مبسمها الوضىء ويسألها عن المرآة وجيد الغزال والثريا فتبدى له خدَّها الباهى وجيدها الفاتن وقد استدار من حوله عقد جواهر أنيقة . ولولا خوف الإطالة لنقلنا الحوار جميعه ، وفى الحق أن شعره يحفل بما يملأ النفس إعجابا بتصاويره وأخيلته ولفظه العذب السائق ونغمه الموسيقى المصنَّى ، ولعل ذلك ما دفع المغنين فى اليمن منذ عصره إلى أن يتغنوا بهاتين القصيدتين ، وخاصة بمقدمتيهما الغزليتين البديعتين .

### على بن محمد العنسى<sup>(١)</sup>

بنى صنعانى ، نشأ بمدينة صنعاء فى بيت علم وفضل ، وبدأ بحفظ القرآن واستظهار الأشعار ثم اختلف إلى مجالس النحاة والفقهاء وعلماء المنطق ، حتى إذا تزود من كل ذلك

(١) انظر فى ترجمة العنسى وأشعاره اليدر الطالع للشوكانى ١/ ٤٧٥ وكتاب نشر العرف لزيارة ٢/ ٢٨٠ وراجع فيه تراجم شرف الدين القاسم والمتوكل القاسم بن الحسين واليد عبد الله بن على الوزير ومصطفى الحموى وأحمد بن عبد الله الجرى وصلاح بن الحسين .

زادا كافياً قُلْدَ القضاء ببلاد العدين من اليمن الأسفل لعهد الإمام الزيدى محمد بن أحمد ابن الحسن (١٠٩٧ - ١١٢٨ هـ) ومازال يتولى هذا المنصب حتى عهد إليه الإمام الزيدى التالى المتوكل القاسم بن الحسين (١١٢٨ - ١١٣٩ هـ) بالقضاء فى بلاده وفى وصاب غزى زَيد . وفى سنة ١١٣٦ وُشى إلى القاسم أنه يسعى ضده مع بعض الثائرين وأنه صاحب القصيدة : « سماعا عبَادَ الله أهلَ البصائرِ » وهى قصيدة تصور ظلمه وتدعو للثورة عليه . فقبض عليه القاسم وألغى به فى غياهب السجون ، وأخذ العنسى يرسل إليه قصائد مستعظفا بمثل قوله :

إمامَ الورى عَطْفًا على خائفٍ عَطْفًا      بحق الذى أبفك فى خَلْقِهِ كَهْفًا  
فو الله مالى قَطُّ ذَنْبٌ عَرَفْتَهُ      وهذا الذى أُبْدَى والله ما ينجى  
إمامَ الهدى هَبْنِي جنيتُ جنابةً      فهبنى لأطفالٍ كظير القَطَا ضَعْفًا

وتحقق القاسم من براءته ، فردَّ إليه حريته ، وعينه حاكا بالحَيمة من بلاد صنعاء ، وظل بها إلى أن لبيى نداء ربه سنة ١١٣٩ هـ / ١٧٢٦ م . ويكتظ كتاب نشر العرف بأشعار إخوانية متبادلة بينه وبين بعض الأمراء والأدباء فى ترجمته وتراجمهم . وله قصائد مختلفة تتصل بالأحداث فى عهد المتوكل القاسم بن الحسين ، من ذلك أنه لما أكمل بناء السور على بستان باب السبحة فى صنعاء سنة ١١٣٤ مدحه بنونية يقول فيها :

أما قبلى فى البستانِ وهو بأهلِهِ      وبالملكِ سامٍ لا يدانيه عُمدانُ<sup>(١)</sup>  
ويَعْمُرُهُ من يَعْمُرُ الدينَ عدلُهُ      ويَحْيِي بِهِ معنى الفخارِ ويزدانُ

ومن ذلك إيقاع المتوكل القاسم فى صنعاء بقبائل أرحب سنة ١١٣٨ حين اعتدوا على بعض فرسانه ، ففتك بهم فتكا ذريعا . وصوِّر ذلك العنسى فى ميمية عارض بها ميمية المتنبي فى سيف الدولة التى وصف فيها واقعة الحَدَث وهزيمته للروم هزيمة ساحقة . وقد استعار منها كثيرا من قوافيه ومعانيه وصوره وألفاظه ، من مثل قوله :

نثرتَ دنائيرَ الوجوهِ على الثرى      كما نُثِرَتْ فوق العروسِ الدرَاهمُ  
هنيئًا لَصْرَبِ الهامِ والمجدِ والتدى      وراجيك والإسلامِ أنكِ سالمِ  
وقوفُك ما بين الخمسينِ باسمًا      وموجُ المنايا حولك المتلاطمِ  
ولستَ مليكا هازما لنظيره      ولكنك الإسلامُ للشركِ هازمِ

والآبيات شديدة الصلة بقصيدة المتنبي : « على قدر أهل العزم تأتي العزائم » . وهى ظاهرة تلاحظ فى شعراء اليمن المتأخرين إذ يكثر من معارضة الشعراء الناهيين لا فى المديح

(١) عُمدان : قصر عتيق باليمن .

فحسب ، بل في كل الأغراض الشعرية . ونرى العنسي يقول في افتتاح قصيدة روضية :

يا سَمِيرِي وللفتوة قومٌ خَلَقُوا من سُلالة الإِسْجَامِ  
بطراز الرِّفَاء بتشبيب مِهْيَا رِ يَلُطْفُ البَهَا بطبع السَّلَامِي

وهو يصرح في البيتين بأنه من قوم يعنون في شعرهم بالانسجام الموسيقى على شاكلة السَّرِيِّ الرِّفَاء المشهور بعدوبة ألفاظه ومهيار الذي يمتاز بالسلاسة والبهاء زهير المشهور بالرقّة والسلامي المعروف بجبال نغمه . وطبعا هؤلاء إنما هم بعض من قرأ لهم العنسي وحاكاهم وعارضهم في شعره . وله قصيدة تاريخية شيعية في نحو سبعين بيتا استعرض فيها نحو أربعين إماما بادئا بعلي بن أبي طالب الذي اقتلع باب الحصن في خيبر ، فاستوصلت شأقة الكفر ، ويذكر قتله لعمر بن ودّ فارس قريش يوم الخندق ويُشيد بفاطمة الزهراء وابنيها الحسن والحسين ريحانتي أهل الجنة ويعلي زين العابدين ، ثم بإمامهم زيد منشدا :

ويا خير من سلّ الحُسامَ وقد طغى لثيمُ بني مروان أشقى بني الدَّهْرِ  
فأصبح منه الجِدْعُ قد عاتق العُلا ولكنها في الدين قاصِمةُ الظَّهْرِ

وهو يشير إلى ثورة زيد بن علي زين العابدين على هشام بن عبد الملك في الكوفة ومقتله هناك وصلبه ، ويذكر أخاه محمداً الباقر وابنه جعفرأ الصادق . ويذكر ثورات الحسينين مبتدئا بثورة النفس الزكية على المنصور وسفك دمه ، ويذكر ثورة الحسين بن علي الحسنی على الخليفة العباسي الهادي في الحجاز ومقتله بفتح بالقرب من مكة ، كما يذكر وقوع يحيى أخيه النفس الزكية في يد الرشيد والقائه به في غياهب السجون حتى مات . ويذكر الزيدية في طبرستان وآمل . ثم يتحدث عن الهادي إلى الحق يحيى بن الحسين بن القاسم الحسنی مؤسس مذهب الزيدية في اليمن ، ويستعرض الأئمة التاليين له منوها بهم ومشيدا بأبجادهم . حتى يصل إلى المؤيد بالله محمد بن القاسم الذي تغلب على العثمانيين وردّهم عن البلاد سنة ١٠٤٥ وفيه يقول :

ويا حُجَّةَ اللَّهِ الذي قام داعياً إلى الله فرداً لا يزيد ولا عَمَرُو  
وبشّرتِ الناسَ الهواتفُ باسمِهِ كما بشّرتُ بالمصطفى مبدأ الأمر  
فأخلا عُنُوجَ التُّركِ عن يَمَنِ الهُدَى بِضَرْبِ كما هاج الوهيجُ من الجَمْرِ

ويلاحظ أن العنسي لا يقف عند مبادئ الزيدية في مديحه . إذ يضيف إليها بعض اعتقادات الشيعة الغالية في أئمتهم . وقد ساق في أوائل القصيدة وصفا لجعفر الصادق بأنه يكشف أسرار الحقي من علم الجفر . وهو كتابات تكشف طلاسمها عن أنباء المستقبل وأحداثه . ويقولون إن الرسول أودعها عليا وتناقلها الأئمة بعده من جيل إلى جيل .

والزيدية لا يؤمنون في إمامهم بمعرفته لهذا العلم وما يجر إليه من الاعتقادات الباطلة ، ومع ذلك نرى العنسى يشيد بمعرفة جعفر الصادق له ، وكأنه أحد الإسماعيلية الذين كانوا يؤمنون به . وقد يكون في هذا دليل على ما دخل مذهب الزيدية مع الزمن من اعتقادات لا تعرفها نحلتهم ، ومن ذلك وصفه لمحمد بن القاسم بأنه حجة الله . ومربنا أنه اصطلاح إسماعيلي وأن المراد به أنه الداعي للمذهب في بلاده . ويزعم أن الهواتف من الجن كانت تبشر به الناس كما بشرت قديما بالمصطفى ، وكل ذلك غلو مفرط يخرج عن حدود المذهب الزيدي الشيعي المعروف باعتداله وأنه لا يبالغ في تصوّر الأئمة وإسباغ الصفات الربانية عليهم . كما يفعل الإسماعيلية . وربما كتب العنسى هذه القصيدة في سجنه تقربا إلى القاسم بن الحسين حتى يفك عنه أغلاله ، فخرج إلى هذه المبالغات المسرفة . وقبل أن نختتم كلامنا عنه نشير إلى قصيدتين متبادلتين بينه وبين عبد الله بن علي الوزير الذي التزم في جميع أبيات قصيدته التورية وسماها أهرام مصر . ودفع ذلك العنسى إلى القاسم التورية بدوره في كثير من أبيات قصيدته . وواضح من تسمية عبد الله الوزير لقصيدته بأهرام مصر أنه كان يعرف بوضوح أن شعراء مصر هم الذين اتخذوا التورية مذهبا أداروا عليه كثيرا من أشعارهم . والقصيدتان من وزن الطويل ، وقد ضمن العنسى قصيدته بعض شطور من قصيدة مجنون ليلي مثل : ( قضاها لغيري وابتلافي بحبها ) وأيضا بعض شطور من قصيدة المتنبي في كافر مثل : ( كفى بك داء أن ترى الموت شاقيا ) وكان هذا التضمن في الحقب المتأخرة من ذلك العصر يُعدّ من الطُرف البديعة .

### ٣

#### شعراء الخوارج

مربنا في الفصل الأول حديث عن الإباضية وأنها كانت إحدى فرق الخوارج الأساسية بجانب الأزارقة والنجدات والصفورية ، وكان نشاط الأزارقة في فارس وكرمان والصفورية في الموصل والنجدات في الحامة ، وانتهت هذه الفرق الثلاث أو كادت بانتهاء العصر الأموي . أما فرقة الإباضية المنسوبة إلى إمامها عبد الله بن إباض التيمي فقد ظلت حية طوال عصر بني أمية والعصور التالية ، واتخذت مركز نشاطها في مدينة نزوى داخل إقليم عمان جنوبي الجبل الأخضر ، وظلت مدينة عمان طويلا تخضع لدول سنية أو شيعية كما مربنا في غير هذا الموضع ، حتى إذا كان القرن الحادي عشر الهجري أظلت البلاد جميعها

راية الإباضية إلى اليوم . وكثيرا ما كانت تنشب الحروب بينهم وبين دول مدينة عُمان ، وكانت تقع أحيانا في أيديهم ، واستطاعوا في حقب مختلفة أن يمدوا دولتهم إلى ظفار وحضرموت ، ومن أهم أئمتهم القدامى الخليل بن شاذان ، وكان يمد سلطانه ومذهبه الخارجي الإباضي على حضرموت ، واتخذ عاملا له عليها أبا إسحق الحضرمي ، وكان شاعرا ، وله في الخليل إمامه أشعار كثيرة يصور فيها عونه المالى والحربى ضد خصومه ، وفيه يقول (١) .

هذا الخليلُ إمامُ المسلمين حكَّتْ أنوارُ سيرته في العدلِ نيرانا  
ويكتنظُ ديوانه بمدائحُه ، ولا تكاد تمرُّ حادثةٌ أو يمرُّ له انتصارٌ حربى إلا ويرسل إليه  
القصاصد مهتئا . وخلفه راشد بن سعيد على إمامة الخوارج فأبقى على أبي إسحق عاملا له  
على حضرموت ، ويُعدُّ راشد أهم إمامٍ خارجى في الحقب الأولى لهذا العصر ، إذ استولى  
على عُمان ، وأصبحت البلاد جميعها يُظلمها لواء الإباضية إلى أن استطاع بنونيهان في القرن  
السادس أن يستخلصوا منهم عمان . وتستم الحروب بين الطرفين إلى أن يفرض الخوارج  
سلطانهم على البلاد جميعها ، وتعود عمان إلى النبهانيين فترة في القرن العاشر ، ثم يستولى  
عليها نهائيا ناصر بن مرشد اليعربى ( ١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ ) وتظل منذ هذا التاريخ في أيدي  
الخوارج ، وكان البرتغاليون قد نزلوا في شواطئها ، فأخذ ينازلهم وظلت مدينتا صحار  
ومسقط في أيديهم واستطاع خلفه سلطان بن سيف اليعربى ( ١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ ) أن  
يطردهم من البلاد نهائيا وتبعهم أسطوله يتكفل بهم وبأسطولهم في شرق إفريقيا وغرب  
الهند . وفي ذلك يقول شاعره خلف بن سنان العافرى ممجداً (٢) .

ثُمَّ أَوْرى لِمَسْقَطِ سِقْطَ عَزْمٍ أسْقَطَ الظالمين منه ضِرَامُ (٣)  
وَعَدَتْ من عُمان كَفُّ بِنِي الأَصْدِ فَرَّ صِفْراً قد هَزَّها الانهزامُ (٤)  
وَبِمِمْبَايَةِ أذاقهمُ بَأُ سَأُ بِحَيْسًا سَيِّتُ بِهِ الأَصْنَامِ  
وَلدى زَنْجِبَارَ زَمْجَرَ فيهم وَعَدُّ زَجْرٍ لم يُنْجِ منه اعْتِصامِ  
وَبِمِمْبَايَ نَابِهمُ منه نَابُ لم يَشْبُهُ عن المَصَى انْتِهامُ (٥)

وهو يشير إلى انتصارات أسطول سلطان على الأسطول البرتغالى في مجامسه  
وزنجبار وفي بجى بالهند . وهى انتصارات جديدة بكل تمجيد وإشادة . وخلفه ابنه

(١) تحفة الأعيان ١ / ٢٥٨ وما بعدها .

(٤) يريد بينى الأصفر البرتغاليين .

(٢) الصفحة ٦٠ / ٢ .

(٥) انتقام : تكسر ثنابا الأسنان من أصولها .

(٣) أورى : أوقد . سقط النار : شرارة أو شحنة من .

بِغَرْبٍ . وكان شاعرا . وقد تروى في كنفه شاعر خارجي مهم يسمى الحبسي ، وله ديوان استهله بمدائح نبوية على عدد حروف المعجم ، وفيه مدائح كثيرة في بلغرب بن سلطان ، وفيه يقول (١) :

يا مَنْ إِذَا نَارَ فِي الْهَيْجَاءِ يَفْعَلُ فِي أَعْدَائِهِ فِعْلَةَ الْجَزَارِ فِي الْبُدُنِ (٢)  
 وَمَنْ إِذَا فَاخَرَ الْأَشْرَافَ فِي مَلَأٍ شَاعَتْ مَفَاخِرُهُ فِي الشَّامِ وَالْيَمَنِ  
 هَذَا الْكَرِيمَ الَّذِي تَشْفِيكَ رُؤْيَتُهُ مِنْ كُلِّ دَاءٍ وَمِنْ هَمٍّ وَمِنْ حَزَنِ  
 بِلُغْرَبٍ نَجَلٌ لِسُلْطَانَ الَّذِي حَسَنَتْ أَخْلَاقُهُ وَهُوَ رَبُّ الْمَنْظَرِ الْحَسَنِ  
 وواضح أن شعره متوسط . وأجود شعراء عُمان في أواخر هذا العصر أبو مسلم ناصر بن سالم الرّواحيّ العُماني ، وهو شاعر بارع ، توفي سنة ١٣٣٨ هـ / ١٩٢٠ م ولذلك نرى أن نُؤخّره إلى العصر الحديث في عمان .

ولابد أن نعرض لدولة بني مهدي الخارجية التي استولت على زيد من يد بني نجاح ، وقد ظلت نحو خمسة عشر عاما ، وكان مؤسسها علي بن مهدي الحميري يعتقد مذهب الأزارقة من الخوارج ، وهو أكثر مذاهبهم تشددا ، وكان يقتل على الكبيرة ويستحل دماء المسلمين من مخالفه ، ويسترق ذراريهم . ولم يقف عند مبادئ الأزارقة ، فقد استباح نساء المسلمين . وخط آراءه بشيء من مبادئ الإسماعيلية ، فادّعى كما مر بنا العصمة وتسمى باسم الإمام المهدي . واستطاع الاستيلاء على زيد سنة ٥٥٤ ، وعاجله الموت بعد ثلاثة أشهر ، وتولى بعده ابنه المهدي ، وسار سيرة أبيه في سفك الدماء وسبى المسلمين ، واستولى على تعزّ والجند ، ويقول العماد الأصبهاني إنه ادعى الإمامة وأقبل على شرب الخمر . توفي سنة ٥٥٩ ، وخلفه أخوه عبد النبي ، وكان مثل أخيه وأبيه سفاكا للدماء ، قتله توران شاه حين استولى على اليمن سنة ٥٦٩ . ومن شعراء هذه الدولة القصيرة الأجل ابن المسيح (٣) وعبد الله (٤) بن أبي الفتوح الحرازي ومحمد بن عمر العمراني وله من قصيدة يمدح بها عبد النبي (٥) :

وَضَحَتْ شَمْسُ الْحَقِّ بَعْدَ أَقْوَالِهِ وَرَسَتْ هُنَالِكَ قَاعِدَاتُ أُصُولِهِ  
 وَنَقَفَ قَلِيلًا عِنْدَ شَاعِرٍ مِنْ شِعْرَاءِ الْإِبَاضِيَّةِ ، هُوَ أَبُو إِسْحَاقِ الْخَضْرَمِيِّ ، وَشَاعِرٌ مِنْ شِعْرَاءِ  
 دَوْلَةِ بَنِي مَهْدِي الْخَارِجِيَّةِ ، هُوَ ابْنُ الْهَيْبِيِّ .

(٤) نفس المصدر ٣ / ٢٧٣ .

(٥) طبقات فقهاء اليمن للجمدي ص ١٩٣ .

(١) النحلة ٢ / ٨٧ .

(٢) البدن : التوق والقر المهيا للذبح .

(٣) الحريرة قسم للشام ٣ / ٢٧٢ .

أبو إسحق الحضرمي<sup>(١)</sup>

هو أبو إسحق إبراهيم بن قيس الهمداني الحضرمي ، وُلد بحضر موت ولا يُعرف بالضبط تاريخ مولده ولكن يغلب أن يكون وُلد في منتهى القرن الخامس الهجري أو في أواخر القرن الرابع . وهو من بيت علم وفضل ، كان أبوه - كما يقول مقدم ديوانه - عالماً ورعاً زاهداً متقشفاً . ويبدو أنه كان يعتقد عقيدة الإباضية مثله ، ومثل كثيرين من أهل حضر موت . ونشأ ابنه على عقيدته ، حتى إذا شب أخذ يتحمس لها ويحاول أن ينشرها في الناس من حوله ، وفي نسبه وإباضيته يقول :

فإنَّ تَسألِي عنيّ وعن أهل مذهبي      ومن أين داري أنت يا أمّ حازمٍ  
فإنيّ من همدانٍ أصليّ وقُدوني      فرداسُ والأوطان أرضُ الحضارمِ  
أنا الرجلُ الداعي إلى الحقِّ والذي      أبتُ نفسه شتمَ الضُّعَاةَ الأشائمِ  
أنا الرجلُ الشاري الذي باع نفسه      وأصبح يرجو الموتَ عند التصادمِ

وهو في الأبيات يصرح بأنه حضرمي من همدان . وأنه أخلص نفسه للدعوة الإباضية ، ويصف نفسه بأنه من الشُّرّة ، وقد سمي الخوارج أنفسهم بهذا الاسم إشارة إلى قوله تعالى : (ومن الناس من بشرى نفسه ابتغاء مرضاة الله) وهو يعلن أنه باع نفسه لربه والدعوة لنحلته ، وأصبح يطلب الموت والاستشهاد في سبيلها حتى يفوز برضوان الله ، ويبدو أن الشعر سال على لسانه مبكراً ، مما جعله يخلف ديواناً ، وهو يصور فيه حياته وأحداثها تصويراً تاماً ، وهي حياة وأحداث متصلة بأئمة الإباضية في تروى إذ نراه على رأس حملة للخليل بن شاذان إمام الإباضية استطاع بها أن يضم حضر موت إلى سلطانه وقد ظل والياً له عليها إلى وفاته ثم خلفه راشد بن سعيد الذي مدّ جناح سلطانه إلى عُمان ، ونجده يشيد بإمامه الخليل بن شاذان في قصائد كثيرة . بمثل قوله :

يا أيها العَلَمُ العَدْلُ الذي كملتْ له      الخصالُ مُروءاتٍ وإيماناً  
إني أحبُّكَ والرَّحْمَنُ يَعلمُه      حبّاً احتسابٍ إلى ذِي الطَّوْلِ قُرْباناً  
ويطلب في القصيدَة منه معونة ليحطم العوارة الضالين . وكانت لا تزال تأتيه المعونات ولا يزال يحارب أعداء عقيدته في حضر موت . ويبدو أن كثيرين كانوا ينقصون طاعته بين

(١) انظر في ترجمة أبي إسحق الحضرمي وأشعاره كتاب صفحات من التاريخ الحضرمي لسعيد عاصم باوزير و٦٦ ونعمة الأعيان ٢٥١١١ وفي مواضع متفرقة . وقد ضاع ديوانه مع مقدمة لسليمان الماروني .

البدو وفي المدن الحضرية ، فكان لا يزال يرسل إليهم الحسلات ، ولا يزال بهم حتى يلقوا له عن يد وهم صاغرون ، وصوّر ذلك في قصائد كثيرة ذاكرا نشره للدعوة الإباضية وكيف أن خطباء يوم الجمعة يخطبون باسم إمامه في كل مكان بحضر موت ، وكيف أن البلاد والقبائل دانت له مذعنة مستسلمة ، يقول للخليل في إحدى قصائده :

سَلِ الْخَطْبَاءَ لِمَا دَعَوْا لَكَ جَهْرَةً      عَلَى رَغَمِ أَهْلِ الْجَوْرِ بَعْدَ التَّصَادُمِ  
وَسَلِّ عَرَبَ الْبَيْدَاءِ لِمَا أَذَقْتَهُمْ      عَشِيَّةَ خَانُوا الْعَهْدِ سُمِّ الْأَرَاقِمِ  
وَأَمَّا نَوَاحِي حَضْرَمَوْتَ فَإِنَّمَا      بِحَوْلِ إِلَهِي طَوْعُ أَمْرِي كَخَاتَمِي  
وَلَمْ يَبْقَ لِي إِلَّا الصُّلَيْحِيُّ فَأَتَمَّا      وَهِيَ هِيَ أَيْضًا سَعْدُهُ غَيْرُ قَائِمِ  
وَعِنَ إِلَيْهِ وَارْدُونَ بِجَيْشِنَا      فَمَا هُوَ أَدَهَى مِنْ مَلُوكِ الدِّيَالِمِ

وهو في البيتين الأخيرين يشير إلى أنه عازم على حرب الصليحي مؤسس الدولة الصليحية في اليمن وكان قد أخذ يدعو لنفسه ويبدو أن كلا منها كان يتحرش بصاحبه ، ويهدده بأنه سيستعين بإمامه ، وكان الصليحي يهدده بالخليفة الفاطمي وجنوده ، وإلى ذلك يشير أبو إسحق بقوله :

يَخُوفُنِي أَنَّ الْمَعَزَّ مَلَاذُهُ      بِمَصْرٍ وَمَا خَوْفِي لِأَهْلِ الْمَظَالِمِ  
إِذَا وَقَدَهُ وَئِي إِلَى مَصْرٍ رَائِدًا      مَضَى وَقَدْنَا قَصْدًا لِحَيْرِ الْمَعَالِمِ  
لِيَعْلَمَ أَيُّ الْخَزْبِ أَسْبَقُ نُصْرَةً      وَأَيُّهَا أَوْلَى بِفِعْلِ الْمَكَارِمِ

وواضح أنه سمي المستنصر خليفة مصر حيثئذ المعز كان لا يعرف لقبه الحقيقي . وخرج هو وخصمه الصليحي من التهديد والوعيد إلى إشعال الحرب ، ونرى أبا إسحق يوجه قصيدة أشبه بنداء إلى إمامه الخليل بن شاذان كي يعينه وينصره ضد الصليحي ، قبل أن تتفاقم المعارك وتقع الكارثة ، يقول له من قصيدته مربية :

انصُرْ أَخَاكَ فَإِنِ الْحَرْبُ قَائِمَةٌ      وَالْحَقُّ يَطْلُبُ مِنْ أَهْلِيهِ أَرْكَانَا  
اجْعَلْهُ أَوَّلَ مَا تَحِيَا الْبِلَادُ بِهِ      إِنَا نُوْمَلُ جَيْشًا مِنْكَ يَعْشَانَا  
وَاعْلَمْ بِأَنَّكَ قَدْ أَثْرَتَ مَأْتَرَةً      فَارْقِعْ لَهَا شَرْفًا فَالْأَمْرُ قَدْ هَانَا

ويبدو من البيت الأخير أن الخليل بن شاذان كان قد أرسل إليه معونة مالية ، وهو يريد معونة حربية . واستطاع فعلا أن يرد جيوش الصليحي وأن يتزل بها خسائر فادحة ، ويتوفى الخليل بن شاذان إمامه ويخلفه راشد بن سعيد ، وبيقيه وأبياً له على حضر موت ، وبظل يرسل له بقصائد المديح ، وكان قد استوفى على عثمان كما أسلفنا ، وله يقول :

أَيَا رَاشِدُ إِنَّا لَعَمْرُكَ نَزَدَهُ      بِذِكْرِكُمْ فِي حَضْرَمَوْتَ تَعَاظِمَا

إذا ما عُمَانِي أَلَمَّ بِأَرْضِنَا أَحَطْنَا بِهِ نَسَأَهُ عَنْكُمْ تَرَاخَى  
 وله فيه قصيدة دالية يشيد فيها بالإباضية ، وأخلاقهم الفاضلة ، ومناقبهم الكريمة ،  
 وكيف أنه أصبح إماما لهم وقبياً عليهم . يصلح أمرهم ، ويدفع عنهم الخطوب ، يقول :  
 إباضِيَّةٌ زُهْرٌ كَرَامٌ أَفْضَلُ مناقبهم في كل سامي علأ تَبْدُو  
 وَأَنْتَ لَنَا مِنْ بَعْدِهِمْ صِرْتَ قِيَمًا حَمُولًا لِثَقْلِ الْخَطْبِ يُورِي بِكَ الرَّيْدَ<sup>(١)</sup>

ونراه في نفس القصيدة يطلب إلى إمامه راشد أن يبعث إليه بنجدة تعينه في حربه مع  
 قبيلتي نَهْدٍ وَعُقَيْلٍ إِنْ هُمَا لَمْ تَسْتَكِينَا نَهَائِيًا ، ولم تُلقيا السلاح وهما صاغرتان ، يقول :

وَإِنْ عَدَلُوا عَنْ بَعْثِهِمْ وَتَرَاجَعُوا إِلَى عَسْكَرِ الْإِسْلَامِ وَالْحَقِّ وَارْتَدُّوا  
 فَأَهْلًا وَسَهْلًا بِالْغَشِيَةِ إِنَّهُمْ إِلَيْكُمْ بِإِخْلَاصٍ لِرَبِّ السَّمَا أَدُّوا  
 وَإِنْ هُمْ أَبَوَا فَاسْتَصْرَحُونَا فَإِنَّا قَرِيبٌ وَمَا لِلْقَوْمِ مِنْ صَحْبِهِمْ بُدُ  
 وَمَا بَيْنَ وَاوَدَى حَضْرَمُوتَ وَبَيْنَكُمْ إِذَا سَرَّكُمُ إِيْتَانُنَا نَحْوَكُمُ بَعْدُ

وهو يسمى عسكر الخوارج عسكر الإسلام والحق ، ومن قديم كانوا يقولون إن  
 معسكرهم هو معسكر الإسلام وحده ، ويصفون خصومهم بالبغي والجور وأنهم خرجوا  
 على حدود الدين . ومن الحق أن الإباضية معتدلون ويؤمنون بأن غيرهم من المسلمين أهل  
 توحيد ، على نحو ما صورنا ذلك في غير هذا الموضع . وليس في الديوان ما يدل على أنه  
 ظل عاملاً لأئمة نَزَوَى بعد راشد ، وظن بعض من عرضوا له أنه ربما استقل ودعا لنفسه  
 بالإمامة ونستبعد ذلك ، ونظن أنه ظل على ولائه لأئمة الإباضية في نزوى ، وحقانه في  
 بعض شعره بصرح بأنه وهب نفسه لنشر الهدى وإحيائه في كل مكان ، على شاكلة قوله :

عَلَّقَ الْفَوَاذُ بَانَ أَكُونَ أَنَا الَّذِي يُحْيِي الْهَدَى بِقَوَاصِبِ وَرِمَاحِ  
 وَعَلَى السُّيُوفِ يَمُوتُ كُلُّ مَكْرَمٍ وَعَلَى السُّيُوفِ قِيَادُ كُلِّ فَلَاحِ  
 وَعَلَى السُّيُوفِ يَنَالُ مِنْ طَلَبِ الْعَلَا غُرْفَ الْجِنَانِ وَقَصْدُهُنَّ كِفَاحِي

وهو يقصد بالهدى نحلته الإباضية ، ويقول إنه يشعر في أعماقه أن عليه نشر دعوتها  
 وإشاعتها في كل بقعة ، ويردد ما يذكره شعراء الخوارج قديما من محبتهم للاستشهاد في  
 سبيل الله ، وكأنه أصبح شعارا لهم ، حتى يلحقوا بمن سبقوهم من رفاقهم إلى جنات ربهم  
 ونعيمه . ولستنا نعرف سنة وفاته وأكبر الظن أنه توفي حوالي منتصف القرن الخامس  
 الهجري .

(١) يورى هنا : يتقد .

ابن الهَيْبِيُّ<sup>(١)</sup>

من شعراء تهامة في القرن السادس الهجري ، تَبِعَ علي بن مهدي حين استولى علي زيد سنة ٥٥٤ وأصبح شاعره وشاعر ولديه من بعده . وكان يجعل شعره شركة بينه وبين علي بن مهدي وولديه المهدي وعبد النبي ، فتارة ينظمه مستقلا ، وتارة ينظمه بلسانهم ، ونصَّ علي ذلك القديما . وقد وصفه عبارة اليميني فقال : « هو أمتن كلاما ، وأقوى نظاما من كثير ممن سمعت به من شعراء اليمن » . وشعره علي لسان أمرائه تهديد شديد ووعيد عنيف لخصومهم من القبائل والأمراء وأصحاب الحصون ، من ذلك قوله علي لسان ابن مهدي يهدد قبائل خَوْلَانَ وَجَنْبٍ وَسِنْحَانَ وَهَمْدَانَ :

ما بالُ خَوْلَانَ لا توفى بما تَعَدُّ يدنو أبو حسنٍ منها وتبتعدُ  
وما لِيَجَنْبٍ وَسِنْحَانَ وَأَخْتِهَا هَمْدَانَ تلك الأعرابُ التي حشدوا  
وتسميته لهم بالأعراب كأنه يشير إلى شطر في خمرة لأبي نواس يهزأ فيها بالأعراب  
قائلاً : « ليس الأعراب عند الله من أحد » . وابن الهيبني يحمّل الكلمة نفس المعنى . وله  
قصيدة ميمية طويلة علي لسان علي بن مهدي وجّه بها إلى أهل حصن تَعَكْرٍ وقبيلة خَوْلَانَ  
منذرا لها نذيرا شديدا ، وهو يفتحها بقوله :

أَبْلَغُ قُرَى تَعَكْرٍ وَلَا جَرَمًا	أَنْ الَّذِي تَكْرَهُونَ قَدْ دَهَمًا
وَقُلُّ لِحَنَاتِهَا سَابِدُهَا	سَيَلًا كَأَيَّامِ مَأْرِبٍ عَرَمًا
ظَنَّتْ خَوْلَانَ أَنْ سَتَشْغَلِنِي	عَمَى لَمَّا ظَنَّتِ اللَّثَامُ عَمَى
هَلْ تَنْقُصُ الْبَحْرُ كَفُّ غَارِفِهِ	أَوْ يُخَمِدُ النَّارَ قَابِسُ ضَرَمًا
تَعَسًا لِحَوْلَانَ لَا أَبَا لَهُمْ	أُمَمُوا وَجُودًا وَأَصْبَحُوا عَدَمًا
إِذْ نَفَخُوا مِنْ صَوَارِمِي ضَرَمًا	وَاسْتَسْمِنُوا مِنْ ظَنُونِهِمْ وَرَمًا
وَشَمَّرَتْ سَاقَهَا الْحُرُوبُ وَمَا	أَلْفَهَا اللَّيْلُ سَاتِقًا حَطَمًا

وهو يهدد في أول قصيدته قري تَعَكْرٍ بأنه سينزل بها ما أنزله الله بقري سبأ ومدنها من سَيْلِ عَرَمٍ ، يقول جل شأنه : ( لقد كان لسبأ في مسكنهم آية جُتَّانَ عن يمين وشمال كلوا من رزق ربكم واشكروا له بلدة طيبة ورب غفور فأعرضوا فأرسلنا عليهم سَيْلَ الْعَرَمِ وَبَدَّلْنَاَهُمْ بِجَنَّتَيْهِمْ جَنَّتَيْنِ ذَوَاتِ أَكْلٍ خَمْطٍ وَأَثَلِ وَشَىءٍ مِنْ سِيدِرٍ قَلِيلٍ ) والآيات تدل علي براعة شعرية حقيقية في الصياغة والفكرة ونسج الأسلوب . وهو يتأثر في البيت الأخير

(١) انظر في ترجمة ابن الهيبني وشعره الحريدة ( قسم الشام ) ٦٥ / ٣ وما بعدها و ٢٨٤ / ٣ وما بعدها .

بشطين وردا في خطبة الحجاج المشهورة التي خطبها في الكوفة أول قدمه ويا على العراق ، وقد حملها كل ما استطاع من عبارات الوعيد قائلا : « إني لأنظر إلى الدماء تفرق بين العامم واللحى » ثم أشد هذا الشطر في وصف الحرب وشدتها : « قد سمرت عن ساقها قشروا » وتلاه بيت عاصف من الشعر :

هذا أو أن الشد فاشتد زيم قد لفها الليل بسواق حطم

والشد : العدو . وزيم : اسم فرس أو ناقة . واللف : الجمع . والحطم : الظالم للباشية . وواضح أن ابن الهيثمي كَوَّن بيته من الشطر السالف ، ثم من الشطر الثاني في البيت ، ليصور ما سيتزله بخولان من معارك مدمرة ساحقة . ويستمر في وصف جنوده ووعيده .

إن نسور الوغى إذا وقعت بأرض قوم أطارت الرخا<sup>(١)</sup>  
ترمي بنيرانها قرى عدن صبحا فيمسي شراؤها الحرما  
أيشرب الخمر في ذرى عدن والمشرقات بالحصيب ظها  
ويُلجم الدين في محافلها والخيل من حوى تعلق اللجا

وما جنوده إلا نسور أما جنود خصومه فرخم وطير مأكول ، ويضيف إلى تهديد خولان تهديد عدن وأمرائها من آل زريع ، وكانت تعز والخند وتُعكر في حوزتهم . فكان طبيعيا أن يصطدم بهم . والشاعر يزعم على لسان ابن مهدي أن أهل عدن غارقون في الخمر إلى آذانهم ، ويقون إن السيف في الحصيب وادي زبيد ظامنة إلى دمائهم وأن الخيل من حوله تعلق اللحم . تريد أن تهم بالمسير إليهم وقتالهم . وكان طبيعيا والحرب العسكرية قائمة بين ابن مهدي وولديه من جهة وعدن وأمرائها بنى زريع من جهة ثانية أن يصطدم ابن الهيثمي شاعر بنى مهدي بأبي بكر العيذى شاعر الزريعيين ، وأن يأخذا في التهاجي وما يتصل به من التهديد بالقوة والقهر ، وقد احتفظ العماد في خريدته للشاعرين بقصيتين من هذا الطراز ، أولاهما لابن الهيثمي ونراه يستهلهما بالإشادة بجنود علي بن مهدي إمامه ، يقول :

أسد إذا ما أبصرت أسد الشرى ورأت حياض الموت لم تتجهجه<sup>(٢)</sup>  
تعدو أمام متوج متبلج متيقظ متوقد متنبه  
متفقه في الدين لكن لم يكن من عند غير الله بالمتفقه  
ملك إذا اشتبه الملوك فما له في ملكه وصلاحه من مشبه

(١) الرخم : طائر غزير الريش كبير الخناج طويل

(٢) تتجهجه : تزد

ومرّه الدين الحنيفي الذي لولا الإمام انقطب لم يتنزه  
 بصوارمٍ وضارمٍ وملاحمٍ بلغت به ما يشتهى<sup>(١)</sup>  
 وواضح أنه يشيد بجنود هذا الإمام في رأيه وشدة بأسهم ، ويسبغ عنده صفات الثقة  
 في الدين وحيايته بسيوف قاطمة وأسود ضارية وملاحم ساحقة . ويوجد انتصارات على بن  
 مهدي على آل نجاح الأحباش أو الذين يعودون إلى أصل حبشي ، ويعود إلى الإشادة به .  
 قائلا :

أخبار أيام الإمام فواكه فأصبح سَمْعك نحوها وتفكك  
 سير الإمام قديمها وحديثها فرح القلوب وروضة المتره  
 أشهى من الماء الزلال على الظأ وألد من عصير الشباب الأموه<sup>(٢)</sup>

ولا شك أن ابن الهيثبي يحور جورا فظيما على الحقيقة ، فقد عرضنا لابن مهدي  
 ومبادئه ، وأنه خرج فيها حتى على غلاة الخوارج ، ويكنى وصمة لا تفارق جبينه أنه  
 استباح نساء المسلمين واسترق الذراري ، فكان ينبغي على ابن الهيثبي أن لا يسخر شعره في  
 مدحهم هذا المدح المفرط في الثناء . وتُنسب لابن مهدي ذالية لا شك أنها من نظم ابن  
 الهيثبي ، وفيها يقول على لسانه :

قسمت الردى والجود قسمين في الورى فللمعتدى حدى وللمُحتدى ردى<sup>(٣)</sup>  
 ومالى من مالى الذى كسبت يدي ثراث أبقيه سوى الشكر والحمد  
 تحوفنى جتب يكثر عديدها وما لجنود الله حوى من عد  
 تقعقع نحوى بالشنان وهل ترى عوا الكلب يحفى رارة الأسد الوردى<sup>(٤)</sup>

والبيت الرابع يشهد بأن القصيدة من نظم ابن الهيثبي ، إذ جلب فيه عبارة من  
 عبارات الحجاج في خطبته التي أشرنا إليها آنفا فقد قال في تضاعيفها . إننى لا أعمر تعمرز  
 التين ولا يُقعقع لى بالشنان ، وهى القرب البالية ، وكانوا يحركونها إذا استحشوا الإبل على  
 السير لتفزع فتسرع . وابن الهيثبي مثل أبى إسحق الحضرمي لا يُعرف زمن مولده ولا زمن  
 وفاته ، ولكن من المؤكد أنه عاش في زمن دولة بنى مهدي ، وربما لم تمتد به الحياة بعدها  
 أو ربما فارق الحياة قبل قضاء توران شاه عليها في نهاية العقد السابع من القرن السادس .

(١) الصوارم والنهائم : السيوف . الضارم : جمع

(٣) ردى : عطاني .

(٤) الورد : الشجاع الحريم .

ضراغام :

(٢) الأموه هنا : الناضر .

## ٤

## شعراء الدعوة الوهابية السلفية

مرّبنا أن الدعوة الوهابية السلفية قامت على الرجوع بالإسلام إلى صورته البسيطة الأولى وتخليصه من كل ما دخل عليه من شوائب ، كتقديس الأولياء ، والاعتقاد فيهم أنهم - كما يقولون - ينفعون الناس حتى في قوتهم ، مما جعلهم يزورون أضرحتهم ويتوسلون إليهم أن يباركوا بزورهم وإيلهم وأنعامهم وشاءهم . وينبغي - في رأى ابن عبد الوهاب - أن يكفّ المسلمون عن مثل هذه الاعتقادات وأن يعودوا إلى القرآن الكريم والسنة النبوية ، فهما المصدران الأساسيان للإسلام وأحكامه ، والمدار في الدين إنما هو على النقل : أما العقل فيتخذ شاهدا ولا يستخدم حكما . وهذه الدعوة - كما قدمنا - تستضيء بأفكار ابن تيمية وإمامه أحمد بن حنبل الذي كان يقدم المقول على المعقول ، فالمقول من الكتاب والسنة أولا . والمعقول يليه ويأتي ثانيا ، ولا يصح التقرب إلى الله بزيارة الولي الصالح ، فضلا عن زيارة جدّته ورفاته . وتشدد ابن عبد الوهاب قائلا إن ذلك يعنى الشرك بالله أن يزور شخص قبور الأولياء ويدعو عندها ، طائبا جلب منفعة أو دفع أذى ، إذ يظن أن الولي من شأنه أن يُعينه على ذلك ، والله يقول لرسوله ﷺ في كتابه : ( قل لا أملك لنفسي نقعا ولا ضرا إلا ما شاء الله ) . وعلى هذا النحو تشدد محمد بن عبد الوهاب في أنه لا يجوز إشراف غير الله معه في الدعاء ، كأن يقول القائل المتوجه إلى ربه : أسألك بحق فلان من الصالحين ، بينما الله عز وجل يقول : ( فلا تدعوا مع الله أحدا ) . وبالمثل لا يجوز طلب الشفاعة من ولي أو غيره ، لمثل قوله تعالى : ( من ذا الذي يشفع عنده إلا بإذنه ) . وينبغي أن تُلغى النذور للأولياء جملة ، إذ النذور إنما تكون لله ولا يصح إشراف أحد معه فيها . ومن أكبر صور الشرك - في رأى محمد بن عبد الوهاب - الإيمان بأن هناك من يعلمون الغيب من المنجمين أو أصحاب السحر والشعوذة ، والله يقول : ( والله غيب السموات والأرض ) ويقول : ( فلا يُظْهِرُ عَلَى غَيْبِهِ أَحَدًا ) فمن ظن أن هناك من يعلم الغيب فقد جعل لله مثيلا في صفة علم الغيب المقصور على الله جل شأنه . ومدّ حملته إلى المتصوفة والطرق الصوفية ، فأنكرها ودعا إلى إلغائها بإتاء كل ما اتصل بها من حلقات ذكر وأوراد ودلائل خيرات ، فكل هذه - في رأيه - بدع لم يعرفها الإسلام في عهد الرسول ﷺ وعهود أصحابه ، وينبغي أن يعود الإسلام كما كان مع التمسك بالسنة

وإحيائها والاعتناء بالسلف الصالح . ولذلك يسمى الوهابيون سلفية . ومما دعا إليه محمد بن عبد الوهاب الإيمان بالقدر وأن لا يفرغ أحد إلى التأويل في آيات القرآن الكريم . وإنما عرضنا ذلك كله لتبيين الأسس التي دعا إليها محمد بن عبد الوهاب والتي صدر عنها بالتالي شعراء الدعوة الوهابية ، ولعل القارئ لا يعجب إذا عرف أنه من أوائل الشعراء الذين تصدوا بقوة لرفع علمها وتمثل مبادئها شاعر يمتد من الأسرة الزيدية ، هو محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني ، وأن أبرع الشعراء الوهابيين الذين خلفوه في هذا العصر هو ابن مشرف الأحسائي . ويتكاثر بعده شعراء الدعوة وفي مقدمتهم سليمان بن سحان وابن عثيمين . ولن نعرض لها لأنها يدخلان في العصر الحديث ، ومن شعراء الدعوة المبكرين حسين بن غنام الأحسائي المتوفى سنة ١٢٢٥ هـ / ١٨١٠ م ، وله مراثية في ابن عبد الوهاب حين لبى نداء ربه افتتحها بقوله<sup>(١)</sup> :

إلى الله في كشف الشدائد نزعٌ وليس إلى غير المهيمن مَنعُ  
وقصائد كثيرة نظمت في الإشادة بأبن عبد الوهاب ومبادئه ، ومن أهمها قصيدة للإمام محمد بن علي الشوكاني اليمنى المار ذكره . ونقف قليلا عند محمد بن إسماعيل وابن مشرف .

#### محمد بن إسماعيل الحسني الصنعاني<sup>(٢)</sup>

ولد بمحصن كحلان باليمن سنة ١٠٩٩ هـ / ١٦٨٧ م وانتقل مع أبيه إلى صنعاء سنة ١١١٠ هـ / ١٦٩٨ م فأتم بها حفظ القرآن ، وسرعان ما أخذ يختلف إلى العلماء ينهل من حلقاتهم ودروسهم ، فتعلم النحو وعلوم البلاغة والفقه والمنطق وعلم الكلام والأصول ، وعكف على أمهات الكتب الكبيرة يقرأ ويدرس في الفقه وفي النحو وفي غيرها ، وأخذ يدرس كتب الحديث الكبرى على كبار الحفاظ المحدثين من مثل صحيح البخاري وصحيح مسلم وسنن أبي داود ، ونال في ذلك إجازات مختلفة لا في صنعاء فحسب ، بل أيضا على كبار المحدثين في مكة والمدينة ، وعنى بالتبحر في فقه الشافعي وفي الأصول . ودرس للناس بصنعاء الحديث سنوات طويلة ، وله فيه على الجامع الصغير شرح في أربعة مجلدات ، وله في الفقه كتاب العدة على شرح العمدة لابن دقيق العيد ، وله شرح في علوم الحديث

(١) شعراء هجر ص ٥٠ . و ٧٦٤ / ٢ وفي مواضع مختلفة. وديوانه طبع بمطبعة المنق

(٢) انظر في ترجمة محمد بن إسماعيل وأشعاره الدر الطالع للشوكاني ١٣٣ / ٢ ونشر العرف لربارة ٥٠٥ / ٢ . مقدمة على السيد صبح المنق للديوان . وراجع

والآثار في مجلدين ، غير كتب كثيرة في الأصول وفي النحو وفي بعض الفتاوى . ومن كتبه « إيقاظ الفكرة لمراجعة الفطرة » ويبدو أنه كتبه في الاحتجاج للدعوة الوهابية لأن مترجميه يقولون إنه ترك فيه مقالة الأصحاب ورجَّح أدلة السنة والكتاب . وكان يشتغل بالتدريس ويجمع إليه أحياناً الخطابة . ويُجمع كل من كتبوا عنه أنه كان مجتهداً ينفر من التقليد ومن كل رأى فقهي لا دليل عليه ، ويقول الشوكاني إنه كان « من الأئمة المجددين لعالم الدين » وكان الشوكاني مثله يعجب بالدعوة الوهابية ، ومر بنا أن هذه الدعوة أعلنت سنة ١١٥٨ للهجرة حين وضع محمد بن سعود يده في يد محمد بن عبد الوهاب وعاهده على نصرته ، على أن تكون للأول وذريته السلطة الزمنية وللثاني وذريته السلطة الروحية . وما تقدم مع هذا العهد والإعلان للدعوة أكثر من خمس سنين . حتى نجد صوتاً مدوياً يتطلق من صنعاء باليمن ، هو صوت محمد بن إسماعيل إذ يرسل بقصيدة دالية طنانة إلى الشيخ محمد بن عبد الوهاب مشيداً وممجداً لدعوته استلهاها بقوله :  
سلامٌ على نَجْدٍ ومَنْ حَلَّ في نَجْدٍ وإن كان تسليمي على البُعْد لا يُجْدِي  
وقد مضى فيها يعلن إعجابهُ بمبادئ الدعوة الوهابية ، وهاجم الصوفية وما يزعم غلاتهم من القول بالحللول ، كما هاجم المتصوفة والطرق الصوفية وأورادها ، وأظهر استحسانه لما قيل من حرق الوهابيين للدلائل الخيرات ، يقول مبرراً صنيعهم :

غَلَوُ نَهْيِ عَنْهُ الرِّسُولُ وَفِرْيَةٌ بِلَا مَرِيَّةٍ فَاتَرَكْتَهُ إِنْ كُنْتَ تَسْتَهْدِي  
أَحَادِيثُ لَا تُعْزَى إِلَى عَالَمٍ وَلَا تُسَاوَى لِفُلْسٍ إِنْ رَجَعْتَ إِلَى التَّقْدِ  
وهو يضع بذلك دليلين يحوزان حرقها في رأيه : ما بها من غلو ومن أحاديث ضعيفة واهية ، ويقول إنها من البدع المستحدثة . وكان ما بيني ينصح قومه بالانصراف عن مثل هذه الأوراد . وكان يؤذيه أشد الإيذاء تصديقهم للنجمين وإيمانهم بأنهم يطلعون على الغيب . ويكتب إلى الإمام المهدي العباس سنة ١١٧٠ قصيدة دالية ينهيه عن الاستماع إلى النجمين وافتراءاتهم الكاذبة ، وفيها يقول :

وَلَا تَسْمَعْ مِنْ عَابِدِ لِنَجْمٍ تَقَاوِيمُ زُورٍ لَيْسَ تُغْنِي وَلَا تُجْدِي  
أَكَاذِيبُ يُمَلِّبُهَا نَكَلٌ مَغْضَلٌ يَصْدُقُهَا مَنْ ضَلَّ عَنْ طُرُقِ الرُّشْدِ  
وَوَاللَّهِ مَا عِنْدَ النُّجُومِ دَلَالَةٌ عَلَى نَحْسِ يَوْمٍ فِي الزَّمَانِ وَلَا سَعْدِ  
وَوَاللَّهِ مَا غَيْرُ الْإِلَهِ بِعَالَمٍ بِمَا فِي غَدٍ مِمَّا يُسِيرُ وَمَا يُبْدِي

وصدق رسول الله ﷺ في قوله : « كذب النجمون ولو صدقوا » . وله قصيدة جعل مقدمتها في ديوانه على هذا النمط : « هذه نفثة مصدرور ، وكلمة صادرة عن قلب

من ضياع الشريعة محرور ، وفيها تفاؤل بمن يقوم بالدين ، ويُحْيِي شريعة سيد المرسلين ،  
 وفيها إيظاظ للهمم لو كانت نائمة ، ولكنها ميتة لا تُرْجَى لها قائمة . والجهاد باللسان أحد  
 الأقسام . نسأل الله قبول الأعمال وحسن الختام . وفيها بصور جهاد المصلح الديني المنتظر  
 هو وأنصاره في سبيل دعوته ، وكيف يخوضون إليها غمار الحروب ، حتى تبسط سلطاتها على  
 الناس ، يقول :

يَحْفُ به قومٌ على كلِّ سابعٍ	تُعَدُّ المنايا في الحروب مُناها
ولا جمعوا مالا ولا كسبوا لهم	قُصورا ولا باهوا برَفَعِ بُناها
وما اذْخروا إلا حُساما وذابلاً	ومُهراً يبارى الرِّيحَ عند سَراها
وما قصدوا من سَفْكَهم لدمِ العدا	وتَطوَّبهم بالسِّيفِ بيضَ طَلاها <sup>(١)</sup>
سوى أنهم يُحيون شِرعَةَ أحمدٍ	ويَنفون عنها داءها يدِواها
سيعسل عنها السيفُ أدرانَ بدْعةٍ	فُيشرقُ في الآفاق نورُ مَناها

ويذكر بعض مترجميه أن الشاعر نظم هذه القصيدة في سن مبكرة ، ولكن مقدمتها  
 وما ترسمه من الجهاد لمصلح ديني وأنصاره يريدون إحياء السنة المحمدية وغسلها من أدران  
 البدع المستحدثة في الحياة اليومية ، وأنهم لا يريدون بذلك مالا ولا قصورا مشيدة ، إنما  
 يريدون درء المنكرات ، وإنهم ليحملون في سبيل ذلك السيوف حتى يكف الناس عن هذا  
 الغي والضلال . كل ذلك يشهد بأن المقصود في القصيدة محمد بن عبد الوهاب وأنصاره  
 بزعامة محمد بن سعود الذين جردوا سيوفهم ورماحهم لحمل الناس في الجزيرة العربية على  
 الدعوة الوهابية . وفي الديوان دالية يعلن فيها تبرؤه من ابن عبد الوهاب ودعوته ، وأكبر  
 الظن أنها موضوعة على لسانه أقحمت من قديم على الديوان تقرباً للأمرء الزيديين من بيته ،  
 وفي الحق أنه كان يحمل نفساً نائرة تحب الحق وتؤثره ولو كان فيه خصومة لأهله ويبدو أن  
 بعض خصومه استغلوا موقفه مع الوهابيين فكانوا يَشُون به لأئمتهم مما أدى أحيانا إلى سجنه  
 على نحو ما نرى في قوله سنة ١١٦٦ للهجرة :

وما حبسوني أنتي جئتُ مُنكراً ولا أنتي نافستُ في الملك والكُرسى  
 ولكنني أحببتُ سنَّةَ أحمدٍ وأبرزتُها شمساً على العُربِ والفرسِ  
 وكان أهل بيته من الأئمة يتلقون ألقاباً كثيرة . وقد لا يكتفي الإمام بلقب واحد بل  
 يتخذ لقبين أو أكثر مثل الإمام المتوكل على الله شرف الدين والإمام الأعظم المهدي لدين

(١) الظل : جمع طلبة وهي أصل العنت

الله ، وكأنما كان ذلك يؤذى نفسه أن يسمع تلك الألقاب ولا يرى لأصحابها أعمالاً حميدة ، بل يرى أعمالاً ذميمة فقال :

تَسْمَى بنور الدين وهو ظلامه وهذا بشمس الدين وهو له خَسْفُ  
 وذا شرف الإسلام يدعوه قومه وقد نالهم من جورهِ كلهم عَسْفُ  
 رُوَيْدِكَ يا مسكينُ سوف ترى غداً إذا نُصِبَ الميزانُ وانتشر الصُّخْفُ  
 بماذا تُسَمَّى هل سعيدٌ فحيداً أو اسمٌ شقيٌّ يئسُ ذا ذلك الوَصْفُ

وهو نقد شديد بل تجريح للأئمة من بيته في عصره وقبل عصره . وكان لا يجتنب في الله لومة لائم . وديوانه يكتظ بالمواعظ والأدعية والابتهالات إلى الذات العلية ، وله قصيدة في التقوى ختم جميع آياتها بشهادة : لا إله إلا الله ، وله غير مدحة نبوية وأيضاً له قصيدة في مديح علي سماها « التحفة العلوية » وكتب عليها شرحاً سماه « الروضة الندية » . وله أشعار في فنون البديع المختلفة وخاصة في التورية وهو يكثر من التضمين في أشعاره وخاصة من شعر المتنبي . وطالت حياته حتى سنة ١١٨٢ للهجرة وبذلك يكون قد سبق محمد بن عبد الوهاب في الوفاة بنحو ربع قرن تقريباً .

### ابن مشرف الأحساء<sup>(١)</sup>

هو أحمد بن علي بن حسين بن مشرف الوهبي التيمي الأحسائي ، وُلد وعاش في الأحساء ولا يُعرف تاريخ مولده . وبدأ في نعومة أظفاره بحفظ القرآن الكريم على شاكلة لداته ، ثم أخذ يختلف إلى حلقات العلماء في موطنه ، والتهم كل ما وجدته في هذه الحلقات من معارف وخاصة ما اتصل بالفقه والعربية ، واعتنق المذهب المالكي مثل آبائه . وليس في ديوانه ما ينبئنا عن أحواله في فواتح حياته أو في شبابه المبكر ، وقصائده فيه مؤرخة على السنوات ، وهي تمتد من سنة ١٢٤٥هـ / ١٨٢٩م إلى سنة ١٢٨٣هـ / ١٨٦٦م وأكثرها أو قل جمهورها في مديح فيصل بن تركي ، والسنة الأولى هي نفس السنة التي استولى فيها السعوديون على الأحساء ، وكان شعره جميعه تظله الدولة السعودية إذ توفي سنة ١٢٨٥هـ / ١٨٦٨م . وهو في ديوانه يعتنق الدعوة الوهابية وكأنما يعيش لها وبها ، فهي كل حياته وكل أفكاره وكل مشاعره ولا نعرف هل تاريخ اعتناقه لها يسبق امتداد الدولة السعودية إلى الأحساء في سنة ١٢٤٥ أو أنه يقترن بتلك السنة ، على كل حال الديوان كله

(١) انظر في ابن مشرف وحياته وأشعاره شعراء هجر ص ٧٧ ومقدمة الناشر لديوانه (ضع الرياض).

مستوحى من الدعوة الوهابية بل قل إنه صادر عنها ، أو قل إنها مادته سواء تغنى بابتين عبد الوهاب وأفكاره أو تغنى بفيض وأعماله أو بغيره من قواده . فالدعوة الوهابية مادة الديوان وابن مشرف ليس متضامنا معها فحسب ، بل هو أداة من أدواتها يذيعها ويناضل عنها خصومه ويؤيدها بكل ما استطاع من حجة وبرهان . وقد سمي أول قصيدة في الديوان باسم جوهرة التوحيد وهو يستضيء فيها بما كتبه محمد بن عبد الوهاب عن التوحيد ، ويستهلها بالحمد لله والصلاة والسلام على رسول الله وآله وأزواجه وأصحابه ثم تتوالى فصولها وأولها فصل عن الإيمان وفيه يقول :

الخيرُ والشُّرُّ جميعُهُ صَدَرُ من أمر ربنا وذا هُوَ القَدْرُ  
ومرَّبنا أن محمد بن عبد الوهاب كان يدعو إلى الإيمان بالقضاء والقدر وأن كل شيء مقدر على الإنسان منذ الأزل ولاصحة لما يقوله المعتزلة من أن الإنسان كامل الحرية في تصرفاته يأتي ويترك من الأفعال ما يريد فهو خالق أفعاله باختياره . ويرد على ذلك ابن مشرف بعبارة أوضح في موضع آخر منشدا :

وكلُّ شيءٍ قضاءُ الله في أزلٍ طرًّا وفي لوحِهِ المحفوظ قد سُطِّرا  
والله خالقُ أفعالِ العبادِ وما يَجْرِي عليهم فعن أمرِ الإله جَرَى  
فليس في مُلكِهِ شيءٌ يكون سِوَى ما شاءه اللهُ تَفَعُّا كان أو ضَرًّا  
ويعقد فصلا لأنواع التوحيد . ويقول كما قال محمد بن عبد الوهاب ، إن أضرب  
الوحدانية ثلاثة وبعدها على هذا النمط :

توحيدُ ربِّ الناسِ في الملكِ وفي صفاتهِ وفي العبادةِ اقتفِ  
فالأولى وحدانية الربوبية وهي اعتقاد كون الملك لله وحده لا شريك له ، فهو المتصرف فيه بالخلق والتكوين والرزق والحياة والموت . والثانية وحدانية الأسماء والصفات ، من مثل الحى الباقي القديم الأول الآخر الصمد الواحد الفرد السميع العالم البصير المرید القدير والثالثة وحدانية العبادة لله وأنه لا شريك له ولا معبود سواه .

ويشير ابن مشرف تبعاً لمحمد بن عبد الوهاب المشكلة القديمة لعصر المأمون والمعتصم والوائق مشكلة خلق القرآن وعدم خلقه أو مشكلة حدوثه وعدم حدوثه ، وهي المشكلة التي ورط المعتزلة فيها هؤلاء الخلفاء وجعلوهم يحاولون أن يحاكموا على أساسها بعض الفقهاء ممن لا يقولون بخلق القرآن وفي مقدمتهم ابن حنبل إمام الوهابية . ويقول ابن مشرف إن القرآن الكريم عين كلام الله لفظاً ومعنى والمخلوق إنما هو نطق الناس به يقول :

الصوتُ للقارئ والكلامُ لله ذا به قد استقاموا  
فاللفظ والمعنى من القرآنِ قد نَزَلَا من ربنا الرحمنِ  
ومن يُقَلُّ بِمَخْلَقِهِ أَوْ سَخَّرَهُ فَهُوَ مُضِلٌّ فَاسْتَعِذْ مِنْ شَرِّهِ  
وكان المعتزلة ينزهون الذات العلية عن مشابهة المخلوقات فهو ليس جسماً ولا عرضاً  
ولا مادة ولا جوهرًا ولا يحيط به مكان ولا زمان ، وأولوا الآيات التي قد تفيد مشابهة مثل  
( ثم استوى على العرش ) بأن الاستواء في الآية بمعنى الاستيلاء ومثل ( بدأ الله فوق أيديهم )  
أولوا اليد في الآية بمعنى القدرة . ونفوا الصفات عن الله لأنها من عوارض الأجسام في  
رأيهم وقالوا إنها عين الذات . وكل ذلك رده محمد بن عبد الوهاب متابعاً ابن تيمية وابن  
حنبل ، وأخذ مثلها في الآيات التي تفيد التشبيه بفكرة التنزيه مع الإيمان بما جاء منها في  
القرآن ، وعلى ضوء من ذلك كله يقول ابن مشرف :

الله ذو العرش على العرش استوى وعلمه لكل شيء قد حوى  
وما اقتضى التشبيه مثل العين والوجه والإصبع واليدين  
تؤمن به لكن مع التنزيه له عن التمثيل والتشبيه  
من شبه الله بمخلقه كفر ومن نفى صفاته أصلي سقر  
وهو في البيت الأخير يحكم على من ينفي الصفات وهم المعتزلة كما أسلفنا بالكفر ويقول  
إن الله يخلق أفعال العباد ولكن لهم كسب وكل امرئ بحاسب على ما كسب يده ،  
ويتحدث عن إرسال الرسل ورسالة النبي ﷺ ومعجزاته من القرآن كالمعراج ويشيد  
بأن بكر وعمر وعثمان وعلى وباقي العشرة المبشرين بالجنة وأصحاب المدهب الأربعة  
وسفيان الثوري وداود الظاهري . ويطلب في الحديث عن البعث والمعاد والحساب .  
وبذلك يختم الحديث عن النوع الثاني من أنواع الوحدانية وهي وحدانية الأسماء والصفات  
ويأخذ في الحديث عن النوع الثالث من أنواع الوحدانية وهو وحدانية العبادة ، فالله وحده  
هو الذي يُعبَدُ دون سواه ، وهو وحده الذي تقدَّم إليه النذور ، ومن الشرك تقديمها لسواه  
وأيضاً من الشرك القَسَمُ بغيره يقول :

الْحَلْتُ مَطْلُقٌ بغيرِ اللَّهِ شِرْكٌ بِاللَّشِكِّ وَلَا اسْتِبْهَاءٌ  
وبهاجم زيارة القبور : قبور الأولياء والصالحين وما بُنيَ عليها وسُبيد من قُبِّ والطواف  
حول تلك القبور تقرباً . وسؤال الناس أصحابها أن يدفعوا عنهم الأذى وينجلوا هم  
النفع ، بل إنهم ليتوجهون إليهم بالدعاء . كلها أحاط بهم كرب ، طلباً للنجاة ، يقول :  
ألم تنظر الشرك الذي فيهم فساً فكهم قبة قد شيدوها على قبر

وطافوا عليها خاضعين تقرُّبا إلى ذلك المقبور بالذَّبْحِ والنَّذْرِ  
 وكم سألوا الأموات كَشَفَ كروهم ولا سِيَّما في الفُلْكِ في لُججِ البَحْرِ  
 فزادوا على شِرْكِ الأوائلِ إذ دعوا سِوَى الله في حالِ الرِّخاءِ وفي العُسْرِ  
 وعلى هدى من الدعوة الوهابية مضى يهاجم كل ما هاجمته ، وكان مما استحدثت في  
 الجزيرة التذكير قبل الأذان للصلاة ، وعَنَتِ الدعوة الوهابية المؤذنين على هذا التذكير ،  
 ورأت منعه منعاً باتاً ، واصفة له بأنه بدعة وينبغي الكف عنها ، وفي إثرها يقول ابن  
 مشرف :

وسلُّ فاعلَ التذكير عند أذانهِ أهذا هُدَى أم أنت بالدِّينِ تلعبُ  
 وهل سنُّ هذا المصطفي في زمانهِ أو الخلفا أو بعضُ من كان يصحبُ  
 واستمر يتساءل هل سنُّ التابعون أو سنُّ أحد أصحاب المذاهب الفقهية ، وانتهى إلى  
 أنه من الأمور المحدثات التي ينبغي أن تجتنب ، قائلا إن العلم ينبغي أن لا يؤخذ إلا من  
 الكتاب والسنة . ويخص هذه الفكرة بقصيدة بحث فيها على الأخذ بنصوص الحديث  
 النبوي وآيات الذكر الحكيم ، ويسميا وحيين ، وتسميته الذكر الحكيم وحيبا واضحة ،  
 أما تسميته الحديث بالوحي فلأنه إلهام وهدى رباني ، يقول :

وقدَّمَ أحاديث الرسولِ ونَصَّه على كلِّ قولٍ قد أتى بإزائه  
 وإن جاء رأئٌ للحديثِ معارضٌ فللرأى فاطرحْ واسترح من عنائه  
 ومنْ يكنِ الوحيُّ المطهَّر علمه فلا ريب في توفيقه واهتدائه  
 وكلُّ فقيه في الحقيقة مُدَّعٍ وبُيِّت بالوحيين صدقُ ادِّعائه

فالكتاب والحديث هما مدار الفقه والفتوى ، فما يرسمه القرآن ويبينه الحديث هو الدين  
 الخنيف ، وعلى العقل أن يسير وراءهما شارحا ومفسرا ومبينا ، لا موجها ولا متحكما  
 ولا مؤولا . . وعلى هذا النحو تتجلى في شعر ابن مشرف دائما الدعوة الوهابية بكل ما  
 اتصل بها من مبادئ وتعاليم .

## ٥

### شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية

لعل أكبر بيئة عربية شهدت شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية هي بيئة مكة  
 والمدينة ، فلم يكن هناك زاهد ناسك ولا متصوف عابد إلا ومحج البيت الحرام ولم يكن

هناك مادم للرسول ﷺ . إلا ويسعى إلى زيارة ضريحه العطر وإنشاده مديحه ، غير من كان يقيم في البلدتين المقدستين من أهلها النساك . وقد ذكرنا في غير هذا الموضع كيف أن كبار المتصوفة المتفلسفة منذ الحلاج كانوا يتزلون في مكة ويجاورون فيها ، وقلنا إنه نزلها ابن عري وجاور فيها سنوات ، وفيها ألف الفتوحات المكية وديوانه الصوفي «ترجمان الأشواق» وفيه يقول :

مَرَّيْ حِي مِنْ مَرِيضَةِ الْأَجْفَانِ عَلَّلَانِي بِذِكْرِهَا عَلَّلَانِي  
هَفَّتِ الْوُرُقُ بِالرِّيَاضِ وَنَاحَتْ شَجُوْهُ هَذَا الْحَمَامِ مِمَّا شَجَانِي (١)

وشاع الديوان في مكة والمدينة وفي اليمن وتناقله الحجاج . ومن متفلسفة المتصوفة وشعراهم الذين جاؤوا في مكة ابن سبعين ، أقام بها سنوات طويلة حتى توفي سنة ٦٦٩ وكان يقول بالانحداد والخلول ، ومن شعره (٢) :

مَنْ كَانَ يُبْصِرُ شَأْنَ اللَّهِ فِي الصُّوْرِ فَإِنَّهُ شَاخِصٌ فِي أَكْمَلِ الصُّوْرِ  
بَلْ شَأْنُهُ كَوْنُهُ بَلْ كَوْنُهُ كُنْهُهُ فَإِنَّهُ جَمَلَةٌ مِنْ بَعْضِهَا وَطَرَى

وراء ابن سبعين وابن عري والحلاج كان ينزل بمكة والمدينة المتصوفون السنيون وفي مقدمتهم القشيري الذي لمّ شعث الفرقة بين الصوفية وأهل السنة كما مرّ بنا في غير هذا الموضع . ونزلها الغزالي وشهاب الدين السهرورديّ العراقي وأقام بها ابن الفارض خمسة عشر عاما نظم فيها كثيرا من أشعاره الصوفية الوجدانية من مثل قوله :

هُوَ الْحَبُّ فَاسْلَمْ بِالْحَشَا مَا أَهْرَى سَهْلُ فَمَا اخْتَارَهُ مُضَيَّيْ بِهِ وَلَهُ عَقْلُ  
وَعِشْ خَالِيَا فَالْحَبُّ رَاحَتُهُ عَنَّا وَأَوَّلُهُ سَقْمٌ وَآخِرُهُ قَتْلُ  
وَإِنْ شِئْتَ أَنْ تَحْيَا سَعِيداً فَمُتْ بِهِ شَهِيداً وَإِلَّا فَالْغَرَامُ لَهُ أَهْلُ

ولم يبق مادم للرسول ﷺ إلا زار المدينة ، لتأرجح روحه بعطر قبره ، وقد زارها البوصيري أكبر مدام الرسول ، وفيه نظم همزته في نحو أربعائة وخمسين بيتا ، وسماها «أم القرى في مدح خير الوري» وكذلك ميميته المشهورة باسم البردة ، وقد تناقلها الناس في مشارق العالم الإسلامي ومغاربه إعجاباً وافتناناً . ومديح الرسول قديم منذ ابن دريد في مطلع القرن الرابع الهجري . ولكن لم تزل قصيدة في مديح الرسول حُطوة هاتين القصيدتين .

ويجانب المدائح النبوية وأشعار التصوف المهاجرة إلى المدينتين المقدستين هاجرت إليها أشعار زهد كثيرة ، كان يرددها النساك والعباد والمجاورون بمكة والمدينة ، على نحو ما نجد في

(١) هفت الورق : نطق الحمام بأجنحته . (٢) العقد الثمين ٥ / ٣٣٩ .

ديوان الزمخشري الذي جاور في مكة طويلا ، حتى لُقِبَ « جَارِ اللَّهِ » . وكان هؤلاء المجاورون الكثيرون يضمنون الزهديات مصنفاتهم التي يؤلفونها في مكة أو المدينة ، ومن يقرأ تفسير الزمخشري الذي ألف بمكة والذي سماه الكشاف يجده عند تفسير الآية الكريمة : (إن الله لا يستحي أن يضرب مثلا ما بعوضة فما فوقها) <sup>(١)</sup> ينشد توسلا لطيفا للشاعر على هذه الصورة :

يا من يَرَى مَدَّ البُعُوضِ جَنَاحَهَا      في ظِلْمَةِ الليل البهيم الأليل <sup>(٢)</sup>  
ويرى عروقَ نياطها في نَحْرها      والملخُّ في تلك العظام النُّحْل  
اغفرْ لعبدٍ تاب من قُرطاته      ما كان منه في الزمان الأول

ومن المجاورين بالحرمين الشريفين ابن ظفر المولود بصقلية في شعبان سنة ٤٩٧ رحل من بلده يافعا في طلب العلم إلى مكة ونهل من حلقات علمائها، وارتحل إلى مصر ثم إلى المهديّة بتونس، وعاد إلى موطنه صقلية، وبها ألف لحاكمها في سنة ٥٥٤ كتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» وهو كتاب نفيس ترجمه المستشرقون إلى الإنجليزية والإيطالية، ويمتلئ بأشعاره، وهي تصور زهده وتقشفه مع براعة في نسج الشعر ونظمه من مثل قوله <sup>(٤)</sup> :

يا مُتعباً كدَّهُ الحِجْرُ      صُ في الفُضول وكادَهُ  
لو حُزّتَ ما حاز كسرى      وما حوى وأفاده  
ما كنت إلا معنّى      ومُغرمًا بالزيادة  
لم يَصِفُ في الأرض عيشٌ      إلا لأهل الزّهاده

ولم يكن يقول ذلك عظة أو تمثلا ولكن كان يقوله عن اقتناع ، فقد كان أحد من رفضوا الدنيا وعاشوا فقراء زاهدين ، تكفيهم الكسرة . وكان يتحول وأعظا كلما نزل بلدة ، ونزل بلادا كثيرة ، نزل مصر وبلاد المغرب وعاد إلى المشرق ، فألم ببغداد ودمشق ثم نزل حجة واستوطنها إلى وفاته سنة ٥٦٧ ومن زهدياته <sup>(٥)</sup> :

راقك الزهدُ إنما الزهد رَفْضُ      لفضولٍ تُلهى وتُطغى وتُردى <sup>(٦)</sup>  
مرجبا بالكفاف عيشا هنيئا      ثم لا مرجبا بمرحوصٍ وكذِّ  
لا يزال الحريصُ يستامه الحِجْرُ      صُ يُنصبُ من الشقاء ونكذِّ <sup>(٧)</sup>

(٤) الحريدة (قسم الشام) ٥٥/٣ .

(٥) نفس المصدر ٥٦/٣ .

(٦) تردى : تهلكت .

(٧) يستامه : يذاه ويصرفه .

(١) سورة البقرة : الآية رقم ٢٦ .

(٢) الأليل : شديد السواد .

(٣) انظر في ابن ظفر الحريدة (قسم الشام) ٤٩/٣ وابن

خلكان ٣٩٥/٤ ومعجم الأدياء ٤٨/١٩ والرواي

١٤١/١ والعقد الثمن ٣٤٤/٢ .

ثم لا يستطيع أن يتعدى قدراً ما لحكمه من مردّ فهو ينصح بعيش الكفاف وبالزهد في كل ما وراء ذلك من فضول ومتع لا تفيد إلا اللهو والطغيان والهلاك إن كان يمكن أن يفيد الطغيان والهلاك أحداً . ولا يزال المريص يدفعه حرصه إلى غير قليل من الشقاء والتكد والتعب ، ومع ذلك لن يعدو ما كتبه له القضاء .

ولشعراء مكة والمدينة مدائح نبوية كثيرة ، على نحو ما نجد عند النشو ، وقد سقنا له في ترجمته مثالا ، ولحب الدين الطبري المكي المتوفى سنة ٦٩٤ مدحة نبوية استهأها بقوله : « رحلت إلى المختار خير البرية » ذكر فيها المنازل بين مكة والمدينة ، ولابنه محمد مدحة نبوية بارعة يقول في أولها (١) :

أَنْبَغُ أَيُّهَا الصَّادِي الشَّدِيدُ ظَاهُوهُ      وَرِدُّ مَتَهَلًّا أَحَلَّى مِنَ الشَّهْدِ مَاؤُهُ  
وَسَلُّ عِنْدَ بَابِ الْمُصْطَفَى أُمَّيَّ حَاجَةٌ      أَرَدْتُ وَمَا تَهَيَّوْا فَرَحْبُ فِنَاؤُهُ  
ووراء هاتين المدحتين عشرات من المدائح يكتفى أن تشير إليها ، ولشاعر متأخر يسمى عبد العزيز الزمزمي المكي ديوان مديح في الرسول والصحابه .

وكثر بجانب ذلك الغزل الصوفي في مكة والمدينة ، من مثل قول أبي إسحق المكي المتوفى سنة ٧٢٣ للهجرة (٢) :

مُعَدَّتِي كَمْ ذَا الصُّدُودُ إِلَى مَتَى      مَضَى عُمْرِي وَالْوَصْلُ مِنْكَ أَرُومُ  
فَجُودِي وَرِقِّي أَوْ فُجُورِي وَعَدَّتِي      فَا الْقَلْبُ إِلَّا فِي هَوَاكِ مُقِيمُ  
وفي كتابي سلافة العصر ونفحة الريحانة لشعراء مكة والمدينة في القرن الحادى عشر الهجرى مدائح ومناجيات وتوسلات مختلفة (٣) .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن لقينا قصيدة بديعة لأبى بكر العيذى ابتدأها بوصف غرام له بالحجاز ليس يدفعه ، وينقاد له قلبه ويتبعه ، ويأخذ في وصف مكة ويذكر مناسك الحج منسكا منسكا ، ثم ينتقل إلى وصف يثرب بمثل قوله (٤) :

وَفِي رُبِّي يَثْرِبِ غَايَاتُ كُلِّ هَوَى      يَجِلُّ عَنِ مَوْقِعِ الْأَشْوَاقِ مَوْقِعُهُ  
حَيْثُ النَّبُوءَةُ مَضْرُوبٌ سُرَادِقُهَا      وَالْفَضْلُ شَامِخٌ طَوْدِ الْفَخْرِ أَقْرَعُهُ  
وَحَاتِمُ الْأَنْبِيَاءِ الْمُصْطَفَى شَرَفًا      مُحَمَّدٌ بَاهِرُ الْإِشْرَاقِ مَضْجَعُهُ  
صَلَّى الْإِلَهَ عَلَيْهِ مَا تَكَرَّرَ بِالصَّ      لَلَاةِ فَرَضُ مُصَلِّ أَوْ تَطْلُوعُهُ

(٣) انظر مثلاً سلافة العصر ص ١٤٧ ، ٢٥٤ .

(١) العقد الثين ١ / ٢٩٥ .

(٤) الخريدة (قسم الشام) ٣ / ١٨٤ .

(٢) العقد الثين ٣ / ٢٤٥ .

والقصيدة تكتظ بالحنين إلى الحج وزيارة قبر الرسول عليه السلام ، حيننا يشمل كل المواضع هناك ، وكأنما يريد أن يعانقها ، فهي هواه وحبه وأما كن افتتانه وصابته . وتكثر في اليمن كما كثرت في مكة والمدينة الأدعية والابتهالات كما يكثر الشعر الصوفي والمديح النبوي ، ومن اشهر بها عبد الله <sup>(١)</sup> بن أسعد اليافعي اليمنى نزير مكة وشيخ الحرم ، ولد سنة ٦٩٨ ونشأ بعدن واختلف إلى العلماء فيها ، وحج في سنة ٧١٢ وعاد فأحب الخلوة والانقطاع عن الناس والسياسة في الجبال ، ولزم شيخا صوفيا يسمى الشيخ الطواشي ، فسلكه في الطريق . وعاد إلى مكة وجاور بها ملازما للعلماء نحو عشر سنوات ، ورحل إلى الشام ، كما رحل إلى مصر وكانت أكثر إقامته بها في القرافة في مشهد ذى النون المصرى . وعاد إلى الحجاز وجاور بالمدينة مدة ثم تركها إلى مكة ، وعاد إلى اليمن سنة ٧٣٨ لزيارة شيخه الطواشي . وألقى عصاه بمكة وتوفى بها سنة ٧٦٨ وله في الصوفية وتراجمهم كما مر بنا كتاب «روض الريحان وحكايات الصالحين» ومن غزله الصوفى قوله <sup>(٢)</sup> :

قَفَا حَدَّثَانِي فَالْقَوَادُ عَلِيلٌ عَسَى مِنْهُ يُشْفَى بِالْحَدِيثِ غَلِيلُ  
أَحَادِيثُ نَجْدٍ عِلَلَانِي بِذِكْرهَا فَقَلْبِي إِلَى نَجْدٍ أَرَاهُ يَمِيلُ  
وَلَا تَدْكُرَا لِي الْعَامِرِيَّةَ إِنَّهَا يُوَلِّهُ عَقْلِي ذِكْرَهَا وَيُزِيلُ  
وَلَكِنْ بِذِكْرِي عَرَّضَا عِنْدَهَا فَإِنْ تَقَلُّ كَيْفَ هُوَ قَوْلَا بِذَاكَ غَلِيلُ  
فَإِنْ تَعَطَّلِي يُشْفَى وَإِنْ تُعْرَضِي فَفِي هَوَاكِ الْمَعْنَى الْمَسْتَهَامُ قَتِيلُ

وهو يصور حبه ووجدته وهيامه بليلى العامرية رامزا بها إلى الذات الإلهية دون تغلغل في حلول أو اتحاد أو فناء ، فتصوفه تصوف سنى ، يقف عند إعلان المحبة الإلهية ولا يعدوها ، فهو محب مولاه ، وحسه أن يصور وله وجه . وله بجانب هذا الغزل الصوفى مدائح نبوية كثيرة ، من مثل قوله في إحدى مدائحه <sup>(٣)</sup> :

نَبِيٌّ عَلَا فَوْقَ السَّمَوَاتِ مَتَّصِبًا بَدَا نُورُهُ مِنْ قَبْلِ نَشَاةِ آدَمِ  
بِهِ الدَّهْرُ أَضْحَى ضَاخِكًا مَتَّبِسًا عَبَّوسًا عَلَى أَعْدَائِهِ غَيْرَ بِاسْمِ  
عَلَا فَوْقَ كُلِّ الْمُصْطَفَيْنِ مُقْرَبًا بِأَعْلَى مَقَامٍ مَالَهُ مِنْ مُرَاحِرِ

وهو في البيت الأول يستلهم فكرة الحقيقة الحمديّة المعروفة عند الصوفيين وما يتصل بها من فكرة أزلية النور الحمدي . وابنه عبد الرحمن يحاكيه في الجانبين من شعر التصوف

(١) انظره في العقد الثمين ١٠٤/٥ والحجج الزاهرة  
٩٣/١١ والدرر لابن حجر (طبع دار الكتب الحديثة)  
(٢) العقد الثمين ١١١/٥  
(٣) العقد الثمين ١١٤/٥

ثم المديح النبوى . ومن شعراء التصوف اليمنيين محمد بن إبراهيم بن الوزير<sup>(١)</sup> ، وله ديوان سماه «مجمع الحقائق والرفائق في ممدوح رب الخلائق» . وقد نشر في القاهرة باسم مديح الهية ، وعنى محمد بن إسماعيل الصنعاني الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الوهابية بشرحه وسمى الشرح : «فتح الخالق في شرح مجمع الحقائق» . وقد ترجم له الشوكاني في كتابه البدر الطالع ترجمة ضافية ذكر فيها أنه ولد سنة ٧٧٥ وقال إنه عنى بالتأليف وذكر بعض مؤلفاته ، وقال إنه لم يلبث أن أقبل على العبادة وانقطع عن الناس حتى وافاه أجله سنة ٨٤٠ هـ / ١٤٣٦ م . والديوان جميعه شعر صوفي سني ، ولكنه لا يتخذ الغزل وسيلة في التعبير ، بل يسلك إلى ذلك مسالك العباد النساك من التوجه إلى الله بالتضرع والرجاء وحسن التوكل والشكر والتخويف من غضب الله وطلب العفو منه والغفران ، على شاكلة قوله في التضرع والرجاء والتوكل :

أرجيك إذ كنتَ أهلَ الرِّجاءِ	وأخشاك إني من الظالمينا
وأسألك العفوَ إذ كنتَ قد	علمتُ بجبِّكَ للسائلينا
وفوّضتُ أمرى بعد الدُّعَا	بحقِّ إلى أحكم الحاكمينا
إذا شئتَ أعفيتني من ذنوبي	وسامحتَ يا أرحمَ الرَّاحمينا
وهذا الذي أنتَ أهلُّ له	وأنتَ تحثُّ به المُحسِنينا
وأنتَ الذي قلتَ لا تَقْنَطُوا	خِطَاباً خصَّصتَ بِهِ المُسرِّفينا

وهو يشير في البيت الأخير إلى قوله تعالى : (قُلْ يَا عِبَادِيَ الَّذِينَ أَسْرَفُوا عَلَى أَنْفُسِهِمْ لَا تَقْنَطُوا مِنْ رَحْمَةِ اللَّهِ) . وهو يكثر من نظم الآيات القرآنية في الديوان ، وهذه الأبيات من أعذب ما فيه لغة وأسلوباً . وتبدو الكثرة وكأنها شعر وعظ مرصوف أو مكروم بعضه فوق بعض . وربما كان الذي دفع محمد بن إبراهيم بن الوزير إلى هذه الطريقة في شعر التصوف معاصره إسماعيل<sup>(٢)</sup> بن أبي بكر المعروف بالمقرئ الشافعي شيخ الفقهاء في زَيد وتهامة ، فإنه حين رأى جماعة من صوفية زَيد أو هموا من ليس له كثير نباهة علو مرتبة ابن عربي ونفى العيب عن كلامه هاجمه وهاجم طريقته وكل ما اتصل بها من فناء في الله جل شأنه ومن حلول واتحاد ، وأودع ذلك قصائد طنانة كان لها دوى بعيد في اليمن فانصرف الشعراء أو كثير منهم في عصره - كما يبدو - عن الشعر الصوفي القائم على تصوير

(١) انظر البدر الطالع ٨١ / ٢ وراجع ديوانه مديح (٢) انظر في ترجمته البدر الطالع ١٤٢ / ١ .  
الهيئة طبع المطبعة السلفية بالقاهرة .

الحجة الإلهية ، تصورا ينتهى إلى الإيمان بالاتحاد بالذات العلية وما إلى ذلك مما يردده أصحاب المتزعة الصوفى الفلسفى .

ويفيض كتاب نشر العرف بشعر وعظ وزهد كثير فى الحقب المتأخرة على أنه ينبغي أن نذكر أنه شاع فى اليمن شعر صوفى متجول بأخرة من العصر كان المداحون يغنونه على نقر الطَّارِ والطَّبْل ، وأكثره فى المديح النبوى لأكبر صوفية اليمن عبد الرحيم البرعى ، وسنخصه بكلمة مفردة .

ويكثر المديح النبوى والشعر الصوفى فى حضرموت ويفيض كتاب تاريخ الشعراء الحضرميين بها وبزهديات كثيرة ، حتى ليظن الإنسان أنه لم يوجد شاعر هناك إلا وتغنى بمديح الرسول ﷺ ويبيض غزليات صوفية وأشعار زهدية ، ولأبى بكر العيدروس<sup>(١)</sup> المتوفى سنة ٩١٤ هـ / ١٥٠٨ م ديوان صوفى سماه محجة السالك وحجة الناسك وهو يزخر بالشعر الصوفى ، وكثير منه بالعامية اليمنية ، فهو - كما يسمونه - شعر حُمَينى . وهو صوفى سنى وجميع صوفية حضرموت سنيون ومن قوله :

نم لوصحِّ تحقيقى شهودى لأشغلتنى الشهودُ عن المقالِ  
ولوحلَّ اليقينُ صميمَ قلبى لكنت هجرتُ فى المولى الموالى  
ولو كان الحضورُ نزيلَ صدرى لما بالغيرِ لَدَّ لى اتصالى  
وهو يصرح بأنه لم يصل إلى مرتبة الشهود للحضرة الإلهية فضلا عن الفناء فى الذات العلية وانفضاله عن وجوده البشرى ، حتى لا يكون هناك موجود ولا مشهود سوى الله . وهو بذلك صوفى سنى ، ويناجى ربه مناجيات كثيرة خاشعا متضرعا ، ويمدح الرسول ﷺ وهو يُعد من كبار الصوفية الحضارمة . ولعمر<sup>(٢)</sup> باعزيمة المتوفى سنة ٩٥٢ هـ / ١٥٤٥ م شعر صوفى تكثرفيه المناجيات والاستغاثات والتوسلات والمدائح النبوية ومن قوله فى أحد توسلاته :

اللهُ يا من لا إلهَ تَؤمُّهُ إلا هو انظُرْنى بِعَيْنِ تَفَضُّلِ  
يا مَنْ هو اللهُ العَظِيمُ ومن له الـ عرشُ العَظِيمُ ومن عليه توكلى  
يا مَنْ يُغِيثُ المُستغيثَ بِغوثِهِ غوثاه أدركنى عدمتُ تحيلى  
ومن متصوفة حضرموت عبد الله<sup>(٣)</sup> الحداد العلوى . وقد أنشد له الثقات أشعارا كثيرة فى التصوف والزهد والمديح النبوى والرجاء والصبر على الشدائد وفى الأشواق والمواظ على

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٠٥ وما بعدها . (٣) نفس المصدر ٢/ ٢٤ .

(٢) تاريخ الشعراء الحضرميين ١/ ١٣٠ .

المناجاة والاستغاثة بالله ، ومن قوله في استغاثة نبوية :

يا رسولَ الله يا أهلَ الوفا يا عظيمَ الخلق يا بحرَ الصِّفا  
أنت بعدَ الله نعمَ المرْتَجَى واللِّجاءُ يا مُجْتَبَى يا مصطفي  
يا خِتَامَ الرُّسُلِ يا خيرَ الوَرَى يا سَرِيعَ القَوْتِ أدركَ من هَفا

وفي كتاب السقاف مالا يكاد يحصى من أشعار صوفية وزهدية ونبوية ، وسنخص أحد من ترجم لهم وهو عبد الرحمن بن مصطفي العيدروس بكلمة مجملة .

وإذا تركنا حضرموت إلى عُمان لاحظنا ما ذكرناه في غير هذا الموضع من أن الشعر الصوفي لم يشع في هذه البيئة لغلبة الخوارج عليها ، إذ العقول أن يشيع هناك شعر الزهد والتقشف لا شعر التصوف بفرعيه السني والفقهي . ونفس مدينة عُمان الإمامية حيناً والسنية حيناً آخر لم تعن بالشعر الصوفي الخالص . ونجد لشاعر النبهانيين السنين حكام عمان أحمد ابن سعيد الستالي الذي ترجمنا له بين شعراء المديح ميمية كلها ثناء على الله وعلى آلائه ، ويختمها بدعوة حارة إلى الزهد والتقشف . ومن متأخري الشعراء هناك الحسبي وقد ذكرنا أن له ديواناً افتتحه بقصائد نبوية بعدد حروف الهجاء .

وتحول إلى البحرين وطبيعي أن تسهم في شعر الزهد ، ومن يرجع إلى كتاب سلافة العصر يجد فيه لشعراء البحرين مناحيات ربانية ، ومواعظ مؤثرة ، وبعض أشعار صوفية من مثل قول أبي عبد الله محمد بن أبي شباة البحراني (١) :

لعمري لقد ضلُّ الدليلُ عن القَصْدِ وما لاح لي برقٌ بدلٌ على نَجْدِ  
فَيْتُ بَيْلِي لا بنامٍ ومهجةٍ تقبُّ في نارٍ من الهَمِّ والوَجْدِ  
وقلتُ عسى أن أهتدي لسبيلها بِفِئحةٍ طيبٍ من عَرَارٍ ومن رَنْدِ (٢)  
وكم طامعٍ في حبيهم مات غُصَّةً وقد كان يرُضَى بالمخال من الوَعْدِ

ولابن مشرف الأحساني الذي ترجمنا له بين شعراء الدعوة الزهدية أشعار في الدعوة إلى الزهد ورفض متاع الحياة ، إذ تُضحكُ وسرعان ما تُسكى ، وما سرورها إلا أضغاث أحلام ، وحرى بالإنسان أن لا يبرح الموت خياله ، وأن يظل رافعاً له يديه نصب عينيه . فكل من عليها فان ، ولن ينعق المرء إلا ما قدمت يداه . وله عدحة نبوية بشيد فيها بالرسول ورسالته الربانية . وحرى بنا أن نقف الآن عند عبد الرحيم البرعي اليمني وعبد الرحيم بن مصطفي العيدروس الحضرمي .

(١) سلافة العصر ص ٤١٣ . وفتحة الرحمة ٣ / ١٨٩ . (٢) العرار والرند : من أزهار البادية .

عبد الرحيم البرعي<sup>(١)</sup>

شاعر صوفي سنيّ يمّني ، وليس لدينا معلومات واضحة عن مولده ونشأته . ويقول ابن زبارة : « هو عبد الرحيم بن عليّ البرعيّ الهاجريّ اليمّنيّ سكن في الثيباتين من جبل بُرع باليمن ، حيث اشتهر بالعلم والشعر . وتوفي سنة ٨٠٣هـ / ١٤٠١ م . وخطاً ما يقوله بروكلمان من أنه من شعراء القرن الخامس الهجريّ وما يقوله نيكلسون من أنه من شعراء القرن الثاني عشر الميلاديّ . والديوان في جمهوره مقسوم بين تسيّحات وتحميدات لله ومناجيات واستغاثات له وبيان وحدانيته ونعمه ولطفه ودلائل قدرته وبين مدح الرسول ﷺ والاستغاثه به والترسل وبيان فضائله ومعجزاته وخصائصه وصفاته . وهو في القسم الأول يعبر تعبيراً حاراً عن تعلقه بربه ، ولا يتخذ لذلك صيغة الغزل الصوفيّ بالذات الإلهية وما يتبع ذلك من مجاهداته الروحية في المحبة الصوفية ونشوته بشهود الجمال الربانيّ وما يعث فيه من لوعة ووجد وهيام عنى نحو ما نجد عند ابن الفارض مثلاً . إذ نجده يحاول بكل ما استطاع التحلص من عالمه المادى ليستغرق في العالم الربانيّ بل ليُمحى فيه محواً وليفضى فيه فناء مطلقاً . وكأثماً فنيت فيه أو مُحيت كل إرادة وكل شعور ولم يعد يحس شيئاً إلا الذات العلية وجهاً الذي تفيض أشعته على الوجود .

عبد الرحيم البرعيّ إذن ليس شاعراً صوفياً بهذا المعنى وإنما بمعنى آخر هو تمجيد الذات العلية دون اتخاذ رموز الحب الصوفى ، وهو تمجيد يصور فيه عجائب الخلق الإلهى وعلم الله الذى وسع كل شيء وقدرته التى تسيطر على كمال ذرة في الكون ، مع حمده على آلائه ، ومع بسط بعض ما جاء في القرآن من صفاته الربانية ، ومع المناجيات والدعاء والوعظ الجميل والحض على التوبة والعمل الصالح ، ومن بديع ماله قوله :

قِفْ بالخضوع وناذِرْكَ ياهُوَ  
واقصدْهُ منقطعاً إليه فكلّ مَنْ  
يرجوه منقطعاً إليه كفاهُ  
هو أوّلُ هو آخرُ هو ظاهرُ  
سَلْ عنه ذرّات الوجود فإنها  
تدعوه مَعْبُوداً لها رَبّاه

وهو يستخدم كلمة « هو » في التعبير عن الذات الإلهية ، وهو استعمال مألوف عند

(١) انظر في البرعيّ وأشعاره ملحق البدر الطالع لابن زبارة ص ١٢٠ وتاريخ الأدب العربيّ لبروكلمان . (طبع دار المعارف) ٥٨ / ٥ وقد أخطأ في اسمه واسم أبيه نسباً عبد الرحيم بن أحمد وانظر : « في التصوف الإسلامى »

ليكلسون (ترجمة عفيق) ص ١٦٥ وشعر الفناء الصناعى محمد عبده غانم ص ٥٥ و ١٨١ و ١٩٨ وديوانه طبع مراراً بالقاهرة .

الصوفية وخاصة في شعر الذكر ، إذ يهتفون : « هو هو » بسكون الواو وكأن كل ما في الوجود يغيب عنهم ما عدا الله ، وهم يصيحون بكلمة هو وكأنها تعينه وحده دون سواه مع عرفانهم به وبربوبيته . والقصيدة من أهم قصائد الغناء في اليمن <sup>(١)</sup> . ويستمر البرعى في القصيدة بمثل قوله :

أَبْدَى بِمُحْكَمِ صُنْعِهِ مِنْ نُطْفَةٍ بِشَرًّا سَوِيًّا جَلًّا مَنْ سَوَاهُ  
وَبَنَى السَّمَاوَاتِ الْعُلَى وَالْعَرْشَ وَالْكَرْسِيَّ ثُمَّ عَلَا الْجَمِيعَ عُلَاهُ  
وَدَحَا بَسِطَ الْأَرْضِ قَرَشًا مُثَبَّتًا بِالرَّاسِيَاتِ وَبِالنَّبَاتِ حَلَاهُ <sup>(٢)</sup>  
تَجْرَى الرِّيَّاحُ عَلَى اخْتِلَافِ هَبُوبِهَا عَنْ إِذْنِهِ وَالْفَلَكَ وَالْأَمْوَاهُ  
وهو هنا يتحدث عن قدرة الله العظيمة وخلقته للإنسان وصنعه للكون وبسطه للأرض وتثبيتها برواسٍ من الجبال وترتيبها بنبات بهيج ، وتسخير الرياح بين السماء والأرض وإجراء الفلك في البحر بريح طيبة ، وكل هذا يستمد من الذكر الحكيم لبيان قدرة الله التي تبسط سلطانها على كل ما في العالم كما قال جَلًّا شَأْنُهُ : (وسع كرسية السموات والأرض) فقدرته لا تحدُّها حدود . ويختم القصيدة بالتوسل إلى الله برسوله أن يشمل برحمته وكرمه وغفرانه ورعايته ورضاه ، يقول :

يَا ذَا الْجَلَالِ وَذَا الْجَمَالِ وَذَا الْكَرَمِ يَا مُنْعِمًا عَمَّ الْأَنْامِ تَدَاهُ  
أَقْبَلْ تَوَسَّلْنَا بِفَضْلِ مُحَمَّدٍ وَبِمَنْ لَهُ فَضْلٌ لَدَيْكَ وَجَاهُ  
وَاشْدُدْ عَمْرِي عَبْدِ الرَّحِيمِ بِرَحْمَةٍ إِنْ الْحَوَادِثُ قَدْ فَصَّصْنَ عُرَاهُ  
وَأَنْبَلُهُ فِي دُنْيَاهُ كُلِّ كَرَامَةٍ وَقِهِ الَّذِي يَجْشَاهُ فِي أُخْرَاهُ  
وَأَذِقْهُ بَرْدَ رِضَاكَ عَنْهُ فَلَمْ يَخِبْ مَنْ كَانَ عَيْتُكَ بِالرِّضَا تَرَعَاهُ

وتكثر هذه التوسلات في الديوان مع إعلان الطاعة والخضوع والتذلل لرب العالمين تذلل النفوس المخلصة المحبة لربها حبا يستأثر منها بمشاعرهما وعواطفهما فلا تستطيع عن تمجيد ربها انصرافا ولا حولا . ويقابل هذا القسم في الديوان قسم ثان يمكن أن نطلق عليه اسم المديح النبوي ولكنه مديح من نوع خاص مديح كله شغف وحب وتوله وهيام ووجد وبيان لمعجزات الرسول وفضائله وشيمه الكريمة . ولا تخلو مدحة من التوسل والتضرع إليه ليكون له شفيعا عند ربه ، فيشمله بعفوه ويرعاه في دنياه وأخراه ، ونسوق بعض أبيات من مدحة نونية له :

وَاللَّهِ مَا حَمَلْتُ أَنْتَى وَلَا رَضَعْتُ كَمَثَلِ أَحْمَدَ مِنْ قَاصِرٍ وَلَا دَانِي

(٢) دحا : بسط ووسع . الراسيات : الجبال .

(١) انظر شعر الغناء الصمالي ص ١٨١ .

مهذبٌ شَرَفَ اللهُ الوجودَ به وخصَّه بِبدالاتٍ وُبرهانٍ  
ومعجزاتٍ بعدُ الرَّملِ لو كُتِبَتْ لم يُحصها ماءٌ سِيحانٍ وجيحانٍ  
محمدٌ سَيِّدُ الكَوْنَيْنِ والثَّقَلَيْنِ من والفريقين من عَجْمٍ وعُربانٍ  
وسِيحانٍ وجيحانٍ نهرانٍ في آسيا الصغرى . والأبيات عذبة ، ومدائح البرعى للرسول  
ﷺ من أسلس المدائح النبوية وأخفها وقعاً على الآذان ، بل إنها لتمتع الأسماع حين  
تُصغى إليها كما تمتع الألسنة حين تنطق بها لما تمتاز به من صفاء وحلاوة موسيقية . ومن  
روائع توسلاته قوله في خواتيم هذه المدحة :

يا سَيِّدِي يا رسولَ اللهِ يا أُمِّي يا مَوْئِلِي يا مَلأذِي يومَ يَلْقَانِي  
هَبْنِي بِجاهك ما قَدَّمْتُ من زَلَلٍ جوداً ورجحاً بفضلٍ منك ميزاني  
واسعٌ دعائِي واكشفَ ما يُساورُنِي من الخطوبِ ونفْسُ كلِّ أحزاني  
وامنعُ حِجايَ وأكرمْنِي وِصِلْ نَسَبِي بِرحمةٍ وكراماتٍ وعُفْرانٍ  
وكل أمله في هذا التوسل برسول الله ﷺ أن يتقبله في ساحته وأن يكون ملاذه وأن  
يفغر له زلله وعثراته ، وأن يجعله ممن ثقلت موازين حسناته ، حتى يستحق رضوان ربه  
ونعيمة وفردوسه ، وأن يكشف عنه كل ما يوائبه من الخطوب وينزله ، وأن يدفع عنه كل  
أحزانه وهوميه ، وأن يحمي حِمَاه . وأن يسبغ عليه كرمه ورحمته وغفرانه . والرسول ﷺ  
بذلك هو الشفيع المشفع لأفراد أمته ، ممن يمنحهم الغفران والإقالة من الخطيئات والفوز  
بالجنان ، كما يمنحهم العون في الكوارث والخطوب وينقذهم من الضلال ويفرج عنهم  
الهموم ، إنه الإنسان الكامل الذي يتقبل الله منه شفاعاته ، وهو كمال في الخلق والشيم لا  
يزال البرعى يتغنى به وبما أجرى الله على يديه من معجزات ، بل إنه يقول :

كانتْ نَبوتُهُ وآدمُ صورةٌ في الماءِ والطِّينِ المصوَّرِ منها  
وبه وجودُ الكونِ من عَدَمٍ فقد مَلأَ الزَّمانَ تفضُّلاً وتكُرمًا  
ونحس في البيتين إيمانه بالحقيقة المحمدية التي تغنى بها البوصيري وغيره ، إذ يستلهمون  
الأثر المشهور : «كنت نبياً وآدم بين الماء والطين» وكأن حقيقة أقدم من خلق آدم ، وإن  
الكون كله ليستمد وجوده منه كما يقول البرعى في البيت الثاني ، وكأنه مبدأ الحياة ، الذي  
يسرى في كيان الوجود كله . ويقول فيه مادحاً :

من نور ذى العرشِ معناهُ وصورتُهُ ومَنشأُ النورِ من نورٍ يحسِّمُهُ  
فهو من نورِ اللهِ ، وكل نور في الوجود ناشئ من نوره ، فنوره يشاهد في كل نور .  
ويردد البرعى دائماً فضائل الرسول المثالية الرفيعة . وله مخمسان بديعان في وصف تلك

الفضائل ، استهل أولها بقوله :

بِمُحَمَّدٍ خَطَرَ مُحَمَّدٍ بَعِظُكُمْ وَعُقُودُ تَيْجَانِ الْعُقُودِ تَنْظُمُ  
وَلَهُ الشَّفَاعَةُ وَالْمَقَامُ الْأَعْظَمُ يَوْمَ الْقُلُوبِ لَدَى الْخَانَجِرِ كُظْمُ  
فِيحَقَّهُ صَلُّوا عَلَيْهِ وَسَلِّمُوا

ويدور الشطر الأخير مع كل بيتين تاليتين ، وبذلك جعل الخمس صالحا لأن يشده  
منشد وترد عليه جماعة بالشطر الخامس . وعلى شاكلة هذا الخمس خمسه الثاني ، وقد  
جعل الشطر المكرر فيه : « صلوا عليه وسلموا تسليما » . ونبوياته بحق رائعة وقد شُغِفَ بها  
المغنون الجوالون في اليمن يغنونها ويوقعون أشعارها على الطَّارات أزمته متطاوله .

### عبد الرحمن العبدروس<sup>(١)</sup>

حَضْرَمِيٌّ مِنْ بَيْتِ عِلْمٍ وَفَضْلٍ ، وَلِدٌ بِمَدِينَةِ تَرْيَمٍ فِي سَنَةِ ١١٣٦ هـ / ١٧٢٣ م . وَبِهَا  
نَشَأَ فِي رِعَايَةِ أَبِيهِ وَجَدِهِ فَحَفِظَ الْقُرْآنَ الْكَرِيمَ وَشَدَّ الْعَرَبِيَّةَ ، وَتَفَقَّهُ عَلَى الشَّيْخِ  
عَبْدِ الرَّحْمَنِ بْنِ عَبْدِ اللَّهِ بِالْفِقْهِ . وَسَافَرَ مَعَ أَبِيهِ إِلَى الْهِنْدِ ، وَكَثُرَتْ رِحَالَاتُهُ بَعْدَ ذَلِكَ ،  
فَقَدَّ عَادَ مِنْهَا ، بَعْدَ أَنْ تَزَوَّدَ مِنْ عِلْمَائِهَا زَادًا حَسَنًا . وَذَهَبَ إِلَى مَكَّةَ لِلْحَجِّ وَأَخَذَ عَنِ  
شَيْخِ الْحِجَازِ ، وَزَارَ مِصْرَ سَنَةِ ١١٥٨ هـ / ١٧٤٥ م وَعَادَ إِلَى مَكَّةَ وَسَكَنَ الطَّائِفَ . ثُمَّ  
زَارَ مِصْرَ سَنَةِ ١١٦٢ هـ / ١٧٤٨ م فَكَثُرَ بِهَا عَامًا وَاحِدًا وَعَادَ إِلَى الطَّائِفِ ، ثُمَّ رَأَى أُخِيرًا  
أَنْ يَسْتَوْطِنَ مِصْرَ فَنَزَلَهَا بِأَسْرَتِهِ سَنَةَ ١١٧٤ هـ / ١٧٦٠ م وَفِي أَثْنَاءِ اسْتِيْطَانِهِ مِصْرَ زَارَ دِمَشْقَ  
سَنَةَ ١١٨٢ هـ وَزَارَ الْأَسْتَانَةَ سَنَةَ ١١٩١ هـ وَعَادَ إِلَى مِصْرَ وَتَوَفَّى بِهَا سَنَةَ ١١٩٢ هـ / ١٧٧٨ م  
وَدُفِنَ فِي مَقَامِ الْعَرِيسِ إِلَى جَانِبِ مَسْجِدِ السَّيِّدَةِ زَيْنَبَ . وَكَانَتْ قَدْ طَارَتْ شَهْرَتُهُ  
بِالصَّلَاحِ وَالنَّسْكِ فِي حَيَاتِهِ . وَتَعَلَّقَ بِهِ شَيْخُ الطَّرِيقِ الصُّوفِيَّةِ . وَلَهُ مَصْنُوعَاتٌ كَثِيرَةٌ ، تَغْلِبُ  
عَلَيْهِ فِيهَا التَّرْعَةُ الصُّوفِيَّةُ ، وَيُذَكِّرُونَ لَهُ شَرْحًا عَلَى بَيْتِي ابْنِ الْعَرَبِيِّ :

إِنَّمَا الْكُؤُنُ خَيْسَالٌ وَهُوَ حَقٌّ فِي الْحَقِيقَةِ  
كُلُّ مَنْ يَفْهَمُ هَذَا حَازَ أَسْرَارَ الطَّرِيقَةِ

وهو لا يغفلو غلوه في التصوف الفلسفي ، فليس في أشعاره حلول ولا اتحاد بالذات  
العالية ولا شعور بأن فيه قبسا من الحقيقة الإلهية ولا أنه ينعم برؤية النور الرباني . وحقا نجد

(١) انظر في عبد الرحمن العبدروس وشعره تاريخ  
الجبتي ٢ / ٢٧ وسلك الدرر للرمادى وتاريخ الشعراء  
الحضرميين ٢ / ١٨٩ ونشر العرف لزبارة ٢ / ٥٠ وشعر  
الغناء الصنعاني ص ١٩١ ودبوانه تسيق الأسفار مطبوع  
بالقاهرة .

عنده بعض أحاديث عن الفناء وعن المَحْوِ والصَّحْوِ ، ولكن لا تظن أنه يستغرق في ذلك استغراق ابن عربي ، أو حتى استغراق ابن الفارض ، كأنه يلمُّ بظاهر من ذلك دون توغل فيه ، كما يلمُّ بالخمير ونشوتها على طريقة الصوفيين ، ولكن دون أن تسلبه حواسه على شاكلة قوله :

أَنْعَشْتَنِي خَمْرَةَ لِلغَيْرِ تَمَحُّو	فَاعْتِلَالِي بِالهُوَى الْقُلُوبِيَّ شَطْحُ
عَاذَلِي كُنْ عَاذِرِي أَوْ عَاذَلِي	أَنَا مِنْ خَمَرِ التَّجَلِّي لَسْتُ أَصْحُو
أَنَا قَائِلٌ وَالْفَأْ عَيْنُ البِقَا	فِي رَشَاءٍ مِنْ دُونِهِ سَيْفٌ وَرُمُحُ
هَامٌ شَخِصُ القَبِّ مِنْ خَمْرِ الفَنَا	فَهُوَ مِنْ تَلِكِ الحُمِيَّاءِ لَيْسَ يَصْحُو
أَنَا فِي مَحْوٍ وَصَحْوٍ دَائِمًا	حَيْثُ لِي فِي مَجْمَعِ البَحْرَيْنِ سَبْحُ

وكل ما يمكن أن يقال عن تصوفه هو أن فكرة الفناء الصوفية وما يتصل بها من فكرة المحو حتى لتزول في المتصوف جميع الصفات البشرية ليكون على استعداد لشهود ربه ، وأيضاً فكرة الصحو وأنه يظل نه القرب والشهود للذات العلية دون سكر ، كل ذلك نجد ظاهراً منه عند العيدروس ، ولكن لا نجد حرارة ولا استغراقاً في لذة الفناء المسكرة كما يقول المتصوفة ، ومن خير غزلياته غزلية يشدو بها اليمنيون ويتغنون بها إلى اليوم يستهلها بقوله :

شَرَحَ الدَّمْعُ عَلَى مَتْنِ الحُدُودِ	مَا أَلَقِيَهُ مِنَ الطَّبِيبِي الشُّرُودِ
يَأْتِقُومِي مِنْ غَزَالٍ صَادِي	وَعَجِيبٌ رَشَاءٌ صَادَ الأَسُودِ
أَهْبَبُ القَامَةَ فِي وَجْهِهِ	جَنَّةُ الحُلْدِ وَنيرانُ الخُلُودِ
عَصْنُ حُسْنٍ قَدْ سُمِّيَ مَاءَ البَهَا	مُثْمِراً - أَصْحَى - بِرُومَانَ النُّهُودِ

وواضح أن هذا الغزل الإلهي لا يفترق في شيء عن غزل الحب الإنساني ، حتى ليؤمن من يقرؤه لأول وهلة أنه غزل في فتاة حقيقية صَبَتْ قلب العيدروس بجهاها المغرى . وكأنني به يتأثر في هذا الغزل المادى بديوان ابن عربي : «ترجمان الأشواق» الذي يكتمظ بالوصف الحسي لجمال محبوبته ، حتى ليظن قارؤه أنه يتغزل غزلاً إنسانياً ، وهو إنما يرمز به إلى حبه الرباني . ويمضي العيدروس منشداً :

أَيُّهَا الطَّبِيبِيُّ التَّنَبَّتْ لِحُورِ الحَشَا	أَيُّهَا الشَّمْسُ أَرِلْ نَارَ الصَّدُودِ
عَطْفَةً بِالقَدِّ مِنْ هَذَا الحَقِّقَا	وَأَيْبِكِ العَطْفُ مِنْ شَأْنِ التَّدُودِ
تَحْمِ أَرَى بَارِقَ وَعَمَاءٍ أَوْمَصَا	قَدْ مَضَى وَقْتُ المَعْنَى فِي وَعُودِ
وَصَلَاةُ اللهِ تَنْشِي المِصْطَفِي	مَاتِلَالاً البَرَقِ مِنْ أَقْصَى النُّجُودِ

وهو يتحنن لفتة من الطيبي الشروود أو قبسا من الشمس الهادية يطفى غليل ظمته ،

ويأمل في عطفة نحوه أو في وصل طالما رأى بروق وعوده ، وكأنه دائماً في هجر وفراق ومطلّ وبينٍ وإنه ليتوصل إلى ربه ضارعا أن يمنحه القرب والشهود ، وإنه ليشكو دائماً من الظنّ بالوصال ، يقول :

أَسْأَلُ عَنْ عَيْنِي لِمَا هِيَ تَدْمَعُ      وَجِسْمِي نَحِيلُ وَالْحَشَا يَنْقَطِعُ  
وَلَوْ نِي كَتِيبُ وَالْفَوَادُ بِحَسْرَةٍ      وَمَالِي سَهْرَ الطَّرْفِ وَالْقَلْبُ مَوْجِعُ  
فَمَا نَالِي هَذَا سِوَى مَنْ فَرَّقَ مِنْ      لَهُ التُّورُ يَيْدُو فِي الْبِقَاعِ وَيَلْمَعُ

فهو دائم البكاء ، حتى لقد شحب جسمه وضؤل ، وحتى لقد تقطعت أحشاؤه واكتأب لونه والتاع فؤاده ، ودائماً مسهد الطرف ساهره ، وقلبه مكثظ بالأوجاع واللوعات لهجر محبوبه الذي يملأ العالم بنوره ، وهو ما يني يذكره ويرسل دموعه ، لعل محبوبه - كما يقول - يعطف عليه ويخلصه من عذاب الهجر وأوصابه ومن قوله :

أَلْهَيْتِي عَنْ جِهَاتِي      يَا رَاحَتِي يَا حَيَاتِي  
مَا ضَرَّ يَا مَنْ سَبَانِي      لَوَجِدْتَنِي بِالْثِقَاتِ  
بِاللَّهِ يَا مَنْ رَمَانِي      بِأَسْهُمِ صَائِبَاتِ  
عَطْفًا عَلَى الصَّبِّ عَطْفًا      مِنْ قَبْلِ كَأْسِ الْمَاتِ

وهو يصرّح في الشطر الأول من هذه الأبيات بأنه لم يعد يشعر بمكانه ولا بما حول مكانه ، وكأنما غاب عن وجوده ، وتناهب لكي يتحدث لنا عن وجوده الإنساني وفنائه في الوجود الرباني ، وكأنما لم يعد له وجود ذاتي ، أو كأنه يدخل عالم الفناء الصوفي أو عالم الشهود الإلهي ، ولكنه لا يستمر في بيان ذلك ، وكأنه استعار الشطر من ابن عربي وأمثاله ، ولم يفكر في الشهود ولا في الفناء . ولا نريد أن ننفي بذلك عنه صفة التصوف ، فهو متصوف سني ، لا يتعمق في تصوفه تعمقا من شأنه أن يجعله يتجرد من حواسه ومن وجوده ومن كيانه المادي . وله بائية يعارض بها يائية ابن الفارض يقول في فواتحها :  
صاحي عرج على نجدٍ وحى أهل حى لم يكن يحكيه حى  
وهو إنما يعارض بيائته ظاهرا من يائية ابن الفارض ، فليس عند وجده ولا التبايعه ولا مجاهداته في الوصول إلى مرتبة الشهود ولا شغفه بالجمال المطلق وفيوضاته الإلهية . لم يكن العيدروس يتعمق في تصوفه هذا التعمق ، فتصوفه إنما كان تصوفا سطحيا نجد عنده لغة الصوفية ومصطلحاتهم ولكن دون حرارة ودون وله جارف .

## الفصل الخامس

### النثر وأنواعه

١

#### تنوع الكتابة

كانت نجد أقل بيئات الجزيرة عناية بالكتابة لصعوبة حصولها على الورق والحبر وغيرهما من وسائلها المادية ، وأغلب الظن أن الإماراتين اللتين تأسستا في شرقها لأوائل هذا العصر : إمارة بني مزيد في الجبل وبنو عقيل في الموصل كانتا تعنيان بالكتابة ، فابن خلكان يذكر أن علي بن أفلح الكاتب الشاعر المتوفى سنة ٥٣٧ للهجرة كان يكتب بين يدي أمير من أمراء بني مزيد في شببته (١) ونظن أنه كان لأمرء بني عقيل كتاب يكتبون بين أيديهم على شاكلة ابن أفلح كاتب بني مزيد . غير أنه ليس بين أيدينا رسائل للإمارتين جميعاً ، مما يدل على أن هذا النشاط الكتابي فيها كان محدوداً . ومربنا في غير هذا الموضع أنه نشأت في الشمال الغربي للجزيرة إمارات بدوية لآل فضل وآل مروان على ، كانت تدين بالولاء لحكام مصر من الأيوبيين والمماليك ، وفي صبح الأعشى مراسم كثيرة صادرة من مصر بإمرة أمراءهم ، وكذلك لآل مهدي في البلقاء ، غير أننا لا نعثربرد من أحدهم أو بعبارة أدق برسالة موجهة إلى مصر أو أحد حكامها المختلفين ، وبالمثل لا نجد كتابات أو كتباً موجهة من أواسط نجد إلى خارجها ، فقد كانت بعيدة عن الحضارة وأكثر بدادة من أطرافها الشرقية والغربية ، ولعل ذلك ما جعل القلقشندى يقول : «إنه لا اعتناء لأهل البادية بفن الإنشاء جملة ، وإنما يُكْتَبُ عنهم بحسب ما يقتضيه حالهم ، على أن فيما يأتون به مقتعا من الفصاحة والبلاغة بكل حال ، إذ عنهم قد علم اللسان وعليهم فيه يعول (٢) » . وهو قول دقيق وصحيح .

وإذا تركنا نجداً إلى الحجاز وخاصة مكة وجدنا أمراءها يتخذون كتباً للإنشاء ، أو بعبارة أدق ليكتبوا ما يريدون من رسائل في مخاطبة سلاطين مصر وحكام اليمن والعراق .

(١) وفیات الأعيان لابن خلكان ٤٩١ / ٢ . (٢) صبح الأعشى ٧٦ / ٨ .

وفي صبح الأعشى عهد في صورة يمين لأبي نسي أمير مكة حلف بها لقلائون . وفيه صور مختلفة لتنصيب أمراء مكة والمدينة وما كان يكتبه لهم سلاطين المليك في هذا التنصيب<sup>(١)</sup> ، إذ كان لهم أمر توليتهم وعزلهم . فقد كانتا تبعان مصر منذ عصر الأيوبيين ، بل في حقب كثيرة منذ عصر الفاطميين . وكانت مصر في أثناء ذلك هي التي تعين أصحاب الوظائف الكبرى في البلدين ، وخاصة في القضاء وفي شيخوخة الحرم النبوي ، وفي صبح الأعشى نماذج مختلفة لهذا التعيين ، تُذكر فيها واجبات الوظيفة<sup>(٢)</sup> . ويكثر تبادل الرسائل الشخصية بين العلماء والأدباء في مكة والمدينة والطائف على نحو ما يلقانا في كتاب سلافة العصر لابن معصوم ، وتلقانا فيه حُطَبَ زواج طريفة إذ ظلوا يحفظون في عقْد الزواج بهذا التقليد القديم ، وهي خطبة منمقة يشيع فيها السجع ، على نحو ما نقرأ لأحد القضاة ، وهو تاج الدين بن أحمد إمام المالكية بالمسجد الحرام من قوله في خطبة زواج : « إن الزواج جنة تُتقى بها الفتنة ، وجنة يُتلى على متفئسٍ ظلالها : ( اسكنُ أنتَ وزوجك الجنة ) تُثمر رياضه الرحمة بين الزوجين والوداد ، وتطلع زينة الحياة الدنيا إذا احتملت غرائسه ثمرة الفؤاد . وتُسفر ليلته عن طرة صبح تحت أذيال الدجى ، ويتبليج يومه عن شمس توارى بحجاب الحجال<sup>(٣)</sup> والحججا ، وهو الغرض الذي لا يحطى قاصده الإصابة ، والعرض الذي لا يقوم إلا بجوهر أفرع عصابة ، والحسن الذي يُعصم به عن الوقوع في حسي الحرج ، ويُحتمى به من مصارع الرجاء التي هي ما بين محترك الأحدق والمهج ، والوسيلة التي يتوسل بها الآخذ بزمام التقوى إلى مطلوبه ، ويُشده بليل الأفراح هنيئا لمن أمسى سمر حبيبه ، وناهيك في فضله ما ورد فيه من الآيات ، والأحاديث الثابتة في صحيح الروايات<sup>(٤)</sup> » والتنسيق في الخطبة واضح .

ومرّ بنا في الحديث عن الثقافة كيف تحول الحرمان : المكي والمدني إلى ما يشبه جامعتين كبيرتين لكثرة العلماء من كل صنف في البلدين المقدستين وكثرة المجاورين بهما من كبار علماء العالم الإسلامي . وشاعت منذ القرن الخامس الهجري كتابة الإجازات العلمية ، فالعالم الكبير يكتب لبعض طلابه النابهين إجازات بمروياته ومصنفاته ، وعادة يذكر من أخذ عنهم المرويات من شيوخه ، ويكتب في صدر الإجازة تنويها بالعلم وفضله وبالتلميذ ونباهته ، ثم يسرد المؤلفات والمرويات . ويجانب هذه الإجازات أحد يتكاثر تفريظ

(١) صبح الأعشى ١٢ / ٢٣٣ ، ٢٤٢ وما بعدهم البيت : الحجا : العقل .

(٢) صبح الأعشى ١٢ / ٢٤٠ ، ٢٥٨ وما بعدهم . (٤) سلافة العصر ص ١٤٢ .

(٣) احجك : ستر أو أستار تصرب للعرس في حوف

الكتب المصنفة ، وعادة كان المصنف لكتاب يعرضه على عالم كبير إما من علماء الحرمين المقيمين وإما من العلماء المجاورين بالمدينتين . وقد ساق مؤلف كتاب العقد الثمين في تاريخ البلد الأمين طائفة من التقريظات لمصنفاته في ترجمته بالجزء الأول من كتابه<sup>(١)</sup> ، وهي تصور مدى ما كان يأخذ به المقرظون لكتاب أنفسهم بنتميق كلامهم أو شهاداتهم وبنائها على السجع وما يشيع فيه من جهال في الجرس والأداء .

ولعل قطعاً في الجزيرة العربية لم تزدهر به الكتابة كما ازدهرت في اليمن ، ونلاحظ هذا الازدهار منذ عهد الدولة الصليحية الإسماعيلية (٤٣٩ - ٥٣٢هـ) إذ كانت تتخذ لنفسها ديواناً للإنشاء ، ومن كبار الكتاب فيه الحسين بن علي بن القيم الشاعر النابه الذي ترجمنا له بين الشعراء وله ديوان رسائل لما ينشر ، وسنعرض لرسالة سياسية له وأخرى شخصية . وقد ذيل السيد حسين بن فيض الله الهمداني كتابه « الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن » بطائفة من الرسائل المتبادلة بين الحكام الصليحيين والخلفاء الفاطميين ، وهي رسائل نفيسة لا لما تصور من شؤون السياسة فحسب ، بل أيضاً لما تصور من نشاط الكتابة الفنية وازدهارها في اليمن منذ القرن الخامس الهجري . وكان يعاصر الصليحيين دولة آل نجاح في زيد ، ونجد بين أمرائها أديبا نابها هو جياش بن نجاح صاحب كتاب المفيد في أخبار زيد الذي اختصره عمارة اليمني ، وكان يضم شعراء زيد وأدباءها ، وقد وضع للكتاب مقدمة مسجوعة احتفظ عمارة بكثير منها . وأهم من ذلك أن عمارة يقول إنه كان له ترسل جيد يعبد من الكافة وإبه رأى منه عدة مجلدات ، ويقول إنه عدل بمتع ، مقدماً بذلك لترجمته في المختصر . ومن فقهاء هذه الدولة الحسن بن أبي عقامة كيامرنا ، وكان شاعراً قتل جياش بن نجاح ، ويقول الجندی عنه « إليه تنسب الخطب العقامية ، وله شعر فائق ، وترسل رائع »<sup>(٢)</sup> . وبالمثل بعث بنوزريع بعدن (٤٧٦ - ٥٦٩هـ) حركة أدبية قوية وكان لهم ديوان إنشاء اشتهر فيه غير كاتب مثل أبي بكر العيذي ، وفيه يقول عمارة اليمني في صدر ترجمته بكتابه مختصر المفيد : « سمعت الشيخ الموفق أبا الخلال في الأيام النائية (أيام الخليفة الفاتر الفاطمي) والقاضي الجليس أبا المعالي عبد العزيز ، وهما يومئذ صاحبا ديوان الإنشاء للدولة العلوية (الفاطمية) وما منها إلا من يقول : لم يصل إلينا من الآفاق . ولا رأينا لكتاب الشام والعراق ، أحسن من مكاتبات ترد علينا من جزيرة اليمن من إنشاء الشيخ الأديب الفاضل أبي العتبق أبي بكر بن محمد العيذي بعدن فإن له بلاغة تشهد عدوية مضوعها بكرم ينبوعها ، وألفاظاً تدل معانيها على فضل معانيها » وكان شاعراً

(١) العقد الثمين ١ - ٣٤١ وما بعدها .

(٢) انظر الجندی في السلوك - المكت ٦٣٢ .

بارعاً ، ومربناً بعض شعره . ولما فتح توران شاه اليمن حاول أن يتخذه كاتباً له ، فامتنع . وليس بين أيدينا شيء من رسائله لا هو ولا ابن أبي عقامة ولا جياش . ولكن على كل حال فيما قدمنا ما يدل على ازدهار الكتابة باليمن . وتدخّل في عهد جديد هو عهد الأيوبيين ، وسرعان ما تقوم بها الدولة الرسولية (٦٢٦ - ٨٥٨هـ) وتُعنى بالكتابة الديوانية ، ويحفظ كتاب العقود اللؤلؤية للخزرجي ببعض عهود من الأمراء إلى أولياء عهودهم وبعض رسائل سياسية ، ويتبادل الرسوليون الكتب والرسائل بينهم وبين سلاطين الممالك ، وفي صبح الأعشى رسائل كثيرة موجهة من هؤلاء السلاطين إلى الرسولين<sup>(١)</sup> . ويبدو أن الكتابة كانت نشطة في بيئة الأئمة الزيدية ، وفي صبح الأعشى ما يدل على كثرة المكاتبة بينهم وبين سلاطين الممالك ، إذ ينص على رسم المكاتبة إليهم وأنها كانت ، «أدام الله تعالى - أو ضاعف الله تعالى - نعمة - أو جلالاً - الجانب الكريم العالی السيدى الإمامى الشرىفى النسبى الحسنى العلامى سليل الأطهار ، جلال الإسلام ، شرف الأنام ، بقية البيت النبوى ، فخر النسب العلوى ، مؤيد أمور الدين ، خليفة الأئمة ، رأس العلياء ، صالح الأولياء ، علم الهداة ، زعيم المؤمنين ، ذخّر المسلمين ، منجد الملوك والسلاطين ، ولا زال زمانه مربّعاً ، وغيله مُسبّعاً ، وقراره مُشْبِعاً ، وكرمه لفيض ندهاء مُنْبِعاً ، وهدهاء حيث أم بالصفوف مُتْبِعاً<sup>(٢)</sup> . . .» وفي ذلك ما يدل على أن المراسلة بين هؤلاء الأئمة الزيديين وسلاطين مصر كانت لا تنقطع .

وطبعي أن تكثر الإجازات في اليمن كما كثرت في المدينتين المقدستين بالحجاز . وتكثر تقارير الكتب ، من مثل تقرير القاضي شرف الدين إسماعيل بن أبي بكر المعروف بالمقرئ اليمنى لأحد مصنفات صاحب العقد الثمين إذ يقول : «وقفت على هذا التأليف التالى فوائد العبر ، والآتى بأحاديث المواعظ الحسان بأصح خبر ، فله در مصنفه من إمام حافظ ، وبحر بجواهر العلوم لافظ ، ولاحق ، برز على السابق ، وبذل في علو مرتبة الأعلام الحفاظ موافق ، بلّغه الله غاية الأمانة ، وأجزل ثوابه على هذا المقرون بحسن النية» .

وطبعي أن تكثر المواعظ باليمن ، واشتهر فيها وعاظ كثيرون من أهمهم الشيخ الصالح أحمد بن علوان المتوفى سنة ٦٦٥ وله في الوعظ كتاب نحى فيه نحو ابن الجوزى ، وله في التصوف فصول كثيرة وكلمات مأثورة بديعة<sup>(٣)</sup> . وامتازت اليمن بأخرة من هذا العصر

(١) انظر صبح الأعشى ٧ / ٣٤٤ ، ٣٥٢ ، ٣٥٧ ، (٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٣٤ .

(٣) العقود اللؤلؤية ١ / ١٦٠ - ١٦٢ . ٣٦٠ ، ٣٦٣ ، ٣٦٦ .

بكتابات أدبية فكهة سنعد لها حديثاً مستقلاً في غير هذا الموضوع .  
 وكل ما لقيناه في اليمن من نشاط كتابي نلتقى به في حضرموت . فهناك الرسائل السياسية  
 والشخصية وهناك الإجازات ، من مثل إجازة الشيخ الحسن بن صالح البحر لتلميذه  
 السيد عيدروس بن عمر ، وقد جاء في صدرها : « الحمد لله جامع الظواهر والسرائر ،  
 على ما يحبه ويرضاه الأول والآخر ، حتى ترتفع عنها الستائر ، وتتجلى لها من ظلمات الأغيار  
 البصائر ، وتُقْبَلُ بكليتها على من هو الباطن والظاهر ، لترتقى بعين عنايته ورعايته إلى تلك  
 الحظائر ، ولم تزل تعتلي بعمارة ظواهرها وسرائرها بما تشاهده تلك النواظر ، وتتجلى وراء  
 ما هو أفل وغاير ، حتى تشاهد الجبال المطلق بعمومية مَنْ هو فوق عباده قاهر ، حتى يأتيها  
 النداء : إنَّ هذا جمال لا أول له ولا آخر<sup>(١)</sup> . ويظل طويلاً في هذه النعمة الروحية  
 الصوفية ، وكأنه يريد أن يصل لتلميذه مع أخذه عنه لمصنفاته بنور الذات العلية المطلق  
 الذي تعم الوجود أضواؤه .

وظلت عُمان تحتفظ بنشاط كتابي طوال العصر ، وقد عُنى نور الدين السالمي بعرضه في  
 كتابه « تحفة الأعيان بسيرة أهل عمان » . وفي طليعة ما نجد عنده كتاب كتب به الإمام راشد  
 ابن سعيد الإباضي الذي دانت له عُمان جميعها سنة ٤٤٢ للهجرة بعد قضائه على  
 ملك بني مكرم الشيعة الإماميين ولادة البويهيين هناك . والكتاب موجه إلى أحد ولاته وهو  
 يستله على هذا النمط : « إني أوصيك بطاعة الله وطاعة رسوله ﷺ والانتفاء عما حرم الله  
 عليك في زواجره ، والعمل بما أمرك الله به من أوامره ، فيما ساءك أو سرك ، ونفعلك أو  
 ضررك ، وأن تأمر بالمعروف وتعمل به ، وتنهى عن المنكر وتكف [ الناس ] عن فعله ،  
 وتُحذِر من خدائع الشيطان ، ومن يؤازره على ذلك من الأعوان<sup>(٢)</sup> » . وواضح أن  
 الكتاب يحفل بالسجع . ومن الأئمة بعد هذا الإمام الإباضي راشد بن علي المتوفى سنة  
 ٥١٣ للهجرة ، ونرى قاضيه محمد بن عيسى السري يكتب له شروطاً بها أسجاع<sup>(٣)</sup> .  
 ويخلفه محمد بن أبي غسان ويكتب إليه أهل إحدى الولايات العمانية كتاباً مسجوعاً من مثل  
 قولهم : « الله تعالى يجرس علينا شريف بقائه ، ويزيد في رفعة وارتقائه ، ويدم عليه  
 ما اتسع من نعمائه ، وينم علينا عاجلاً بكرم لقائه<sup>(٤)</sup> » : ويتولى بعده موسى بن أبي  
 المعالي بن نجاد سنة ٥٤٩ ونقرأ كتاباً إلى بعض من تحدثهم أنفسهم بالخرج وهو كتاب

(٣) تحفة الأعيان ١ / ٢٧٥ .

(٤) تحفة الأعيان ١ / ٢٩٢ .

(١) تاريخ الشعراء الحضرميين ٣ / ١٥٤ .

(٢) تحفة الأعيان ١ / ٢٦٤ وما بعدها .

مسجوع<sup>(١)</sup>. وقلما يورد نور الدين السالمي في كتابه «تحفة الأعيان» شيئاً من رسائل بني مكرم الشيعة الإماميين الذين حكموا مدينة عمان من سنة ٣٩٠ إلى سنة ٤٤٢ وكذلك قلما يورد شيئاً من رسائل بني نهبان السنين الذين حكموها من القرن السادس الهجري إلى القرن التاسع . حتى إذا رجع الحكم بعدهم إلى أئمة الإباضيين أخذ يورد رسائلهم ، وهي رسائل مسقة إذ يغلب عليها السجع والترصيع . ويشيع هذا الترصيع والسجع في رسائل موجهة من بعض شيوخ الخوارج إلى أئمتهم في شكل نصائح ووصايا أو موجهة إليهم من بعض أشياعهم أو من أهل نزوى ابتغاء إحقاق العدل ونشر الرأفة والعفو عند المقدرة . وليس بين أيدينا نشاط كتابي كثير لأهل البحرين ، غير أننا نجد في صبح الأعشى في رسم المكاتبة إليهم فصلاً<sup>(٢)</sup> طريفاً مما يدل على تبادل الرسائل بينهم وبين حكام مصر وخاصة في عهد المماليك . ودون ابن معصوم في كتابه «سلافة العصر» بعض رسائل شخصية لأدبائها . وفي كتاب شعراء هجر من القرن الثاني عشر إلى القرن الرابع عشر بعض رسائل أخرى . وجميعها يشيع فيها السجع وقد يسود بعضها تصنع شديد .

## ٢

### رسائل ديوانية

مرّ بنا أن الرسائل الديوانية بين المدينتين المقدستين بالحجاز وبين مصر كانت متصلة في العصرين الأيوبي والمملوكي بل لا شك في أن تاريخها يرجع إلى ما قبل ذلك في العصر الفاطمي ، غير أن ما بقي من هذه الرسائل في المصادر التاريخية وغيرها قليل جداً من ذلك ما كتب به الظاهر بيبرس إلى أبي نُعمى أمير مكة سنة ٦٧٥ يزجره عن الظلم<sup>(٣)</sup> :  
 « من بيبرس سلطان مصر إلى الشريف الحسيب النسيب أبي نُعمى محمد بن أبي سعد :  
 أما بعد فإن الحسنة في نفسها حسنة ، وهي من بيت النبوة أحسن ، والسيئة في نفسها سيئة ، وهي من بيت النبوة أو حش . وقد بلغني عنك أيها السيد : أنك آويت المجرم . واستحللت دم المحرم ، ومن يهن الله فما له من مكرم ، فإن لم تقف عند حدك ، وإلا أعمدنا فيك سيف جدك . والسلام » . فكتب إليه أبو نُعمى :  
 « من محمد بن أبي سعد إلى بيبرس سلطان مصر : أما بعد فإن المملوك معترف بذنبه ،

(٣) العهد الثامن ١ / ٤٦٥ .

(١) التحفة ١ / ٢٩٥ .

(٢) صبح الأعشى ٧ / ٣٧٠ .

نائب إلى ربه ، فإن تأخذ فيدك الأقوى ، وإن تَعَفُ فهو أقرب للتقوى . والسلام » .  
 وكان سلاطين المماليك حين يتوقعون من أحد أمراء المدينتين المقدستين اعوجاجا في حكمه أو جورا يأخذون عليه العهود والأيمان أن يسير مسيرة قومية ملتزما فيها بما عاهدتهم عليه من شأن رعية بلدته وشأن الحجيج ، مع ذكرهم في الخطبة ، ومع ضرب السكة أو النقود بأسمائهم ، وفيما يلي عهد أبي نُصَيِّ للسلطان قلاوون سنة ٦٨١ أن ينفذ السياسة المرسومة له وهو يمضي على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

«أخلصت يقينى وأصفيت طويئتي وساويت بين باطنى وظاهري في طاعة مولانا السلطان الملك المنصور (قلاوون) وولده السلطان الملك الصالح وطاعة أولادهما . . وإني عدو لمن عاداهم ، صديق لمن صادقهم ، حرب لمن حاربهم ، سلم لمن سالمهم . . وإني ألتزم ما اشترطته لمولانا السلطان وولده في أمر الكسوة الشريفة المنصورية الواصلة من مصر المحروسة وتعليقها على الكعبة المشرفة في كل موسم وأن لا يتقدم علمه علم غيره ، وإني أُسَبِّلُ زيارة البيت الحرام أيام موسم الحج وغيرها للزائرين والطائفين والبادين والعاكفين اللائذين بحرمه والحاجين والواقفين ، وإني أجتهد في حراستهم من كل عاد بفعله وقوله ، وإني أؤمنهم في شرهم ، وأعذب لهم مناهل شرهم ، وأنتى أستم - والله - بتفرد الخطبة والسكة بالاسم الشريف المنصوري ، وأفعل في الخدمة فعل المخلص الولي . وإني - والله - أمتثل مراسيمه امتثال النائب للمستنيب ، وأكون لداعي أمره أول سميع مجيب » .

وواضح أن أبا نبي لم يستخدم في هذا العهد السجع كما استخدمه في الخطاب الذي رد به على بيبرس ، وكأنه عني هنا بالمضمون أكثر من عنايته بالأسلوب ، ولذلك لم يستخدم السجع ، أو لعل الخطاب السابق من صنع كاتب الإنشاء لعهد ، أما العهد فن صنعه هو وإملائه ، ولذلك جاء خاليا من التمييق .

والرسائل الديوانية في اليمن كثيرة منذ الدولة الصليحية ، ومن أبلغها بياناً رسالة الحسين ابن علي بن القيم كاتب الإنشاء للدولة الصليحية على لسان الملك المكرم أحمد بن علي الصليحي سنة ٤٦٠ وهى موجهة إلى الخليفة المستنصر الفاطمي يخبره فيها باغتيال سعيد بن نجاح وأخيه جياش لعلي بن محمد الصليحي في طريقه إلى الحج في ذى القعدة لسنة ٤٥٩ وما كان من استردادهما لزيد وكيف مضى الملك المكرم يستعد للأخذ بثأر أبيه ، مما مكنته أن ينقض على آل نجاح في السنة التالية . ويسحق جموعهم . ويفتك بسعيد ويهرب أخوه جياش إلى الهند ، وتدخل زيد في طاعته . ويصور ابن القيم في الرسالة انتصارات الملك

(١) العقد الثمين ١ / ٤٦٢ .

المكرم على جيوش الزيدية والخارجين وكيف محققاً . والرسالة تفتح بالبسمة والحمد لله والصلاة على رسوله ، ويتوالى الثناء على الخلفاء الفاطميين وغمسه أو صبغه بالعقيدة الفاطمية الإسماعيلية ، ونحن نسوق منها أطرافاً تصور روحها البيانية (١) :

« المملوك يناجى حضرة الإمامة ، وينهاى سُدَّةَ الخلافة ، جعل الله عزهما باقيا على الأيام ، ومجدهما غير منقطع الدوام ، عالماً أنه يَلْبَسُ بذلك شرف الدارين ، ويستولى به على الحُسَيْنِ ، شامئاً (متطلعاً) من مولاه بَرَقاً مُضِيئاً ، ومستظلاً من سحاب الإكرام وَدَقَا (غيثاً) رِيئاً ، ومتبوّئاً من رُتَبِ الاختصاص مكاناً عَليّاً ، ومتعرضاً لمتزلة من أدناه وقربه نَجِيّاً . إنه قد كان قدّم خدمة يظالم بها أبناء جزيرته ، وينهى أخبار دعوته ، وما جرى عليه أمرها من الفتن ، ودارت فيه من دوائر المحن ، التى ملأت قلوب أعداء الدين سروراً ، وازداد بها الكافر طغياناً وكفوراً ، وأظهر كل سافق ما كان من الغدر كما منا مستورا ، وقال الذين فى قلوبهم مرض (ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً) . . . وجدَّ عزم المملوك (الملك المكرم) بعد خيرة الله تعالى وخيرة وليه صلوات الله عليه على المسير للعبيد (يريد آل نجاح الأحباش قتلة أبيه) إلى مدينة زيد . . . فوردها فى التاسع والعشرين من صفر سنة ٤٦٠ وقد سبق النذير إلى العبد (يريد سعيد بن نجاح أمير زيد) وألفاه المملوك صافاً على أحد أبواب المدينة ، وقد نفخ الشيطان ريح الطغيان فى أنفه ، وأراه الحياة فى حتفه ، قد عصب برأسه من الكبر تاجاً ظن أن الله لا يستطيع له نزعاً ، وتجلّب من الجبوت بثوب لا يروم له ما عاش خلماً . . . (أو لم يعلم أن الله قد أهلك من قبله من القرون من هو أشد منه قوة وأكثر جمعا) . فدأب إليه المملوك فى جماعة من المؤمنين قاموا لله أنصاراً ، واتخذوا الصبر شعاراً ، والله - عز وجل - جار المتمسكين بسبب الله الذى لا ينقطع من تمسك بسببه ، جائدين بأنفسهم فى ابتغاء رضاه وطلبه ، وخوف سخطه وغضبه . . . فلما تراءى الجمعان وتدانى الفريقان ، ماجت الصفوف ، وسالت الزخوف ، ولمعت السيوف ، ووكفت (سالت) الحتوف ، وترزلت الأقدام ، وصال العمام ، واغبر القتام (الغبار) وتداعت الأبطال ، وتدانت الآجال ، واكتأبت الرجال ، وانقطعت الآمال . . . وشخصت الأبصار ، والتحمت الشفار (السيوف) وطلبت الأوتار ، وأعوز الفرار . . . وطفقت سيوف الحق تلتهمهم ، وأبدى المؤمنين تقسمهم ، فتركوهم بين ضريح بدمه ، وهاو ليديه فمه ، وشارد لم ينجح سعى قدمه ، ونادم لم يتفجع بدمه . . . ومعقور نطيح ، ومطمون جريح ، قد عادوا فرصة لكل واثب ، وأكّلة لكل ناهب ، مصرعين

(١) انظر الرسالة فى كتاب « الصليحيون والحركة الفاطمية » فى المجلد ١ للدكتور حسن المنذلى ص ٢٠٨ .

مصارع أمثالهم الكافرين ، وواردين موارد أعمالهم خاسرين ، قد قطع الله أوصالهم ، وبتاً من حبله جابلهم » .

والرسالة طويلة وابن القمّ يلتزم فيها السجع ، وواضح أنه يعنى باصطفاء ألفاظه ، والملاءمة بينها حتى يحكم ما يريد من الجرس لكلامه وحسنه واستوائه بحيث لا نحس نبواً ولا نشازاً في عبارة من عباراته . ومما يصور عنايته بنغم كلامه أن الآيات القرآنية التي يقتبسها تلتقى فواصلها مع قوافيه التقاء طبعياً ، وهو التقاء كان يقصد إليه قصداً حتى يلتحم جرس النغم في الرسالة التحاماً تاماً .

وكأن ابن القمّ كان استهلالاً قوياً لأن تأخذ اليمن منذ عصره في العناية برسائلها الديوانية عناية يعمّ فيها غير قليل من التنميق ورصف السجع وتديبجه . ويلاحظ ذلك بوضوح في الرسائل والمعهود المكتوبة في الدولة الرسولية ، على نحو ما يلاحظ في العهد الذي قوّض فيه السلطان المظفر (٦٤٧ - ٦٩٤) الحكم من بعده لابنه السلطان الأشرف عمر ، وهو يستهله بقوله بعد الحمد والثناء والصلاة على رسول الله ﷺ والدعاء (١) : «أما بعد فقد ملكنا عليكم مَنْ لا تؤثر فيه - والله - داعي التقريب ، على باعث التجريب ، ولا عاجل التخصيص ، على آجل التمحيص ، ولا ملازمة الهوى والإيثار ، على مداومة البلوى والاختبار . وهو سليلنا الخطير ، وشهابنا المنير ، وذخيرتنا على المراد ، وبيصيرنا الذي نرجوه صلاح البلاد والعباد ، ونؤمّل فيه من الله الفوز والنجاة في المعاد ، وقد رسمنا له من وجوب الذبّ والحماية ، ومعالم الرفق والرعاية ، ما قد التزم بوفاء عهده . والمسئول في إعانتة مَنْ لا عون إلا من عنده . ولن نعرفكم من حميد خصاله ، وسديد فعاله إلا بما قد بدا للعيان ، وزكا مع الامتحان ، وفشا من قبلكم في كل لسان » وواضح ما في العهد من ميل شديد إلى تصفية اللفظ وأن يكون سلسا سلاسة الماء النير ، وواضح أيضاً ما فيه من موازنة دقيقة بين سجعاته ، فكلمة «داعي التقريب» توضع على وزنها كلمة «باعث التجريب» وكلمة «عاجل التخصيص» تليها موازنة لها كلمة «آجل التمحيص» وكلمة «ملازمة الهوى والإيثار» توازنها كلمة «مداومة البلوى والاختبار» وكل ذلك إرضاء لأذن السامع . ومثله محاولة الإتيان بالمتراقات في نهاية السجعة مثل «الذبّ والحماية» و«الرفق والرعاية» و«حميد خصاله» و«سديد فعاله» مما يدل بوضوح على الرغبة في اكتمال نغم الكلام .

وتلقانا في عهد السلطان الأشرف وربما كان في عهد أخيه المؤيد (٦٩٦ - ٧٢٠ هـ)

رسالة موجهة من الأمير الزيدى محمد بن المطهر إلى السلطان المملوكى . الناصر محمد بن  
فلاوون يستنصره فيها على السلطان الرسولى الذى طالت بينها الحروب ، معددا قبائعه ،  
مؤملا أن يسعفه بجيش لإجلاته عن دياره ، وإجرائه بحرى الذين ظلموا فى تعجيل دماره .  
وقال فى رسالته : إنه إذا حضرت الجيوش المؤيدة قام معها ، وقاد الأشراف والعرب  
أجمعها ، ثم إذا استنقذ منه ما بيده أنعم عليه ببعضه ، وأعطى منه ما هو إلى جانب أرضه ،  
ثم قال : « وكبت إلى السلطان مؤذناً بالإجابة ، مؤدياً إليه ما يقتضى إعجابيه . . ولا رغبة  
لساقى السلب ، وأن النصره تكون لله خالصة وله كل البلاد لا قدر ما طلب » .  
واقطف القلقشندى قطعة من الرسالة مسجوعة <sup>(١)</sup> ، وكان السجع أصبح منذ ابن التميمى صفة  
عامة فى الرسائل والعهود اليمنية . ونخصى إلى زمن السلطان الرسولى الأشراف  
إسماعيل (٧٧٨ - ٨٠٣ هـ) فیرسل السلطان المملوكى برقوق إليه برسالة معها هدية ،  
يحملها القاضى برهان الدين إبراهيم بن عمر المحلى لتسهيل متجره وما يحمله من عدن من  
عروض التجارة ، ويبادلها الأشراف إسماعيل هدية بهدية : وكتاباً بكتاب أو رسالة برسالة .  
ويطلب فى رسالته أن يرعى السلطان برقوق من يفد على مصر من رعيته اليمنية تاجراً وغير  
تاجر ، وأن يأذن له فى حج البيت الحرام ، لقضاء الفرض والتبرك بالمشاعر العظام .  
ويشكو من ارتفاع النفقات فى مكة على حاج اليمن لئنه يتوسط لدى أميرها كفى يخفضها ،  
لأنه تابعه . وإن كان لم يصرح بذلك . ونحن نسوق قطعة من هذه الرسالة يتحدث فيها  
الأشرف إسماعيل عن هديته إلى السلطان برقوق وأنها دون مقامه ومكانته ، يقول <sup>(٢)</sup> :  
« لو أهدينا إلى جلال المقام الشريف الظاهرى ، أعز الله أنصاره ، بمقدار همته  
الشريفة العالية ، ورتبته المنيقة السامية ، لاستصغرت الأفلاك الدائرة ، والشهب  
السايرة ، واستنلت السبعة الأقاليم تحفة . والأرض وما أقلته طرفة ، ولم نرض أن نبث  
إليه الأنام ممالك وخولا (عبيدا) . ونجى إليه ثمرات كل شئى قبلاً ، ونورام محب المقام  
(يقصد نفسه) هذه القضية نقصر عنها حوائه . ولم يصل إليها ذكوه (قدرته) ولكنه يرجع  
إلى المشهور ، بين الجمهور ، فيجد العمل يقوم مقامه الاعتقاد ، وليس على المستمر على  
الطاعة سوى الاجتهاد ، والخلص فى الولاء محمول على قدرته لا على ما أراد » .

والرسالة كلها من هذا الأسلوب الذى يمتاز بانتخاب ألفاظه والسجع فى عباراته ،  
حتى يروق الأشماع ، بل حتى يبرها ، بحسن تنسيقه وجمال رصفه وسجعه . وكان كتاب  
الإيشاء فى كل دولة عربية يتبارون فى تلك الحلقف بما يصوغون من هذا الأسلوب

(٢) سج الأعشى ٧٣/٨ .

(١) سج الأعشى ٧/٣٣٧ .

الموسيقى ، حتى تلذ ألفاظه الألسنة ، وحتى تقع موقعاً حسناً من الفارثين لها والسامعين .  
ومررتنا في عُمان أن الأئمة الإباضيين كانوا يوجهون بكتب إلى عمالهم ، يأمرونهم فيها  
بالنهي عن المنكر والأمر بالمعروف وأن يسبوا في الرعية سيرة عادلة ، وكانت الرعية كثيراً  
ما ترسل إليهم برسائل تطلب فيها العدل والحكم الصالح . ومضوا على ذلك طويلاً حتى  
إذ كنا في القرن الحادى عشر الهجرى وجدنا الإمام الإباضى ناصر بن مرشد (١٠٢٤ -  
١٠٥٠ هـ) يكتب إلى عماله عهداً كثيرة يشيع فيها السجع من مثل قوله لأحد عماله في  
«الباطنة» (١) :

«إني قد وليتك على قرية لوى من الباطنة . . على أن تأمر أهلها بالعدل والمعروف ،  
وتنهاهم عن المنكر المحوف . وأن تعمل فيهم بكتاب الله المستبين . وتُحَيِّي فيهم سنة النبي  
الأمين ، وأثار الأئمة المهتدين ، وسيرة القادة المخلصين ، الذين جعلهم الله منار الهدى ،  
وقادة الناس إلى التقوى ، وأورثهم الكتاب والسنة ، يدعون إلى طريق الجنة . . ولا تَحْفَ في  
في الله لومة لائم ، ولا عذْل بجرم آثم ، وأن تخلط الشدة باللين ، وأن تخفض جناحك لمن  
اتبعت من المؤمنين . . فالله ! الله يا أبا الحسن ، اكتساب الحسانات ، وإنكار المنكرات ،  
بغير تجاوز منك إلى غير واجب أوجه الله في الجِدِّ والتشمير ، وترك التهاون والتقصير» .  
ولا يطرُد السجع دائماً في عهد ناصر بن مرشد . وحتى في العهد الواحد يستعمله حيناً  
وحيناً لا يستعمله . ويغلب في سجعه وسجع غيره من الأئمة الإباضية أن لا يكون  
متكلفاً ، وكذلك ألفاظهم لا يبدو فيها شيء من الرِيث في اختيارها إلا قليلاً ، وكأنهم  
يقبلون ما يقدر عليهم عضو الحاضر . وولى سلطان بن سيف (١٠٥٠ - ١٠٩١ هـ) ويفتح  
ولايته بعهد منه إلى جميع عماله يستله بهذا الصيغة (٢) :

«أحمد لله العزيز عزَّ أن تعوم في جور صفاته جوارى (سفن) الفكر ، وأن تروم تنظر  
كواكب تكفِّه بصائر أولى البصر ، أو أن تشاهده بمخارق العيان والنظر ، العالم بديب  
الجنة والذر . . الذي (لا يعزُّبُ عنه مثقالُ ذرة في السموات ولا في الأرض) ولا (في  
ظلمات البر والبحر) الجليل قدره عن مشاكلة صفات البشر ، أو أن يدرك الأشياء بالسمع  
والحبر . أو أن تحرى عليه أحداث القضاء والقدر . أحمدته على ما صبَّ برياض قلوبنا من  
سلسال العبر ، وحسن عنا من أوصاب الكدر . وأشكره على ما حولك من يانع نعمه وقدر ،  
وسقان من عصير كرم كرمه وعزَّ وتكبر . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة  
أعدّها جنة يوم المحشر ، يوم لا ملجأ لنا من الله ولا وِرر . . وأشهد أن محمداً عبده ورسوله

دعا إلى الله وأنذر ، وقاد الناس إلى الخيرات وبشّر ، ونصب أنموذج الهداية لمن خاف الله من ذات نفسه وفكره .

وأكبر الظن أن كاتب هذا العهد ليس سلطان بن سيف نفسه ، بل هو كاتب أديب من الإباضية كان يكتب بين يديه ، بل لقد كان أديباً عالماً ، فهو يصدر في أول العهد عن عقيدة الإباضية التي تحدثنا عنها في الفصل الأول وأنهم كانوا يؤمنون بما آمن به المعتزلة من نفي التجسيم عن الله بكل صورة من صورته وتزبيبه تزيهاً مطلقاً عن الشبه بالخلوقات وأن يلحق ذاته العلية كيف أو جهة أو أى صفة من صفات البشر . والكاتب أديب بارع ، فقد التزم في نحو صحيفة كبيرة صدر بها الرسالة قافية الرأه ، وطاوعته دون أى عسر أو التواء ، مما يدل على تملكه لناصية الكلام . وهو يعنى بالانتميق في عباراته ، إذ يضيف إليها وشى الجناس والتصاوير والاقْتباس من الذكر الحكيم ، على نحو ما يتضح في اقتباسه لقوله جلّ شأنه : ( لا يَعْزُبُ عَنْهُ مِثْقَالُ ذَرَّةٍ فِي السَّمَاوَاتِ وَلَا فِي الْأَرْضِ ) وقوله ( في ظلمات البر والبحر ) . وتكثر الاقتباسات والجناسات في العهد بعد تلك المقدمة . وقد ذكرنا في الفصل الأول أن سلطان بن سيف أهم سلاطين اليعربيين الإباضيين قبض على صولجان الحكم في دياره ومدينتا صُحار ومَسْقَط في أيدي البرتغاليين ، فطردهم كما مر بنا منها ومن سواحل بلاده شر طردة مستعينا في ذلك بأسطول ضخم حطم به أسطول البرتغال وسيطر به على الهند وشواطئها الغربية ، كما سيطر به على شواطئ إفريقيا الشرقية وتعقب أسطولهم في كل موقع ، وبيلو أن سفنا منه حاولت الإلغام باليمن ، فدمرها تدميراً . ونعجب أن يغضب من صنيعه أمير اليمن الزيدى إسماعيل بن القاسم ( ١٠٥٤ - ١٠٧٩ هـ ) ويعجب سلطان بن سيف أشد العجب ، ويتبادلان رسالتين ، في أولهما يقول سيف بن سلطان لصاحبه (١) :

«إنكم علينا عاتبون ، ومنا واجدون ، لأجل قطع جنودنا في العام الماضي رقاب المشركين على بابكم ، وأخذهم لسفنه الواردة لجنابكم . ولعمري إنا لتدري أن العتاب بين الأخلاء عنوان المودة الخالصة والصفاء ، وزائدٌ مَحْصُ المودة الصادقة والوفاء ، غير أنه يجب عند اقرار الجرائم ، وانتهاك المحارم . ونحن لم نقصد إلى انتهاك دارك سبيلاً ، ولا نجد لك على إلزامنا فعل ذلك دليلاً ، إذ كنا لم نجهز مراكبنا ، ونتخذ محالبتنا ، لمشاركة (لمخاصمة) رعيتك ، ولا لاستباحة دم أهل حُكْمِكَ وأقْصِيَتِكَ (أقائملك) ولكن جهزنا الجيوش والعساكر ، وأعددتنا اللهاذم والبواتر ، لتدمير عبدة الأوثان ، وأعداء الملك الديان

تعرضاً منا لرضا رب العالمين ، وإحياء لسنة نبيه الأمين ، ورغبة في إدراك أجر الصابرين  
المجاهدين . وحاشا لملك أن يغضب لقتال عبدة الأصنام ، وأعداء الله والإسلام ، ألسنت  
من سلالة علي بن أبي طالب ، الساقى المشركين وبسبىء المشارب ، وأنت تدرى ما جرى  
بيننا وإياهم من قبل في سواحل عُمان ، وفي سائر الأماكن والبلدان من سفك الدماء وكثرة  
الصُّيال ، وتناهب الأملاك والأموال ، وإنا لنأخذهم في كل موضع تحلّ به مراكبهم  
وتغشاه ، حتى من كنج وجيرون بتدري الشاه (ملك فارس) ولم يُظهر لنا من  
أجل ذلك عتاباً ولا نكيراً ، وإن كنت في شك من ذلك فاستلّ به خبيراً»  
وبذكر سيف بن سلطان لإسماعيل بن القاسم أنه ترك في تعقب البرتغاليين مدافع في  
ظفار التابعة له وأنه حرى أن يردها عليه . وتمتلئ قلوبنا أسى حين نقرأ رسالة إسماعيل بن  
القاسم التي ردّها علي سيف بن سلطان إذ بدلا من أن يطلب منه الصّفح عن كبوته وعثرته  
المردية ، ويرجع إليه مدافعه وأسلحته ، يُبرق له ويرعد ، ويتهدد ويتوعد ، إذ تمضى  
رسالته على هذه الشاكلة (١) .

«وصل كتابك الذي شحتته بالإبراق والإرعاد وعدلت به من تحسين العتاب ، إلى  
تحسين الخطاب ، ظنا منك أن هذيان وعيدك ، وطين ذباب تهديدك ، يزعرع من بأسنا  
صخرة صماء ، أو يحرك من وقارنا جبلاً شماء ، وكيف يكون ذلك :  
وأسيافنا في كل شرقٍ ومغربٍ بها من قراع الدارعين فلول  
أين ذهب حجاجك حتى طلبت منا المدافع . بهذه الأراجيف والفقاع ، وإنما تقطع  
أعناق الرجال المطامع . أما علمت أن الليث إذا هيج على فرسة كان أشد إقداماً ، وأعظم  
جرأة واعتراضاً ، لا جرم أنها لما نأت بنا ويك الديار ، وحالت دوننا ودونك الأمصار ،  
استرسلت في لفظك ، وجاوزت في سوء المقدار حدك ، وانفردت بأرضك . فطلبت  
الظعن والنزال وحدك :

يا سالكا بين الصوارم والقنا إني أشمُّ عليك رائحة الدّم  
فاقطع عُرى آمالك عن هذه المدافع ، فهي أول غنيمة - إن شاء الله - من قطرك  
الشاسع»

والكتاب حقاً محزن : إذ كان المنتظر أن يضع إسماعيل بن القاسم يده في يد سلطان بن  
سيف حين جاءه كتابه ، ويعود إليه صوابه ، ويعلن نصرته له ضد البرتغاليين الآتئين .  
وعلى العكس من ذلك مضى في غيّه يتوعد سلطان بن سيف بمعركة كمعركة النهروان التي

تعقب فيها على بن أبي طالب الخوارج ومزق جموعهم ، وكان حربيا أن يجيى فيه جهاده للبرتغاليين وبشد أزره . لا برد المدافع والأسلحة التي تركها في ظفار فحسب بل أيضا بإمداده بالأموال ، إن لم يستطع أن يمدد بالفرسان والرجال ! . والرسالتان تتخذان السجع قرارا لها ، فهو اللغة العامة للرسائل الديوانية مها شرقنا أو غربنا في الجزيرة العربية .

### ٣

#### رسائل شخصية

طبيعي أن نجد رسائل شخصية متنوعة لأدباء مكة والمدينة ، إذ كان يلهم بها كثير من العلماء والأدباء . وكانوا يتكاتبون ويتراسلون مع علماء البلدتين وأديابها ، وقد أثبتت كتب التراجم طائفة من رسائل القوم ، من ذلك رسالة كتب بها مفتى مكة الحنفي وأحد أعلامها العلماء في نهاية القرن العاشر ومطلع القرن الحادى عشر للهجرة الشيخ وجيه الدين عبد الرحمن بن عيسى العمري إلى أبي المواهب البكري مفتى الديار المصرية ، وذلك في سنة ١٠٢٢ وفيها تحدث عن مواقف مشرفة له حين حج في السنة المذكورة ، وهو يستهل رسالته على هذا النمط (١) .

«إن أشرف ما تتوج به المفارق والرءوس ، وأبهر ما تبتهج به المهارق والطروس ، وأبهى ما يُنظَّم في سلك السطور ، من الدرر الباهرة لدرر النحور ، وأنهى ما يُرقم (يكتب) في صكوك الصدور ، من العُر المصاحمية لآلئ البحور ، تحيات نُظمت بأنامل الإخلاص عقودها ، وتسلّيات رقت بطراز الاختصاص بُرودها ، تشفعها الأدعية التي على ألسن المقربين تُتلى . . صادرة من قلب منيب أواه ، ناظرة أن ليس في الوجود إلا الله ، فيها ملائكة الإجابة ، تحفها بالقبول والإنابة ، بأن يديم الله للعلم وأهله ، ويُبقي للفرع وأصله ، بقاء مولانا الأستاذ الأعظم ، والملاذ الأعصم . والجهيد القواد ، والكوكب النقاد ، والبحر الزخار . والنبث الزهّار ، عالم الإسلام على الحقيقة ، الجامع للشرعة والطريفة ، كشاف مشكلات العلوم ، حلال معضلات الفهوم :

عَلَامَةُ الْعُلَمَاءِ وَالْمُحِجُّ الَّذِي لَا يَنْتَهَى وَلِكُلِّ لُجِّ سَاحِلُ

الإمام العلامة . الهام الفهامة . شيخ الإسلام . ملجأ الأنام ، مفتى المسلمين ، صدر المدرسين ، الخبير التحرير ، إمام الفقه والتفسير . مفتى السلطنة الشريفة (بريد السلطنة

العثمانية ) بالقاهرة الزاهرة المنيفة . وإذا تساملنا ماذا قرأنا في الرسالة حتى الآن لاحظنا تورا أننا لم نقرأ لإسلاما وتحية ودعاء وثناء . وهذه المعاني البسيطة تتحول إلى ما يشبه حيطة تنشر عليه عبارات منمقة تستمد من مبالغات مفرطة ، صيغت في أسجاع تحفّ بها استعارات تلمع ، ولكنها سرعان ما تتلاشى دون أن تترك وراءها مضموناً واضحاً ، على شاكلة ما نقرأ للشيخ حنيف الدين المكي من رسالة كتب بها إلى صديق له في الطائف ردا على رسالة كان بعث بها إليه . وهو يمضي فيها على هذا النحو<sup>(١)</sup> :

« ما روضة غنّاء تدفقت أنهارها ، وما حديقة حسناء تصادحت أطيارها ، وما دوحَةٌ أمال أغصانها النسيم ، وما سرحَةٌ (شجرة) غرّدت بأفنانها الطير فأسجعت بصوتها الرخيم ، وما هيفاء قد برزت متألّمة بالجمال ، وطاعت بأفق الحسن كاهلال ، وما الخزامى والمندل (العود) الرطب ، وما العنبر والعبير إذا فاح وشبّ (سطع) . وما الدر المكنون في الصدف ، وما ساعات السرور المدومة من الصدف ، بأجل من كتاب ورد فبرّد بوروده غليل مشتاق ، وأنجبل بورده وعوده روائح الزرجس العفص وما يُنثر في الأطباق ، قد نظمت قلائد عقيانه أنامل مولى تسّم ذروة الجعد ، وأبرزته أفكار مخدوم حاز من الفضائل ما فاق به السعد ، تحتال في رياضه النضرة فرسان البلاغة فلا تلمح جواده ، وترشف حياضه العذبة أرياب الفصاحة والبراعة مقتفية آثاره كى لا تضل جادة الإصابة والإجادة ، قد هب من خلال سطوره نسيمة الرطب فأشنى العليل ، وجرى من بحر مشوره شهده العذب ، فبرّد اللوعة وأطفأ الغليل »

وهذه القطعة من الرسالة تحمل مبالغات مكررة واضحة ، وكأن ليس الغرض أن تؤدي الرسالة طائفة من المعاني ، إنما هي تؤدي طائفة من الألفاظ والأساليب المنمقة المسجوعة المليئة بالتكرار وبيان القدرة على جلب العبارات المحشوة بضرور الاستعارات والمجازات وألوان الجناس . وحاول الشيخ أن يظهر ثقته في صنع العبارة المسجوعة ، فأطالها في آخر هذه القطعة ، ولكن بعد أن جعلها تتوازن داخلها ، فكلمة «فرسان البلاغة» في عبارة يقابلها «أرياب الفصاحة والبراعة» في العبارة التالية ، وكذلك كلمة «نسيمة الرطب» في عبارة يتلوها في العبارة التالية «شهده العذب» وليس وراء ذلك كله إلا التكلف الشديد .

وإذا تركنا الحجاز إلى اليمن استقبلتنا فيه رسالة استعطاف بديعة للحسين بن علي بن القيم وجه بها إلى السلطان سبأ بن أحمد الصليحي (٤٨٦ - ٤٩١ هـ) يستعطفه ،

ولا ندرى بالضبط ما سبب هذا الاستعطاف وخاصة أنه كان - كما مر بنا في ترجمته بين الشعراء - القائم على ديوان الإنشاء للدولة وكاتب رسائلها . وتذكر المصادر أن أباه وضع يده في يد جيش بن نجاح حين استولى على زبيد من الدولة الصليحية . وربما حدث نبوة بينه وبين سبأ فألم بزبيد فأغضبه ذلك منه ، والرسالة تمضى على هذا النمط <sup>(١)</sup> :

« كتب عبدُ حضرة السلطان الأجلّ مولاي ربيع المُجدين ، وقرّيع المتأدين ، جلوة المتبس ، وجذوة المقتبس ، شهاب المجد الثاقب ، ونقيب ذوى الرشد والمناقب ، أطال الله بقاءه ، وأدام علوه وارتقاه ، ما قدّمت العارية للمستعير ، ولزمت الياء للتصغير ، وجعل رتبته في الأوليّة عالية المقام كحرف الاستفهام ، وكالمبتدأ إن تأخر في البنية ، فإنه مقدم في النية . ولا زالت حضرته من الحادثات جَمِي ، وللوفود مُزْدَحماً وملترماً ، حتى يكون في العلاء ، بمنزلة حرف الاستعلاء . ولا زال عدوه كالأنف ، حالها يختلف ، تسقط في صلة الكلام ، ولا سيما مع اللام ، فإنه - أدام الله علوه - أحسن إلى ابتداء ، ونشر على من فضله رداء ، أراد أن يخفى ، وكيف يخفى ؟ لأن من شرف الإحسان ، سقوط ذكره عن اللسان - كالمفعول رُفِعَ رُفِعَ الفاعل الكامل لما حُذِفَ من الكلام ذكرُ الفاعل - وأنا أهدي إليه سلاماً ما الروض ضاحكه النّوّض <sup>(٢)</sup> ، غُرس ، وحُرْمس ، وسُني ، ووُقي ، وغيب ، وصيب <sup>(٣)</sup> ، فأخذ من كل نَوْءٍ <sup>(٤)</sup> بنصيب ، زهاه الزّهر ، وسقاه النّهر ، جاور الأضا <sup>(٥)</sup> فحسُن وأضا ، رتّع فيه الشّحورور <sup>(٦)</sup> ، ومرّح العصفور ، فنظر إلى أقاحيه ، نفترّ في نواحيه ، وإلى البهار ، يضحك شمس النهار . فجعل يُلثِمُ من ورده خدوداً ، ويضم من أغصانه قدوداً ، ويقتبس النار ، من الجلتار <sup>(٧)</sup> ، ويلتمس العقيق من الشقيق <sup>(٨)</sup> فتثنى نَمِلاً ، وغنى خفيفاً ورَمَلاً ، بأطيب من نفحته المسكية ، وأعطر من رائحته الذكية ، وإني وإن أهديته في كل أوان ، من أداء ما يجب غير وان ، أعدت نفسي السكيت <sup>(٩)</sup> في السبق ، لتقصيري لما وجب على من الحق . »

وكل من يقرأ رسائل أبي العلاء المعري يحس بوضوح صلة هذه الرسالة بها ، ومرّ بنا في حديثنا عن شعره أنه كان يستوحيه في بعض أبياته ، ومعروف أن أبا العلاء كان يتصنع في

(١) معجم الأدياء ١٠ / ١٣٢ .

(٢) النّوض : مجرى الماء ، ويريد الماء نفسه .

(٣) غب : غاب بذره في الأرض . وصيب : أمطر .

(٤) النّوء : المطر .

(٥) الأضا : العذير .

(٦) الشحورور : طائر كالعصفور رحيم الصوت .

(٧) الجلتار : زهر الزمان .

(٨) الشقيق : ورد كبير أحمر .

(٩) السكيت : آخر خيل الحلبة .

رسائله تصنعاً واسعاً جلب مصطلحات العلوم اللغوية ، وهو أول من نهج بقوة هذه السبيل ومهدّها لمن جاءوا بعده <sup>(١)</sup> ، وتأثره فيها شرقاً وغرباً الكتاب ، وها هو ابن القم اللينى الذى يوشك أن يكون معاصراً له يتأثره فى هذا الأسلوب الجديد ، فإذا هو يدعو لسبيلين أحمد بدوام علوه وارتقائه دوام لزوم الياء عند الصرفين للتصغير ، ويدعو له بدوام تقدم رتبته على الأمراء والسلاطين من حوله كدوام تقدم حرف الاستفهام على جملة أو عبارته ، وكدوام تقدم المبتدأ على الخبر ، وحتى إن هو تأخر عنه كان متقدماً عليه فى النية . وإنه ليتمنى له أن يظل دائماً متسماً ذروة العلا ، مثله مثل حروف الاستعلاء عند أصحاب التجويد والقراءات وهى سبعة : ق ، ظ ، خ ، ص ، ض ، غ ، ط ، وهى دائماً تفخم فى النطق ، فلا يدخل عليها ترقيق . ويجعل عدوه كالألف ، حاله دائماً مختلفة ، إذ هى تأتى للوصل وللقطع ، ولا ينطق بها فى مثل الشمس والنور والصلاة .

ولا ريب فى أن ذلك تعقيد وتصنع شديد ، إذ لا يستطيع أن يفهم عبارات الرسالة إلا من عرف علوم الصرف والنحو والتجويد والقراءات . وظاهرة ثانية فى الرسالة اندفع فيها ابن القم وراء أبى العلا وإن لم يبعد إبعاده ، وهى ظاهرة التصنع للفظ الغريب ، فقد وشّأها به ، وكأنما أصبح غاية من غايات الكتاب البارعين أن يجلبوا الألفاظ الغريبة إلى رسائلهم ، حتى يثبتوا مهارتهم ، وهى مهارة لغوية خالصة . ونحمد لابن القم أنه لم يسرف فى هذه المهارة . والرسالة تصور براعة حقيقية فى استخدام السجع ، فقد كان يستطيع أن يأتى به قصيراً ، بل مفرطاً فى القصر ، حتى لتكون السجعة أحياناً كلمة واحدة . والجناس كثير فى العبارات ، من مثل قوله : «جَلْوَةُ الملتبس» و«جِدْوَةُ المقتبس» و«البهار» و«النهار» إلى غير ذلك من جناسات ناقصة تكتظ بها الرسالة ، وهو يفضى فيها مستعظفاً محاولاً بكل ما فى وسعه أن يستل الضغينة من صدر سبأ بمثل قوله :

«وأما حال عبده ، بعد فراقه فى الجلد ، فحال أم تسعة من الولد . ذكور ، كأنهم عقبان وصقور ، كَنُوا <sup>(٢)</sup> فى وُكُور ، اختَرِم <sup>(٣)</sup> منهم ثمانية ، وهى على التاسع حانية . نادى النذير ، العُربان فى البادية ، للعادية ، باللعادية <sup>(٤)</sup> ، فلما سمعت الداعى ، ورأت الخيل وهى سراع ، جعلت تنادى ولدها : الأناة ! الأناة ! وهو ينادى العُداة ! العُداة :

(١) انظر كتابنا الفن ومذاهبه فى النثر العربى (نشر دار

المعارف - الطبعة الثامنة) ص ٢٧٣ وما بعدها .

(٢) كَنُوا : استنروا وأقاموا .

(٣) اخترم : مات .

(٤) العادية الأولى : الداعية ، والثانية : الخيل .

بَطْلٌ كَانَ ثَابَهُ فِي سَرَّحِهِ يُبْحَذِي نَعَالَ السَّبْتِ لَيْسَ بِتَوْعَمٍ (١)  
 فحين رآه يجتال في غضون الزرد المصون (٢) أنشأت تقول :  
 نَشَدْتُ أَضْبَطًا يَمِينُ لُ بَيْنَ طَرَفَاهُ وَغَيْلٍ (٣)  
 لبأسه من نسيج داود كصخصاص يسيل (٤)  
 فعرض له في البداية أسد هضون ، كأن ذرعه ممد (٥) مضفور :  
 فَطَاعَنَا وَتَوَاقَفَتْ خِيَلَاهَا وَكَلَاهَا بَطْلُ اللِّقَاءِ مَقْنَعُ  
 فلما سمعت صباح الرعيل (٦) ، بررت من الخدر بصير قد عيل (٧) . فسألت عن  
 الواحد ، فقيل لها : لحده انلاحد :

فَكَرَّتْ تَبَغِيهِ فَصَادَفَتْهُ عَلَى دَمِهِ وَمَصْرَعَهُ السَّبَاعَا  
 عَيْشَ بِهِ فَلَمْ يَبْرُكْنَ إِلَّا أَدِيمًا قَدْ تَمَزَّقَ أَوْ كِرَاعًا (٨)  
 وما هذه الأم الشكلي بأشد من عندك تأسفاً ، ولا أعظم كمداً وتلفاً ، وإنه ليغف  
 نفسه دائماً ، ويقول لها لائماً : لَوْ فُطِنْتُ لَقَطِنْتُ (٩) وَلَوْ عَقَلْتُ لَمَا اتَّقَلْتُ ، وَلَوْ قَبِعْتُ  
 لَرَجَعْتُ ، وَمَا هَجَعْتُ :

يُقِيمُ الرِّجَالُ المَوْبِرُونَ بِأَرْضِهِمْ وَتَرْمِي التَّوَى بِالمَقْتَرِينَ المَرَامِيَا (١٠)  
 وما تركوا أوطانهم عن ملالة ولكن حذاراً من شتات الأعدايا  
 أيها السيد ! أمن العدل والإنصاف ، ومحاسن الشيم والأوصاف . إكرام المهان ،  
 وإذلال جواد الرهان ، يشيع في ساجورة كتب الزبلي ، ويسقب في حيسه أبو الشئلي (١١) :  
 إِذَا حَلَّ ذُو نَقْصٍ مَكَانَةً فَاضِلٍ وَأَمْسَجَ رَبُّ الجَاهِ غَيْرَ وَجِيهِ  
 وَإِنْ حَيَاةَ الحَرِّ غَيْرَ شَهِيَةٍ إِلَيْهِ وَضَعُمُ المَوْتِ غَيْرَ كَرِيهِ

(١) البيت لعمرة والسرح : شجرة طويلة بصف عليها  
 خصمه بالظولة والظول كأنه سرحه أو شجرة سافقة (٥) هصر : شديد . ذرع : طول . مند : حيل .  
 ويصفه بالترف إذ يتنقل بنعال السبت الحديدة ، كما يصفه (٦) الرعيل : القطعة من الحيل .  
 بالفرق إذ ليس ثوباً شريكه غيره في بطن أمه . (٧) عيل : مند .  
 (٢) غضون : ثيابا . ويريد بالورد المصون الدرع . (٨) الكراع : الساق .  
 (٣) الأضبط : العامل أو المقاتل يبيع به يساه . (٩) قصت : أفت .  
 وانظرناه : شجر . الغيل : القاء . (١٠) المقترون : أصحاب العيش الصبيح .  
 (١١) نصف درعه وأنه متين من نسيج داود ، ويشهون (١١) السحور : خشية صغيرة تعلق في عنق الكلب .  
 كثيراً الدروع وتنبأها بخديرات المياه حين هبوب الريح (١٢) يعجب : يحوج . الحيس : قيل الأمد

أقول لنفسي الدنيَّة هبِّي طال تومئذٍ ، واستيقظي لاعزِّ قومك ، أرضيتِ بالنعناء  
المزور (١) وقعتِ بالمواعيد الزور - بقظة فإنَّ الجِدَّ قد هَجَعَ ، ونَجَعَةٌ فمنَّ أجدب  
انتجع .

ويتشبه ابن القم في هذه القطعة بأبي العلاء من ناحية وبديع الزمان الهمداني من  
ناحية أخرى . أما تشبه بأبي العلاء أو محاكاته له فتتضح في الألفاظ الغريبة التي يحشدُها  
في نثره . وحتى الشعريري أن يختار أبياته من ذوات اللفظ الغريب ، على الأقل إلى حد  
ما . وكان بديع الزمان يزين رسائله بالأشعار ، وقد حاكاه في ذلك وفي تضمين رسائله  
بعض الحكايات القصصية . حين شبَّه نفسه وتحسره على ما فقده من قرب ساء وقيامه على  
ديوانه بأمر تسعة فقدت ثمانية منهم ، وبقى لها ولد واحد ، هو كل أملها في الحياة ، فإذا  
غارة على الحى . وركب ولدها فيمن ركبوا للدفاع والذود عن الحرم . وهي تصيح به من  
ورائه خائفة حزعة تريد أن ترده ، ويرأى لها في بطولته وبأسه وسلاحه ، وعبثاً تحاول  
ردَّه . ويلفاه من الأعداء فارس . بل أسد هصور ، وتدور عليه الدوائر . وتسمع صياح  
الخيال حين عودتها ، فتبرز من بيتها تسأل عن فلذة كبتها . وتعرف أنه سفك دمه ،  
فتخرج إلى العراء باحثة عنه ، وتجدُه أشلاء ممزقة . فيالتهول ويا للكارثة المفضة  
للمضاجع . ويقول إنه ليس أشدَّ أسفاً منها ولا كمدًا وتلهفا على فقده لعمله عند سبأ  
ولعطفه برعايته . ويلوم نفسه أن ترك العمل بديوانه بل إنه ليعاتب سبأ عتاباً رقيقاً ، كله  
لطف ، ملوِّحاً له بحقه عليه ، وأنه قَرَّب إليه واصطفى من هم دونه في المنزلة الأدبية ،  
وكانه يعرض عليه الصفح عنه والعفو . آملاً في العودة ، إلى سابق مكانه ، وإنه ليصرح  
بأنه أجدب ، وخلق به أن يتجع ، وأن يجد الوادى ممرعاً كعهده .

وإذا كنا قد وجدنا في اليمن كاتباً مبكراً يحاكي أبا العلاء وبديع الزمان في بعض  
رسائلها فإننا نجد في حضرموت كاتباً يحاكي الحريري لا في مقاماته ، ولكن في بعض  
رسائله ، وكان الحريري قد اشتهر برسالة سينية جميع كلماتها من ذوات السين كتبها على  
لسان بعض أصدقائه يعاتب فيها صديقاً أخلاً به في دعوة دعا غيره إليها . وعلى غرار هذه  
الرسالة كتب السيد عمر السقاف الحضرمي رسالة سينية طويلة تقتطف من مطلعها  
قوله (٢) :

« باسم السلام (٣) أستبدى ، وبأسعافه أستهدى ، وبأسمائه أستنجد ، ولنفتات سره

(١) المزور : القليل .

(٢) السلام : من أسماء الله .

(٣) تاريخ الشعراء الحضرميين ١٤ / ٣ .

أستشهد، وبإسبال ستره أستظل، وبإمدال أستاره أستقل... تقدرس سبحانه، وسما إحسانه، واستطال سلطانه، وأستعينه وأستنصره، وأستقبله وأستغفره، وأستعيذه من دسائس إبليس، وسائر التلايس، وسطوة النفوس، وسؤال المنحوس... وأسأله التيسير، وسكون الفردوس لا السعير، وأسلم سلاما مستمرا، يتلمس سيد السادات سني السيرة، حسن السريرة، المحرس بلسنه الملمسين، السالك سبيل أسلافه السائدين». وتمضي الرسالة في ألفاظ مبعدة في الغرابة، كي يدل الكاتب على مهارته، وهي ليست مهارة أدبية، ولكنها مهارة لغوية، وكانوا يعدونها زخرفاً وتميقاً، ونحس كأن الكلمات يَرض بعضها بجوار بعض في الرسالة، فهي صفوف سينية، أو هي صناديق سينية، نقرأ فيها سينيات، ولكن لا نقرأ أفكاراً ولا شعوراً، وقد كثر فيها الجنس كثرة مفرطة. وكل ذلك محاكاة للحريري ومحاولة للدنو من طريقته في رسالته السينية وبيان القدرة على جمع الكلمات ذوات السين، مع ما يطوى في ذلك من التصعب والتعقيد. ويقول من ترجموا له وكتبوا عن هذه الرسالة إنه كان لها دوى بعيد في الأوساط الأدبية الحضرية، إذ عدوها طريقة غريبة وظلوا يتداولونها طويلاً. على أن الكثرة من رسائل الأدباء الحضريين لم تكن تُقرب هذا الإغراب، بل كانت تكنى بالسجع، وقلما اصطنعت الألفاظ الغريبة الآيدة.

ونترك حضرموت إلى البحرين، ونلتقي في كتاب سلافة العصر ببعض رسائل أدباها، من ذلك رسالة كتب بها ابن أبي شابة البحراني إلى ابن معصوم صاحب الكتاب، ونحس فيها بالتكلف الشديد منذ فواتحها، يقول<sup>(١)</sup>:

«أنهى أبهى سلام، شدت بنغات السرور أطياره، وبدت على صفحات الدهور أنواره، وأصلح دعاء تعاضدت شرائط إجابته، وترادفت وسائط إصابته، وسمت مصاعد قبوله، ونمت فوائد فروعه وأصوله، وأنفس ثناء تُنيت بالوفاء وسائده ومسائده، وُئيت على الولاء قواعد ومقاعده، وخالص إخلاص حديث خلوصه قديم، وحظ خصوصه مستقيم، أخدم به... شمس سماء المحامد والفضائل، وغرة سماء الأماجد والأفاضل، دياجة صفحتي الشرف والفتوة، ونتيجة مقدمتي الولاية والنبوة، صاحب ذيول العز الشامخ، وصاحب أصول المحتد الباذخ، مربع الكرم والجود، ومرتع الآمال والمقصود، الذي نيطت أعمدة فضائل أحسابه الفائقة بسلاسل أنسابه السامقة، وأصبحت كعوب أعراقه في الكرم متناسقة، وشعوب أخلاقه في الهمم متوافقة».

(١) سلافة العصر ص ٥٠٦.

وتطرد الرسالة على هذه الصورة من الجناسات المتلاحقة ، وأكثرها يظهر فيه التصنع وأنه مجلوب لا لأداء معنى وإنما لأداء وشئ الجناس ، إن صح أن يسمى هذا وشيا ، وماهو يوشى ، بل هو ألفاظ مترابطة ، قد وضعت متقابلة فكل عبارة تقابلها أخرى بعدد ألفاظها ، والعدد ليس كافياً ، بل لابد أن تكون موازنة لها موازنة تامة ، فكلمة « شدت بنغمت السرور أطياره » توازنها كلمة « بدت على صفحات الدهور أنواره » وكلمة « تعاضدت شرائط إجابته » توازنها كلمة « ترادفت وسائط إصابته » وفي أثناء ذلك تُرصد الجناسات رصاً ، فالوسائد تليها المساند ، والقواعد تليها المقاعد ، وبلى ذلك خالص وإخلاص وخلوص وخصوص . وكلمة « شمس سماء المحامد والفضائل » توازنها كلمة « غرة سماء الأماجد والأفاضل » وكلمة « ديباجة صفحتي الشرف والفتوة » توازنها كلمة « نتيجة مقدمتي الولاية والنبوة » . وناهيك بقدرة الكاتب على استخدام المثنى في الكلمتين السالفتين واستخراج هذا التقسيم . ونحس وكأننا لسنا بإزاء عبارات طبيعية أو شبه طبيعية ، بل نحن بإزاء عبارات هندسية تقاس بالمسطرة والفرجار ، وقد حُشد الجناس بجمع صورته : جناس الاشتقاق والجناس الناقص ، وحُشد كثير من الاستعارات ، ولكنها متكلفة غاية التكلف على نحو ما يلاحظ في وسائد الثناء ومسائده وكعوب الأعراف وشعوب الأخلاق . وهذه الصورة التي يسودها التصنع كانت شائعة في البلاد العربية وخاصة في حقب هذا العصر المتأخرة .

## ٤

### مواعظ وخطب دينية

لا ريب في أن المواعظ كانت مزدهرة في مكة والمدينة طوال هذا العصر بحكم من كان فيها من الوعاظ الذين يخطبون الناس ، أو يلقون عليهم المحاضرات ، واعظين مذكرين بالتقوى والعمل الصالح والاستعداد لليوم الآخر ، فالناس كأنهم سقروا وقوفاً ، وكل منهم ينتظر أجله ، ولن ينفذ أحداً إلا ما قدمت يداه . وكان يفد على المدينتين المقدستين كثير من وعاظ العالم الإسلامي ، بل كاد أن لا يفوت واعظ منهم الإلام بالمدينتين أو على الأقل بمكة حتى يؤدي فريضة الحج ، وكان كثير منهم يجاور بها أو بالمدينة ، ويتحول واعظاً في الحرم المكي أو الحرم المدني . وكما كان الأدب العربي يثرى ويعنى لو أن الوعظ في المدينتين سُجِّل في الكتب وعُنى به من يحفظ عيونه . ولعله من الطبيعي أن نجد ابن ظفر الذي

مرّ بنا ذكره بين شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية يتحول بكتابه «سلوان المطاع في عدوان الأتباع» واعظاً . وعادة يذكر المعنى ثم يتنوه بموعظة مسجوعة ، تعقبها أحياناً أبيات حكيمة .

والمعنى الذى يلم به «سلوانة» أو سلوة ومن هنا جاء اسم الكتاب . وكثيراً ما تجرى سلواناته في شكل حكم ، كقوله في سلوانة التأسى : «التأسى جنة البلاء ، وسنة الشلاء . التأسى درج الاصطبار ، كما أن الجرع ذك الشبار (أهلك) . ومن قوله في سلوانة الرضا : من رضى ، حطى من ترك الاقتراح ، أفلح واستراح . كن بالرضا عاملاً قبل أن تكون له معمولاً . وسر إليه عادلاً وإلا صرت نحوه معدولاً» . والكتاب يفيض بالحكم الواعظة من مثل قوله : «ما أحرى الملول ، بأن يحرم المأمول . من لزم الرقاد ، حرم المراد . التشم في الدنيا يصاعف حسرة زيالها (مفارقتها) ويؤكد غصة اغتيالها . الهوى طاغية فمن ملكه ، أهلكه . الهوى كالنار إذا استحكمت أبقادها عسر إخمادها . الغريب ميت الأحياء قد أعاده اليين ، أنراً بعد عين» .

وتحول من الحجاز إلى اليمن ، وتلقانا فيها المواعظ في كل مكان وزمان ونجدها في الرسائل وفي الوصايا على شاكلة ما نقرأ في وصية المذكرة الحرة الصليحية أروى بنت أحمد ، وهي لا شك من عمل بعض الوعاظ ، وقد جاء في فواتحها<sup>(١)</sup> :

« لا إله إلا الله تعالى مبدع المبدعات ، وخالق المخلوقات ، جلّ وعلا أن تناله صفة ، أو تدركه معرفة ، الخلائق في قبضته ، والأشياء صادرة عن أمره وإرادته ، لا معقب لحكمه ، ولا رادّ لأمره ، إنه العدل الذى لا يجوز ، والحكم الذى لا يحيف ، والصادق الذى لا يخلف ، والعفو الذى لا يواخذ ، خالق السموات والأرضين ، وإله الأولين والآخرين ، ذو الأسماء الحسنى ، والكلمات التامة صدقاً وعدلاً . له ملائكة انتخبهم من بريته ، وانتخبهم للسفارة بينه وبين المصطفين من أمته (يسبحون الليل والنهار لا يفترون) ولا يسبقونه بالقول وهم بأمره يعملون يعلم ما بين أيديهم وما خلفهم ولا يشفعون إلا لمن ارتضى وهم من خشيته مشفقون) . وإن الجنة حق ، خلقها الله للمطيعين من بريته ، الخائفين من سطوته ، المؤمنين به ، الصادقين لوعده ، الموفين بعهده ، المتبعين لرسله ، العاملين بمقتضى آياته وكتبه . وإن النار حق أعدها الله لمن جحد أنبياءه ، وخالف أوليائه . . . وتمادى في غيّه وأسرف في أمره ، وأصرّ على كفره» .

وهذه الموعظة في مطلع الوصية كان وراءها مواعظ كثيرة ، لا في بيئة الدولة الصليحية

(١) الصليحيون والحركة الفاطمية في اليمن ص ٣٢٣ .

وحدها ، بل في بيئات كل الدول والإمارات التي كانت تعاصرها ، وأيضاً في الدول التي جاءت بعد ذلك ، ونقصد إمارة الزبيديين ودولتي الرسولين والظاهرين ، حتى إذا أصبح الصولحان في اليمن بيد الزبيديين ظل الوعظ مزدهراً . وكانت ترفده دائماً خطابة الجمعة في المساجد والجموع أسبوعياً ، كما كان يرفده المتصوفة ، ومن أشهرهم في عهد الرسولين أبو الغيث<sup>(١)</sup> بن جميل الملقب بـ شمس الشموس المتوفى سنة ٦٥١ للهجرة ، وسئل عن الصوفي من هو ؟ فقال : « هو من صفاسيرُه من الكدر ، واستلأ قلبه من العير ، وانقطع إلى الله عن البشر ، واستوى عنده الذهب والمدر<sup>(٢)</sup> » . ومن دعائه : « اللهم إني أسألك يا روح روح الروح ، وبالْبُ نُبُ اللبِّ ، وبِيا قَلْبُ قَلْبِ القَلْبِ ، هَبْ لِي قَلْباً أَعِيشَ بِهِ مَعَكَ ، فَقَدْ حَقَّقْتُ كُلَّ مَا هُوَ دُونَكَ لِأَجْلِكَ ، فَاجْعَلْنِي مِنْ شِئْتِ مِنْ هَذِهِ الْجَمَلَةِ » . وكان يعاصره أحمد بن عنوان الذي مر ذكره وله في الوعظ كتاب نَحَى فِيهِ مِنْحَى ابْنِ الْخَوْزَمِيِّ فَذَلِكَ يُقَالُ لَهُ جَوْزَى الْيَمَنِ وَهُوَ فِي التَّصَوُّفِ فُصُولٌ كَثِيرَةٌ<sup>(٣)</sup> ، وله أتباع من الدراويش المعروفين في اليمن بالمجازيب ، كانوا ينشرون هناك كلامه ومواعظه . ومر بنا في غير هذا الموضع حديث عن عبد الله بن أحمد الياضي نزيل مكة وشيخ الحرم بها وله شعر صوفي ومواعظ كثيرة . وصنف في الصوفية وتراجمهم - كما مر بنا - كتاباً سماه « روضي الرباحين وحكايات الصالحين » .

وكان الوعظ مزدهراً في حضرموت ، إذ اشتهر فيها صوفيون كثيرون بمواعظهم ، غير من كانوا يعطون الناس وراءهم في المساجد وفي خطابة الجمع ، ومن أشهر متصوفها أبو بكر العيدروس ، ومر بنا ذكره وبعض أشعاره الصوفية في حديثنا عن شعراء الزهد والتصوف والمدائح النبوية ، وله نثر صوفي ووعظ كثير ، ومن قوله في الفرق بين الشريعة والحقيقة<sup>(٤)</sup> :

« الحمد لله وهو الخاعد لنفسه والمحمود ، ومنه البعث القصد القاصدين وهو المقصود . خلق لمبده إرادة بإرادته وأبنته ، حتى أقام عليه حجته ، وبإبنته له قام عليه أمره ونبيه وجازاه ، على مقتضى سعيه فناداه : (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) وتارة أقام نفسه وأخفاه ، فقال : (وما تشاءون إلا أن يشاء الله) فحصنت الحيرة ، وعصيت الأبصار والبصيرة . فوفق من شاء من عباده للوقوف عند مكثرون علمه ، فوقف مع الشريعة بحسبه ومع الحقيقة بقلبه ، فالعلم المتحلي على الجسم علم ظاهر ، وهو علم

(٣) المعجم اللغوي ١٠٠ / ١٠٠

(١) المعجم اللغوي ١٠٠ / ١٠٠

(٤) تاريخ شعراء الحضرميين ١١٨ / ١١٨

(٢) الدرر القليلة من الطب

الشريعة ، والعلم المتجلى على القلب علم باطن ، وهو علم الحقيقة . فأقام ظاهر الإسلام على أركان ، القائم بها جوارح الأبدان ، وأقام حقيقة الإيمان والإحسان على يقين وبيان ، القائم بها صميم الجنان ، ولكن لما خفي عن الأسماع الحسية ما بالقلب جعل له ترجان وهو اللسان ، فارتبطت الشريعة بالحقيقة ، والحقيقة بالشريعة .

وأبو بكر العيدروس يشير في أول كلمته إلى الخلاف بين الجبرية القائلين بأن كل شيء قدر مقدور ولا مفر منه ، ولا حول ولا قوة للإنسان إزاءه ، وبين القدرية القائلين بأن كل عمل للإنسان إنما هو بإرادته وحرية وأن كل شيء إنما هو بمشيئته . ويقول إنها جميعاً حائران ، ويضع فوقهما أهل الحقيقة من الصوفية القائمين بأداء فرائض الإسلام وأحكامه ويسمى ذلك عمل الجوارح ، ويقول إنهم يجمعون بين هذا العمل وعمل القلوب وصدق شعورها الباطن الذي لا ينضب معينه إذ يستمد من المحبة الإلهية وروحيتها الصافي . وتصفوه بذلك تصوف سني كتصوف الغزالي وأضرابه ، ممن يقيمون تصوفهم على الجمع بين علم الشريعة الظاهر وعلم الحقيقة الباطن .

وطبيعي أن يكثر الوعظ في خطابة الخوارج الإباضية بعمان ، وقد وقف الجاحظ في كتاب البيان والتبيين مراراً عند خطابة الخوارج من جميع فرقهم ، ونوّه بين الإباضية خاصة بخطابة أبي حمزة قائد عبد الله بن يحيى الكندي ، وروى بعض خطبه ، وهي تمتاز بألفاظها الطلية ومعانيها القوية . ولا شك في أنه ظلت شعاعات من خطابته وخطابة عبد الله بن يحيى وعبد الله بن إياض تدور في ألسنة خطباء الإباضيين بعدهم ، وتلقانا خطبة جمعة متأخرة في عصر إمامهم ناصر بن مرشد (١٠٢٤ - ١٠٥٠ هـ) وهي تلمح على هذا النمط<sup>(١)</sup> :

بسم الله الرحمن الرحيم . الحمد لله الذي هدم بالموت مشيد الأعمار ، وحكم بالفناء على أهل هذه الدار ، وجعلهم أغراضاً لسهام الأقدار ، ووكل بهم أمراضاً تزعجهم عن القرار ، وتجري منهم مجرى الدماء في الأبخار ، لا يعتصم منهم معتصم بالحذار ، ولا يختص بها الفقراء دون ذوى اليسار ، بل هي آيات عدلٍ عدل الله بها في البادين والحُصَّار ، أحمده على نعمه المُسبِّلة النِّزار ، وأعوذ به من العتوِّ والاستكبار ، وأستغفره للذنوب والأوزار ، من الكبائر والإصرار . وأشهد أن لا إله إلا الله وحده لا شريك له شهادة منجية من عذاب النار، مبرّئة من شهد بها دار القرار، وأشهد أن عمداً عبده ورسوله المختار ، أرسله بأيمين شعار ، وأبين فخار ، وأنور منار ، وأظهر إعلان وإسرار ، وأظهر

(١) نعمة الأعيان بسيرة أهل عمان ٣٦/٢ .

برهان وإنذار ، من صميم العرب في النضار<sup>(١)</sup> ، وأكرمها في الفخار ، مؤيدا بالمهاجرين والأنصار ، منصوراً بالملائكة الأبرار ، وعلى آله الأقطار ، آناء الليل وأطراف النهار : أيها الناس ! إن قوارع الأيام خاطبة فهل أذن لعظتها واعية ، وإن فجائع الأحكام صائبة فهل نفس لعجائبها مراعية ، وإن مطامع الآمال كاذبة فهل همة إلى التزهد عنها داعية ، وإن طوابع الآجال واجبة فهل قَدَمٌ إلى التزود من الدنيا ساعية .

وتستمر الخطبة في الوعظ بالموت وأنه لا ينجو منه الآباء الكبار ولا الأبناء الصغار بل الجميع يترت أعمارهم الدهور الغواير ، وابتلعهم الحفر والمقابر . ومثل السلف الخلف ، فهم دائماً هدف للتلطف . عظة ينبغي أن يتعظ بها العاقل ، فينفق ساعاته في التقوى والعمل الصالح . وتعود الخطبة إلى الصلاة على الرسول ﷺ وعلى آله قائلة : « اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد ما ذرَّ شارق<sup>(٢)</sup> ، وأومض بارق ، وفاه ناطق ، اللهم صلِّ على محمد وعلى آل محمد بعدد أنفاس الخلائق ، وبعدد ما في السموات السبع الطرائق ، وبعدد ما خلقت وما أنت خالق » . ثم تستزل الخطبة الرضوان على صاحب الرسول في الغار ورفيقه في الأسفار ، معدن الجود والفخار ، وسيد المهاجرين والأنصار . أول ساع إلى شرف التصديق ، أبي بكر الصديق ، وأيضا على جميع المؤمنين من الأولين والآخرين . والخطبة مبنية على السجع ، وليس ذلك فحسب ، فإن منشئها تكلف في الأسجاع الأولى أن يلتزم فيها الرأء دلالة على مقدرته البلاغية ، حتى إذا انتهى من التحميد والشهادة والتمجيد لله ولرسوله وأخذ في الوعظ بنى قوافي أسجاعه على الألف والعين والتاء ، فواعية تليها مراعية وداعية وساعية ، ورأى أن يضيف إلى ذلك قافية داخلية في العبارات أو السجعات ، فكلمة خاطبة في السجعة بأعلى هذه الصفحة تقابلها في السجعات التالية كلمات صائبة وكاذبة وواجبة ، فكأن السجعات المتوالية لا تتوازن خارجياً في القوافي النهائية فحسب ، بل تتوازن أيضاً داخلياً ، إذ تتقابل فيها قواف تتوسط العبارات ، وكأن كل قافية متوسطة تطلب قرينتها في العبارة أو العبارات التالية .

وإذا كانت المصادر لم تسعفنا بمواعظ أو خطب دينية في البحرين فإنه مما لا شك فيه أنه دُبجت هناك خطب ومواعظ كثيرة شأن البحرين في ذلك شأن نجد وشأن جميع البلاد العربية في الجزيرة ووراء الجزيرة إذ كان الوعظ دائماً قائماً ، كما كانت الخطابة في المساجد يوم الجمعة قائمة لأنها جزء لا يتجزأ من الصلاة وكانت في جملتها مواعظ خالصة .

(١) النضار : الذهب والخالص من كل شيء . - (٢) الشارق : الشمس .

## محاورات ورسائل فكاهية ومقامات

تلقانا في الحقب المتأخرة من هذا العصر باليمن محاورات ورسائل فكاهية متنوعة ، من ذلك محاوره لعلي بن صالح بن أبي الرجال جعل تاريخها سنة ١٠٨٥ للهجرة بين مسجد المذهب والمدرسة المرادية <sup>(١)</sup> ، وكان المسجد قد بناه العمانيون قبل مغادرتهم الأولى لليمن سنة ١٠٤٥ وأصبح في حال رثة فلا فراش ولا سراج ، فشكا حاله لمسجد جناح ، فأشار عليه من باب النصيحة ، لما بينهما من المودة الصحيحة ، أن يتزوج بمدرسة من مدارس الأتراك ، إذ النساء مصابيح البيوت ، وفوض له مسجد المذهب اختيار المدرسة التي يراها كفوًّا له . وأشار عليه بإحدى مدرستين : البكرية فريدة العصر . أو المرادية خريدة القصر . وذهب معه إلى البكرية ، فلما عرض عليها مسجد جناح الأمر أعرضت مدَّة . وقالت له : اخرج يا جناح أنت والمذهب ، قبل أن تُصْفَع وتُضْرَب . وخرجا ، وجناح يتمثل بقول ذي الرمة :

على وجه مئى مسحة من ملاحه وتحت اثياب الخزي لو كان باديا  
ونهبضا إلى المدرسة المرادية ، وأفهمها جناح أن المذهب جاء معه لخطبتها ، وأنه نعم الرجل الصالح ، العاقل الراجح ، فقبلت واشترطت على المذهب مفرشتين (سجادتين) تستر بهما وتجمل ، وقديلاً تتنفع به ليلة تنأهل . ويمضى على بن صالح قائلاً :

« فقال المذهب : من هذا كنت أحاذر ، فلست على تحصيلها بقادر ، فالمقارش غالية ، وليس عندي غير بسطٍ بالية . فقال له جناح : أشهد أنك رجل وقاح . أما علمت أن المقارش كسوة أمثالها ، وأنه لا يخطر البساط بياها . وسأشير عليك بما يأسو جراحك ، ويريش جناحك ، فقال : سمعاً لأمرك ، وطوعاً لحكك . فأمرني بما تراه ، فإني لا أتعداه ، فقال : قد علمت أن البكرية طردتك ، وتهددتك بالضرب وتوعَّدتك ، فإذا كان جُنْح الظلام ، وقد هجع النّوَام ، انسلت انسلال الحائف الذليل ، وأخذت منها مفرشتين وقديلاً <sup>(٢)</sup> فقال : قد أشرت بما في النفس ، فإني مُهَمِّمٌ به من أمس . فلما نشر الظلام ثيابه ، ومدَّ على الأنام جلبابه ، خرج من محله وانسل ، وسقط عليها سقوط الطلِّ ، فأخذ المفرشتين والقديلاً ، وعاد إلى منزله فرحاً بالتحصيل ، ولما أسفر نسوء

(١) نشر العرف لنلاء اليمن بعد الألف لابن زبارة (٢) الكلمة منصوبة وترك نصبها لتسجع .

الصباح أشار إلى مسجد جناح ، بأن المطلوب قد حصل ، فانهضْ بنا لتمام العمل . فحملا إلى المرادية ما اشترطته . . .

وتخصي المحاورة ، فتذكر أن بعض الدواوين المجاورة للمدرسة المرادية توصل إليها بماله من حق الجوار أن يحمل مسجد المذهب أنه مفرشةً وقنديلاً . يقول علي بن صالح : « فقال له جناح : عاودُ ذلك الخُل ، فلعلك تظفر بالأمل . وقد كانت البكيرية جمعت من حولها من المساجد القريبة : وظلت منها الرأى في دفع هذه المصيبة ، فأجمع رأى المساجد والمدارس ، على أن يستأجروا لها حارس<sup>(١)</sup> فقالت : على تحصيل الأجرة ، وعليكم تحصيل رجل من أهل الخبرة ، فاختروا لها مسجد عقيل ، وقالوا لها : هذا نعم الحارس والتزليل . فلما حنَّ الظلام وهجع النوام ، أقبل مسجد المذهب ، وهو خائف يتربَّب . فخرج عقيل ومن حوله من المساجد ، وحملا عليه حملة رجل واحد ، فهرب من بينهم وفرَّ ، فلما تعد في مجلسه ولا استقر ، حتى وصلت إليه المساجد على الأثر وهتف بها أن عقيلاً ومن معه يغربون عليه ، فأقبلوا يهرعون إليه ، واشتد بينه وبين المساجد الخصام وكثر الكلام والزحام ، فقال : اعلموا يا جيرانى . أتى راقد بمكاني ، فأتت المساجد في جح الدياجى . تريد<sup>(٢)</sup> تسرق بساطى وسراجى ، فأعينونى على الحق ، وأدركونى ولما أمزق ، فرجع كل مسجد إلى مكانه . واجتمعت المساجد عند البكيرية في الليلة الثانية ، ليتفاوضوا في دفع هذه الداهية ، فأجمعوا على أن يحفروا للمذهب حفرة في أرض ، بقدر طولها والعرض ، وأن يربطوا الشباك إلى جانب المثذنة والشباك . فسكت عنهم أيام<sup>(٣)</sup> ، ثم أقبل على حين غفلة من الأنام . . . فوقع في تلك الشباك ، وكاد أن يشرف على الهلاك » .

ويمضى علي بن صالح في المحاورة ذاكرا أن المساجد تجمعت من حوله ، وكل منها يشكو حاله وكيف أنه صابر على ما صار إليه من الشدة ، منتظرا انقضاء المدة ، وأخذت المساجد تضربه وتركه ، وافدة عليه رعيلا في إثر رعييل ، وهو بينهم كالأسير ، قد غلبه البكاء والزفير . وبعد محاورات ومداورات يحن عليه مسجد الإمام ويرق لشكواه ، ويدعو له المدرسة المرادية في الحال . وأقبلت تبختر في ثيابها تائهة على أترابها . ويهجم عليها في غير حياء . فتغضب المساجد ، وتقدمه إلى الجامع الكبير ليعظه . ويعزم على الرحيل ، ويأسى مسجد الإمام له . لافتتانه بالمرادية ويطلب إلى مساجد الأبرز وطلحة والأبهر أن تتوسط له

(١) ترك النصب للسمع .

(١) لم ينصب كلمة حارس للسمع .

(٢) حذف أن بين الفعلين كما تحذفها العامة .

لدى المرادية ، فنهضوا إليها . وعرضوا الكلام عليها ، فرفعت النقاب ، وقالت : ما أشار به مسجد الإمام فهو الصواب ، وتقول : « على أن ما عند المذهب من الغرام إلا بعض ما عندي ، وكاد الهوى أن يخرجني عن جلدي . . وإني كنت لا أصلح لمثله ، ولم أكن قد تزوجت من قبله ، فقد أردت معرفة هذا الأمر ومعرفة الشيء خير من جهله ، واشهدوا بأني قد وكلت مسجد الإمام ، يعقد لي بالمذهب ، قبل أن يتبع هواه أو يترهب . . وعقد لها مسجد الإمام بعد ما سمع شهادة الحاضرين وقال : بالرفاء والبنين . »

والحوارة طريفة في فكاهتها خفيفة في ألفاظها وأسجاعها ، وهي تمتد إلى نحو اثني عشرة صحيفة ، ولها قيمة تاريخية . لأنها تصور ما أصاب مساجد صنعاء في عصر الكاتب من عدم العناية بفرشها ومصاييحها وتخصيصها أو طلائها بالجير وترميم جدرانها وما تأكل من حيطانها ، ولعلي بن محمد العنسي المترجم له بين الشعراء رسالة فكهة ، كتبها على إثر أمر للإمام الزيدي القاسم بن الحسين ( ١١٢٨ - ١١٣٩ هـ ) الملقب بالثوكل أمر به الفقيه الزهواني أن يعطيه عشرين قدحاً من الشعير ، وقد سماها : الروض الأثوواني في الشعير الزهواني . وكان قد أعطاه أربعة أقداح وأخذ يظله ويؤجله في البقية فكتب إلى القاسم بن الحسين متفكها<sup>(١)</sup> :

« مولاي حامى حمى الدين ، وحافظ بيضة المسلمين ، خلد الله إقباله ، وضاعف جلاله ، حوِّلت للمملوك بعشرين قدحاً على الفقيه الزهواني ، الذى لا تُقبضُ الحوالة منه إلا بالأمانى ، فسلم للمملوك منها أربعة أقداح شعير كان قدسها عنها خازن الإمام صلاح الدين فى ذلك العصر ، فتركها فى زاوية من زوايا القصر ، ثم مرَّت عليها الأعوام والدهور . . وغمرها التراب إلى كعب الشراك<sup>(٢)</sup> . لما استولت على اليمن علوج الأتراك . ثم لاحت أنوار الدولة القاسمية التى لبس الدهر بها شبابها ، وزان جبينه بأشرف عصابه . وقد صار ذلك الشعير دفيناً تحت ترابه . وقد ذهب ثبُّه لطول المدة فلم يبق غير إهابه . ثم تعاقبت على المخزن أيدي الحزان ولكنهم لم يبلغوا فى التحرى والتفتيش ما بلغه هذا الرجل النصيح ، ذو الطبع المرضى والخلق الشحيح ، فإنه لفرط الأمانة لم يترك التلفت على الزوايا ، ولا أهمل المثل السائر : كم فى الزوايا من الحبايا ، فعثر فى بعض لفتاته على تلك الزاوية التى اشتد ظلامها ، وخفيت أعلامها ، فرأى شيئاً مجموعاً ، وتلاً مرفوعاً . . فلاح له منه شعيرة بغير شعوره ، أسرف لأجلها فى حُبوره ، وتصحيف سروره<sup>(٣)</sup> ، فأمر بإثارة ذلك الكثر

(٣) تصحيف سروره : يقصد سروره .

(١) نشر العرف ٢ / ٢٩٥ .

(٢) الشراك : الحفاء .

المدفون ، والدفين المخزون . ثم عَيْر<sup>(١)</sup> ، فحصل منه أربعة أقذاح ، فجاءت وفق الاقتراح ، واتفق لسوء الحظ حضور الرسول الغرير<sup>(٢)</sup> ، حال بُعث من مرقدته ذلك الشعر ، فكيل له في الغرائر<sup>(٣)</sup> على غرّة ، وقيل له : خُذها ، واحذر العود بعد هذه المرة .

والفكاهة واضحة في الرسالة ، وهي تلسع ولا تجرح ولا تدمي ، فكاهة تحمل حيناً دعابة وحيناً سخرية خفيفة ، دون أن تؤذي ، وقد أنهاها بقطعة شعرية بديعة . وكانوا يُلبسون أحياناً الفكاهة ثياب قضية طريفة كأن نجد يحيى بن إبراهيم الجحّاف يسوق سؤالاً<sup>(٤)</sup> عن صديق عاهده على التعاون ، وخاصة حين تبسم له هو الدنيا ، وتبسم في وجه صديقه ، فإنه حينئذ يمد له يد العون ولا يتركه لمجن الدهر تعصف به ، غير أن هذا الصديق لم يف بعهده . وإنه لسأل علماء العدل وقضاة الإحسان وحكام الإنصاف ومشايخ المروءة ما يقولون في صديقين تغدياً بلبان المحبة واستظلاً بظلال الصداقة جمعتهما أخوة الأدب التي هي أوثق من أخوة النسب ، وأقبلت الدنيا على أحدهما وأدبرت عن صاحبه ، فتاساه وأهمله ، فاحكمه ؟ يقول : « فهبت لأحدهما ريح الإقبال ، ولعت له لمعة سعد ، وأمطرته سحابة خير . . . وبقي الثاني في ظل العفو وروض العافية . . . يسبح من حسن الظن في غير ماء ، ويطير مع طول الأمل بغير جناح . . . إن التفت يمنة وجد محنة . أو نظريسة رأى حسرة ، أو حاول به اللحاق . احتاج إلى البراق . وقد كان يقسم بالله الذي وسعت العباد رحمته ، وشملتهم نعمته أنه إذا أثبت له الوسادة ، ولاحظته عين السعادة ، وخرج من زاوية الخمول ، وطلع نجمه بعد الأقول . . . ليبلغته من الحيرت ما لا قلبٌ فكّر فيه ، ولا لسان نطق به ، ولا جارحة تكلفته ولا عين رأته ولا أذن سمعته ، ولا خطر على قلب بشر قط . فافتونا مأجورين مثابين إن شاء الله تعالى : ما الذي يجب في شريعة المودة ، ويسنُّ في دين الفتوة ، ويؤذّب في ملة الوفاء ، ويباح في فقه العرف . . . وهل من توبة تعلمونها لهذا الصاحب . . . »

والقضية طريفة ، وهي قضية اجتماعية ، فكم من صديق تعاهد مع صديقه على البر والتعاون ، وخاصة حين يرزق السعادة ، فإنه لن يترك صديقه يعانى بؤس الحياة ومرارتها ،

(١) عَيْرٌ : كال من الكيل .

فيه الشعر ونحوه .

(٢) الغرير : الغر الذي لا تجرّبه له .

(٤) نشر العرف ٢ / ٨١٣ .

(٣) الغرائر : جمع غرارة ، وهي وعاء من الخيش يحمل

بل سيأخذ بيده . ويكون عند وعده له بالتكافل والتضامن - حتى إذا أقبلت الدنيا عليه لم يذكر صديقه ، وكأن لم يكن بينهما عهد ولا وعد ولا أخوة ولا مودة وثيقة .  
ونلقانا - من حين إلى حين - مقامات فكهة ولكن لا بالصورة التي تركها الجري  
وإنما بالصورة التي تطورت إليها فيما بعد من المآثرات بين الموضوعات المتقابلة كالصيف  
والشتاء . قصداً لبيان القدرة الأدبية ، وفي الجزء الرابع من نفحة الرخااة مقامة طريفة  
للسيد محمد بن حيدر على لسان القفر والغنى جعل فيها القفر يتفوق على الغنى في العلم  
وتحصيله .